

بلاد الشام

قبيل الغزو المغولي

٥٨٩ - ٦٥٧هـ/١١٩٣ - ١٢٥٩م

تأليف

الدكتور علي محمد علي عوده الغامدي

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ الإسلامي
بجامعة أم القرى - مكة المكرمة

مكتبة الطالب الجامعي
مكة المكرمة - العزيزية

بلاد الشام قبيل الغزو المغولي

٥٨٩ - ٦٥٧ هـ./ ١١٩٣ - ١٢٥٩م.

تأليف

الدكتور علي محمد علي عوده الغامدي

استاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ الاسلامي
بجامعة أم القرى
مكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

مكتبة الطالب الجامعي
مكة المكرمة - العزيزية

٩٥٣,٠٧٣
غ ع ب

الغامدي ، د . علي محمد علي عوده

بلاد الشام قبيل الغزو المغولي

مكتبة الطالب الجامعي
مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية
الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م
٥٦٤ ص ، ٢٤ سم

الفهارس : ص
١ ـ تاريخ الدولة الإسلامية في الشام .
٢ ـ تاريخ الدولة الأيوبية :
٣ ـ تاريخ الصليبيين :
٤ ـ تاريخ المغول
أ ـ العنوان

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع | الصفحة

العلاقات الداخلية بين ملوك بني أيوب ونتائجها على النفوذ الأيوبي في بلاد الشام ٦١٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٩ م

موقف ملوك بني أيوب من الصليبيين في بلاد الشام ٦١٥ - ٦٥٦ هـ/ ١٢١٨ - ١٢٥٨ م

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

أهم مظاهر التطور الحضاري في بلاد الشام

مقـدّمة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبي الهدى، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فمن المعروف أن مما ساعد على نجاح المغول في غزواتهم للعالم الإسلامي أنهم وجدوا أمامهم أمة إسلامية مفككة، فقدت قوتها ووحدتها منذ زمن طويل ولم يقتصر الأمر على الانقسام فحسب، وإنما انغمس المسلمون في نزاع لا ينتهي بين بعضهم البعض وفي ذلك دليل على أنه قبيل الحوادث الكبرى في التاريخ تتلاحم وتتشابك وتتداخل الأوضاع السياسية وتضطرب وكأن هناك نوعاً من النذر والارهاصات بما تخبئه الأيام من مجيء غزوات جديدة من الشرق هي غزوات المغول. إذ شهدت بلاد الشام قبيل الغزو المغولي فترة بالغة الاضطراب، اشتد فيها الصراع والتطاحن بين الأيوبيين مما كان له أسوأ الأثر على الجبهة الاسلامية، بحيث تحول ميزان القوى في بلاد الشام لصالح الصليبيين وتحول المسلمون من موقف القوة والهجوم لاسترداد البلاد المغتصبة إلى موقف الدفاع عما بقي بحوزتهم من البلاد، فضلاً عن تحول تيار الحركة الصليبية نحو مصر بقصد الاستيلاء عليها باعتبارها مركز القوة الاسلامية. ودخول عناصر جديدة في الحياة السياسية في بلاد الشام مثل الخوارزمية والمماليك، وما ترتب على ذلك من زيادة الاضطراب والتناقض الذي تمخض في

النهاية عن سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك. كل ذلك دفعني لمعالجة هذا الموضوع وأرجو أن أكون قد وفقت فيه.

وقد اعتمد البحث على مصادر كثيرة ومتنوعة، من أهمها كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير. وهو أحد ثلاثة إخوة عرفوا جميعاًبالعلم والفضل. اشتهر الأكبر مجد الدين أبو السعادات بدراسة علوم القرآن والحديث والنحو، بينما اشتهر الاصغر ضياء الدين بالبحث في علوم الأدب والبلاغة - وهو الذي تولى وزارة الأفضل بن صلاح الدين -، أما الأخ الأوسط فهو المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠/ ١١٦٠ - ١٢٣٣ م) [١].

ألف ابن الأثير العديد من الكتب التاريخية، أفاد البحث من أهمها وهو كتاب (الكامل في التاريخ) . وابن الأثير مؤرخ أصيل، وصاحب فكر ناقد، ورؤية دقيقة فاحصة، ينظر للحوادث العظيمة نظرة عميقة ويربط بين جزئياتها وما يتصل بها من حوادث، فهو مثلاً حين تحدث عن الحملة الصليبية الخامسة وتهديدها بلاد الشام ومصر، ربط بين خطر الصليبيين هذا القادم من جهة الغرب وبين بدء الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر من جهة الشرق كخطرين جسيمين هددا العالم الاسلامي في وقت واحد[٢].

وتظهر حاسة ابن الأثير التاريخية عندما تحدث عن غزوات المغول، فعلى الرغم من أنه توفي سنة ٦٣٠ هـ فإن ما عاصره من غزوات المغول الأولى جعله يتنبأ بالمصير الرهيب الذي ينتظر العالم الاسلامي على أيدي المغول، فقال عندما تحدث عن بدء غزوات المغول - حوادث سنة ٦١٧ هـ: ((لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً

(١) سعيد عاشور: دراسة حول كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص٣٩٣؛ وانظر أيضاً، العريني: مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٤.
(٢) انظر، ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٧.

وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الاسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً. . .)) ثم يسرد غزوات المغول. كحادثة لا نظير لها في التاريخ[1].

وكتاب الكامل لابن الأثير هو تاريخ عام، ركز فيه مؤلفه على تاريخ العالم الاسلامي، وحاول فيه التوازن بين الأقاليم، فلم يدع أخبار إقليم تطغى على حوادث إقليم آخر، واعتمد في ذلك على المصادر الخاصة بكل قطر[2]. وعلى الرغم من أن ابن الأثير يسير في كتابه على طريقة الحوليات فانه كان يدرك عيوب هذه الطريقة ولهذا كثيراً ما تحاشى تلك العيوب، إذا رأى أن الحادثة الواحدة إذا قسمت على السنين سوف تختل، عندئذ يأتي بها متتابعة، والأمثلة على ذلك كثيرة، فهو - مثلاً - حين تحدث عن الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤ - ٦١٨ هـ أوردها كلها في حوادث سنة ٦١٤ هـ وقال: ((وسقناها سياقة متتابعة ليتلوا بعضها بعضاً))[3].

وترجع أهمية كتاب الكامل لابن الأثير لموضوع البحث إلى أن مؤلفه كان معاصراً لجزءكبير من الحقبة موضع الدراسة حتى سنة ٦٢٨ هـ حيث ينتهي تاريخه، وقد أفاد البحث من الكامل في دراسة الموقف في بلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ إذ تحدث بالتفصيل عن النزاع الذي دار بين أبناء صلاح الدين ودور عمّهم العادل في ذلك الصراع، غير أنه يجب التنبيه إلى عدم الاعتماد كلياً على ابن الأثير في هذه النقطة نظراً لأنه لم يشر إطلاقاً إلى الدور الذي لعبه أخوه ضياء الدين ابن الأثير خلال وزارته للأفضل حيث كان سبباً في ازدياد شقة الخلاف بين الأفضل واخوته[4]. كما أفاد البحث من كتاب ابن الأثير

---

(١) انظر ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٥٨ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١ المقدمة ص ٢ - ٥؛ العريني: مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٠.

(٤) انظر ما يلي ص: ٤٠ - ٤٣.

عند دراسة موضوعات: السلطان العادل وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد الشام والعلاقات بين ابناء السلطان العادل بعد موته، والموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل، والحملة الصليبية الخامسة وأثرها في تاريخ بلاد الشام. إضافة إلى العلاقات بين سلاجقة الروم والأيوبيين، وعلاقة بلاد الشام بمملكة أرمينية الصغرى وأثر غزوات المغول الأولى على الجزيرة وبلاد الشام[1].

ومن المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث كتاب(التاريخ المنصوري) لمؤلفه محمد بن نظيف الحموي المتوفي بعد سنة ٦٣١ هـ. وقد كان ابن نظيف الحموي كاتباً للملك الحافظ أرسلان شاه بن العادل صاحب قلعة جعبر، ثم عمل بعد ذلك في خدمة المنصور بن الملك المجاهد صاحب حمص، وصنف له كتاب (التاريخ المنصوري) وقدمه إليه. وهذا الكتاب عبارة عن ملخص لكتاب آخر كبير ألفه ابن نظيف يسمى (الكشف والبيان في حوادث الزمان) غير أنه مفقود مع الأسف[2]. والتاريخ المنصوري كتاب موجز لا نجد في قسمه الأول حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ أي جديد لأنه ينقل باختصار شديد عن مصادر متوفرة[3]. إلا أن أهميته تظهر منذ سنة ٥٨٩ هـ بعد وفاة صلاح الدين، حيث أصبح ابن نظيف شاهد عيان على ما ذكره، فأورد معلومات جديدة انفرد بها عن بقية المصادر. وقد أفاد البحث من تلك المعلومات وبخاصة أثناء الحديث عن العلاقات بين أبناء صلاح الدين، والعلاقات بين الأيوبيين في بلاد الشام وسلاجقة الروم حين تحالف الجانبان لصد خطر جلال الدين الخوارزمي، وغارات الأخير على الجزيرة واثر كل ذلك على الجبهة الاسلامية إزاء المغول. كما انفرد ابن نظيف بمعلومات جديدة عن غارات المغول الأولى على

---

(١) انظر ما يلي الصفحات: ٥٢ ـ ٦١، ١١٧ ـ ٢٣٤، ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤٢ ـ ٢٤٤، ٣٥٨، ٣٦٩.

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون جـ٢ ص ٢٥٥؛ وانظر أيضاً التاريخ المنصوري مقدمة المحقق ـ وقد قام أبو العيد دودو بتحقيق ونشر الجزء الأخير من التاريخ المنصوري. ٥٨٩ ـ ٦٣٠هـ، ط٠ دمشق ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م٠

(٣) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص٢ حاشية رقم[1]،

الجزيرة، ووصول رسلهم إلى المجاهد صاحب حمص. وانفرد أيضاً بالقاء أضواء جديدة على علاقة الأيوبيين بالامبراطورية الرومانية المقدسة، اضافة إلى الحملة الصليبية الخامسة وموقف الخلافة العباسية منها، كما احتوى التاريخ المنصوري على معلومات هامة أفادت البحث عند دراسة مملكة حمص وعلاقتها بالممالك الأيوبية الأخرى في بلاد الشام[1].

ومن أهم المصادر لموضوع البحث كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) ومؤلفه أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي الملقب بسبط ابن الجوزي، المتوفي بدمشق سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م. وقد ولد سبط ابن الجوزي سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م في بغداد، ونشأ في كنف جده لأمه المؤرخ أبي الفرج بن الجوزي مؤلف كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم). ولما توفي أبو الفرج سنة ٥٩٧ هـ /١٢٠١ م رحل حفيده أبو المظفر إلى الموصل في طلب العلم، ثم غادرها إلى دمشق وهو ابن نيف وعشرين سنة. وظل يجد في طلب العلم حتى أصبح ((إماماً عالماً، فقيهاً واعظاً، وحيداً في الوعظ، علامة في التاريخ والسير))[2].

وكتاب مرآة الزمان من أشهر مؤلفات سبط ابن الجوزي قال عنه أبو المحاسن ابن تغري بردى، إنه ((في غاية التحرير والنقل عن الثقات ومن أرَّخ، بعده فقد تطفَّل عليه واغترف من بحره واحتاج، ولا سيما الذهبي والصفدي فإن معولهما في تاريخيهما على تاريخه))[3]. وقد أشار ابن تغري بردى إلى أن مرآة الزمان كان مصدره الأساسي لكتابه (النجوم الزاهرة) فقال: ((ونقلت منه في هذا ألكتاب معظم حوادثه))[4].

اتبع سبط ابن الجوزي في كتابه طريقة الحوليات. وتتفاوت قيمته التاريخية من عصر إلى عصر تبعاً لموارده، ففي أقسامه الأولى حتى القرن الرابع الهجري

---

(١) انظر ما يلي الصفحات: ٣٢٣ - ٣٢٨، ٣٦٥، ٣٧١ - ٣٧٣.

(٢) ابن تغري بردى: المنهل الصافي جـ ٨ ورقة ٤٤٢ أ.

(٣) المصدر نفسه والجزء والورقة.

(٤) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٩.

تقل أهمية كتاب مرآة الزمان نظراً لأن سبط ابن الجوزي نقل عن مصادر معروفة، ثم يعود الكتاب ويكتسي أهمية بالغة فريدة في نوعها، في بعض أخبار القرن الرابع ومعظم القرن الخامس، لكونه نقل عن مصادر مفقودة ومعاصرة لهذين القرنين. وفي حوادث القرن السادس تبدأ قيمة الكتاب في التضاؤل، لتوفر المصادر التي نقل عنها، وتعود للكتاب أهميته القيمة في أخبار النصف الأول من القرن السابع الهجري، وهي الفترة التي عاصرها سبط ابن الجوزي كشاهد عيان[1].

وترجع أهمية كتاب مرآة الزمان لموضوع البحث نظراً لأن سبط ابن الجوزي كان شاهد عيان لهذه الحقبة ـ موضع الدراسة ـ بل وشارك أحياناً في صنع التاريخ مثل الحملة الشعبية التي قادها من دمشق ضد الصليبيين سنة ٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م[2]. كما كانت صلاته قوية مع ملوك دمشق مثل المعظم والأشرف والصالح أيوب وغيرهم[3]، لذلك فإن ما أورده من أخبار عن هذه الحقبة، تعتبر جديدة ومفيدة وعنه نقل كثير من المؤرخين الذين أتوا بعده

وقد أفاد البحث من مرآة الزمان عند دراسة الموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل، والحملة الصليبية الخامسة واثرها على أحوال بلاد الشام، والدور الذي لعبه المعظم في التجسس على الصليبيين لمعرفة تحركاتهم، اضافة إلى العلاقات بين أبناء السلطان العادل، والحرب الأهلية، وكذلك عن حملة الامبراطور فردريك الثاني ودخوله إلى بيت المقدس وموقفه من المسلمين، كما أورد سبط ابن الجوزي معلومات جديدة وقيمة عن معركة غزة ضد الصليبيين سنة ٦٤٢ هـ[4]. وأفاد البحث من مرآة الزمان في دراسة الحياة

(١) علي عوده الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ص ١٤، شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٦١.

(٢) انظر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥.

(٣) انظر على سبيل المثال سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ الصفحات ٥٩٧، ٦٠٤، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٥٤، ٧٢٨.

(٤) انظر ما يلي الصفحات: ٢٣٥ ـ ٢٣٦، ٢٤١ ـ ٢٤٢.

العلمية في بلاد الشام ودور ملوك بني أيوب في تشجيع الحركة الفكرية حيث ترجم السبط لمشاهير العلماء في مختلف فروع العلم والمعرفة[1].

ومن المصادر المهمة لموضوع البحث والتي لا تقل في أهميتها عن كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ما كتبه المؤرخ كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، من بني جرادة العقيلي والمعروف بابن العديم وقد ولد سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م وتوفي سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م وهو من أسرة عريقة في حلب، اشتغلت بالعلم والفقة والقضاء والأدب والشعر على مدى قرنين من الزمان، وقد نشأ ابن العديم في حلب وتعلم في مدارسها على يد العديد من العلماء ورافق أباه في بعض رحلاته إلى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز، وجالس العلماء وأخذ عنهم[2].

كتب ابن العديم العديد من الكتب في التاريخ والأدب، أشهرها في التاريخ (بغية الطلب في تاريخ حلب) وكتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) وكلاهما من أهم المصادر لتاريخ بلاد الشام حتى النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وقد ألف ابن العديم بغية الطلب على طريقة التراجم، وترجم فيه لأعيان حلب، ولكل من دخلها واتصل بها من الأعيان والساسة والقادة والعلماء والفقهاء، والقضاة وغيرهم. وكان في نحو أربعين مجلداً، غير أن مما يؤسف له أن هذه الموسوعة الضخمة فقدت ولم يبق منها سوى عشر مجلدات فقط[3]. ولم يفد البحث إلا قليلاً من الأجزاء الباقية نظراً لأن

---

(١) انظر ما يلي ص: ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩٢، ٤١١ - ٤١٢، ٤١٦ - ٤١٧.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ١٦ ص ٥ - ٤٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٣٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢٠٨ - ٢٠٩؛ شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون جـ٢ ص ٢٦٣.

(٣) وصل إلينا من بغية الطلب عشر مجلدات بخط ابن العديم نفسه محفوظة في مكتبات استامبول، منها ثماني مجلدات في مكتبة أحمد الثالث برقم ٢٩٢٥، ومجلد واحد في مكتبة أيا صوفيا برقم ٣٠٣٦، ومجلد آخر في مكتبة فيض الله برقم ١٤٠٤.

أسماء رجال حلب وعلمائها خلال الفترة موضع الدراسة وقعت أكثرها في المجلدات المفقودة.

على أن الفائدة لموضوع البحث كانت من كتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) وهو الذي أستله ابن العديم من كتابه الكبير وجعله خاصاً بالحوادث السياسية لحلب على طريقة الحوليات حتى سنة ٦٤١ هـ[1]. وتعود أهمية الكتاب إلى أن ابن العديم كان معاصراً للحوادث موضوع الدراسة وقام بالعديد من السفارات بين مملكة حلب وغيرها من الممالك الأخرى[2]. وقد أفاد البحث كثيراً من زبدة الحلب ولا سيما عند دراسة الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين، ودراسة مملكة حلب وعلاقاتها بمملكة أرمينية الصغرى وسلاجقة الروم. وقد انفرد ابن العديم بالقاء أضواء جديدة على الموقف بين المسلمين والصليبيين في شمال الشام وبخاصة بين مملكة حلب وفرسان الداوية، وكذلك خلال الحديث عن خطر الخوارزمية ودخولهم لأول مرة إلى بلاد الشام وأثر غاراتهم على الأحوال الاقتصادية لشمال الشام ونتائج ذلك على بلاد الشام قبيل الغزو المغولي[3].

ومن أهم المصادر لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ الكبير ابن واصل، وهو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله ابن واصل المازني الحموي الشافعي ويعتبر من كبار مؤرخي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. ولد بعد مولد هذا القرن وتوفي قبيل نهايته بقليل (٦٠٤ ـ ٦٩٧هـ/١٢٠٨ ـ ١٢٩٨ م)، وقد نشأ بحماه وتلقى بها علومه الأولى ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب وبيت المقدس والكرك والقاهرة وبغداد ومكة والمدينة، ونبغ وصنف في علوم كثيرة، وأقام بمصر مدة طويلة، وعاصر الحملات الصليبية المتأخرة وسقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك

(١) قام سامي الدهان بتحقيق زبدة الحلب ونشره في دمشق سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥١ م.
(٢) انظر على سبيل المثال ابن العديم، زبدة الحلب جـ٣ص٢٣٣ ـ ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٧، ٢٤٨.
(٣) انظر ما يلي الصفحات: ٢٧٣ ـ ٢٧٤، ٣١٩ ـ ٣٢٣، ٣٢٦ ـ ٣٣٥، ٣٤٦ ـ ٣٤٨.

وغزوات التتار، وسقوط الخلافة العباسية، ثم اتصل بالظاهر بيبرس وأرسله سفيراً إلى منفرد بن فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة[1].

—ومن مؤلفات ابن واصل التي أفاد منها البحث كتاب (التاريخ الصالحي) وهو تاريخ عام على طريقة الحوليات منذ بدء الخليقة حتى سنة ٦٣٧هـ، كتبه ابن واصل في مجلد واحد وقدمه للسلطان الصالح أيوب بعد أن سماه باسمه[2]. واعتمد البحث عليه في دراسة الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م وأسباب النزاع الذي اندلع بين أبنائه، إذ ألقى التاريخ الصالحي أضواء جديدة على هذا الموضوع، وكذلك عند دراسة السلطان العادل وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد الشام. والحملة الصليبية الخامسة، والعلاقات بين أبناء السلطان العادل، كما ألقى التاريخ الصالحي أضواء جديدة على الحرب الأهلية التي اندلعت في بلاد الشام عقب موت الملك الأشرف بن العادل سنة ٦٣٥ هـ[3].

أما كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل فهو أهم مصادر البحث على الإطلاق، لأنه غطى فترة البحث بكاملها. ويعتبر هذا الكتاب المصدر الأول لدراسة تاريخ بني أيوب لما فيه من تفاصيل عنهم قلما توجد كاملة في كتاب آخر، وقد اعتمد عليه كل الذين أرخوا للدولة الايوبية بعده[4]. وخلال الفترة منذ وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ وحتى سنة ٦١٥ هـ اعتمد ابن واصل على مصادر مفقودة مثل تاريخ ابن القادسي، وهو مؤرخ عراقي عاش في أواخر القرن السادس الهجري وأدرك القرن السابع، وقد ذيل به على المنتظم لعبد الرحمن بن الجوزي،

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٤٩، السيوطي: بغية الوعاة جـ١ ص ١٠٨، ١٠٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ مقدمة المحقق ص ٤، جـ٤ ص ٢٤٨.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢ أب

(٣) انظر ما يلي الصفحات: ٤٠ - ٥٠، ٥٨ - ٦٠، ١٤٨ - ١٥٠.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ مقدمة المحقق ص ٦٠

ومعلوماته هامة جداً ولا سيما فيما يتعلق بتاريخ الخلافة العباسية، كما اعتمد ابن واصل خلال هذه الفترة التي اعقبت وفاة صلاح الدين على العماد الاصفهاني، حيث أرخ الأخير للسنوات السبع التي عاشها بعد صلاح الدين حتى سنة ٥٩٧ هـ، في ثلاث رسائل هي«العتبي والعقبي» و «نحلة الرحلة» و «خطفة البارق وعطفة الشارق». كما اعتمد ابن واصل على رسائل أخرى لضياء الدين ابن الأثير وزير الملك الأفضل بن صلاح الدين[١]. وقد نقل ابن واصل عن هذه الرسائل جميعها، بحيث أفادت البحث في علاج العلاقات بين أبناء السلطان صلاح الدين ودور عمهم العادل فيه. وبعد وفاة العماد الاصفهاني سنة ٥٩٧ هـ اعتمد ابن واصل كثيراً على ابن الأثير وابن العديم. غير أنه منذ سنة ٦٢٦ هـ بدأ يكتب كشاهد عيان، إذ هيأت له صلاته بملوك حماة، وصداقته للناصر داود ابن المعظم وبعض رجال الدولة الأيوبية، أن يطلع على الكثير من خبايا السياسة وأسباب الصراع الذي اندلع بين الأيوبيين، وقد أفاد البحث كثيراً من مفرج الكروب في معظم فصوله نظراً للمعلومات القيمة والجديدة التي أوردها ابن واصل [٢].

كما يعتبر كتاب (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) من مصادر البحث المهمة، ومؤلفه هو المؤرخ عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الأنصاري الحلبي[٣] (٦١٣ ـ ٦٨٤ هـ). الذي كان من خواص الناصر يوسف صاحب حلب،وكان سفيره إلى المغول. وبعد سقوط بلاد الشام بأيدي المغول رحل إلى مصر واستوطنها، وصار له مكانة لدى الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، وكان فاضلاً أديباً له العديد من المؤلفات التاريخية أهمها كتاب الأعلاق الخطيرة[٤]. جمع ابن شداد في كتابه بين التاريخ والجغرافية،

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص و ـ ز .

(٢) انظر ما يلي الصفحات: ١٣٥ ـ ١٨٣، ٢٢١ ـ ٢٨٥ .

(٣) هو غير بهاء الدين ابن شداد (٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ) مؤلف كتاب سيرة صلاح الدين المعروف باسم (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) انظر ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، تحقيق سامي الدهان، مقدمة المحقق جـ ٢ ص ١٣ ـ ١٤ .

(٤) ابن تغري بردى: المنهل الصافي جـ ٦ ورقة ٢١٠ أب.

وجعله ثلاثة أقسام: أحدها خاص بمسقط رأسه حلب، وخصص القسم الثاني لدمشق والاردن وفلسطين ولبنان، والثالث جعله لمنطقة الجزيرة، وتحدث عما فيها من معالم وآثار ومدارس ومساجد وخوانق وغيرها، ثم ألحق بكل قسم تاريخاً لتلك البلاد منذ بدء الفتح الاسلامي حتى عصره[1].

وقد أفاد البحث من كتاب الاعلاق الخطيرة عند دراسة مملكة حلب واثر الاقطاع الحربي الأيوبي على زيادة حدة الانقسام والتمزق السياسي في بلادالشام، كما أورد ابن شداد معلومات فريدة في نوعها فيما يتعلق بالصالح إسماعيل وتحالفه مع الصليبيين ورفض اتباعه الانصياع له بتسليم بعض الحصون للفرنج. وقد أمدنا ابن شداد بمعلومات بالغة الاهمية عن مدارس دمشق وحلب إضافة إلى الحالة الاقتصادية لحلب قبيل الغزو المغولي[2].

ومن مصادر البحث القيمة كتابات المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة (٥٩٩ ـ ٦٦٥ هـ/ ١٢٠٣ ـ ١٢٦٧ م) وهو من كبار الفقهاء والمحدثين، وكان متفوقاً في علوم النحو والعربية إضافة إلى مؤلفاته التاريخية القيمة [3].

وقد أفاد البحث من كتاب أبي شامة المسمى (الروضتين في اخبار الدولتين) وبخاصة الجزء الأخير منه، لأنه اعتمد فيه على بعض رسائل العماد الاصفهاني المفقودة، وقد ذيل أبو شامة على كتاب الروضتين بكتاب آخر هو (ذيل الروضتين) إذ تحدث فيه منذ سنة ٥٩٠ هـ وحتى وفاته سنة ٦٦٥ وأكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الذين عاشوا في بلاد الشام خلال تلك الحقبة وقد أفاد البحث كثيراً من ذيل الروضتين ولا سيما في دراسة الصراع الذي دار بين الأيوبيين حول السيطرة على دمشق عاصمة بلاد الشام، كما أمدنا بمعلومات قيمة

---

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ مقدمة المحقق ص ٢٦.

(٢) انظر ما يلي ص: ٢٧٦ ـ ٢٧٧، ٤٠٣ ـ ٤٠٩، ٤٤٩ ـ ٤٥٥.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١٦٥ ـ ١٦٧؛ شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٦٦.

عند دراسة الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي[1].

ومن المصادر المعاصرة لموضوع البحث كتاب (البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان)[2] وهو تاريخ موجز منسوب إلى العماد الأصفهاني، إذ جاء في آخر حوادث سنة ٥٩٣ هـ القول: ((إلى هنا انتهى ما ساقه الشيخ الامام العالم عماد الدين محمد بن محمد بن أحمد الاصفهاني المعروف بالكاتب من التاريخ المسمى بالبستان...))[3]. على أن ما يهمنا منه، هو ما بعد سنة ٥٩٣ هـ، حيث ذيل عليه في المخطوطة نفسها أحد الامراء ويدعى علم الدين سنجر المسروري الصالحي إلى سنة ٦٣٥ هـ[4]. ومن الواضح أنه كان معاصراً لهذه الفترة، ونقل أحياناً عن شهود عيان، إذ يقول ـ مثـلاً ـ في حوادث سنة ٦٣٥ هـ: ((ونشرع في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الأشرف معتمدين في ذلك على ما نقلناه من رسالة الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي الحنفي، فإني لم أكن حاضراً بدمشق يومئذٍ..)) ثم يسرد الحوادث نقلاً عن تلك الرسالة[5].

وقد أفاد البحث من البستان الجامع في دراسة العلاقات بين أبناء السلطان العادل، وبداية الحرب الأهلية في بلاد الشام عقب موت الأشرف، والموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل[6].

ومن مصادر البحث المعاصرة للفترة موضع الدراسة (التاريخ المظفري)[7] ومؤلفه القاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الحموي المعروف بابن أبي الدم (٥٨٣ ـ ٦٤٢ هـ/ ١١٨٧ ـ ١٢٤٤ م) وهو مؤرخ حموي

---

(١) انظر ما يلي ص: ١٣٣ ـ ١٣٤، ٤٠٥ ـ ٤٢٤.

(٢) وهو مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستامبول برقم ٢٩٥٩.

(٣) البستان الجامع ورقة ١٤١ أ.

(٤) آ الاصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٤١ أب.

(٥) المصدر نفسه ورقة ٢٠٤ أب.

(٦) انظر ما يلي ص: ١٤٨ ـ ١٥٥، ٢١١ ـ ٢٢٠.

(٧) وهو مخطوط اعتمد البحث على نسخة مكتبة خدابخش بتنة بالهند رقم ٣٨٦٩.

له العديد من المؤلفات التاريخية، منها التاريخ المظفري الذي الفه وسار فيه حتى حوادث سنة ٦٢٨ هـ، وأهداه لصاحب حماه الملك المظفر وجعله باسمه[١]. وقد أفاد البحث من التاريخ المظفري عند دراسة مملكة حماه، وحملة فردريك الثاني الصليبية، وتسلمه بيت المقدس من السلطان الكامل[٢].

ومن المصادر المهمة المعاصرة لموضوع البحث (جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء الاسلامية)[٣] ومؤلفه حسن بن إبراهيم ابن محمد اليافعي، وقد كان حياً سنة ٦٧٩ هـ حيث أشار في آخره إلى أنه كتبه للناصر قلاوون في تلك السنة[٤]. وكان معاصراً للفترة موضع الدراسة إذ جاء في حوادث سنة ٦٣١ هـ خلال حديثه عن حملة السلطان الكامل على بلاد سلاجقة الروم قوله: ((قال صاحب هذا التاريخ: كنت معهم في هذه السفرة...)) ثم يواصل حديثه عن الحملة[٥].

وقد أفاد البحث من جامع التواريخ المصرية عند دراسة العلاقات بين أبناء السلطان العادل وأثرها على أوضاع بلاد الشام والحرب الأهلية بين الأيوبيين ونتائجها، وموضوع الصالح أيوب واعادة الوحدة بين مصر والشام، وانهيار الأيوبّيين وقيام دولة المماليك، وموقف ملوك بني أيوب من الصليبيين، إضافة إلى العلاقات بين الأيوبيين وسلاجقة الروم وظهور خطر الخوارزمية[٦].

ومن كتب التراجم المعاصرة التي أفاد منها البحث كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ومؤلفه أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ/ ١٢١١ - ١٢٨٢ م)، وقد ترجم ابن خلكان للكثير

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١١٥ - ١١٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٣؛ شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٢) انظر ما يلي ص: ٤٠، ٩٤، ٩٩، ٢٩٥.

(٣) مخطوط المكتبة الاهلية بباريس رقم ١٥٤٣.

(٤) انظر اليافعي، جامع التواريخ المصرية آخر ورقة بالمخطوطة حوادث ٦٧٩ هـ.

(٥) المصدر نفسه ورقة ٥٥ أ.

(٦) انظر ما يلي ص: ١٢٨ - ١٤٥، ١٥٩ - ١٧٢، ١٨٣ - ١٨٤، ١٩٦ - ١٩٧، ١٨٦، ٣٢٨ - ٣٣٤.

من ملوك بني أيوب الذين لعبوا دوراً هاماً في الحياة السياسية والعلمية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي، إضافة إلى ترجمته للعديد من العلماء والأدباء الذين اسهموا في ازدهار الحياة الفكرية في بلاد الشام، وقد أفاد البحث كثيراً من تلك التراجم[1].

وأفاد البحث أيضاً من كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لمؤلفه موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الشهير بابن أبي اصيبعة (٦٠٠ - ٦٦٨ هـ/ ١٢٠٤ - ١٢٧٠ م) حيث ترجم للكثير من الأطباء الذين عاصروا الفترة موضع الدراسة، وقد أفاد البحث من تلك التراجم ولا سيما في دراسة الطب والصيدلة وعلوم الرياضيات والفلك[2].

كما أفاد البحث كثيراً من مؤلفات شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ - هـ/ ١٢٣٩ م ولا سيما كتابه (معجم البلدان) حيث كان المصدر الأول للتعريف بالبلدان والقلاع والقرى والحصون التي تناولها البحث، إضافة إلى أن ياقوت ضمَّن كتابه بعض المعلومات الهامة أفادت البحث في دراسة الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي[3].

وأفاد البحث من كتاب ياقوت الآخر (معجم الأدباء) وبخاصة في دراسة الحياة العلمية لأن ياقوت ترجم لبعض العلماء المشهورين الذين لعبوا دوراً هاماً في ازدهار الحياة العلمية في بلاد الشام خلال الفترة موضع الدراسة[4].

ومن أهم المصادر المتأخرة لموضوع البحث كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) ومؤلفه المؤرخ القدير أحمد بن علي المقريزي. وقد ولد المقريزي سنة ٧٦٦ هـ/ ١٣٦٤ م بحارة برجوان بمدينة القاهرة، وتوفي سنة

---

(١) انظر ما يلي ص: ٣٩٦ - ٣٩٨، ٤١٦ - ٤٢٤.
(٢) انظر ما يلي ص: ٤٣٨ - ٤٤٤.
(٣) انظر ما يلي ص: ٤٤٧ - ٤٤٨.
(٤) انظر ما يلي ص: ٤٠٠ - ٤٠٣.

٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م وهو بعلبكي الأصل، مصري المولد والمنشأ، وعرف باسم المقريزي نسبة إلى حارة المقارزة في مدينة بعلبك، وعكف على دراسة القرآن وعلوم الدين والتاريخ وغير ذلك. وتقلد المقريزي العديد من الوظائف، كان آخرها وظيفة الحسبة بالقاهرة. ويعتبر من فحول المؤرخين المسلمين وله مؤلفات تاريخية كثيرة، وتميزت كتابات المقريزي بالدقة في إيراد الحقائق والتخصص المتنوع، والاعتماد على مصادر ووثائق لا تزال أصولها مفقودة [١].

وقد أمدنا المقريزي بمعلومات مهمة وقيمة في كثير من الموضوعات السياسية التي تناولتها فصول الكتاب[٢].

ومن المصادر المتأخرة والمهمة جداً لموضوع البحث تاريخ ابن الفرات ومؤلفه ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي، الشهير بابن الفرات والمتوفي سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٣ م، وكان مغرماً بالتاريخ وألف فيه كتابه هذا في عشرين مجلداً حتى عصره[٣]. وترجع أهمية تاريخ ابن الفرات إلى أنه نقل عن مصادر معاصرة للفترة موضع الدراسة وبعضها مفقودة مثل كتاب الكشف والبيان لابن نظيف الحموي وقد أفاد البحث كثيراً من تاريخ ابن الفرات في أكثر موضوعات الكتاب[٤].

كما أفاد البحث كثيراً من كتابات الملك المؤيد إسماعيل بن الملك الأفضل صاحب حماه المتوفي سنة٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م، فقد ((كانت عنده كتب نفيسة حوتها خزانته))[٥]. وقد وفرت له تلك المكتبة مصادر قيمة بحيث ألف الكثير من الكتب يأتي في مقدمتها كتابه القيم (المختصر في أخبار البشر) وقد أفاد البحث

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع جـ٢ ص ٢١؛ انظر أيضاً، دراسات عن المقريزي، مجموعة أبحاث اشترك في اعدادها مصطفى زيادة وآخرون ص ٧ - ٨.

(٢) انظر على سبيل المثال ما يلي ص: ١٢٦ - ١٢٨، ٢٩٨.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب جـ٧ ص ٧٢.

(٤) انظر على سبيل المثال ما يلي ص: ٢٦٤ - ٢٧٣.

(٥) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر ورقة ١١٨ أ ب.

كثيراً من هذا الكتاب في أغلب الموضوعات السياسية التي تناولتها الدراسة[1]. كما أفاد البحث أيضاً من كتابه الآخر (تقويم البلدان) في التعريف ببعض البلدان وتحديد أماكنها. كما أخذ البحث بعض المعلومات عن كتاب ثالث موجز في التاريخ ومنسوب إلى أبي الفدا واسمه (التبر المسبوك في تواريخ الملوك)[2].

وفضلاً عن هذه المصادر التي ورد ذكرها فقد أفاد البحث من مصادر أخرى كثيرة مخطوطة ومطبوعة، وكذلك مراجع حديثة، وجميعها مثبتة في الحواشي.

ويحتوي البحث على مقدمة، وخمسة فصول. اقتصرت المقدمة على دراسة نقدية لأهم مصادر البحث. وناقش الفصل الأول الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين، وبيّن سبب انقسام بلاد الشام بعد موته، وبرهن الفصل على أن صلاح الدين لم يكن مسئولاً عن النزاع الذي اندلع بين الأيوبيين عقب موته، وبين أسباب ذلك النزاع ونتائجه، وألقى الفصل أضواء جديدة على دهاء الملك العادل، والذي استطاع في نهاية المطاف بسط نفوذه على الدولة الأيوبية في مصر والشام. كما تحدث الفصل الأول عن مملكة حلب، وبيّن أهمية موقعها وعلاقاتها مع القوى المجاورة لها، وسياسة ملكها الظاهر غازي، وكيف استطاع حماية مملكته رغم الأخطار التي أحاطت بها، وألقى الفصل الأول أضواء جديدة على أثر الاقطاع الحربي الأيوبي في زيادة حدة الانقسام والتمزق في بلاد الشام، حين حاول القادة المقطعون تأكيد استقلالهم في إقطاعاتهم.

وتناول الفصل الأول أيضاً مملكة حماه، والمنافسة بين الناصر قلج وبين أخيه المظفر على عرش المملكة. كما تحدث الفصل عن مملكة حمص وسياسة ملكها المجاهد شيركوه واصلاحاته داخل حدود مملكته. وتحدث الفصل كذلك عن مملكة دمشق زمن الملك المعظم وسياسته في توطيد الأمن والنظام داخل

---

(١) انظر على سبيل المثال ما يلي ص: ٨٨ ـ ٩٦.

(٢) التبر المسبوك مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٦ تاريخ.

حدود مملكته. وتعرض الفصل أخيراً لبقية الامارات الأيوبية الصغيرة كإمارة بعلبك وغيرها.

أما الفصل الثاني وعنوانه (العلاقات الداخلية بين ملوك بني ايوب ونتائجها على النفوذ الأيوبي في بلاد الشام) فقد تحدّث في البداية عن وفاة السلطان العادل سنة ٦١٥هـ والتي نتج عنها مؤامرة حاك خيوطها عماد الدين بن المشطوب بغية عزل السلطان الجديد الكامل بن العادل والسيطرة على مصر وأثر كل ذلك على بلاد الشام. وناقش الفصل الثاني العلاقات بين أبناء السلطان العادل وأثرها في بلاد الشام، إذ أنهم اتفقوا بعد وفاة والدهم الأمر الذي نتج عنه فشل الحملة الصليبية الخامسة، ثم ما لبثوا أن اختلفوا وتنازعوا حينما حاول المعظم السيطرة على بلاد الشام، فتحالف أخواه الكامل والأشرف ضده، فعمد المعظم إلى التحالف مع جلال الدين الخوارزمي، وما ترتب على كل ذلك من نتائج سيئة على الدولة الأيوبية. وألقى الفصل أضواء جديدة على أسباب الخلاف الذي نشب أخيراً بين الكامل وأخيه الأشرف. ثم إندلاع الحرب الأهلية بين الأيوبيين في بلاد الشام عقب وفاة الأشرف، تلك الحرب التي استمرت بضع سنوات حتى انتهت أخيراً بانتصار الصالح أيوب وإعادة الوحدة بين مصر والشام.

وأخيراً شرح الفصل التطورات التي نتج عنها سقوط الدولة الأيوبية في مصر وقيام دولة المماليك، وموقف ملوك الشام من ذلك، حيث قرروا مهاجمة مصر في محاولة لاستعادتها، وأوضح الفصل فشل تلك المحاولة وأسبابه، وناقش الفصل دور طائفة المماليك البحرية الذين هربوا إلى بلاد الشام وأسهموا في زيادة الإضطراب والتمزّق فيها عشية الغزو المغولي.

أما الفصل الثالث وعنوانه (موقف ملوك بني أيوب من الصليبيين في بلاد الشام) فقد درس أولاً أثر حرب الوراثة الأيوبية على الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، وتناول الفصل الحملة الألمانية على بلاد الشام. وأبرز الفصل الحملة الشعبية التي قام بها سكان دمشق بقيادة المؤرخ سبط ابن الجوزي لجهاد

الصليبيين. ثم تناول الفصل بالشرح والتحليل إثر الحملة الصليبية الخامسة على بلاد الشام، إذ إن طلائع تلك الحملة نشرت الخراب والدمار في البلاد التي هاجمتهامثل نابلس وبيسان وغيرها ، ويرهن الفصل على وقوع الملك المعظم في الكثير من الأخطاء العسكرية مثل تدمير أسوار بيت المقدس وما ترتب على ذلك من نتائج ، ثم شرح الفصل كيف فشلت الحملة الصليبية الخامسة.

وألقى الفصل الثالث أضواء جديدة على طرق ووسائل الملك المعظم للتجسّس على الصليبيين ورصد تحركاتهم. ثم تعرض الفصل الثالث لمجيء حملة فردريك الثاني إلى الشام ، وتسلمه بيت المقدس من السلطان الكامل، وما تركه ذلك من أثر في نفوس المسلمين. وشرح الفصل الموقف في شمال الشام بين مملكة حلب وفرسان الداوية. وتناول أيضاً أثر الحرب الأهلية الذي جعل بعض حكام بني أيوب ينحدر إلى مستوى الخيانة مع الصليبيين كالصالح اسماعيل، ثم دخول الخوارزمية إلى الشام وهزيمتهم للصليبيين وحليفهم الصالح اسماعيل في معركة غزة سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م وتعرض الفصل أخيراً للموقف بين المسلمين والصليبيين عشية الغزو المغولي وذلك منذ بدء حملة لويس التاسع ملك فرنسا وحتى رحيله من بلاد الشام.

أما الفصل الرابع فقد تناول (العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب وأثرها في تاريخ بلاد الشام) فتناول أولاً : العلاقات مع القوى الإسلامية ، بدءاً بالخلافة العباسية التي حرص ملوك بني أيوب على خطب ودها والحصول منها على التقليد والخلع لإضفاء صبغة الشرعية على حكمهم، والدور الذي مارسته الخلافة العباسية في محاولة حل النزاعات الداخليةفي بلاد الشام. كما شرح الفصل العلاقات الأيوبية مع سلاجقة الروم والتي تراوحت بين العداء حيناً والود والصداقة أحياناً حسب ما تمليه مصالح كلا الدولتين.

وشرح الفصل ظهور خطر الخوارزمية الذين انتشروا في الجزيرة عقب مقتل ملكهم جلال الدين الخوارزمي سنة ٦٢٨هـ ، وما جره ذلك من الفوضى

والإضطراب على بلاد الشام، وغاراتهم على بلاد الشام، وانغماسهم في النزاع بين الايوبيين.

وتناول الفصل الرابع ثانياً، العلاقات الخارجية مع القوى غير الإسلامية مثل مملكة أرمينية الصغرى التي لعبت دوراً صليبياً خطيراً ضد المسلمين في بلاد الشام وحاولت أخيراً إقامة حلف صليبي مغولي ضد المسلمين. وتناول الفصل الرابع أيضاً العلاقات الودية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الأمبراطور فردريك الثاني.

وناقش الفصل الرابع خطر التتار، وغاراتهم الأولى على الجزيرة واستقرار بعض فرقهم في جنوب أذربيجان لشن الغارات على العراق والجزيرة وآسيا الصغرى لاختبار قدرات القوى الإسلامية في هذه المناطق، ثم شرح الفصل إستيلاء المغول على آسيا الصغرى وأثر ذلك على بلاد الشام، ثم أشار الفصل إلى إستيلاء هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وموقف بلاد الشام من الزحف المغولي.

أما الفصل الخامس وعنوانه (أهم مظاهر التطور الحضاري في بلاد الشام) فقد درس الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، وشرح الدور الذي قام به ملوك بني أيوب في إزدهار الحركة الفكرية مثل الملك المعظم وابنه الناصر داود والأمجد صاحب بعلبك وغيرهم، كما شرح جهود كل من القاضي بهاء الدين بن شداد والوزير ابن القفطي ودورهما في تطور الحياة الفكرية في بلاد الشام. وتعرض الفصل لأهم المدارس في بلاد الشام كمظهر من مظاهر التطور العلمي، ثم تناول الفصل علوم الشريعة وشرح الدور الذي قام به كبار العلماء في هذا المجال مثل ابن قدامة والعز بن عبد السلام وغيرهما، ثم تحدث الفصل عن علوم العربية كالنحو واللغة والشعر والأدب، وشرح الدور الذي أسهم به كبار العلماء مثل الكندي وابن الحاجب وغيرهما وتم إلقاء الضوء على إزدهار الأدب في هذا العصر ولاسيما الشعر حيث ظهر الكثير من الشعراء مثل الناصر داود ، والأمجد بهرام شاه، وابن عنين، وغيرهم.

كما ناقش الفصل الفلسفة في هذا العصر وموقف الحكام منها، وترجم الفصل لأشهر فلاسفة هذا العصر وهو سيف الدين الأمدى ودوره في مجال الفلسفة.

أما في مجال الدراسات الطبيعية، فقد تناول الفصل الطب، والصيدلة، لما شهداه من تطور وازدهار حيث ظهر الكثير من الأطباء والصيادلة وتنوعت أساليب العلاج معتمدة على أصول علمية متفوقة. كما تناولت الدراسات الطبيعية الرياضيات والفلك حيث تطورت وازدهرت في هذا العصر.

وأخيراً ناقش الفصل الحالة الإقتصادية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، حيث ألقى الفصل بعض الأضواء على موارد مملكة حلب ثم استعرض بصورة مجملة الزراعة، والصناعة، والتجارة في بلاد الشام وأشار الفصل في نهايته إلى أهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة مثل شبكة مياه حلب وإصلاحات المعظم في جنوب بلاد الشام.

واحتوى الكتاب على خاتمة، توضح أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ومجموعة من الملاحق التي تفسّر بعض الحوادث الواردة في فصوله.

والله أسأل العون والسداد إنه نعم المولى ونعم النصير.

د. علي محمد علي عوده الغامدي
مكة المكرمة
١/ ٩/ ١٤٠٦هـ

الفصل الأول

الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين

٥٨٩ ـ ٦١٥هـ/ ١١٩٣ ـ ١٢١٨م

الفصل الأول
الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين

١ ـ إنقسام بلاد الشام وحرب الوراثة الأيوبية وأثرها على أوضاع بلاد الشام.
٢ ـ العادل أبو بكر بن أيوب وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد الشام.
٣ ـ الممالك الأيوبية في بلاد الشام :
أ ـ مملكة حلب.
ب ـ مملكة حماه.
جـ ـ مملكة حمص.
د ـ مملكة دمشق.
هـ ـ بقية الإمارات الأيوبية في بلاد الشام.

إنقسام بلاد الشام وحرب الوراثة الأيوبية وأثرها على أوضاع بلاد الشام

من الحقائق المسلم بها في تاريخ العصور الوسطى، أن الدولة الأيوبية ورثت العديد من النظم الإدارية عن الدولة الزنكية، التي ورثتها بدورها عن الدولة السلجوقية الأم.

فمن المعروف أن الدولة السلجوقية امتدت في عهد السلطان ملكشاه من بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً. وقد جرت العادة في هذه الدولة على تقسيم المملكة بين أمراء البيت الحاكم بعد وفاة السلطان. ففي أعقاب موت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ظهر العديد من البيوت السلجوقية الحاكمة، مثل سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وسلاجقة الشام، وسلاجقة العراق وفارس وغيرها. ثم ظهرت الأتابكيات التي أخذت تحل محل السلاجقة مثلما حدث في دمشق على يد الأتابك[1] طغتكين، والموصل وحلب على يد عماد

---

(١) أتابك لقب يتكوّن من لفظين، أتا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير، وكانت نظرية السلاجقة في الحكم ترتكز على أن يتولى أفراد من الأسرة السلجوقية حكم الأقاليم، وارتبط بكل فرد من هؤلاء الأمراء السلاجقة قائد تركي يحمل لقب أتابك. أي الأمير الوالد، الذي يعتبر مسؤولاً عن تربية ابن الأمير وتلقينه أصول الحكم والإدارة. وقد درج أمراء السلاجقة على تزويج الأتابك من إحدى مطلقاتهم، أو قيام الأتابك نفسه بالزواج من والدة الأمير الصغير بعد وفاةوالده، ويتزوج الأمير بدوره من ابنة الأتابك، وبالتالي أصبحت العلاقة بينهما شبه أبوية وأضحى للأتابك الكثير من النفوذ والسلطان، وأول من تلقب بهذا اللقب الوزير السلجوقي نظام الملك حين فوض إليه ملكشاه تدبير شؤون دولته. وفي العصر الزنكي أصبح لفظ أتابك يدل على الحاكم، أما في العصرين الأيوبي والمملوكي فأصبح مدلوله يعني أيضاً قائد العسكر. انظر: ابن خلكان. وفيات

الدين زنكي الذي قسمت مملكته بعد موته ٥٤١هـ / ١١٤٦م بين ولديه سيف الدين غازي في الموصل ونور الدين محمود في حلب[١].

وبعد أن أقام صلاح الدين الأيوبي دولة مترامية الأطراف، ضمت بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن والجزيرة الفراتية اعتمد في تأسيسها على إخوته وأقاربه وأسند إليهم المناصب الكبرى. عاد في سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وعهد لأبنائه بأهم أقاليم الدولة: فأعطى الأفضل دمشق، وأخذ حلب من أخيه العادل وأعطاها لابنه الظاهر غازي، ومنح إبنه العزيز عثمان مصر، أما العادل فقد أقطعه الرها وحران وميافارفين إضافة إلى الكرك[٢]. غير أن صلاح الدين لم يضع لمملكته من النظم ما يكفل لها القوة والوحدة بعد موته. وأصبح ذلك مرتبطاً بالظروف، وبالتالي استمر النظام الذي جرى الأخذ به منذ زمن السلاجقة وهو تقسيم المملكة بين أمراء البيت الحاكم.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو: هل يمكن إتهام صلاح الدين بالتقصير في هذه النقطة الهامة؟ أو بعبارة أخرى، هل يعتبر صلاح الدين مسؤولاً عن الإنقسام والتفكك الذي حدث بعد موته، لأنه لم يضع لدولته من النظم والضوابط ما يكفّل لها إستمرار الوحدة التي أجهد نفسه في بنائها!؟. وقبل الإجابة على هذا التساؤل لا بد من الإشارة إلى أن بعض الباحثين المحدثين حمّل صلاح الدين المسؤولية في تداعي دولته بعد موته، فذكر أنه على الرغم من بُعد نظره، إلاّ أنه لم يترك لأبنائه عهداً يبين لكل واحد منهم حقه وواجباته إزاء ذلك

الأعيان . جـ ١ ص ٣٦٥، القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية ص ١٢٢ - ١٢٣، Dozy, Supplement Dictionaires, Vol, 1 P. 8; Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades, pp 24 - 25.

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٧ - ١٩٢، ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ١٥.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٠٣ أ - ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ٥٢٣ - ٥٢٥، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٣ ص ٨٩؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٥٥ - ٣٥٦، ابن أياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٥٠.

الكيان العظيم الذي بناه ووطد دعائمه بل ترك الأمر للأقدار تعبث به كيفما تشاء[1].

غير أنه لا يمكن التسليم بهذا الرأي بسهولة، إذ نرى أن السلطان صلاح الدين بريء من تهمة الإهمال أو التقصير في ضوء المعطيات التالية:

أولاً : إن صلاح الدين استنفد كل جهده وطاقته، في سبيل توحيد كلمة المسلمين والدفاع عن حقوقهم، ومواصلة النضال ضد الصليبيين. حتى أن الجهاد سيطر على كل جوارحه بحيث صار لا يفكّر إلاّ فيه وفي الإستعداد له. وأمضى السنوات الطوال في ساحات القتال وميادين البطولة بصورة لا تعرف الكلال أو الملل فقد ذكر ابن شداد أن حب صلاح الدين للجهاد «والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلاّ فيه ولا نظر إلاّ في آلاته، ولا كان له إهتمام إلاّ برجاله، ولا ميل إلاّ إلى من يذكره، ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده. . .»[2]. فلعل إنشغاله التام بالجهاد، صرفه عن وضع نظام واضح للوراثة لمواجهة الفراغ الذي سينجم عن وفاته. وهو بحق ـ أي الجهاد ـ أمر جدير بأن ينشغل به.

ثانياً : من المؤكد أنه بعد توقيع صلح الرملة مع الفرنج سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م أراد صلاح الدين إستغلال فترة الهدنة مع الفرنج، لاستكمال توحيد العالم الإسلامي بكامله، مثلما كانت عليه الدولة الإسلامية في صدر الإسلام. فقد ذكر ابن الأثير أنه قبيل مرضه الأخير استدعى إبنه الأفضل وأخاه العادل، وأبدى لهما عزمه على ضم بلاد آسيا الصغرى الخاضعة لسلاجقة الروم، لأنها المعبر البري الذي اعتاد

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام جـ٢ ص ٧٥.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢١.

الصليبيون على إستخدامه في حملاتهم على بلاد الشام، ولأن الإستيلاء عليها سيقطع عليهم ممراً برياً هاماً، الأمر الذي يُسهِّل على المسلمين مواجهتهم في ميدان واحد هو البحر، كما أبدى صلاح الدين رغبته في الإستيلاء على خلاط[1] ثم المسير منها إلى أذربيجان جنوبي بحر قزوين، والمضي منها إلى بلاد العجم وضمها إلى الدولة الإسلامية[2]. غير أن المرض داهمه فتوفى قبل تحقيق هدفه.

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين انتوى السعي إلى تحقيق هدف سياسي هام وخطير، وهو إستكمال توحيد العالم الإسلامي مستغلاً فترة الهدنة مع الصليبيين (ثلاث سنين وثلاثة أشهر) ليتسنى له بعد ذلك التفرغ لاقتلاع جذور الوجود الصليبي من بلاد الشام نهائياً. ثم الإلتفات لتنظيم الدولة، ووضع نظام ثابت لولاية العهد بعد إزالة الخطر الذي يهددها والمتمثل في الصليبيين. ومما يؤكد هذا الإتجاه لدى صلاح الدين أن عمره لم يكن ـ وقتذاك ـ يتجاوز أربعاً وخمسين سنة، وهو سن صغير بكل المقاييس. ولا شك أن هذه السن لشخص مثل صلاح الدين تجعله يفكر في الكثير من الخطط، وتجيش نفسه بالآمال التي كان يسعى إلى تحقيقها.

ثالثاً : هناك إشارة وردت في بعض المصادر التاريخية، حدد فيها صلاح الدين الوقت الذي سيعمد فيه إلى وضع نظام للوراثة. فقد ذكر بعض المؤرخين أنه قال يوماً لجلسائه: «متى يسر الله فتح الساحل قسَّمت البلاد وأوصيت، وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره، أتبعهم حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت»[3]. وفي هذا

---

(١) خلاط: مدينة كبيرة مشهورة ذات خيرات واسعة وموارد كبيرة وهي قصبة بلاد أرمينية: انظر القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٢٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٣٣.

ما يشير بوضوح إلى أن صلاح الدين كان يعتزم القضاء نهائياً على الوجود الصليبي، ثم النظر في أمور الوراثة بعد ذلك. غير أن القدر لم يمهله لتحقيق أمله.

كما أن من الإجحاف - بل والظلم - إعتبار صلاح الدين مسؤولاً عن التداعي الذي حدث بعد موته. فالرجل استنفد كل طاقته وجهده في توحيد الجبهة الإسلامية، ومواجهة أوروبا بأكملها، ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها. وبالتالي فليس من المعقول، ولا من العدل أن نطلب من شخص من الأشخاص أو قائد من القواد أن يظل يقاتل إلى ما لا نهاية، وصلاح الدين تحمل الكبير والكثير من المسئوليات في الحروب الصليبية، حتى استحق بجدارة لقب المجاهد العظيم دون منازع، ثم لقي ربه وراية النصر على الفرنج مرفوعة، والدولة موحدة متماسكة. مما يجعل التفكك والإنقسام الذي حدث بعد موته ليس من مسؤوليته، بل تقع فيه المسؤولية كاملة على عاتق الجيل الذي خلفه.

وكيفما كان الأمر فعندما اشتد مرض صلاح الدين، قام ابنه الأكبر نور الدين علي الملقب بالأفضل، بتحليف أمراء والده له بالسلطنة من بعده. واقتصر في أخذ العهد له من الأمراء أصحاب الإقطاعات ببلاد الشام فقط[1]. ذلك أن الأفضل لم يكن بمقدوره ضبط الأمور - بعد موت والده - بمعزل عن القيادات العسكرية التي لعبت دوراً هاماً في الجهاد ضد الصليبيين، وأخلصت للسلطان صلاح الدين، ونالت مقابل ذلك الكثير من الإقطاعات في بلاد الشام وغيرها. وسنرى الكثير من الأمثلة على دور القادة العسكريين في حوادث بلاد الشام خلال الفترة التالية لوفاة صلاح الدين ودورهم في تغيير موازين القوى أثناء النزاع بين الأيوبيين. وقد واجه الأفضل بعض الصعوبات، في تحليف أمراء الشام، فمنهم من اشترط أموراً، كأن يبقى بيده الحصن الذي تولاه أو البلد الذي في حوزته، أو ينال إقطاعاً يُرضيه، أو يقوم الأفضل ببذل الوعود له.

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ محمد كرد علي: خطط الشام جـ٢ ص ٦٩.

ومنهم من اشترط ألاّ يُشهر الأفضل سلاحاً في وجه إخوته، ومنهم من حلف دون قيد أو شرط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ولم يتعرض لهم وإنما حلّف أمراء الشام[1].

ولقد كانت وفاة السلطان صلاح الدين في شهر صفر سنة ٥٨٩هـ / مارس ١١٩٣م، فأحدث بموته فراغاً ضخماً، لم يستطع أحد من أبنائه وإخوته أن يملأه. وأصبح توزيع الميراث في المملكة كالتالي:

نال الإبن الأكبر نور الدين علي ـ الملقب بالأفضل ـ دمشق والبلاد التابعة لها: وهي بيت المقدس وبصرى وصرخد والساحل وبعلبك، وبانياس، وهونين وتبنين وجميع الضياع الممتدة جنوباً إلى الداروم[2] عند حدود مصر.

أما الإبن الثاني العزيز عثمان فكان من نصيبه مصر واستقر ملكه بها. بينما أخذ الابن الثالث الظاهر غازي حلب وما يتبعها من بلاد، مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية، ودربساك وغيرها. أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فكان بيده الكرك والشوبك، إضافة إلى البلاد الشرقية الواقعة بإقليم الجزيرة وهي الرها، وحران والرقة وسميساط وقلعة جعبر وميافارقين وديار بكر. ونال المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه حمص وما يتصل بها مثل الرحبة وتدمر. وكانت حماه والمعرة وسلمية وقلعة نجم ومنبج من نصيب محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب. في الوقت الذي خضعت فيه بعلبك وأعمالها للملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب. اما الإبن الرابع ـ وهو خضر بن صلاح الدين ـ فكانت بيده بصرى وصرخد يتولاها من قبل أخيه الأفضل صاحب دمشق[3].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٤٥؛ الباز العريني: الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ١٠٢٦ ـ ١٠٢٧.

(٢) الداروم: قلعة عند غزة تقع على الطريق الذي يربط بلاد الشام بمصر. انظر: Les Trange, Palestine Under the Moslems. P. 437.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٠٩ أ ـ ب؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ورقة ١٤٩ ـ

كما كان بيد بعض القادة العسكريين الكثير من الحصون والضياع، مثل سابق الدين عثمان بن الداية الذي كان يسيطر على شيزر وأبي قبيس، وأخذ ناصر الدين منكورس بن خمار تكين صهيون وحصن برزية. أما بدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق فكان بيده تل باشر من أعمال حلب بينما أخذ القائد عز الدين أسامة كوكب وعجلون في جنوب الشام، وسيطر عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم على بعرين وكفر طاب[1].

وبعد وفاة صلاح الدين، قدم أخوه الملك العادل من الكرك إلى دمشق وأقام سنة العزاء، ثم رحل شرقاً عندما علم أن اتابكة الموصل وسنجار والأراتقة في كيفا وآمد وخرتبرت، أخذوا يتحفزون جميعاً - بعد موت صلاح الدين - للإنقضاض على ممتلكات الأيوبيين في الجزيرة وبلاد الشام. وقد تمكّن العادل - بمساعدة النجدات التي أرسلها إليه العزيز عثمان صاحب مصر، والأفضل صاحب دمشق، والظاهر صاحب حلب وغيرهم من ملوك الشام - من الوقوف في وجه الأتابكة والأراتقة، ومنعهم من تحقيق أية مكاسب على حساب الأيوبيين[2].

وعلى الرغم من أن الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين، كان هو المعهود إليه بالسلطنة - باعتباره الإبن الأكبر - فإن أكثر العساكر من الصلاحية

ب - ١٥٠ أ - ب؛ بدر الدين الحلبي: جهينة الأخبار، ورقة ٣٧ ب - ٣٨ أ، العليمي: تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١١ ب؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٠٦أ، ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٩٧ - ٩٨؛ الأظفهاني: الفتح القدسي ص ٦٢٨ - ٦٣٦؛ العصامي: سمط النجوم العوالي جـ ٤ ص ٩.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٤، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص« ١٦٢ - ١٦٣؛ ابن ايبك: كنز الدر جـ ٧ ص ١٢٠.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢٠٩ ب - ٢١٠ أ؛ ابن الاثير: الكامل جـ ١٢ ص ٩٨ - ١٠١؛ العماد الأصفهاني: الفتح القدسي ص ٦٢٧ - ٦٤٠؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

والأسدية والأكراد ـ كانوا في مصر إلى جوار أخيه العزيز «وهو أمكن من الملك الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة مغلاتها»[1].

وكان من الطبيعي أن ينقاد بقية ملوك بني أيوب للملك الأفضل، باعتباره السلطان الشرعي الذي يجب الخضوع له، ولاسيما وأن الموقف في بلاد الشام، آنذاك، كان يحتم الوحدة والتماسك، لمواجهة الوجود الصليبي في عكا وصور وغيرهما من سواحل الشام. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، لافتقار الأفضل إلى الحنكة السياسية والمقدرة الإدارية وقوة الشخصية، بالإضافة إلى شغفه باللهو والعبث[2]. فأسند منصب الوزارة في دولته إلى ضياء الدين بن الأثير شقيق المؤرخ المشهور، وكان ضياء الدين في هذا الوقت شاباً مغروراً لا يفقه في أمور السياسة وإدارة شئون الدولة شيئاً، فأقنع السلطان الأفضل بإبعاد كبار أمراء والده وأخلص أصحابه ومستشاريه «وأخبره أن امراء أبيه يشتطون عليه ولا يرضون منه إلاَّ بالكثير، وأعمال دمشق لا تسعهم، وإنما تسعهم أعمال مصر. وإن الغرباء والمستجدين من مماليكه يرضون منه بالقليل. . . فاغتر الملك الأفضل بقوله، وكان ذلك من الخطأ البين والتدبير الفاحش السيء، فأبعد أمراء أبيه والعظماء من أتباعه، حتى أبعد القاضي الفاضل مع جلالة قدره وغزارة فضله، والعماد الكاتب مع فصاحته وبراعته. واستخدم أمراءً مجهولين ومماليك خاملين»[3].

وهكذا استجاب الأفضل لمشورة وزيره ضياء الدين بن الأثير فأبعد كبار أمراء الدولة عن بلاطه، مما اضطرهم إلى الهجرة إلى مصر وعلى رأسهم فخر الدين جهاركس، وفارس الدين ميمون القصري، وسنقر الكبير وغيرهم.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٤ ـ ٥ والصلاحية هم أتباع صلاح الدين الأيوبي، والأسدية أتباع عمه أسد الدين شيركوه.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرةجـ ٦ ص ١٢٠، سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٦٣.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢١٠ ب.

وعندما وفدوا على أخيه العزيز، رحب بهم واحترمهم وزاد في إقطاعاتهم، واعتمد عليهم في إدارة شئون دولته، واتفقوا جميعاً على مناصرة العزيز، وشرعوا في التخطيط لمساعدته على تولي شئون السلطنة ، ونقلها من الأفضل إليه. وهنا بدأالنفور يستحكم بين الأخوين[١].

ومما زاد في تدهور العلاقات بينهما مشورة الوزير ضياء الدين ابن الأثير الذي اقترح على الأفضل إخلاء بيت المقدس وتسليمه لأخيه العزيز ، باعتبار أن المحافظة على بيت المقدس تحتاج إلى مؤنة عظيمة، ونفقات كثيرة، واستعدادات دائمة، نظراً لتطلع الفرنج المستمر للسيطرة عليه. واستجاب الأفضل لمشورة وزيره فراسل أخاه العزيز طالباً منه تسلُّم بيت المقدس. وقد سُرّ العزيز كثيراً بهذا العرض السخي، وأرسل إلى النائب على القدس عشرة آلاف دينار، لينفقها في عساكر بيت المقدس، وخطب له به، ثم لم يلبث الأفضل أن تراجع عن إعطاء بيت المقدس لأخيه العزيز، مما كان له أسوأ الأثر في نفسه واستحكام الوحشة بين الأخوين[٢].

أخذ كبار الأمراء والقادة يحثون العزيز عثمان صاحب مصر على الخروج إلى الشام، وانتزاع السلطنة من الأفضل وإعادة الوحدة من جديد بين مصر والشام، وبخاصة حينما سمعوا أن الصليبيين استولوا على ثغر جبيل[٣] من نائبه الذي باعه لهم، وخرج الأفضل لاستعادته وفشل في ذلك. وكان هذا الثغر من

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢١٠ ب ـ ٢١١ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١ ـ ١٤؛ أبو الفدا: المختصر، جـ ٣ ص ٨٧ ـ ٨٩؛ المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٢٣٥؛ يوسف الدبس: تاريخ سورية جـ ٦ ص ١٣٤.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢١٠ب؛ العليمي: تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١١ ب؛ الأصفهاني: الفتح القدسي ص ٦٣٠ ـ ٦٣١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٤ ـ ١٥؛ أبو شامة: الروضتين جـ ٢ ص ٢٢٨، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١١٥.

(٣) ثغر جبيل : هو أحد ثغور بلاد الشام الساحلية ويقع شمال بيروت ويبعد عنها مسافة ١٨ ٥ لا انظر : Lestraing. Opcit p. 464.

جملة فتوح السلطان صلاح الدين، فقال الأمراء للعزيز: «إن أنت توانيت تطرقت البلاد واستولى عليها الفرنج» عندئذ صمم على الحركة وشرع يستعد لقصد الشام(١).

وحينما علم الأفضل بعزم أخيه الخروج إلى الشام بادر بإرسال الرسل إلى أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، وشيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وناصر الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماه، طالباً منهم النجدة، فتحالفوا جميعاً معه للتصدي للعزيز. ولا شك أن إنضمامهم إلى الأفضل ليس حباً فيه بقدر ما هو خوفاً من العزيز. إذ إن إستيلاءه على دمشق وضمها إلى مصر يعني تعاظم قوته، وازدياد نفوذه وبالتالي تهديد ممالكهم. كما أرسل الأفضل إلى عمه العادل طالباً قدومه لنجدته(٢).

خرج العزيز من مصر قاصداً بلاد الشام، ووصل إلى القصير - قرب غور الأردن -، حيث كان يرابط الأفضل، الذي ما ان علم بوصول عساكر مصر حتى عاد راجعاً إلى دمشق، وسار العزيز في أثره وحاصر دمشق في جمادي الأولى ٥٩٠هـ / ١١٩٤م. وشرع الأفضل في الدفاع عن دمشق ريثما يصل عمه العادل وبقية ملوك بلاد الشام الذين تحالفوا معه(٣).

وعندما وصل الملك العادل وبقية ملوك الشام إلى دمشق، آثر العادل السعي في الصلح بين الأفضل وأخيه، فراسل العزيز وطلب الإجتماع به، فأذعن الأخير لطلب عمه. وتم عقد تسوية بين الجانبين تنازل بموجبها الأفضل

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦، وانظر أيضاً المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١١٦.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١١ أ؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٠٩ - ١١٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٨ - ٢٩؛ الحصيني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٥.

(٣) التاريخ الصالحي، ورقة ٢١١ أ ب، الداواداري: درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، مخطوط، حوادث سنة ٥٩٠هـ؛ الخطيب العمري: الدرر المكنون ورقة ١٠٦أ؛ العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ١٨٦؛ ابن الشحنة: تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٢ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٩ - ٣٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١١٦ - ١١٧؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٢١ - ١٢٢.

عن بيت المقدس وأعمال فلسطين لأخيه العزيز عثمان صاحب مصر ، على أن تبقى دمشق وطبرية وأعمالها وغور الأردن للأفضل، وأن يتنازل الأفضل عن جبلة واللاذقية بالساحل الشامي لأخيه الظاهر غازي ملك حلب، وأن يحتفظ الملك العادل بأملاكه وإقطاعاته في مصر[1]. كما تضمن الصلح أيضاً أن يكون الأمجد صاحب بعلبك تابعاً للملك الأفضل ومؤازراً له بينما يكون المنصور صاحب حماه مع الملك الظاهر غازي ملك حلب وتابعاً له[2]. وتم الصلح بين الجانبين، وتزوّج العزيز من إبنة عمه العادل، وعاد الملوك إلى بلادهم[3].

لم تلبث أحوال بلاد الشام أن ساءت من جديد، ذلك أن الأفضل أعاد سيرته الأولى في اللهو والعبث والمجاهرة بالمعاصي، وجعل أمور الدولة جميعها معذوقة بوزيره ضياء الدين بن الأثير الذي أساء السيرة، وعمل جاهداً على تقويض دعائم الدولة، مما دفع الأمير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب - وهو من كبار الأمراء الصلاحية - للهجرة إلى مصر، وقابل الملك العزيز، وأخذ في تحريضه على الملك الأفضل، وحثّه على أخذ دمشق منه، وخوّفه من ضياع الدولة التي بناها صلاح الدين، إذا لم يتحرك بسرعة، وأوضح له أن الوزير ابن الأثير الجزري غدا هو المتحكم في أمور دولة الأفضل. كما هاجر إلى مصر أيضاً إبراهيم ابن السلار، وهو من كبار أمراء الدولة وجمال الدين بن الحصين، والقاضي محي الدين بن أبي عصرون وهما من كبار أعيان دمشق، وأوضحوا جميعاً للعزيز مدى التدهور الذي أصاب دولة الأفضل، وسوء سياسة وزيره ابن

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، ورقة ١٣٥ أ؛ العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ١٨٦ - ١٨٧؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٩.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢١١ ب ؛ ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري لوحة ٥٣٤ - ٥٣٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٣١ - ٣٢ ؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١١٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٤٣٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٣٤ - ٣٧؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٢٢.

الأثير، وحثّوه على الإسراع بالخروج إلى الشام لتدارك الأمور قبل فوات الأوان[1].

وفي أوائل سنة ٥٩١هـ / أواخر ١١٩٤م وصلت إلى دمشق أنباء تفيد بعزم العزيز عثمان صاحب مصر على قصد دمشق، ومطالبته بالسلطنة، فشاور الأفضل أصحابه، فأشار عليه بعض العقلاء بمراسلة أخيه، وملاطفته، وإقامة الخطبة والسكة له، وكاد الأفضل أن يوافق على هذا الرأي. ولكن ما أن انفرد به وزيره ضياء الدين بن الأثير، حتى أشار عليه برفض الإذعان لأخيه العزيز، وحثه على مقاومته، وأشار عليه بالذهاب إلى عمه العادل بالرقة، وطلب مساعدته لأنه الأقدر على كبح جماح العزيز[2].

خرج الأفضل من دمشق في جمادي الأولى ٥٩١هـ / أبريل ١١٩٥م) والتقى بعمه العادل بصفين عند الرقة وتوسّل إليه طالباً المسير معه إلى دمشق لحمايتها من العزيز. فاستجاب له عمه وسار قاصداً دمشق[3]. أما الأفضل فعرج أثناء عودته على حلب لتأكيد التحالف بينه وبين أخيه الظاهر، الذي أكد له التزامه بمناصرته. غير أن ذلك التحالف سرعان ما انهار بسبب عصيان كل من: المنصور صاحب حماه، وابن المقدم صاحب بعرين، ودلدرم صاحب تل باشر، على الملك الظاهر غازي، وإعلان تبعيتهم للملك العادل. وعندئذ تخلى الظاهر عن مساعدة الأفضل، وسارع بمراسلة أخيه العزيز طالباً منه الإسراع بالخروج إلى الشام ووعده بمد يد المساعدة على انتزاع دمشق من الأفضل[4].

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١١ ب - ٢١٢ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٣٨ - ٤٠؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١١٨ - ١١٩؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٢ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٤١ - ٤٢؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٢٣؛ تاريخ ابن الفرات: جـ٤ قسم ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ - والرقة مدينة تقع على شط الفرات بمنطقة الجزيرة: انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) التاريخ الصالحي ورقة ٢١٢ أ ب؛ تاريخ ابن الجزري: مخطوط لوحة ٣٠٧؛ أبو شامة: الروضتين جـ٢ ص ٢٢٩؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٢٣.

(٤) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٣ أ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٤٤ -

شرع العزيز عثمان في رمضان ٥٩١ هـ / ١١٩٥م يتجهز للمسير فلما انقضى عيد الفطر سار قاصداً بلاد الشام للإستيلاء عليها من أخيه الأفضل. وكان جيش العزيز يتكوّن من الأسدية والصلاحية، وهما أشبه ما تكونان بحزبين عسكريين متنافسين داخل الدولة الأيوبية، وكانت الأسدية تكره الصلاحية أشد الكراهية، ولاسيما أن الملك العزيز عثمان كان يقدِّم زعماء الصلاحية ويعتمد عليهم أكثر من زعماء الأسدية. وكان الملك العادل يعلم تماماً طبيعة العلاقات بين الطائفتين، فأرسل سراً إلى زعماء الأسدية يحذرهم من الملك العزيز ويدعوهم إلى تركه والإنضمام إلى الأفضل. وفي الوقت نفسه أرسل إلى العزيز يحذره من الأسدية ويشير عليه بإبعادهم. وقد نجح العادل في زرع بذور الشك والريبة بين العزيز والأسدية الذين تشاوروا فيما بينهم، واتفقوا على مفارقة العزيز، والإنضمام إلى العادل والأفضل. كما تمكّنوا من استمالة زعيم الأكراد أبا الهيجاء السمين، وانسحبوا ليلاً من معسكر العزيز الذي أدرك حينئذ إستحالة الإستيلاء على دمشق بمن بقي معه من الصلاحية، وقرر العودة إلى مصر[1].

وصل زعماء الأسدية إلى دمشق، وحثّوا الملك العادل والأفضل على مطاردة العزيز إلى مصر، وتعهدوا بالسير فوراً إلى مصر لمنع العزيز من دخول القاهرة. ويبدو أن العادل اتفق مع الأفضل على الإستيلاء على مصر لتصبح ملكاً للأفضل، ويتنازل الأخير بدوره عن دمشق لعمه مع إحتفاظ العادل بإقطاعات واسعة في مصر[2]. وأثناء سير العادل والأفضل انتزعا بيت المقدس

٤٦، ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص١٣٢ - ١٣٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٠٩ - ١١١.

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢١٢ ب - ٢١٣أ ؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٣٧ أ ب؛ العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ١٩٩ ؛ ابن الأثير: الكامل جـ٢ ص١١٨ - ١١٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص٤٦ - ٤٨ ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١١٢ - ١١٤؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٨٥.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٣ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١١٩ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٨٥؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٥ ؛ الروضتين جـ٢ ص ٢٣٠ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١١.

من نائب العزيز ومنحاه إقطاعاً لزعيم الأكراد أبي الهيجاء السمين[1].

تمكّن العزيز من دخول القاهرة قبيل وصول الأسدية وأخذ في تحصين مصر، وبإعداد العدة للدفاع عن مملكته، وحينما وصل العادل والأفضل إلى بلبيس، توقفا عن التقدم بسبب زيادة النيل، وتعذّر حصولهما على المؤن والأعلاف. وقد ندمت الأسدية على موقفها، إضافة إلى خوف العادل من عدم وفاء الأفضل بما وعد به. فأرسل العادل إلى العزيز يطلب إليه أن يبعث بالقاضي الفاضل، ليسعى في حسم الخلاف بين الجانبين. فاستجاب القاضي الفاضل لإلحاح العزيز، وخرج وقابل العادل والأفضل، وسعى في عقد الصلح بين الجانبين، وتم بموجبه السماح للأسدية بالعودة إلى خدمة العزيز مع إحتفاظهم بإقطاعاتهم في مصر، وأن تقام الخطبة للعزيز بدمشق، وأن يحتفظ كل ملك بما تحت يده ويعود إلى بلاده، وأقام العادل بمصر مع العزيز لتنظيم شئون دولته[2]. ولقد كان هذا الصلح هشاً بل هو أشبه بـ «هدنة على قذا، وصلح على دخن» على حد قول ابن كثير[3].

رجع الأفضل إلى دمشق في المحرم ٥٩٢هـ / ديسمبر ١١٩٥م وكان يجب أن يستفيد من أخطائه السابقة، إلاّ أنه لم يفعل سوى لزومه الزهد والقناعة والإنقطاع للعبادة[4]. أما أمور الدولة جميعها فجعلها بيد وزيره ابن الجزري، الذي أساء السيرة وازداد من «الأفعال القبيحة وأذى الأكابر من الدولة»[5].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٥٢، أبو شامة: الروضتين: جـ٢ ص ٢٣٠؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١١٩.

(٢) التاريخ الصالحي: ورقة ٢١٤ أ ب؛ العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ١٩٩ - ٢٠٠؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٠٧؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٣٨ أ؛ ابن قاضي شهبة: الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، مخطوط، حوادث سنة ٥٩١هـ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون، ورقة ١٠٦ب؛ اليافعي: مرآة الجنان جـ٣ ص ٤٧٣؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ٤ ص ٢٧٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١١.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٥٥.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٤١ - ٤٤٣.

وتمادى في حماقته وغروره دون أدنى معرفة بأمور الدولة وقواعد السياسة وضجت الرعية بسوء إدارته «وكثر شاكوه وقل شاكروه، واختلت الأمور بذلك غاية الإختلال»[1]. وعندما وصلت الأمور إلى درجة من السوء لا تُحتمل، كتب أعيان دمشق إلى العادل يشكون إليه الوزير ابن الأثير الجزري فأرسل العادل إلى الأفضل يأمره بصرف ابن الأثير، فلم يلق هذا الطلب أذناً صاغية[2]، واستقر رأي الملك العادل وابن أخيه العزيز على المسير إلى الشام، لضبط أمورها وإصلاح ما أفسده وزيرها ابن الأثير. وتبعاً لمشورة ابن الأثير رفض الأفضل الإستجابة لنصحائه الذين أشاروا عليه بمراسلة أخيه وعمه واستعطافهما. وقرر المقاومة والإستعداد للمواجهة معهما. فلما وصل العادل والعزيز بجيوشهما إلى دمشق حاصراها في رجب ٥٩٢هـ / يونيه ١١٩٦م. فعمد بعض أعيان دمشق إلى مراسلة العادل والعزيز وعملوا على مساعدتهما على إقتحام دمشق وذلك في السادس والعشرين من رجب ٥٩٢هـ / يونيه ١١٩٦م. وعلى الرغم من المقاومة التي أبداها الظافر خضر شقيق الأفضل إلاّ أنه هُزم واستولت جيوش العادل والعزيز على دمشق.

أما الوزير ابن الأثير فقد هرب إلى الموصل حاملاً معه أموالاً طائلة، جمعها من دولة الأفضل، خلال عمله بالوزارة على مدى ثلاث سنوات، كما جنى الأفضل نتيجة تصرفاته فأجبره أخوه العزيز على الخروج من دمشق إلى قلعة صرخد ـ من أعمال حوران الواقعة جنوب دمشق ـ حيث أقام بها مع أهله وحاشيته، بعدما فقد دولته وسلطنته[3].

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٤ ب.

(٢) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق جـ٨ ص ٤٤١.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢١٥ أ ب؛ العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٠٤ ـ ٢٠٧؛ أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك حوادث سنة ٥٩٢هـ مخطوط؛ الذهبي: دول الإسلام جـ٢ ص ١٠٣؛ القلقشندي: مآثر الأنافة جـ٢ ص ٦٢ ـ ٦٣؛ العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جـ١ ص ٣٩٨؛ الحريري: الإعلام والتبيين ص ٨٨؛ الحصيني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦.

وحينما استقر العزيز بدمشق، كشف المظالم وأبطل المكوس حتى اعتقد سكان دمشق أنه سيقيم بها. ولكنه قرر العودة إلى مصر مكتفياً بإقامة الخطبة والسكة بدمشق وما يتبعها، وسلمها لعمه «فملكها العادل وأحسن القيام فيها وكان أحق بها وأهلها لما كان مختصاً به من حسن السياسة وصواب التدبير»[1]. أما العزيز فلم يلبث أن رحل من دمشق، عائداً إلى بلاده، وقد مرّ ببيت المقدس واسترده من زعيم الأكراد أبي الهيجاء السمين، وسلمه إلى أحد أتباعه وعاد إلى مصر[2]. أما الظاهر غازي صاحب حلب فقد راسل أخاه العزيز عثمان، وعقد معه الصلح، وأقام له الخطبة والسكة بمملكة حلب وأعمالها وكان ذلك في سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م[3].

وهكذا ترتب على حرب الوراثة نتيجة هامة هي: أنه لم يكن بمقدور أحد من أبناء صلاح الدين أن يفرض نفوذه على جميع أجزاء الدولة وتوحيدها من جديد، لافتقارهم جميعاً إلى صفات القيادة العسكرية الفذة والحنكة السياسية النافذة التي اتصف بها والدهم، الأمر الذي مهّد الطريق لعمهم العادل لكي يبسط نفوذه على الدولة الأيوبية. وهذا ما ستوضحه النقطة التالية.

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٦ أ.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٤٤٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٧٠.
(٣) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٤٠.

«العادل أبو بكر وسيطرته على مقاليد الأمور»
«في بلاد الشام ٤٩٥ ـ ٦١٥هـ»

لم تكن المكانة التي بلغها العادل حتى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م هي كل ما يطمح إليه. لأنها لا تتناسب مطلقاً مع الدور الذي لعبه خلال حياة أخيه صلاح الدين، الذي كان يكرمه ويحترمه، ويعول على مشورته ورأيه، لما عرف عنه من خبرة عسكرية وحنكة سياسية، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات مع الفرنج والمفاوضات معهم. ولعل أبلغ دليل على عبقرية العادل الحربية ودهائه السياسي ما شهد به أخوه صلاح الدين، عندما قدّم إليه أحد المؤلفين كتاباً في مكائد الحروب وقدمه للسلطان أثناء حصار عكا، فقال صلاح الدين «لا نحتاج لهذا مع وجود الملك العادل»[1]. ويظهر أن مما زاد في طموحات العادل ما دبّ من نزاع بين أولاد صلاح الدين بعد وفاته، وشعوره بالحاجة إلى إعادة الوحدة بين مصر والشام من جديد، وهو الأمر الذي يكفل الوقوف في وجه الصليبيين ويكبح جماح أطماعهم إزاء المسلمين.

شرع العادل يخطط لبسط نفوذه على الدولة الأيوبية. وكانت الخطوة الأولى سعيه إلى الإستيلاء على دمشق. فيؤكد ابن واصل، أن الأفضل عندما استعان بعمه العادل لمواجهة هجوم أخيه العزيز على دمشق سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م ، رأى العادل من سوء سيرة الأفضل وضعفه وعدم درايته بشئون الحكم ما أطمعه في دمشق، ومن أجل ذلك عمد إلى تفريق الأسدية عن العزيز، ثم أقنع

---

(١) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٦.

الأفضل بمطاردة العزيز إلى مصر، وهو الذي عمل على كبح جماح الأفضل ومنعه من الإستيلاء على مصر ، ليظهر أمام العزيز كالمنقذ له من سطوة أخيه، وأخيراً أقنع العزيز بالزحف على دمشق وانتزاعها من الأفضل وتسليمها إليه[1] . وحينما أصبحت دمشق وأواسط بلاد الشام خاضعة له، أقام الخطبة والسكة للملك العزيز باعتباره نائباً عنه، وجعل ابنه المعظم عيسى حاكماً على الكرك وجنوب الشام[2] .

وقد شُغل العادل خلال عـاميّ ٥٩٣ ـ ٥٩٤هـ / ١١٩٧ ـ ١١٩٨م بالحروب مع الصليبيين في بلاد الشام، ثم توجه بعد توقيع الهدنة معهم[3] إلى البلاد الشرقية بقصد الإستيلاء على ماردين[4]. وقد حاول العادل تدبير مؤامرة للّفتك بالعزيز صاحب مصر وذلك سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٨م أثناء مرابطة الأخير بفلسطين لقتال الصليبيين، ولكن العزيز اكتشف المؤامرة وانسحب عائداً إلى مصر[5].

غير أن توالي الحوادث خدم في نهاية المطاف الملك العادل، ففي المحرم سنة ٥٩٥هـ / نوفمبر ١١٩٨م ـ وأثناء حصاره لماردين ـ توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين سلطان مصر وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وفُجِعَ أهل مصر بموته لما عرف عنه من عدل وسماحة وكرم[6]. وعقب موته اتفق أمراء الدولة في مصر على تولية ابنه محمد ولقبوه بالمنصور، ثم اجتمع زعيم

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٤٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٣) انظر ما يلي الفصل الثالث ص ٢١٠ ـ ٢١٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٨٠ ـ وماردين: قلعة حصينة بالجزيرة قرب نصيبين ودارا وقدامها ربض عظيم به أسواق وخانات وربط انظر القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٢٩.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ٢٢ ورقة ٦٦ أ ب؛ ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري لوحة ٥٣٥؛ الديري: الجدول الصفي ورقة ٢١٧ أ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٨٢ ـ ٨٣، ابن الساعي: الجامع المختصر جـ٩ ص ٦؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٧.

الصلاحية فخر الدين جهاركس بزعيم الأسدية سيف الدين يازكج وقررا إقامة أتابك يقوم برعاية شئون الدولة ورعاية الملك الصغير حتى يكبر ـ وكان عمره عشر سنوات ـ وبعد مداولات بين الزعيمين اتفقا على استدعاء الأفضل بن صلاح الدين من صرخد ليقوم بوظيفة الأتابكية، ثم اجتمعا بالقاضي الفاضل الذي زكى هذا الإختيار(١).

وقدم الأفضل من صرخد إلى مصر وتولى الوظيفة الجديدة، وسيطر على مقاليد الأمور في مصر، إلّا أنه لم يحافظ على سياسة التوازن بين الأسدية والصلاحية، فمال إلى الأسدية وبدأ في الإعتماد عليهم، الأمر الذي أغضب زعماء الصلاحية، فقرروا الهجرة إلى الشام، واستولوا على بيت المقدس بزعامة فخر الدين جهاركس، وراسلوا العادل وطالبوه بالقدوم ووعدوه بالمساعدة على انتزاع مصر من الأفضل(٢).

وكيفما كان الأمر، فقد كان بإمكان الأفضل الإستمرار في أتابكيته بمصر وإقامة علاقة جيدة مع عمه العادل. غير أنه لم يفعل ذلك، فأغضب الصلاحية، وارتكب حماقة أخرى عندما استجاب لدعوة أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، وابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، اللذين اشارا عليه بانتهاز فرصة غياب العادل عن دمشق والانقضاض عليها واستعادتها، ووعداه بمساعدته على ذلك الأمر، ويبدو أن زعماء الأسدية حرضوه أيضاً على الاستجابة لهذه الدعوة، فقرر المسير بعساكر مصر إلى دمشق(٣).

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٤٣ أ ب؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣١٠ ـ ٣١١؛ ابن قاضي شهبة: الإعلام بتاريخ أهل الإسلام حوادث سنة ٥٩٥هـ؛ تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٢ب، ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٤٠ ـ ١٤١؛ مفرج الكروب، جـ٣ ص ٨٩ ـ ٩٠؛ ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ١٩٧؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) ابن أبي الدم، التاريخ المظفري لوحة ٥٣٥ ـ ٥٣٦؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٤٢؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ٩١ ـ ٩٣؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨؛ ابن أيبك الداواداري، الدر المطلوب ص ١٣٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل جـ٣ ص ٩٤؛ المقريزي، السلوك ص ١٤٨؛ مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٦٢؛

سار الأفضل من مصر في رجب ٥٩٥هـ / ١١٩٩م قاصداً دمشق، بعد أن أناب عنه بمصر سيف الدين يازكج زعيم الأسدية. وحينما بلغ العادل عزم الأفضل على مهاجمة دمشق ـ وكان يحاصر ماردين منذ عشرة أشهر ـ أقام ابنه محمداً الكامل على حصار ماردين وسار على رأس كتيبة صغيرة من الفرسان، وتمكّن من دخول دمشق قبيل قدوم الأفضل الذي وصل إليها في ١٣ شعبان ٥٩٥هـ / يونيه ١١٩٩م ونازل دمشق وتمكّن بعض أصحابه من التسلل إلى داخل المدينة غير أن العادل تمكّن من صدهم وإخراجهم من البلد. ثم استطاع بدهائه وحنكته تثبيط همم بعض قادة الأفضل، الذين أشاروا عليه بالتوقف عن الهجوم، ريثما يصل إليه الظاهر غازي صاحب حلب بعساكره[١].

وأخيراً وصل الظاهر في آخر شعبان ٥٩٥هـ/ يونيه ١١٩٩ م وفرض الأخوان الحصار الشديد على دمشق، حتى عدمت بها الأقوات واشتد الغلاء، واضطر العادل إلى الاقتراض من تجار دمشق، ودام الحصار زهاء ستة أشهر حتى أوشك العادل على تسليم دمشق[٢]. وكان لهذه الحوادث أسوأ الأثر في نفوس بعض المؤرخين المسلمين حتى أن السيوطي علّق عليها متهكماً بقوله: «وبدّل المسلمون بحرب الفرنج حرب بعضهم بعضاً»[٣].

ولم ينته الحصار ـ رغم شدته ـ بسقوط دمشق بسبب العوامل التالية:

مفرج الكروب جـ٣ ص ٩٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية جـ١٣ ص١٨ ـ ١٩؛ الحصيني، منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦.

(١) ابن أبي الدم، التاريخ المظفري لوحة ٥٣٦ ـ ٥٣٧؛ العيني، عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٢٧ ـ ٢٢٨؛ ابن قاضي شهبة: الإعلام بتاريخ أهل الإسلام حوادث ٥٩٥هـ، تاريخ ابن الجزري لوحة ٣١١؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص١٤٣ ـ ١٤٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٩٥ ـ ٩٧؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٠ ـ ١٠١؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٩ ـ ٢١؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٤٩.

(٣) السيوطي: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ورقة ١٢٣ أ.

أولاً : قيام الصلاحية في بيت المقدس بإرسال النجدات إلى الملك العادل داخل دمشق، إضافة إلى قَطْعِهِمْ لخطوط التموين المرسلة إلى الأفضل والقادمة من مصر، مما أدى إلى تضرر عسكر الأفضل «غاية الضرر»[1].

ثانياً : قدوم محمد الكامل بن العادل من الشرق نجدة لوالده إذ تمكّن من تجنيد جيش كبير من التركمان، كما مرّ على قلعة جعبر وحمل منها أموالاً ضخمة حيث كان والده يحتفظ فيها بمعظم أمواله، وقد أدى وصول الكامل إلى دمشق، إلى ازدياد قوة والده، وتحطيم معنويات الظاهر والأفضل وتقاعسهما[2].

ثالثاً: لجوء العادل إلى مناورة سياسية أوقعت الشك والريبة بين الأخوين، الظاهر والأفضل وذلك عندما أرسل إلى الظاهر سراً يعرض عليه تسليم دمشق له على أن يكون الظاهر هو السلطان بدلاً من الأفضل، مما أطمع الظاهر فطلب من أخيه التنازل عن دمشق، فرفض الأفضل محتجاً بأن دمشق هي إقطاعه من قبل والده[3].

رابعاً : حلول فصل الشتاء وهطول الثلوج والأمطار وشدة البرد، بحيث أصبح من المتعذر على الجيوش المحاصرة لدمشق الإستمرار في حصارها فقرر الأفضل العودة إلى مصر بينما عاد الظاهر غازي وصاحب حمص إلى بلادهما[4].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٠.

(٢) العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٤١ ـ ٢٤٢؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٤٤ ـ ١٤٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٤ ـ ١٠٥؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠؛ ابن ايبك: كنز الدرر جـ٧ ص ١٤٠.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٦٣؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ورقة ٤٣ أ؛ السيوطي، اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ورقة ١٢٣ أ؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٧؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧١ ـ ١٧٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١.

والحق، لقد كان العادل واثقاً كل الثقة من أن الصراع سيحسم لصالحه. إذ يشير عدد من المؤرخين إلى أن العادل ـ أثناء حصره بدمشق، وخلال فترات الشدة والضيق من الحصار ـ كان يهيء المؤن ويملأ القرب بالماء مفصحاً عن عزمه الأكيد على مطاردة الأفضل إلى مصر، مما يشير إلى أنه قد استمال بعض قادة الأفضل[1]. أما الأفضل فعندما وصل إلى مصر تفرقت عساكره إلى إقطاعاتها للعناية بها ولإخراج دوابهم إلى الربيع، ودلف الأفضل إلى القاهرة في جمع قليل من جنوده[2].

وكان العادل قد سار إلى مصر في إثر الأفضل والتقى به عند بلبيس وأنزل به الهزيمة، ففر إلى القاهرة. وأخيراً راسل عمه العادل وطلب إعطاءه دمشق عوضاً عن مصر فرفض فعاد وطلب حران والرها، فامتنع العادل من إجابة طلبه هذا، وذلك بسبب الأهمية الكبيرة لمدينتيّ الرها وحران، اللتين تقعان على ملتقى طرق المواصلات بمنطقة الجزيرة ومن يسيطر عليهما، يستطيع بسط نفوذه على الجزيرة والشام وآسيا الصغرى. وأخيراً طلب منه حاني وجبل جور وميافارقين وسميساط بمنطقة الجزيرة، فأجابه إلى طلبه، ودخل العادل إلى القاهرة في ربيع الآخر ٥٩٦هـ / فبراير ١٢٠٠م وتقلّد أمور مصر على أنه أتابك للمنصور بن العزيز[3].

لم يلبث العادل في منصب الأتابكية غير فترة قصيرة حتى أفصح عن طموحاته الحقيقية. فاجتمع بالفقهاء واستفتاهم في خلع ابن العزيز فأجازوا له

---

(١) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١١؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٤٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٨؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٧ ـ ١٠٨؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧١ ـ ١٧٢.

(٣) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٤٦ ب ـ ١٤٧ أ؛ العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٧ ب؛ الناشري: روضة الناظر ورقة ٨٢ ب ـ ٨٣ أ؛ ابن الساعي: الجامع المختصر جـ٩ ص ٢٢؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠٩ ـ ١١٠؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٩٨.

ذلك وأيّد الأسدية قرار خلع المنصور تقرباً إلى العادل بعد موقفهم السابق المعادي له والمناصر للأفضل. وبعد أن حصل العادل على المبرر الشرعي ممثلاً في فتوى الفقهاء، وكذلك التأييد السياسي في موقف الأسدية، أقدم على خلع المنصور بن العزيز في شوال سنة ٥٩٦هـ (أغسطس ١٢٠٠م) وأعلن نفسه سلطاناً على الدولة الأيوبية وأقام الخطبة لنفسه وضرب السكة باسمه(١).

استدعى العادل ابنه الكامل محمد إلى مصر وجعله نائباً عنه ووليا لعهده، وأخرج المنصور وإخوته من مصر. ثم التقى العادل رسل ابن أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، والمنصور تقي الدين محمد صاحب حماه، يعتذران عن مساعدتهما للأفضل، ويعلنان دخولهما في طاعته، وإقامة الخطبة والسكة ببلادهما له. فقبل العادل عذرهما، وألزم الظاهر بتقديم خمسمائة فارس من عسكر حلب يكونون جاهزين عند طلبه لأداء الخدمة العسكرية(٢). ويعلق المؤرخ أبو شامة على خلع العادل للمنصور قائلاً «واستبد بملك مصر آمناً من الشركة»(٣).

وعلى الرغم من انشغال العادل بمواجهة الأزمة الاقتصادية الخانقة، التي وقعت فيها مصر حينذاك بسبب انخفاض النيل وانتشار المجاعة(٤)، فإن المنازعات السياسية بين الأيوبيين سرعان ما أطلت برأسها من جديد. ذلك أن الأفضل ـ وحسب اتفاقه مع عمه ـ بعث بنوابه ليتسلّموا البلاد التي منحه إياها عمه عوضاً عن مصر وهي ميافارقين وحاني وجبل جور وسميساط، لكن الملك

---

(١) الجنابي: البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٧ ب؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣١٢؛ الديري: الجدول الصفي من البحر الوفي ورقة ٢١٧ ب ـ ٢١٨ أ؛ ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٠؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧٧؛ القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ص ١٩٥، ابن الساعي: الجامع المختصر جـ٩ ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١١٢ ـ ١١٤؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٧٨ ـ ١٨٠؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣؛ العليمي: الأنس الجليل جـ١ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠؛ الغزى: نهر الذهب في تاريخ حلب جـ٣ ص ١٠٨.

(٣) أبو شامة: الروضتين جـ٢ ص ٢٣٧.

(٤) عن هذه الأزمة الاقتصادية انظر: ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٧٣ ـ ١٧٤؛ ابن أياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

الأوحد بن العادل رفض تسليم ميافارقين وسلم ما عداها، وشكى الأفضل لعمه موقف إبنه فتظاهر العادل بأن ابنه عصاه، لكن الأفضل فَهِمَ أنّ موقف الأوحد كان بإيعاز من والده، فاشتد سخطه وقرر العمل ضد عمه من جديد[1].

وفضلاً عن ذلك فإن زعماء الصلاحية حينما قدَّموا المساعدة للعادل في صراعه مع الأفضل وانتزاع مصر منه، فإنما فعلوا ذلك بشرط أن يُبْقِي العادل على الملك المنصور بن العزيز، وأن يقوم بوظيفة الأتابكية حتى يكبر الملك الصغير، ويسلم الأمر إليه[2]. ولما خلع العادل المنصور غضب زعماء الصلاحية لهذا الإجراء، وشرعوا في مشاورة بعضهم البعض، وتراسلوا مع الأفضل والظاهر، وقرروا جميعاً شن الحرب على الملك العادل. واتفق الأفضل مع الظاهر على أنه إذا تم الإستيلاء على دمشق يتسلمها الأفضل، ثم يمضيان إلى مصر. وإذا استوليا عليها تكون للأفضل بينما تصبح بلاد الشام بما فيها دمشق للظاهر. وحاول الظاهر إستمالة المنصور صاحب حماه إلى هذا الحلف لكنه رفض، وأعلن انحيازه للسلطان العادل، فقام بمحاصرته في حماه وأجبره على دفع أتاوة حربية مقدارها ثلاثون ألف دينار صورية[3].

ومن ناحية أخرى، فإن الظاهر غازي اتفق مع أرسلان شاه صاحب الموصل، وصاحب ماردين على أن يكونوا جميعاً يداً واحدة إذا ما هاجم العادل بلادهم. وحينما تحرّك الظاهر والأفضل صوب دمشق أرسلا إلى نور الدين صاحب الموصل يطلبان إليه مهاجمة بلاد العادل الجزرية فأجابهما إلى ذلك[4].

تقدم كل من الظاهر والأفضل حيث ضربا الحصار حول دمشق في ذي

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١١٦؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ١٩٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١١٠.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٩ أ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٤٨ ب؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣١٣؛ ابن قاضي شهبة: الإعلام بتاريخ أهل الإسلام حوادث ٥٩٧هـ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٤ - ١٥؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٠٠ - ٢٠٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٦٧ - ١٦٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٧.

القعدة ٥٩٧هـ / سبتمبر ١٢٠١م فسار العادل مسرعاً إلى بلاد الشام، وأقام بنابلس لتقديم المساعدات لإبنه المعظم بدمشق، وقد استمر حصار دمشق زهاء شهرين(١). ثم تمكن السلطان العادل من تحقيق النصر الحاسم على ابنيّ أخيه، إذ قام ابنه الفائز ـ وكان نائباً عن والده بحران ـ فأغار على مملكة حلب من الشمال الشرقي، وهاجم منبج واعزاز، وأوقع الرعب والفزع في نفوس سكان القرى التابعة لحلب، فهرب الكثير من الفلاحين ولجأوا إلى مدينة حلب، مما كان له أبلغ الأثر في إزعاج الظاهر وإشغال خاطره عن حصار دمشق(٢). كما تمكّن العادل من جديد من زرع بذور الخلاف بين الأفضل وأخيه الظاهر، واستمال بعض زعماء الصلاحية إليه مثل فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا وغيرهما، فسارعوا بالإنضمام إليه، وبالتالي عاد الظاهر أدراجه إلى حلب، وتوجه الأفضل إلى حمص، ورفع الحصار عن دمشق في أول محرم ٥٩٨هـ / أول أكتوبر ١٢٠١م وتقدّم العادل إلى دمشق وأقام بها حيث وفد عليه الأفضل، ودخل في خدمته، واجتمع به، ثم غادر دمشق إلى البلاد التي منحه إياها عمه العادل(٣).

سار العادل من دمشق شمالاً بقصد تهديد الظاهر غازي صاحب حلب، وإشعاره بقوته، فوصل إلى حماه، ونزل على تل صفرون. فاستقبله المنصور صاحب حماه، وقدّم له فروض الطاعة والولاء، وقام بجميع وظائفه وكلفه. وعندما بلغ الظاهر وصول عمه وعزمه على محاصرته بحلب فزع واستعد للحصار، وراسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، وأخيراً تم توقيع الصلح بين الجانبين سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م وكان من بنوده :

---

(١) العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٥٤ ـ ٢٥٥؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٠٨ ب؛ ابن أيبك: درر التيجان حوادث ٥٩٧هـ؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩١ ـ ٣٩٢؛ ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٠؛ الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٢ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢١٩ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٢١.

١ ـ أن يكون للملك العادل دمشق، والسواحل وأعمال بيت المقدس، والكرك ومصر إضافة إلى ما بيده ويد أولاده، من بلاد الشرق الواقعة شرق الفرات.

٢ ـ أن يظل الظاهر محتفظاً بحلب وما يتصل بها.

٣ ـ ويعطي للمنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب حماه والمعرة وسلمية وبعرين.

٤ ـ ويأخذ الملك أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه حمص والرحبة وتدمر.

٥ ـ أن يتنازل الظاهر لأخيه الأفضل عن قلعة نجم.

وبعد توقيع الصلح بين الجانبين وانتظام ممالك الشام في طاعة السلطان العادل، ذهب إلى حمص ومنها إلى دمشق، وهكذا أتم توحيد الدولة الأيوبية من جديد، وأصبحت دولته تمتد من بلاد الجزيرة شرقاً مروراً بالشام ومصر، وخُطب له على منابرها، وضُربت السكة فيها باسمه[١].

كذلك سعى العادل جاهداً إلى توطيد نفوذه في منطقة الجزيرة. ففي سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م عهد إلى إبنه الأشرف موسى بحصار الأراتقة في ماردين وتمكّن الأشرف فعلاً من إجبار صاحب ماردين على دفع أتاوة سنوية والإذعان لإقامة الخطبة وضرب السكة للسلطان العادل بماردين والتعهّد بتقديم الخدمة العسكرية عند طلبها[٢]. وفي العام التالي (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) التفت العادل

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٠أ؛ العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٢٧٢ ـ ٢٧٣؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٠٩ أ؛ ابن أبي الدم: التاريخ المظفري لوحة ٥٣٩؛ العليمي: المعتبر في أنباء من غبر، ورقة ٧٤ ب؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٤ قسم ٢ ص ٢٢٧؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢١٣؛ الغزى: نهر الذهب في تاريخ حلب جـ٣ ص ١٠٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٧٩ ـ ١٨٠؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٣٨ ـ ٣٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٩ ـ ١٤٠؛ ابن الفرات جـ ٤ قسم ٢ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

للزنكيين، فاستمال قطب الدين محمد صاحب سنجار، الذي دخل في طاعته مما أغضب ابن عمه نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل، وتحرّك لمواجهة ابن عمه ومعاقبته على الخضوع للسلطان العادل. ولكن الأشرف ابن العادل تصدّى له وأنزل به الهزيمة مما جعله يذعن للصلح مع الأشرف سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م[١].

وفي سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م استولى العادل على الخابور ونصيبين بمنطقة الجزيرة، وحاصر سنجار بقصد الإستيلاء عليها إلّا أنه تراجع واستجاب لوساطة الخليفة وتركها على حالها[٢]. وامتد نفوذ العادل إلى خلاط عاصمة أرمينية حينما تمكّن إبنه الأوحد من الإستيلاء عليها سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م[٣].

أما بالنسبة لعلاقة العادل بأبناء أخيه صلاح الدين في هذه الفترة، فقد اكتشف سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م مراسلات سرية من الأفضل لبعض القادة العسكريين بقصد محالفتهم ضد عمه العادل. فأصدر الأخير أوامره إلى ابنه الأشرف بالإستيلاء على رأس عين وسروج. وأمر الظاهر غازي صاحب حلب بانتزاع قلعة نجم من الأفضل. وقد نجحا في ذلك، ولم يبق بيد الأفضل سوى سميساط الأمر الذي دفعه إلى الإنحياز إلى سلطان سلاجقة الروم والدخول في طاعته نكاية في عمه العادل[٤].

أما عن علاقة العادل بابن أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، فمما لا

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص١٩٢ - ١٩٤؛ ابن الساعي: الجامع المختصر جـ٩ ص١٢٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص١٥٥ - ١٥٩؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص٣٩٣ - ٣٩٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص٢٨٤ - ٢٨٧؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص٢١٩ - ٢٢٠؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص١١٢ - ١١٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص٢٧٢ - ٢٧٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص١٧٥ - ١٧٧.

(٤) العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٧٨؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٠ أ؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص٢١٤.

شك فيه أن الظاهر كان ينظر لعمه بعين الشك والريبة، ويعتبره مغتصباً لملك أبناء صلاح الدين، ولإدراكه بعجزه عن مواجهة العادل في ميدان مكشوف فإنه ظل يعمل سراً ضد عمه. ففي سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م كاتب الظاهر بعض الأمراء واستمالهم إليه. وفي هذا الوقت راجت الشائعات بأن العادل مصمِّم على أخذ حلب، مما دفع الظاهر للإسراع بتحصين حلب، وتزويدها بالمؤن والأقوات، لمواجهة الحصار المحتمل. وأخيراً تراسل الاثنان، وتم تجديد المواثيق والعهود بينهما[١]. لكن الشك لم يتبدد بين الظاهر وعمه، فعاد الظاهر في سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م إلى مكاتبة بعض الأمراء سراً. مما جعل العادل يقرر في سنة ٦٠٧هـ معاقبة الظاهر بإظهار عزمه على مهاجمة حلب والإستيلاء عليها، الأمر الذي جعل الظاهر يلتمس الحلفاء في أتابكة الموصل، فراسلهم واتفق معهم على أن يهاجموا أملاك العادل في الجزيرة، إذا هو هاجم حلب، لذلك، فحين علم العادل بهذا التحالف أعرض عن قصد حلب وقفل عائداً إلى دمشق[٢].

وفي نفس عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م اكتشف العادل مراسلات سرية جرت بين الظاهر وبين الأمير عز الدين أسامة ـ وهو من كبار الأمراء الصلاحية وله إقطاعات واسعة بجنوب الشام من ضمنها كوكب وعجلون ـ فاستدعى العادل أسامة إلى القاهرة للتحقيق معه. لكن أسامة لما أيقن بافتضاح أمره، غادر مصر عائداً إلى الشام، بغية الإعتصام بقلاعه. فبعث العادل إبنه المعظم عيسى خلفه، حيث تمكّن من اللحاق به في فلسطين، وقبض عليه وسجنه بالكرك، وصادر أمواله، واستولى على إقطاعاته، بما فيها كوكب وعجلون. وبالقضاء على أسامة انتهى دور طائفة الصلاحية واختفى نفوذهم من الحياة السياسية ببلاد الشام[٣].

---

(١) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٥٢، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٤؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٤٨ ـ ٤٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٦٦.

(٢) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٦١ ـ ٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٠١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ١٠٤.

(٣) النويري: نهاية الارب جـ ٢٧ ورقة ١٦ أ ب ـ ١٧أ؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٢

وأخيراً تحسّنت العلاقات بين السلطان العادل والظاهر غازي ملك حلب، الذي أرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى عمه العادل، ليخطب له إبنته ضيفة خاتون. وقد وافق العادل على وساطة القاضي ابن شداد فأجاب طلب الظاهر، حيث زوّجه بها ووفدت عليه إلى حلب سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م[1].

وهكذا أصبح العادل هو سلطان مصر والشام وبعض مناطق الجزيرة الفراتية، وخلاط، وميافارقين وغيرها، وحصل على التقليد من الخليفة العباسي (الناصر لدين الله ٥٧٥ هـ - ٦٢٢ هـ) حيث اكتسب الصبغة الشرعية بارتدائه خِلع الخليفة، وتسلّم تقليده سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م[2].

وبعد ذلك قام العادل بتقسيم مملكته بين أولاده فأعطى ابنه الأكبر الكامل محمد مصر، ومنح إبنه المعظم عيسى: أجزاء واسعة من بلاد الشام، امتدت من حدود حمص إلى العريش جنوباً، بما فيها بلاد الساحل التي في حوزة المسلمين، والغور وبيت المقدس، والكرك والشوبك وصرخد، وعاصمتها جميعاً دمشق. وأعطى ابنه الأشرف مظفر الدين موسى: البلاد الشرقية وهي الرها وحران وما يتصل بهما، أما ابنه الأوحد: فقد منحه خلاط، وميافارقين. وأصبح العادل بعد ذلك يتنقل بين مملكته الواسعة حيث يقضي فصل الصيف في بلاد الشام ويشتي بمصر[3].

أ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٣ أ؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٦٦ أ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٥٧ - ٥٥٨؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(١) سبط ابن العجمي: كنوز الذهبي في تاريخ حلب، مخطوط لوحة ١١٠، تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٥ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٦٣ - ١٦٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢١٢ - ٢١٥؛ ابن ايبك: الدر المطلوب ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٣) الأهدل: غربال الزمان ورقة ١٤٥ ب؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٢ ص ٢٣٦؛ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٦٧ - ٦٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٦٨ - ١٦٩.

«الممالك الأيوبية في بلاد الشام»

أ ـ مملكة حلب :

تعتبر مملكة حلب من أطول الممالك الأيوبية عمراً وأبعدها أثراً في تاريخ بلاد الشام قبيل الغزو المغولي. وقد نشأت هذه المملكة عندما منح صلاح الدين إبنه الظاهر غازي حلب وما يتبعها سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م[١].

ولموقع حلب أهمية كبيرة في تاريخ بلاد الشام وبخاصة هذه الفترة التي أتعرض لدراستها. فهي ـ حلب ـ تقع في شمال بلاد الشام وتجاورها من جهة الغرب إمارة إنطاكية الصليبية، ومن الشمال الغربي مملكة أرمينية الصغرى، ومن الشمال دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى[٢]. وتمتد مملكة حلب إلى الجزيرة الفراتية وتتبعها معظم الثغور الشامية والجزرية.

وقد سبق الحديث عن الدور الذي لعبه الظاهر غازي، خلال حرب الوراثة التي أعقبت وفاة والده صلاح الدين. وإذا كان العادل قد تمكّن بدهائه من التغلّب على ممالك أبناء أخيه في دمشق ومصر وساعدته الظروف على تحقيق طموحاته، فإن حصانة حلب وحنكة صاحبها الظاهر، وحسن سياسته حالت دون سقوطها بيد عمه العادل.

وقد بنى الظاهر غازي سياسته الداخلية على أساس تدعيم نفوذه داخل

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣ ص ٨٩.

(٢) عن علاقة حلب بهذه القوى، انظر الفصل الرابع.

حدود مملكته، فجعل دولته معمورة بالعلماء والفضلاء، - وأحسن إلى رعيته، كما أكرم الوافدين إليه، وفتح صدره إلى اللاجئين إليه من أهل بيته، واعتمد في إدارة شئون دولته على القاضي بهاء الدين بن شداد. وضم إليه معظم الأمراء الصلاحية الذين فقدوا ممتلكاتهم لحساب عمه العادل. كما وطد علاقته مع الأسر العريقة ذات النفوذ داخل حلب كأسرة بني الخشاب وغيرهم[1].

كما بنى الظاهر سياسته الخارجية مع القوى المحيطة بحلب على أساس مراعاة حسن الجوار ومداهنة الحكام الآخرين، وإظهار نفسه كعامل توازن بينهم وبين عمه العادل، وفي ذلك يقول النعيمي عن الظاهر: إنه صاحب «غدر ودهاء وأعظم دليل على دهائه مفاوضته لعمه العادل، وكان لا يخليه يوماً من شغل قلب وخوف، وكان يصادق ملوك الأطراف، ويباطنهم ويلاطفهم ويوهمهم أنه لولاه لكان العادل يقصدهم ويوهم عمه أنه لولاه لم يطعه أحد من الملوك ولكاشفوه بالشقاق، فكان بهذا التدبير يستولي على الجهتين ويستبعد الفريقين ويشغل بعضهم ببعض... يغمر الملوك بالتحف والشعراء والقصاد بالصلات»[2].

وهكذا استطاع الظاهر - بهذا النهج - المحافظة على مملكة حلب وشمال الشام، لا سيما وأن هذه المملكة تحيطها قوى مختلفة ودول متباينة. ففي المشرق - ببلاد الجزيرة - يوجد الأتابكة في الموصل وسنجار، والأراتقة في ماردين وحصن كيفا، وفي آسيا الصغرى - شمال حلب - دول سلاجقة الروم، وفي الشمال الغربي مملكة أرمينية الصغرى، وفي غرب حلب إمارة إنطاكية الصليبية

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٧٩؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ١٣٠، أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٩٤؛ وبنو الخشاب أسرة كردية عريقة دخلت في خدمة إمارة بني مرداس بحلب خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ويبدو أن هذه الأسرة استمرت في مكانتها وعراقتها حتى القرن السابع الهجري: انظر: Zakkar, The Emirate of Allepo p.238.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣؛ وانظر أيضاً ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٥٥.

وفي الجنوب مملكتا حمص وحماه إضافة إلى سلطنة الملك العادل.

والواقع أن الحديث عن مملكة حلب وغيرها من الممالك الأيوبية في بلاد الشام لايتم دون الاشارة إلى ما كان للإقطاع الحربي الأيوبي من نتائج سيئة على الحياة السياسية في بلاد الشام وبخاصة على مملكة حلب.

فمن المعروف أن نظام الإقطاع الحربي في الشرق الإسلامي نشأ في عهد الدولة السلجوقية، التي تميزت بالصفة الحربية العامة، بحيث انتقل فيها نظام الرواتب والأعطيات النقدية، إلى نظام التعامل على قاعدة إقطاعية. إذ قام الوزير نظام الملك بإلغاء نظام جباية الأموال من البلاد وصرفها على الجيش، وأحل محلها إقطاع البلاد لكبار القادة العسكريين لكي ينصرفوا إلى الاهتمام بشئونها وعمارتها[١]. وعندما جاء صلاح الدين طبق نظام الإقطاع الحربي فمنح قادة جيشه الإقطاعات مقابل تقديم الخدمات الحربية عند الحاجة إلى ذلك. وجعل صلاح الدين نظام الإقطاع الحربي غير وراثي، مخالفاً في ذلك الإقطاع الزنكي، حتى لا تؤؤل الاقطاعات إلى أطفال صغار الأمر الذي قد ينجم عنه نوع من الفوضى[٢]. وأصبح بذلك للمقطع الحق في أن يجمع من الضرائب ما يكفيه ويكفي جنوده لمعيشتهم، مقابل تقديم الخدمات الحربية لسيده السلطان[٣]. وقد أعفى هذا النظام السلطان من مهام نفقات الجيوش، إذ أصبح المقطع هو المسئول عن نفقات عساكره وما تحتاجه من أسلحة ومؤن وأقوات أثناء تأدية الخدمات الحربية للدولة[٤].

وعلى الرغم من أن هذا النظام قد أفاد الدولة من الناحية الاقتصادية

---

(١) نظير حسان سعداوي: جيش مصر في أيام صلاح الدين ص ٢ - ٣؛ حسنين ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٢٦.

(٢) Cahen. ArtiCle Ayyubids in Encyclopaedia of Islam, new edition; Hassanein rabie, the financial System of Egypt, pp 28 — 30.

(٣) Hassanein Rabie: the Financial System of Egypt p. 57

(٤) Rabie: Ibid. p. 32.

عندما ترك للأمراء حرية تنظيم إقطاعاتهم، وبالتالي أعفى الحكومة المركزية من أية مصاريف إضافية، إلا أنه من ناحية أخرى كانت له آثاره السيئة ذلك أن القادة المقطعين كانوا يعودون بعساكرهم إلى إقطاعاتهم في مواسم الحصاد، للإشراف على جميع المحاصيل وتخزينها، مما يسبب حرجاً شديداً للسلطان. من ذلك ما حدث مع صلاح الدين في بلاد الشام سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م عندما سمح للجيوش بالعودة لجمع المحصول فكادت أن تلحق به الهزيمة[١].

كما لا يغيب عنا ما نجم عن نظام الإقطاع الحربي من آثار سياسة سيئة في تاريخ بلاد الشام خاصة والدولة الأيوبية بصفة عامة. وإذا كانت هذه الاثار لم تظهر بصورة واضحة زمن السلطان صلاح الدين، فإن مرد ذلك إلى قوة شخصيته وغلبة تيار الجهاد على ما سواه من التيارات في عصره. أما الآثار السياسية السيئة لهذا النظام فقد ظهرت جلية واضحة بعد وفاته. ذلك أن القادة والأمراء المقطعين احتفظوا بجيوش خاصة بهم، الأمر الذي أغراهم بالنزوع إلى الاستبداد ومحاولة نيل استقلالهم عن سيدهم الملك الأيوبي، إضافة إلى محاولة كل مقطع توسيع إقطاعاته، وعمل القادة الذين ليس لهم إقطاعات على الحصول على إقطاعات لهم وكل ذلك أوجد حالة من عدم الاستقرار، كما تقلب الأمراء في ولائهم بين ملوك بني أيوب، تبعاً لمن يمنحهم إقطاعات أكبر وأكثر إيراداً. وما نتج عن ذلك كله من آثار سيئة تمثلت في زيادة حدة الخلافات، وتعميق الانقسامات السياسية بين الايوبيين وهو ما سيتضح بجلاء فيما بعد في دراسة الأحوال السياسية لبلاد الشام خلال الفترة موضع الدراسة.

فقد كانت تل باشر[٢] إقطاعاً لبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق فقام دلدرم بتحصين تل باشر وأخذ يشعر في قرارة نفسه بالتعاظم على الملك

---

(١) Rabie: Ibide. pp 69 — 70.

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب مسيرة يومين سيراً على الأقدام وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق وهي عامرة آهلة انظر: ياقوت، معجم البلدان.

الظاهر غازي، صاحب حلب، وكان أتباع دلدرم يعظمونه أيضاً ويعاملونه معاملتهم للسلطان. وكان لأتباع دلدرم، من الياروقية إقطاعات واسعة في جبل السماق[1]. فلما شعر الظاهر غازي بخطورة بدر الدين دلدرم، وكشف إتصالاته السرية مع عمه العادل استدرجه إلى حلب واعتقله بقلعتها سنة ٥٩٠ هـ/١٠٩٤ م وأخرج أتباعه من حلب وانتزع إقطاعاتهم، وطالب زعيمهم دلدرم بتسليم تل باشر فرفض، فلما علم الملك العادل بالقبض على دلدرم سار من حران إلى حلب فاستقبله الظاهر وشفع في دلدرم فأجابه الظاهر إلى طلبه. وظلت تل باشر بيد دلدرم حتى وفاته سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م[2].

أما الأمير عز الدين إبراهيم بن المقدم، فكان إقطاعه يشمل بارين، وأفامية وكفر طاب وما يتبعها من قرى وكلها تابعة لحلب، فعصى على الظاهر غازي سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٩٥ م وانضم إلى عمه العادل[3]، فلم يجرؤ الظاهر على التعرض له بعد أن دخل في حماية عمه العادل. وفي سنة ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م تمكن المنصور صاحب حماه ـ وكان محالفاً للظاهر ـ، من انتزاع بارين من نواب إبراهيم بن المقدم[4]، إلا أن المنصور سرعان ما اضطر ـ تحت ضغط الملك العادل ـ إلى تعويض ابن المقدم عن بارين فأعطاه منبج وقلعة نجم، بالإضافة إلى ما كان بيده سابقاً مثل كفر طاب وخمس وعشرين ضيعة من أعمال المعرة[5].

---

(١) جبل السماق: جبل عظيم من أعمال حلب الغربية يشتمل على مدن وقرى عامتها للاسماعيلية انظر ياقوت: معجم البلدن.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٥٤ ب (نسخة الفاتيكان)؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٣٥ أ ب؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٣ أ ب؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٤٥ ـ وأفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص، وبارين: مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب، وكفر طاب بلدة بين المعرة ومدينة حلب، انظر ياقوت معجم البلدان.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٠١.

(٥) المصدر السابق جـ٣ ص ١١٤.

ولما توفي إبراهيم بن المقدم سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م آلت إقطاعاته إلى أخيه عبد الملك بن المقدم، وهو ما يخالف القاعدة التي وضعها صلاح الدين في عدم توريث الإقطاع. لذلك سار الظاهر غازي قاصداً منبج، فاعتصم عبد الملك بن المقدم بقلعتها، لكن الظاهر تمكن - بعد حصارها سبعة أيام - من الاستيلاء عليها، واعتقال ابن المقدم وإرساله إلى قلعة حلب. ثم سار الظاهر إلى قلعة نجم على نهر الفرات، ونازلها وتسلمها من نائب ابن المقدم[1]. وفي السنة التالية ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م أرسل الظاهر غازي إلى نائب ابن المقدم بأفامية ويدعى قراقوش طالباً منه تسليمها إليه فرفض، فسار الظاهر واستولى على كفر طاب، وضرب الحصار حول أفامية دون جدوى، وأحضر عبد الملك بن المقدم أمام اسوار أفامية وأمر بضربه بالسياط ضرباً مبرحاً كيما يرغم نائبه قراقوش على التسليم، فأمر الأخير بضرب الطبول على اسوار القلعة حتى لا يسمع أهل البلد صراخ سيدهم، وبعد قتال شديد أصيب فيه الظاهر بجروح عجز عن أخذ أفامية عنوة، فترك جيشاً يحاصرها ورحل عنها[2].

وأخيراً وافق قراقوش على تسليم أفامية على أن يعوض سيده ابن المقدم، فأجابه الظاهر إلى ذلك وأقطعه الراوندان[3] وكفرطاب ومفردة المعرة، بشرط أن يقيم بمدينة حلب حتى لا يعود إلى العصيان مرة أخرى، وتسلم الظاهر أفامية، ولكن ابن المقدم تمكن من الفرار من حلب، ولجأ إلى قلعة الراوندان[1] حيث أعلن العصيان بها من جديد على الظاهر مما أجبر الأخير

---

(١) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة جـ ١ لوحة ٣٦٢ (نسخة أيا صوفيا)، العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٢٥٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٢٠ - ١٢١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٤ قسم ٢ ص ١٩٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ٩٩؛ الغزي: نهر الذهب جـ ٣ ص ١٠٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٢٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٤٩؛ ابو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ٩٩.

(٣) الراوندان: قلعة صغيرة على رأس جبل عال متفرد في مكانه لا يحكم عليها منجنيق ولا يصل إليها نبل ولها ربض صغير في لحف جبلها وهي من أقوى القلاع وأحسن البقاع ويحف

على محاصرة الراوندان، حتى استولى عليها، وصادر جميع إقطاعات وأموال عبد الملك بن المقدم، وحاول الأخير الاستشفاع بصاحب تل باشر بدر الدين دلدرم إلى الظاهر فلم تُجْدِ شفاعته شيئاً، فلجأ ابن المقدم إلى السلطان العادل فمنحه السلطان إقطاعاً حسناً، وأحسن إليه. أما الراوندان فقد احتفظ بها الظاهر في حوزته ولم يقطعها لأحد نظراً لحصانتها وحساسية موقعها[1].

ويبدو أن الظاهر غازي خشي من انتزاع عمه العادل لمنبج منه، وإعادتها لصاحب حماه، نظراً لأنها كانت خاضعة لنفوذه، ولذلك عمد الظاهر سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م إلى تخريب قلعة منبج، ونقل ذخائرها إلى حلب، وأقطع البلدة لعماد الدين أحمد بن علي بن المشطوب، ثم عاد الظاهر وانتزعها منه في السنة نفسها، وطرده منها فسار ابن المشطوب إلى الشرق[2].

أما عزاز[3] وهي أيضاً من جملة الثغور الشامية التابعة لمملكة حلب، فكانت إقطاعاً لأحد الأمراء ويدعى سيف الدين بن علم الدين علي بن سليمان بن حيدر، وكان مريضاً بحلب فخرج الظاهر إلى بلد رعبان[4] وأثناء مروره بعزاز هطلت الأمطار والثلوج فأراد الصعود إلى قلعة عزاز للاحتماء بها، فرفض أتباع سيف الدين السماح له بالصعود إلا بإذن سيدهم سيف الدين، فسار الظاهر إلى دربساك[5] وكان بها ابن عم سيف الدين فقبض عليه، وعاد

بالقلعة من جهة الغرب والشمال واد كالخندق وفيه نهر جار، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ورقة ١٥١ ب نسخة الفاتيكان.

(١) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة جـ ١ لوحة ٢١٧ ـ ٢١٨ نسخة أيا صوفيا، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٣١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٤ قسم ٢ ص ٢٢٥؛ ابو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٠١؛ الغزى: نهر الذهب جـ ٣ ص ١٠٩.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٥٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٣١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٤ قسم ٢ ص ٢٢٢؛ أبو الفدا المختصر جـ ٣ ص ١٠١.

(٣) عزاز: بليدة لها قلعة ورستاق شمالي حلب على مسيرة يوم، ياقوت معجم البلدان.

(٤) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٥) دربساك: من أعمال حلب وهي قلعة مرتفعة لها بساتين وشرقها مروج واسعة يجري فيها النهر الأسود. انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

إلى حلب غاضباً، واعتقل سيف الدين وهو مريض ووضعه في محفة وسيّره معتقلاً إلى عزاز وتسلمها من أتباعه (١). وهذه الحادثة تشير بوضوح إلى أن ولاء الجنود لسيدهم صاحب الإقطاع، كان يفوق كثيراً ولاءهم للملك الأيوبي الذي منح الإقطاع أصلاً لسيدهم، أو بالأحرى لا يعترفون إلا بقائدهم سيداً وحيداً لهم. ومن الطبيعي أن يُغري، هذا الولاء شبه المطلق، الأمراء المقطعين بالنزوع إلى الاستقلال كلما سنحت لهم الفرصة بذلك.

وكانت حارم (٢) وهي من أعمال حلب أيضاً إقطاعاً لأحد مماليك السلطان صلاح الدين ويدعى سربك، فلما ولي الظاهر حكم حلب، أرسل إليه خلعة خاصة، فأهداها سربك لأحد مماليكه. مما أغضب الظاهر غازي واعتبره إهانة له، وأرسل إليه يستدعيه إلى حلب. لكن سربك رفض تنفيذ هذا الأمر وامتنع بحصن حارم. فسار الظاهر إلى حارم ونازلها، وأخيراً استجاب لتدخل بعض الأمراء الذين سعوا في الصلح، فعفى عن سربك، وتسلم منه حارم وعوضه عنها برعبان سنة ٥٩٣ هـ (٣) /١١٩٧ م. ولكن سربك سرعان ما عصىَ علي الظاهر برعبان في السنة نفسها مما دفع الأخير إلى منازلة رعبان في رمضان ٥٩٣ هـ. وحينما شعر سربك بحرج موقفه فتح باب القلعة والتمس من الظاهر العفو فعفا عنه ورد رعبان إليه وعاد إلى حلب (٤).

وكان الأمير غرس الدين قلج من الأمراء أصحاب الإقطاعيات بمملكة حلب، وبيده عدد من القلاع الحصينة وهي دركوش (٥) والشغر وبكاس (٦)،

---

(١) الأعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٤٩ أ نسخة الفاتيكان، زبدة الحلب جـ٣ ص ١٣٨.

(٢) حارم: حصن حصين وكوره جليلة من أعمال حلب تقع جهة أنطاكية. انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) الأعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٤٤ نسخة الفاتيكان.

(٤) زبدة الحلب جـ٣ ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٥) دركوش: قلعة من أعمال حارم لها جامع وربض تقع على نهر العاصي انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٤٥ ب نسخة الفاتيكان.

(٦) الشغروبكاس: قلعتان قويتان من النواحي الغربية لحلب، والشغر قلعة صغيرة قريبة من بكاس

وشقيف الروج[1]. فلما توفي غرس الدين قلج سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٩ م عصى أولاده بهذه القلاع على الظاهر غازي وامتنعوا من تسليمها إليه، فخرج بجيشه من حلب وحاصر هذه القلاع الواحدة تلو الأخرى حتى استولى عليها وقبض على أبناء غرس الدين قلج، ثم عاد وعفى عنهم وأجرى لهم الرواتب واختص منهم سيف الدين علي بن قلج الذي أضحى من أخلص مستشاريه وأعز أصحابه [2].

أما بالس [3] فقد أقطعها الظاهر لأحد أمرائه ويدعى أثير الملك، غير أن الظاهر سرعان ما اكتشف غدره وعدم إخلاصه، بمراسلته للعزيز عثمان صاحب مصر.

فأرسل الظاهر إليه من اعتقله وشنقه وتسلم بالس. ثم تنازل الظاهر عن بالس لعمه العادل بعد توقيع الصلح معه سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م وقام العادل بإقطاعها لابنه الحافظ مضافة إلى قلعة جعبر [4].

لم يقتصر الاضطراب السياسي على القادة العسكريين أصحاب الإقطاعات، وما سببوه من قلق لملك حلب الظاهر غازي، بل إن بعض الشخصيات الذين ليس لهم إقطاعات بدأوا يتطلعون إلى تأسيس إمارات خاصة

يعبر إلى إحداهما من الأخرى بجسر وهما على جانبي نهر الأرنط، ولبكاس نهر يخرج من تحتها، وهما في غاية المنعة والقوة انظر: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ورقة ١٦٢ ب - ١٦٣ أ نسخة الفاتيكان؛ وانظر أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(١) الروج: كورة من كور حلب غربيها بينها وبين المعرة، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ورقة ١٣١ ب (نسخة الفاتيكان).

(٣) بالس: بلدة بين حلب والرقة على الضفة الغربية لنهر الفرات، انظر ياقوت معجم البلدان.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٤١ - وقلعة جعبر على نهر الفرات بين بالس والرقة على الطرف الشمالي للنهر، وتقع القلعة على هضبة صخرية صعبة المنال. انظر ياقوت: معجم البلدان؛ أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

بهم، لا سيما وأن الظاهر كان منغمساً في حرب الوراثة الأيوبية، من ذلك محاولة العلم بن ماهان، الذي كان عند الملك الظاهر في محل الوزارة لمكانته الخاصة في نفس الظاهر. ففي سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦ م وصل إلى الملك الظاهر الأمير علم الدين قيصر الناصري - وهو من كبار الأمراء الصلاحية - فأقطعه الظاهر اللاذقية ونزعها من يد صاحبها ابن السلار. وأرسل الظاهر صديقه العلم بن ماهان ليحصي ما في قلعتها من أموال وذخائر ويسلم القلعة ذاتها لعلم الدين قيصر، وأن يبقى الجنود فيها على حالهم، على أن يأخذ منهم الإيمان والمواثيق بالإخلاص للظاهر غازي (١).

فلما وصل العلم بن ماهان إلى اللاذقية طمع في الاستيلاء عليها والاستقلال بها «وحدثته نفسه بالعصيان، واستحلف الأجناد لنفسه، وخالفه بعضهم، وامتنعوا وكتبوا إلى الملك الظاهر، وقبضوا على ابن ماهان». فسار الظاهر بنفسه إلى اللاذقية واعتقل ابن ماهان، وقطع يده ونكل به (٢). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى خطورة التدهور السياسي الذي أصاب بلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين، مما شجع بعض الشخصيات على استغلال الوضع السائد، ومحاولة إنشاء إمارات خاصة بهم مما زاد في تدهور بلاد الشام.

وكيفما كان الأمر، فإن الظاهر غازي أضحى مقتنعاً - بعد النتائج التي تمخضت عنها حرب الوراثة الأيوبية - أنه لم يعد بمقدوره العمل على مناوئة عمه العادل، بعد أن بسط نفوذه على مصر وبلاد الشام والجزيرة، واستعان بأولاده في إدارة هذه البلاد، كما أيقن بأن أي محاولة لإعادة السلطنة إلى أبناء صلاح الدين، ستكون مجازفة قد يدفع ثمنها مملكته في حلب وشمال الشام. ولذلك آثر الظاهر العمل على تغيير سياسته وتحسين علاقته مع عمه العادل وأبنائه. وليس أدل على ذلك من قيام الظاهر باستقبال ابن عمه الأشرف موسى استقبالاً

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٣٦.
(٢) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٣٦ - ١٣٧.

حافلاً. عند مروره بحلب سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م، حيث أنزله في داره بقلعة حلب، وقدَّم له من الهدايا والتحف والسلاح والخيل والذهب والجواهر والمماليك، والأقمشة والخلع ما قدرت قيمته بخمسين ألف دينار [١].

ونظراً لما كان لعلاقات الزواج والمصاهرة من أثر على توجيه الحياة السياسية في العصور الوسطى - سواء في الشرق أو الغرب - فقد قرر الظاهر تحسين علاقته بعمه السلطان العادل عن طريق تجديد علاقة المصاهرة بينهما [٢]، فأرسل في سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م القاضي بهاء الدين بن شداد برسالة إلى عمه العادل بمصر تضمنت استعطافه واسترضاءه، وأن يجدد له اليمين على مملكة حلب. كما خطب ابنته «ضيفة خاتون» شقيقة محمد الكامل ولي عهد العادل، وكانت أحب أبنائه إليه، فوافق العادل على طلب ابن أخيه الظاهر غازي. وتم عقد النكاح في سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م وقدمت ضيفة خاتون إلى حلب في أبهة عظيمة، واستقبلها الظاهر استقبالاً حافلاً [٣]. وقد نتج عن هذا الزواج تحسن في العلاقات بين الظاهر وعمه العادل «وزال ما كان بينهما من الأحن» على حد تعبير أبي الفدا [٤].

ولكن ابن واصل يعود فيذكر في سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م أنه «حصل عند الملك الظاهر استشعار من عمه الملك العادل لشيء بلغه عنه وأخذ في

(١) الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٢ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣ ص ١٥٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨٣ - ١٨٥؛ الغزي: نهر الذهب جـ٣ ص ١١٠ - ١١١؛ الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٢ ص ٢٠٧.

(٢) كان صلاح الدين قد زوَّج ابنه الظاهر غازي من ابنة أخيه العادل غازية خاتون سنة ٥٨٢ هـ إلا أنها توفيت قبيل موت صلاح الدين. انظر ابن العجمي: كنوز الذهب لوحة ١١٠.

(٣) ابن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب لوحة ١١٠ - ١١١؛ تاريخ ابن الشحنة ورقة ٥٩ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢١٢ - ٢١٥؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٣ - ١٦٤؛ ابن أيبك: الدر المطلوب ص ١٧٨ - ١٧٩؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٢١٤؛ الغزي: نهر الذهب جـ٣ ص ١١١.

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ١١٤.

الاستخدام والاستعداد «لكن ابن واصل لم يوضح سبب ذلك، كما أن الأمور لم تبلغ حداً كبيراً من التدهور، فبعث الظاهر إلى عمه العادل، بنائب القاضي ابن شداد لإصلاح الحال بينهما. كما ورد من جهة السلطان العادل «ما طاب به قلب الظاهر وزال استشعاره، فبعث الملك الظاهر إلى عمه هدية سنية من جملتها خمسون رأساً من الخيل» (١).

وفي أواخر سنة ٦١٠ هـ/١٢١٤ م ولد للظاهر من ابنة عمه ضيفة خاتون ولد أسماه العزيز غياث الدين محمد، وأقام الظاهر لمولده احتفالاً مشهوداً. حيث أقيمت مظاهر الفرح والابتهاج بمدينة حلب ومدحه الشعراء بهذه المناسبة (٢). ولعل ابتهاج الظاهر الشديد بمولد ابنه هذا راجع إلى أنه رأى فيه ضماناً لاستمرار الحكم في سلالته بحلب، وذلك لأن المولود الجديد يعد حفيداً للسلطان العادل وأبناء العادل هم إخواله وهم أصحاب الحكم في مصر والشام والجزيرة. فقرر الظاهر غازي أن يعهد إليه بولاية العهد، وعدل عن ابنه الأكبر - وهو من زوجة أخرى - حتى لا ينازعه العادل أو أبناؤه (٣). ويبدو أيضاً أن الظاهر رأى أن تولية ابنه العزيز غياث الدين بعده، سوف يحميه من منافسة إخوة الظاهر من أبناء صلاح الدين وغيرهم من الأمراء. لأنهم لن يستطيعوا معارضته خوفاً من العادل وأبنائه.

وفي سنة ٦١٣ هـ/١٢١٦ م أرسل الظاهر القاضي بهاء الدين ابن شداد إلى عمه العادل طالباً منه ثلاثة أشياء، أولها: الموافقة على أن يكون العزيز محمد ولي عهد أبيه وقائماً بمملكة حلب بعده، وثانيها: خطبة ابنة الكامل محمد بن العادل للعزيز بن الظاهر، وثالثها: أن يكون صلح الظاهر وصلح العادل مع

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢١٩ - ٢٢٠.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٢٠ - ٢٢٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣١٣، محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٢ ص ٧٨.

الفرنج واحداً ونكثها واحداً أيضاً، وتنسيق خططهما أزاء الفرنج. وقد وافق السلطان العادل وابنه الكامل على مطالب الظاهر الثلاثة وأعطيا عهدهما للقاضي ابن شداد على ذلك (١).

وفي جمادي الأولى ٦١٣ هـ/١٢١٦ م وأثناء سفارة القاضي ابن شداد إلى مصر مرض الظاهر غازي، فأحضر نائب القاضي ابن شداد، وكتب وصيته التي تضمنت: أن يكون الملك بعده ابنه العزيز محمد، وبعده ابنه الآخر صلاح الدين أحمد بن الظاهر، وبعدهما لابن عمهما المنصور محمد ابن العزيز عثمان، وأن يكون الأمير شهاب الدين طغريل الخادم مسؤولاً عن قلعة حلب وأموال المملكة، والأمير سيف الدين علي بن سليمان بن حيدر أتابك العسكر. وجرى أخذ اليمين من الأمراء والقادة وأعيان حلب بتنفيذ الوصية وأن يبعث منها نسخة إلى السلطان العادل، وأحضر الظاهر طغريل الخادم وسلمه مفاتيح الخزائن، وجعل له السلطة المطلقة في جميع القلاع وتصريف شئون الدولة، وخشي الظاهر من أخيه الظافر خضر ابن صلاح الدين فأقطعه كفر سوذ من أعمال حلب وأخرجه من المدينة، فسار الظافر خضر قاصداً كفرسوذ فسبقه إليها أخوه الزاهر بن صلاح الدين صاحب البيرة فاستولى عليها وعلى بعض القرى المجاورة لها، فقصد الظافر منبج بقصد الاستيلاء عليها، فأرسل الأتابك طغريل في أثره فرقة عسكرية رحّلته عنها فذهب إلى أخيه الأفضل صاحب سميساط وأقام عنده. وفي أواخر جمادي الآخرة ٦١٣ هـ/ اكتوبر ١٢١٦ م توفي الظاهر غازي صاحب حلب وعم الحزن والفزع أرجاء مملكة حلب، لما عرف عنه من عدل وحسن سياسة وشفقة ورحمة بالرعية (٢).

ولما وصل القاضي بهاء الدين بن شداد اجتمع بشهاب الدين طغريل

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٣٦ - ٢٣٧؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١٩٣ - ١٩٤؛ الغزى: نهر الذهب في تاريخ حلب جـ٣ ص ١١؛ الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٢ ص ٢١٥.

(٢) العليمي: تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١٢ أ؛ ابن العديم، زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٩ - ١٧١؛ ابن واصل، مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٣٧ - ٢٤٣.

وغيره من الأمراء، وقرروا إسناد منصب أتابك العسكر للمنصور بن العزيز وأن يكون أمر الإقطاع بيده، أما المناصب الدينية فتكون بيد شهاب الدين طغريل، غير أن جَعْلَ أتابكية العسكر - أي قيادتها - بيد المنصور لم ترض أخوة الملك الظاهر. فظهر رأي يشير بأن يكون الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط أتابك لعسكر حلب لأنه عم الملك العزيز. وأيد هذا الرأي جماعة من الأمراء المصريين من الصلاحية، الذين استقروا بحلب بعد توقيع الصلح بين الظاهر وعمه العادل. وأشاروا إلى أن الأفضل أولى الناس بتربية العزيز وحفظ دولته، وأنه إذا رجع إليه الأمر سيكون قادراً على الثأر من عمه العادل واسترداد السلطنة منه. غير أن القاضي ابن شداد والأمير سيف الدين بن قلج وغيرهما رفضوا هذا الرأي، وبينوا الأخطار التي ستنجم عن الأخذ بهذه المشورة نظراً لقوة العادل وضخامة مملكته، ولأن المجاهرة بمعاداته سيؤدي إلى القضاء على مملكة حلب. كما أن إسناد قيادة العسكر للأفضل قد يهدد العزيز في حلب ذاتها، فمن المحتمل أن يستولي الأفضل على مملكته مثلما فعل العادل مع المنصور بن العزيز في مصر. وأخيراً تم الاتفاق على إسناد جميع أمور المملكة إلى شهاب الدين طغريل، وعملت نسخة يمين على ذلك وأقسم بموجبها جميع الأمراء واستقرت الأمور بحلب [1].

أجمع المؤرخون على حسن سيرة الأتابك شهاب الدين طغريل، لما اشتهر به من الزهد والتقوى، فانعكس ذلك على إخلاصه في أداء الأمانة التي أوكلت إليه [2]. فقام بتنظيم مملكة حلب وقلاعها، وتنظيم الإقطاع وتوزيعه على المخلصين في الخدمة، واستعان في ذلك برأي القاضي بهاء الدين بن شداد،

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٧٥ - ١٧٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٤٩ - ٢٥١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ٢ ص ٢٠٧ - ٢١٠.

(٢) العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٥٧؛ العليمي: المعتبر في أنباء من غبر، ورقة ٧٤ ب؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٩٦ - ٩٧؛ ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب جـ ٤ قسم ١ ص ٤٢٥ - ٤٢٦؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣١٤؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٩٧.

والأمير سيف الدين بن قلج، فأقطع علم الدين قيصر دربساك، وأقطع أحد زعماء التركمان اللاذقية، وبعث علم الدين قيصر إلى الزاهر صاحب البيرة يعاتبه على هجومه على البلاد أثناء مرض الظاهر وموته. وبعد تردد أعلن الزاهر طاعته للأتابك طغريل، بشرط أن تبقى البلاد التي استولى عليها في يده، فأجابه إلى طلبه [1].

وعلى الرغم مما شهدته مملكة حلب زمن الأتابك طغريل من استقرار داخلي، فإن ذلك لا يعني انعدام المشكلات بالنسبة لها. إذ لم تلبث أطماع القادة العسكريين وبعض الأمراء المقطعين أن ظهرت من جديد، ذلك أن جماعة من المماليك الظاهرية كرهوا قيام الأتابك بمفرده بإدارة شئون مملكة حلب، وعلى رأس هؤلاء المتذمرين أيبك الجمدار الظاهري. فراسل والي حارم سنة ٦١٣ هـ/١٢١٦ م، واتفق معه على أن يسير بمن معه إلى حارم، ويقومون بالعمل معاً ضد الأتابك طغريل. غير أن حامية حارم اعتقلت الوالي ومنعت أيبك الجمدار من الصعود للقلعة مما أجبره على الذهاب إلى دربساك طامعاً في الاستيلاء عليها، فلم ينجح فسار إلى سلطان سلاجقة الروم وانضم إليه. كما أعلن صاحب قلعة بهسنا [2] عصيانه وانضم إلى سلطان الروم، ثم سكنت الفتنة وانتظم الأمر في أواخر سنة ٦١٣ هـ [3].

وفي سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م سار السلطان العادل إلى بلاد الشام، وأرسل إلى الأتابك شهاب الدين طغريل يؤكد دعمه لمملكة حلب، كما أرسل في الوقت نفسه خلعة وسنجقا «وحلف له على ما أوجب السكون والثقة» [4].

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٧٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط من أعمال حلب: ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ لوحة ٢٢٨ (نسخة أيا صوفيا)؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٧٨ - ١٧٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٤) زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٧٩ - والسنجق لفظ تركي كان يطلق أصلاً على الرمح ثم أطلق على الراية التي تربط به وكانت السناجق تحمل في مواكب السلطان، انظر القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨، جـ ٥ ص ٤٥٦؛ مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥ حاشية رقم (١).

ثم تعرضت مملكة حلب لخطر محقق سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م من قبل سلطان سلاجقة الروم، الذي قرر المسير إلى حلب للاستيلاء عليها. غير أن الأشرف بن العادل سار مسرعاً لنجدة حلب وتمكن من صد سلطان سلاجقة الروم وبالتالي حماية حلب من السقوط (١).

انصرف الأشرف أثناء إقامته في حلب ـ بعد صده سلطان الروم ـ إلى ترتيب أمورها، مما جعل الأمراء الصلاحية يضمرون له الغدر، فقرر التخلص منهم، وسيرهم إلى مصر لنجدة أخيه الكامل الذي كان يواجه الحملة الصليبية الخامسة على مصر، وبينما كان الأشرف مقيماً في حلب بلغه نبأ وفاة والده السلطان العادل، فاستقر رأيه ورأى الأتابك طغريل على إقامة الخطبة بحلب للسلطان الكامل محمد بن العادل وبعده للأشرف ثم للملك العزيز بن الظاهر، وضرب اسم السلطان الكامل والملك العزيز على السكة (٢).

وأراد الأتابك طغريل مكافأة الأشرف على نجدته لمملكة حلب، وحمايتها من خطر سلاجقة الروم، فأقطعه عدداً من القرى الزراعية الغنية في ريف حلب، ويبلغ إيرادها السنوي مليوني درهم ولكن الأشرف أبدى حسن نيته إزاء مملكة حلب فأرسل في سنة ٦١٨ هـ/١٢٢١ م يعلن تنازله عن تلك القرى وأمر نوابه بتسليمها للأتابك طغريل ومغادرتها، وكان لهذا التصرف أحسن الأثر في نفوس الحلبيين (٣).

وقد أثمرت سياسة الود والصداقة التي انتهجها الأتابك طغريل تجاه أبناء العادل، ففي سنة ٦٢٠ م غادر الأشرف مصر متوجهاً إلى بلاده بالشرق وحمل معه من أخيه السلطان الكامل، الخلع السلطانية وتقليد السلطنة بمملكة حلب والسناجق للملك العزيز محمد بن الظاهر، ودخل بها إلى حلب في شوال

---

(١) انظر تفصيل هذه الحادثة في الفصل الرابع ص: ٣١٩ ـ ٣٢٣.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٩.

(٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٦٢ أب نسخة الفاتيكان؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

سنة ٦٢٠ هـ/ نوفمبر ١٢٢٣ م. وقد جرى له استقبال حافل بمدينة حلب ولبس العزيز - وكان عمره يومئذٍ عشر سنوات - خلع خاله السلطان الكامل، وأقام الأشرف بحلب عشرة أيام ثم غادرها إلى بلاده (١).

ظل الأتابك طغريل مخلصاً في خدمة ابن سيده الملك العزيز، ولم يظهر منه خلال فترة حكمه أية أطماع، كما لم يسع لتحقيق أية مكاسب شخصية، بل إنه عمد إلى تدريب العزيز على شئون الحكم وتلقينه أصول الإدارة، ومن أمثلة ذلك عندما أجلسه سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م في منصب أبيه، ورفعت إليه الشكاوي، وأمر ونهى، وكان عمره يومئذٍ خمس عشرة سنة، وأحضر الفقهاء والعلماء بين يديه ودارت بينهم المناقشات والمناظرات العلمية (٢).

وفي سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م سار القاضي بهاء الدين بن شداد، ويصحبته أكابر حلب ووجهائها لمقابلة السلطان الكامل الذي كان يحاصر دمشق، وذلك لعقد قران الملك العزيز على ابنة السلطان التي سبق وخطبها له والده قبيل موته. وتم عقد النكاح على صداق مقداره خمسون ألف دينار، وخلع الكامل على القاضي بهاء الدين بن شداد وأصحابه وعادوا إلى حلب مسرورين بتوطيد العلاقات بين العزيز وخاله السلطان الكامل (٣).

غير أن زفاف العزيز من ابنة الكامل لم يتم إلا سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م عندما قام القاضي ابن شداد بالسفر إلى مصر، وأحضرها في أبهة عظيمة، واستقبلتها حلب في احتفال كبير (٤).

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٩٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٢٩ - ١٣٠؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ مخطوط لوحة ٥ - ٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٢٧ - ٢٢٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٠٥.

(٣) ابن الفرات: جـ ٢ مخطوط لوحة ٥٣ - ٥٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٠٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١١ - ٢١٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٩ - ٣٠.

ومهما يكن من شيء فمنذ هلت سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١ م انفرد الملك العزيز بحكم حلب، عندما بلغ عمره ثماني عشرة سنة وسلم إليه أتابكة شهاب الدين طغريل قلعة حلب بما فيها من أموال وذخائر. فقام العزيز بتعيين الولاة من قبله، واستحلف العساكر والقادة والأعيان لنفسه، كما خرج من حلب وزار القلاع والحصون، ورتب شئونها. أما الأتابك طغريل فقد خرج من قلعة حلب بعد أن ظل مقيماً بها طوال فترة أتابكيته وسكن بداره في مدينة حلب. وقد شهد له المؤرخون بحسن السيرة، وأنه لم ينصح أحد غيره في خدمة بيت أستاذه وقيامه بأمر تربية ابنه حتى يكبر مثلما فعل هو [١].

وفي السنة التالية ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م خرج العزيز من حلب قاصداً تل باشر، التي كانت بيد الأتابك طغريل وبها أمواله الخاصة. ويبدو أن بعض أصحاب العزيز هم الذين أوعزوا له بالاستيلاء على القلعة. واقترحوا عليه ترك قراها الزراعية بيد الأتابك، وكانوا يعتقدون أن الأتابك يحتفظ داخل القلعة بأموال طائلة، وما أن علم الأتابك بهذه الحركة حتى أمر واليه عليها بتسليمها إلى العزيز دون معارضة، ولما استولى عليها الأخير أخذ خزانة الأتابك ولم يجد بها سوى القليل من الأموال فأعادها إليه فامتنع من أخذها قائلاً «ما ادخرت المال إلا لك» وهذا ما يؤكد نزاهته وأمانته [٢].

وأخذ العزيز يتطلع لبسط نفوذه المباشر على شيزر [٣] لما لها من أهمية

---

(١) تاريخ ابن الفرات: جـ ٦ مخطوط لوحة ط,ظ ـ ١٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٠٩ ـ ٣١١؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣١٤؛ الغزى: نهر الذهب جـ ٣ ص ١١٤؛ الطباخ: إعلام النبلاء جـ ٢ ص ٢٣٩.

(٢) ابن الفرات: جـ ٦ لوحة ١٩٨ ـ ١٩٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٩ ـ ١٠.

(٣) تقع شيزر إلى الشمال من حماه على هضبة صخرية منتصبة على ضفة نهر العاصي الغربية يكللها خصن لم يزل قائماً إلى اليوم ومعروف باسم (سيجر) تحريف (شيزر) والهضبة مرتفعة ويحيط بها النهر من جهاتها الثلاث بحيث أصبحت شبه جزيرة وقد أكمل الإنسان حصانتها بحفر خندق يمر في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر، وبني على الخندق جسر من الخشب للوصول إلى

عسكرية، وكانت إقطاعاً للأمير يوسف بن مسعود بن سابق الدين بن الداية. وفي سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م خرج العزيز إلى بعض القرى التابعة لحلب والقريبة من شيزر، فلم يحتفل به صاحب شيزر، ولم ينزل إليه وأرسل له إقامة وعلوفات قليلة، فاتخذ العزيز ذلك ذريعة للاستيلاء على شيزر، فعاد إلى حلب، وأرسل سيف الدين علي بن قلج الظاهري إلى السلطان الكامل، يستأذنه في حصار شيزر والاستيلاء عليها، باعتبارها تابعة لمملكة حلب، وقد قام العزيز بهذا الإجراء خوفاً من قيام صاحبها ابن الداية بالاستشفاع بالسلطان الكامل، فلا يتحقق غرضه بالاستيلاء عليها. وسار العزيز نحو شيزر واستولى على محاصيلها ثم نصب المنجنيقات [1] جهة الجبل، وترك المنجنيق الغربي قبالة بابها. وبعث إلى صاحبها محذراً بقوله: «والله لئن قُتل واحد من أصحابي لأشنقنك بدله» فأصيب ابن الداية بالذعر وأمر أصحابه بعدم القتال، وراسل العزيز وعرض عليه تسليم شيزر وحصن أبو قبيس المقابل لشيزر، على أن يبقى على أمواله التي بها ويعيد أملاكه التي بحلب فأجابه العزيز إلى ذلك وتسلمها وعاد إلى حلب [2].

وفي سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٥ م امتد نفوذ العزيز إلى البيرة الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الفرات التي كانت خاضعة للملك الزاهر داود ابن صلاح الدين،

القلعة، مما زاد في حصانتها ومناعتها. انظر ياقوت، معجم البلدان؛ أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ ابن منقذ الاعتبار، مقدمة المحقق ص ت جـ.

(١) المنجنيقات: جمع منجنيق وهي أصناف مختلفة وذات تراكيب متباينة، فمنها العربي والفارسي والإفرنجي، فمثلاً المنجنيق العربي يصنع من الخشب الجيد ويتكون من مثلث متساوي الساقين قاعدته أصغر من الساق بمقدار التسع ويركب في أعلا المثلث خنزيرة من خشب السنديان ويكتنفها من أسفل بطانة، ويوجد تحت الخنزيرة سقف لمنع وصول الأذى إلى الرجال الذين تحته. وتستخدم المنجنيقات لرمي السهام إلى مسافات بعيدة ولرمي الحصون بالحجارة الضخمة كما تستخدم لقذف قدور النفط والكرات المشتعلة وغير ذلك. انظر الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب، نشر كاهن ص ١٦ ـ ١٧؛ عبد الرحمن زكي: السلاح في الإسلام ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب (أيا صوفيا) لوحة ٢٢٢؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٢٨ ـ ٢٣٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١٤ ـ ٢١٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٦٣ ـ ٦٥.

الذي ما أن اشتد به المرض حتى أوصى بالبيرة وأعمالها لابن أخيه العزيز، فقام الأخير بعد موت عمه بتنظيم أحوالها وعين بها والياً من قبله وعاد إلى حلب [1].

أما عن سياسة العزيز داخل حلب ، فقد اتسمت باللين وحسن الإدارة والتقرّب إلى الرعية والإحسان إليهم، ونشر العدل داخل مملكته ورفع الظلم عن الناس، وعدم الإجحاف بهم، ومما يدل على ذلك تصرفه إزاء أحد أثرياء حلب ويدعى كمال الدين بن العجمي الذي طلب منه أن يوليه قضاء حلب، بعد وفاة القاضي بهاء الدين بن شداد. وعرض مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال وشيئاً مقرراً كل سنة من الأوقاف وغيرها. لكن العزيز رفض هذا العرض لأنه رأى فيه مدعاة إلى الجور في الأحكام والخروج عن القوانين الشرعية. هذا فضلاً عن أن طالب القضاء بهذه الصورة لا يكون مأموناً على أموال الناس وأعراضهم. وقد رفض العزيز بدافع من سجيته الكريمة، ودينه الوافر، وحرصه الشديد على نشر العدل بين رعيته. فأسند منصب القضاء إلى نائب القاضي بهاء الدين بن شداد، ويدعى زين الدين بن الأستاذ، لما عرف عنه من علم وافر ونزاهة وتقوى، إضافة إلى ثقة القاضي ابن شداد به قبيل موته. كما سار العزيز على سياسة والده في توريث المناصب للأبناء إذا اشتهروا بالكفاءة والإخلاص مثل آبائهم [2].

وكيفما كان الأمر فان عهد العزيز لم يدم طويلاً بحلب إذ مرض سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م ، فقرر تولية ابنه الناصر يوسف وأرسل المؤرخ كمال الدين بن العديم إلى أخيه أحمد بن الظاهر صاحب عينتاب طالباً منه التنازل عن ولاية العهد لابنه، واستحلفه على ذلك. وكانت وفاته في ربيع الأول ٦٣٤هـ / ديسمبر ١٢٣٦م عن ثلاث وعشرين سنة[3] من العمر.

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص٢١٨ ـ ٢١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٨٨ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٥٧ ـ ٣٥٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٥٥ ـ ٣٥٦؛ العليمي في تاريخ من ملك مصر وعكا والشام

لما توفي العزيز، تقرر إقامة إبنه الناصر يوسف صلاح الدين مكانه وهو بعد ما يزال صغيراً، فمولده سنة ٦٢٧هـ. ومن أجل ذلك تألف مجلس وصاية مكوناً من الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني، وعز الدين عمر بن محلّي، والوزير جمال الدين القفطي. على أن يحضر المجلس جمال الدين إقبال الخاتوني، ويقوم بمهمة حلقة الاتصال بينهم وبين جدة الملك الصغير ضيفة خاتون إبنة العادل وشقيقة السلطان الكامل. وأن تكون العلامات على التواقيع والمكاتبات إليها، وأصبحت ضيفة خاتون تدير مملكة حلب بصورة غير مباشرة. وحينما تقررت هذه القواعد، بعث الحلبيون بالقاضي زين الدين بن الأستاذ، وبدر الدين بن الهيجاء رسولين إلى السلطان الكامل لأخذ موافقته على هذه الإجراءات، ووافق الكامل على ذلك. واقترح إقامة الصالح بن الظاهر صاحب عينتاب[1] أتابكاً للعسكر، وأن يقوم بتربية ابن أخيه الناصر يوسف. وعندما عاد الرسولان إلى حلب وأخبرا ضيفة خاتون أخت الكامل بهذا الإقتراح، رفضته وأيدها في ذلك أعضاء مجلس الوصاية. وبعد فترة وجيزة أرسل السلطان الكامل خلعة للملك الناصر يوسف، وخلعة أخرى لعمه الصالح صاحب عينتاب، الأمر الذي أوقع الشك والريبة في نفوس أهل حلب، ومنعوا الخلع من الوصول إلى الصالح، فتدهورت العلاقات بعد ذلك بين مملكة حلب والسلطان الكامل[2].

ولقد جرت مؤامرة داخلية للإطاحة بمملكة حلب، حاك خيوطها يوسف بن مسعود بن سابق الدين بن الداية ، الذي كان بيده شيزر، وكمال الدين بن العجمي، وأرسلا سراً إلى الملك الأشرف موسى صاحب دمشق،

والساحل، ورقة ١١٤ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١١٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٥٨.

(١) وعينتاب قلعة حصينة من أعمال حلب تقع بين انطاكية وحلب. انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) ابن تغري بردى: المنهل الصافي جـ٨ ورقة ٤٢٤ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٥٨ - ٣٥٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١١٨ - ١٢١؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ص ٨٨؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

يعرضان عليه الإستيلاء على حلب ويعدانه بالمساعدة من الداخل. غير أن الأشرف رفض عرضهما، ثم اكتشفت الصاحبة ضيفة خاتون وأعوانها سر المؤامرة. وجرى القبض على ابن الداية وابن العجمي واعتقلا بقلعة حلب سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٥م[١].

ومن الأخطار التي تعرضت لها مملكة حلب سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٥م خطر التركمان، إذ قام أحد زعمائهم ويدعى قنغر، وجمع أعداداً كبيرة من التركمان، وعاث في أطراف حلب ونهب عدة قرى، وكان يشن الغارات ويلجأ إلى آسيا الصغرى، ولما خرج إليه عسكر حلب أنزل بهم الهزيمة. فظن أمراء حلب أن تلك الغارات التركمانية بأمر سلطان سلاجقة الروم، فأرسلوا يشكون إليه قنغر، فأمره برد ما نهب من أعمال حلب «وانكف عن العبث والفساد»[٢].

وفي السنة التالية (٦٣٥هـ / ١٢٣٨م) شهدت مملكة حلب أحداثاً خطيرة، إذ اندلعت نيران الحرب الأهلية في بلاد الشام، تلك الحرب التي سيكون لها نتائج سيئة على أحوال بلاد الشام قبيل الغزو المغولي. وكان من الطبيعي أن تطال هذه الحرب مملكة حلب، شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشام. فاستدعت الصاحبة ضيفة خاتون المعظم بن صلاح الدين وإخوته وأقاربه وجميع أمراء حلب، وأخذت منهم العهود والمواثيق على الإخلاص للملك الناصر، واستحلفت أيضاً وجهاء حلب وسائر جنودها وشرعت في الإستعداد لظروف الحرب بتخزين المؤن والأقوات والسلاح والذخائر، وجندت جماعة من الخوارزمية، كما وصل إلى حلب قنغر التركماني فاستخدمته وأتباعه من التركمان، وكل هذه الإستعدادات كانت ضمن تحالف ملوك الشام ضد السلطان الكامل[٣].

---

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٨ - ٣٦٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٨ - ٢٢٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٢٨ - ١٣٠؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤٠٩.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٦٧ - ٣٦٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٣٠ - ١٣١.

(٣) مفرج الكروب، جـ٥ ص ١٨٠. وعن الحرب الأهلية وأسبابها ودور حلب فيها. انظر الفصل

وقد تمكنت الصاحبة ضيفة خاتون من المحافظة على مملكة حلب، رغم تتابع الحوادث التي شهدتها بلاد الشام زمن الحرب الاهلية بين الأيوبيين. بل إنها أضافت إلى مملكة حلب قلعة جعبر، بمنطقة الجزيرة الفراتية. وكانت هذه القلعة خاضعة للملك الحافظ أرسلان شاه بن العادل. وفي سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م أصيب الحافظ بالشلل، واشتد خوفه من الخوارزمية، فراسل أخته ضيفة خاتون وطلب منها أن تتسلم قلعة جعبر وبالس وأن تعوضه عن ذلك ببعض القرى القريبة من حلب، فأعطته عزاز وبعثت إلى قلعة جعبر وتسلمتها[١]. أما الحافظ فتوفي في السنة التالية ٦٣٩هـ / ١٢٤١م وعادت عزاز مرة أخرى إلى نواب الملك الناصر يوسف[٢].

لقد اتّسمت سياسة ضيفة خاتون بالعدل في الرعية، والإحسان إليهم، وأزالت المكوس من جميع بلاد حلب، وكانت تؤثر الفقراء والعلماء وتحمل إليهم الصلات الكثيرة. وتوفيت سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م بعد أن قامت بتدبير مملكة حلب زهاء ست سنين، وحينما توفيت أخذ الناصر يوسف يمارس سلطاته بالتدريج ويساعده في ذلك جمال الدولة إقبال الخاتوني، والوزير جمال الدين القفطي[٣].

وشرع الناصر يوسف بعد انتهاء الحرب الأهلية في توطيد نفوذه فاستولى على حمص سنة[٤] ٦٤٦هـ / ١٢٣٨م. وفي السنة التالية أنزل بصاحب الموصل

الثاني ص: ١٤٠ - ١٤٢، ١٥٥ - ١٥٦.

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٦٦ - ٥٦٧، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣٣؛ مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٧٩ - ٢٨٠؛ الغزى: نهر الذهب جـ ٣ ص ١١٦؛ الطباخ: إعلام النبلاء جـ ٢ ص ٢٦٠.

(٢) زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٦٣؛ مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٨.

(٣) زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٦٥ - ٢٦٧؛ أبو الفدا، المختصر جـ ٣ ص ١٧١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ١٦ ص ٣٢٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١١.

(٤) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٢١٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٥٩؛ ابو الفدا، المختصر جـ ٣ ص ١٧٧.

الهزيمة واستولى على نصيبين ودارا وقرقيسياء بمنطقة الجزيرة[1]. وقد توطد نفوذ الناصر يوسف بالجزيرة، فيذكر المؤرخ المعاصر عز الدين بن شداد أنه كان بيده من بلاد الجزيرة، حران، والرها، وسروج، والرقة وقلعة جعبر والبيرة، وجملين، والموزر، ومن ديار ربيعة نصيبين، ورأس عين ودارا والخابور وقرقيسياء[2].

أما الفترة منذ سنة ٦٤٧هـ وحتى سنة ٦٥٧هـ، فقد شهدت تطورات ضخمة، تمثلت في سقوط الدولة الأيوبية في مصر، وقيام دولة المماليك واستيلاء الناصر يوسف على دمشق وغيرها ومحاولته استعادة مصر، وأثر كل ذلك على أحوال بلاد الشام قبيل الغزو المغولي[3].

ب ـ مملكة حماة:

إذا كانت مملكة حلب قد لعبت دوراً هاماً في تاريخ بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، فإن الدور الذي لعبته مملكة حماه لا يمكن إغفاله خلال نفس الفترة. والجدير بالذكر أن مملكة حماه هي المملكة الأيوبية الوحيدة في بلاد الشام التي نجت من السقوط أمام جحافل المغول بسبب سياسة المسالمة التي انتهجها أهل حماه إزاء المغول.

وتنسب هذه المملكة إلى المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن ايوب، الذي كان صلاح الدين قد أقطعه حماه ومنبج والمعرة وكفر طاب سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م[4]. فلما توفي المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م آلت ممتلكاته إلى إبنه المنصور محمد، وأقره صلاح الدين على ما بيده[5]. فلما اندلعت حرب الوراثة بين أبناء صلاح الدين، لم يشأ المنصور محمد الإنغماس فيها، إلاّ بالقدر الذي يضمن مصالحه ويحفظ مملكته من السقوط.

(١) ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٢؛ أبو الفدا: نفس المصدر جـ ٣ ص ١٨١.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٢٤٥.

(٣) انظر تفصيل هذه الحوادث في الفصل الثاني الصفحات: ١٨٧ ـ ٢٠٣.

(٤) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٧٠.

(٥) المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٠ ـ ٨١.

لما انتهت حرب الوراثة الأيوبية، وأصبح العادل هو السلطان الذي لا ينازعه منازع، قرر المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب توطيد علاقته معه، فخطب ابنته ملكة خاتون سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م وتم زواجه بها سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م[١]. وفي سنة ٦٠١هـ سار المنصور إلى مصر، فأكرمه العادل وأحسن إليه وإلى أصحابه، وعاد إلى حماه مسروراً برضى السلطان عنه[٢]. ومما يجدر ذكره أن المنصور لعب دوراً هاماً في جهاد الصليبيين، سوف نتعرض له بالشرح والتفصيل خلال الحديث عن العلاقات بين المسلمين والفرنج[٣].

والحق لقد أجمع المؤرخون على حسن سيرة الملك المنصور، ورحمته برعيته، واهتمامه بعمارة مملكته. فحصَّن حماه وعمَّق خندقها، وجعله دائراً حول المدينة، وبنى عليه الجسور، وشهدت حماه في عهده نهضة علمية وعمرانية عظيمة[٤].

ظل الملك المنصور يحكم فترة طويلة، وفي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م طلب من أهل حماه الموافقة على أن يكون ابنه المظفر تقي الدين محمود ولي عهده، وكان عمره سبع عشرة سنة، فأجابوه إلى ذلك، وأمر القاضي سالم بن واصل ـ والد المؤرخ المعروف ـ بكتابة العهد على ذلك، وأخذ يمين الأمراء والأعيان عليه. وجهّز ابنه المظفر على رأس فرقة عسكرية وأمره بالرحيل إلى مصر لنجدة خاله السلطان الكامل، الذي كان يقوم حينذاك بالتصدي للحملة الصليبية

---

(١) ابن أبي الدم: التاريخ المظفري لوحة ٥٤٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١١٤، ١٣٤.

(٢) مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٤؛ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٣٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٦؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) انظر ما يلي ص: ٢١٦ ـ ٢١٩.

(٤) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٩٠ ـ ٩١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٧٧ ـ ٨١ وعن ثقافة المنصور ودوره في الحياة العلمية انظر الفصل الخامس الصفحات: ٣٨٩، ٤٢٨، ٤٣٠.

الخامسة[1]. ثم توفي الملك المنصور في السنة التالية ٦١٧هـ / ١٢٢٠م[2].

وكان من المفترض حسب وصية الملك المنصور، أن يتولى ابنه المظفر الحكم. غير أن ذلك لم يحدث، إذ كان المظفر في مصر عند السلطان الكامل في مواجهة الصليبيين، وكان الوزير بحماه ـ وقتذاك ـ زين الدين ابن فريج، فاتفق مع جماعة من الأمراء على استدعاء الناصر قلج أرسلان، الإبن الثاني للملك المنصور. وكان قلج أرسلان أيضاً يساعد الملك المعظم بن العادل على جهاد الصليبيين في فلسطين ـ وقد قام الأمراء بهذا الإجراء لما عرف عن قلج أرسلان من لين عريكة، وخوفاً من المظفر لما اشتهر به من الشدة والشهامة وقوة البأس. ويبدو أن هؤلاء الأمراء قصدوا من هذا أن يبقى الناصر قلج ألعوبة في أيديهم، ويتصرفون بالتالي في شئون مملكة حماة كما يريدون. فبعثوا إلى الناصر يستدعونه على عجل، بيد أن خاله المعظم بن العادل لم يسمح له بالرجوع إلاّ بعد أن تعهد له بدفع مبلغ من المال إذا استولى على حماة. فعاد الناصر قلج إلى حماه ودخل إلى القلعة، ونادى الأمراء بشعاره ملكاً على حماه وحنثوا في إيمانهمْ وعهودهم لأخيه المظفر[3].

لما علم المظفر بنبأ وفاة والده، استأذن خاله السلطان الكامل في العودة إلى حماه، معتقداً انه بمجرد وصوله إليها سوف يتسلّم السلطة. لكنه عندما التقى بخاله المعظم في غور الأردن أخبره أن أمراء حماه قلدوا أخاه قلج أرسلان، وأشار عليه بالإقامة في دمشق، ومراسلة أرباب الدولة في بلده وتذكيرهم بعهدهم السابق له. واستجاب المظفر لمشورة خاله فأقام بدمشق، وحينما آيس من إستعادة حماه رجع إلى مصر وأقام إلى جوار السلطان الكامل[4].

---

(١) مفرج الكروب جـ ٤ ص ٦٤ ـ ٦٥؛ ابو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٢٤.

(٢) ابن أبي الدم: التاريخ المظفري لوحة ٥٤٤؛ ابن نظيف: المصدر السابق ص ٩٠.

(٣) ابن أبي الدم: التاريخ المظفري لوحة ٥٤٤ ـ ٤٤٦؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقم ٢٢٦ أ؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٩١ حاشية رقم (٢)؛ مفرج الكروب جـ ٤ ص ٨٦ ـ ٨٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٢٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٨٨ ـ ٨٩؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٢٦.

ومن ناحية أخرى، فقد تعرضت مملكة حماه لخطر محقق من قبل الملك المعظم صاحب دمشق. وذلك لأن الناصر قلج لم يقم بدفع ما تعهد به من المال بعد إستيلائه على حماه، فقرر المعظم الإستيلاء عليها وضمها إلى مملكته، وفي الوقت نفسه، هرب أحد قادة السلطان الكامل ويدعى مجاهد الدين إقبال، ولجأ إلى حماه، فأرسل الكامل إلى أخيه المعظم يأمره بالقبض عليه وإرساله إلى مصر، فاتخذ المعظم ذلك ذريعة للهجوم على مملكة حماه. وسار إليها بجيشه أوائل سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م، بينما كان الناصر قلج أرسلان يتصيّد خارج حماه. فلما علم بقدوم خاله عاد مسرعاً إلى بلده وتحصّن بها، واستعد للحصار. ولما أدرك المعظم صعوبة الإستيلاء على حماه نفسها، قرر تجريدها من مواردها الاقتصادية لإجبارها على الإستسلام، عن طريق الاستيلاء على قراها الزراعية فسار إلى سلمية[1] وأخذ جميع محاصيلها من الحبوب، وولى فيها والياً من قبله، ورحل إلى معرة النعمان فأذعنت له. وأرسل الناصر قلج إليه بالمعرة رسولاً يستعطفه لكنه رفض إجابته. وفي معرة النعمان[2] تلقى المعظم مبعوثاً من أتابك حلب شهاب الدين طغريل مستفسراً عن سبب اقترابه من حلب، فاعتذر للأتابك بأنه لم يقصد حماه إلّا للقبض على الأمير مجاهد الدين. ولكن الناصر قلج لم يحترمه، ولم ينزل إليه ويقدم له الخدمة. ورحل إلى سلمية عاقداً العزم على منازلة حماه وانتزاعها من الناصر قلج أرسلان[3].

استمر المعظم في مضايقة حماه حتى سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م فأمر عرب دمشق بقطع الطريق إلى حماه، ومنع الميرة والمؤن من الوصول إليها، وحال دون وصول الجنود والمساعدات إليها، كما حول طريق القوافل التجارية الذي كان يمر بها، فجعل محطة التجار بسلمية الخاضعة له. وهكذا بدا وكأن حماه على

---

(١) سلمية: بلدة من أعمال حماه بينها مسيرة يومين على الأقدام. انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة تقع بين حلب وحماه. انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٧ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٩٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١١٧ - ١٢٠؛ ابو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٣١؛ محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٢ ص ٨٣ - ٨٤.

وشك السقوط بيد الملك المعظم، غير أن أخاه الأشرف موسى صاحب البلاد الشرقية ـ شرق الفرات ـ كان مقيماً بمصر، فخاطب أخاه السلطان الكامل وشرح له مغبة ترك المعظم يستولي على حماه. لأن ذلك سوف يغريه بتوسيع نفوذه على حساب الأيوبيين في بلاد الشام، مع ما في ذلك من تهديد مباشر لهما. فاتفقا على منعه من تحقيق هدفه، فأرسل السلطان الكامل إليه يأمره بالإنسحاب وترك حماه على حالها. ولما كان الكامل هو السلطان الشرعي فلم يشأ المعظم ـ في هذا الوقت ـ أن يجاهر أخاه بالعصيان فانسحب عائداً إلى دمشق[1].

وإذا كان من رأي السلطان الكامل إعادة المظفر محمود إلى مملكته بحماه، إلّا أن الملك الأشرف كان يرفض هذا الرأي، لأن الناصر قلج يدين بالولاء المباشر له. وأخيراً استقر الرأي بين الأخوين على انتزاع سلمية من الناصر قلج، وإعطاءها للمظفر محمود، مع احتفاظ قلج أرسلان بحماه والمعرة وبارين[2]. فأرسل المظفر محمود نائباً عنه وتسلّم سلمية في سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م وشرع في عمارة قلعتها وتحصينها، وكانت هذه هي الخطوة الأولى في استعادته لحماه من أخيه الناصر قلج[3].

أما عن سياسة الناصر قلج داخل حماه، فقد اتّسمت بالعسف وسوء التدبير. فعلى سبيل المثال، كان والده قد ولّى رجلاً يدعى شهاب الدين ابن القطب عملاً، فخان فيه، فاعتقله بقلعة حماه، وأثناء فترة إعتقاله نشأت صداقة بينه وبين الناصر قلج. فلما أصبح الأخير ملكاً على حماه أحسن إلى شهاب الدين بن القطب وأقطعه إقطاعاً جليلاً وولاه المعرة، وأصبح شهاب الدين يتصرّف تصرف الملوك، وصارت إليه أتابكية العسكر وإدارة شئون

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢٢٧ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٢٦ ـ ١٢٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٣٢.

(٢) بارين: مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٢٨ ـ ١٢٩؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٩٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٣٢؛ محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٢ ص ٨٤.

الدولة. ولكن الناصر قلج لم يلبث أن غضب عليه سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م واعتقله وحبسه بقلعة حماه[1].

واشتد الناصر في إساءاته، وكان من مظاهر عسفه وظلمه أنه فرض في سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م على رعيته ضرائب عينية كالأغنام والمواشي، وخمسة آلاف مكوك من الغلال، واشتط في سبيل الحصول على الضرائب، فلجأ إلى إحراق بعض الدور، وقطع أشجار بعض البساتين في سبيل الحصول على ذلك[2].

وفي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م قرر السلطان الكامل ـ بعد استيلائه على دمشق من ابن أخيه الناصر داود وتسليمها لأخيه الأشرف ـ التحرك شمالاً لقصد حماه، فوصل بجيوشه مروج حمص وأمر المظفر تقي الدين محمود ـ شقيق الناصر قلج ـ أن يرحل بجزء من العسكر إلى حماه لمحاصرتها وبعث في صحبته المجاهد شيركوه صاحب حمص، والعزيز والصالح إسماعيل، ونازل المظفر حماه يحدوه الأمل في إستعادتها، بينما تأهّب شقيقه الناصر قلج إستعداداً لمواجهة الحصار حيث حشد في قلعة حماه من المؤن والذخائر ما يكفيه مدة طويلة، غير أن استعداده هذا ذهب هباء لما عرف عنه من خور وجبن، فحينما نصب العسكر المنجنيق على حماه أصيب بالرعب والفزع، فقرر النزول إلى السلطان الكامل دون الحصول على أي ضمان، وأرسل إلى صاحب حمص يطلب إصطحابه إلى السلطان[3]، وحينما وصل إلى الكامل اعتقله وأمره بتسليم حماه إليه. فأجاب السلطان إلى ذلك وأرسل إلى نواب القلعة يأمرهم بتسليمها لمندوبي السلطان. ولكن الأمراء بالقلعة رفضوا التسليم، وأعلنوا المعز بن المنصور شقيق الناصر والمظفر ملكاً على حماه وهو ما يزال صغيراً، وساند سكان حماه هذا الإجراء،

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤ ـ ٥؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٥٨.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ ب ـ ٣٠ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

وقذفوا مبعوثي السلطان بالحجارة، فرجعوا إلى الكامل وأخبروه بما جرى، فأرسل الكامل المظفر وأمره بأن يتفق مع أمراء أبيه على التسليم، فراسلهم المظفر فوافقوه على تسليم المدينة بشرط ألاّ يسلمها للسلطان الكامل، ولا يسمح لجيوشه بالدخول إليها، ووافق المظفر على طلبهم وتعهد لهم بعدم الإساءة أليهم، وبذلك استرد حماه في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م وابتهج سكان حماه بدخوله إليهم، لما اشتهر به من صرامة وشهامة، فضلاً عن زوال خوفهم من سقوط مملكة حماه بيد السلطان الكامل[(١)].

لما استقر حال المظفر في ملك حماه، أخذ منه الكامل سلميه وأعطاها لشيركوه صاحب حمص، بجزاء وقوفه إلى جانبه. ثم أطلق الكامل سراح الناصر قلج أرسلان ، وأمر المظفر بإعطاء بارين لشقيقه قلج أرسلان، وأن يدفع له مبلغ أربعمائة ألف درهم كان قد جمعها في قلعة حماه، فأعطاه المظفر بارين، لكنه ماطله في تسليم الأموال. وهكذا لم يبق بيد المظفر سوى حماه والمعرة [(٢)].

أما الكامل فقد رحل إلى أملاكه الواقعة شرق الفرات سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م ثم استدعى المظفر من حماه فسافر إلى خدمته، وعندما وصل عقد له على ابنته غازية خاتون وأعطاه تقليداً بمملكة حماه، فعاد إليها مسروراً بتوطيد العلاقات مع السلطان الكامل [(٣)].

وإذا كان الكامل قد انتزع بارين من المظفر سنة ٦٢٦ هـ ـ كما

---

(١) ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، لوحة ٥٥٢ ـ ٥٥٥؛ جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ ب ـ ٣١ أ؛ تاريخ ابن الفرات، جـ ٦ لوحة ٦٠ ـ ٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٦٥ ـ ٣٧١؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٨١ ـ ١٨٢ ؛ ابو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، لوحة ٥٥٥، اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ ا، تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٦٣ ـ ٦٤، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٧٣، ابو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ٤ ١.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٦٦ ـ ٦٧، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٣، أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٥.

أشرنا - وسلمها لأخيه قلج أرسلان، فإن المظفر تمكن سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م من إقناع السلطان بالسماح له باستعادة بارين حيث أوضح له أهمية موقعها المجاور لحصن الأكراد الخاضع للفرنج، الذين كانوا يغيرون دائماً عليها ويفرضون عليها الأتاوة، إضافة إلى امتلاكهم نصف الضياع التابعة لها، وأبدى المظفر للسلطان خشيته من قيامهم بالاستيلاء عليها لعجز أخيه عن مواجهتهم. فسمح له بمحاصرتها، فنازلها المظفر واستولى عليها في السنة نفسها، وعرض على قلج ارسلان الإقامة بحماه فرفض وآثر الذهاب إلى مصر (١).

وقد أسند المظفر - حين استولى على حماه - منصب الوزارة إلى الأمير سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني لما عرف عنه من كفاية وحسن تدبير (٢)، وسرعان ما غدا غالباً على أمر سيده المظفر محمود ومتحكماً في دولته والأمور بكاملها راجعة إليه. وفي سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٤ م أشار عليه ببناء قلعة المعرة وأوهمه أن ذلك في مصلحة حماه، وبعد أن أنفق عليها أموالاً طائلة وجهوداً مضنية انقض عليها الحلبيون وأضافوها لمملكتهم (٣).

وظل المظفر يحكم حماه حتى سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤٢ م فأصيب بحمى نجم عنها شلل نصفي وأصبح لا يتكلم إلا بصعوبة. وعندئذٍ قام بتدبير أمور مملكته الأمير سيف الدين طغريل مستنيراً برأي الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد الأنصاري، وبهاء الدين بن التاج ومرشد المنصوري وزوجة المظفر غازية خاتون ابنة الكامل (٤). وظل المظفر على هذه الحالة إلى أن توفي سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٥ م (٥). وخلفه ابنه المنصور ناصر الدين محمد وعمره زهاء عشر سنين،

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٣٠ - ٢٣١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٦٧ - ٦٩، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ ٣ ص ١٤٥.

(٢) أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٤.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٦٥ - ٢٦٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٨٣؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٢ - ٣٤٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٣.

وظل مجلس الوصاية قائماً بتدبير شئونه ورعاية مملكته (١).

ولم تلبث علاقة حماه بحلب أن تحسنت بعد نهاية الحرب الأهلية، ففي سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م سار من حماه الشيخ أحمد بن محمد ابن نصر الله رسولاً إلى السلطان الناصر يوسف صاحب حلب ليخطب شقيقته عائشة خاتون للملك ناصر الدين وتم عقد النكاح وتوطدت العلاقات بين المملكتين (٢).

وفي سنة ٦٤٣ هـ استعاد الحمويون سلمية من صاحب حمص، بعد أن فقدوها منذ سنة ٦٢٦ هـ (٣).

ومهما يكن من شيء، فإن سياسة المهادنة والمداهنة التي انتهجها المنصور، محمد هي التي حمت مملكته من السقوط، أمام المغول والمماليك واستمرت بعد موته سنة ٦٨٣ هـ في خلفائه من بعده (٤).

* * *

جـ ـ مملكة حمص:

تنسب مملكة حمص إلى محمد بن شيركوه ابن عم صلاح الدين، وكان الأخير قد أقطعه حمص سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٥ م (٥) وحينما توفي محمد سنة ٥٨٢ هـ أقر صلاح الدين حمص بيد ابنه شيركوه بن محمد بن شيركوه(٦).

وقد أسهم المجاهد شيركوه بن محمد في حرب الوراثة الأيوبية شأنه في

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٥؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٣؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٤.

(٤) انظر أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ٢٠٣، جـ ٤ ص ١٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ٤٢٣؛ نظير حسان سعداوي، التاريخ الحربي ص ٦٨.

(٦) أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ٦٩ ـ ٧٠.

ذلك شأن ملوك بلاد الشام من الأيوبيين [1]. وقد استطاع المحافظة على مملكته وسط القوى المختلفة. واتصف بالشجاعة والإقدام، وكان يباشر الحرب بنفسه، كما أن ملوك بني أيوب كانوا يقدرونه بل ويهابونه «لأنه كان يرى أنه أحق بالملك منهم لأن جده أسد الدين وفتحه مصر» [2].

وكانت حمص زمن المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه هدفاً لغارات القبائل البدوية، وعلى رأسهم عرب غزية [3] البطنين، ففي سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م هاجموا بلد حمص وأخذوا أغنام الأهالي، وتبعهم عسكر حمص، لكنه تراجع لكثرتهم [4]، كما طمع في حمص الملك المعظم صاحب دمشق، الذي كان يرغب في ضمها إلى مملكته فأوعز إلى العرب التابعين له في سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م بالإغارة عليها ففعلوا ومكثوا عدة أيام يغيرون على ريف حمص وحماه وسلمية وبارين ويعودون إلى منازلهم في بادية الشام. وعندما ازداد طمعهم خرج إليهم المجاهد شيركوه بنفسه وأنزل بهم هزيمة ساحقة، وقتل الكثير من رجالهم ونهبهم، وساعده على ذلك الأمير مانع بن حديثة الطائي، وقام المهزومون بمراسلة المعظم يشكون إليه شيركوه، فَصَعُبَ عليه أمرهم، وأمر بإنزالهم غوطة دمشق وأرسل يعاتب شيركوه على ذلك، فرد عليه رداً حازماً، وبلغت الغنائم التي حازها أسد الدين شيركوه من هذه الحرب خمسة آلاف جمل، وأعداداً ضخمة من الأغنام والخيول، وكميات كبيرة من الأقمشة والأثاث [5].

أما الأشرف موسى بن العادل ـ الذي أضحى ملكاً على دمشق منذ

---

(١) انظر ما سبق ص: ٤٤.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٨٣١.

(٣) غزية البطنين هم فخذ من قبيلة طي سكنوا بادية الشام والعراق والحجاز، انظر القلقشندي: قلائد الجمان في التعريق بقبائل عرب الزمان ص ١٣٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٢٣.

(٤) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٥) المصدر نفسه ص ١٤٢ ـ ١٤٥.

سنة ٦٢٦ هـ ـ فقد آثر تحسين علاقاته مع المجاهد أسد الدين شيركوه، فبعث إليه سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م يدعوه إلى دمشق، فأجابه المجاهد إلى طلبه، وقدم إلى دمشق، وتبادل الملكان الهدايا وخرجا إلى الصيد وفي تلك الأثناء هاجمت العرب من خفاجة [١] وغزية أعمال تدمر، فاتفق المجاهد والأشرف وبعض أمراء العرب الموالين لهما على الخروج لصد خفاجة وغزية، وجهز المنصور بن المجاهد جيشاً من حمص وتمكن الجميع من رد المغيرين، واستعادة ما نهبوه من جمال وغيرها [٢].

أما عن إصلاحات المجاهد داخل مملكة حمص، فقد اهتم بعمارة بلاده غاية الاهتمام، ولم يدخر في ذلك جهداً، ففي سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م بنى قلعة بمنطقة سلمية التي سبق وأخذها الكامل من صاحب حماه وسلمها له، واختار موضع القلعة مكاناً عسكرياً هاماً على رأس جبل يعرف باسم شميميش، وقد ساء ذلك المظفرَ صاحب حماه، وحاول إثناء المجاهد عن عزمه، إلا أنه أخفق، فجمع المجاهد غلمانه وأصحابه وبعض عساكره والعربان التابعين له، وأحضر الآلات اللازمة للبناء، وأتمها وسَوَّرَهَا، وأصبحت في غاية المنعة والحصانة، وشحنها بالحرس والذخائر والمؤن، وأصبح يعتز بها ويفتخر، وسماها ماردين الشام تشبيهاً بقلعة ماردين الحصينة في منطقة الجزيرة. وبنى فيها عدداً من الصهاريج وملأها بالماء. كما أنشأ بالرحبة الواقعة على نهر الفرات قلعة حصينة ـ وأقام بتدمر قلعة على جبل حصين عالٍ لحماية رعاياه داخل تدمر من غارات البدو. أما في داخل حمص، فزاد في عمارة قلعة حمص، ورفعها عما كانت عليه وحصنها وعمق خندقها، وأنشأ بحمص قنوات متقنة أجرى إليها الماء من خارج حمص إلى داخل المدينة، وأنشأ بها البساتين والحدائق. وجعل المنطقة

---

(١) خفاجة: هم بنو خفاجة بن عمرو من قبيلة عقيل العدنانية وقد سكنوا العراق والجزيرة وشمال الشام، انظر: القلقشندي: قلائد الجمان ص ١٢٢ ـ ١٢٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٥٤.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٣٣ ـ ٢٣٤؛ ابن نظيف: المصدر السابق ص ٢٥٤.

الغربية من حمص غاية في الخصوبة، وزرع فيها شجر الأرز عن طريق سحب المياه من نهر العاصي. وجدد بحمص بيمارستاناً عظيماً، ورتب فيه ما يحتاج إليه من مؤن وأدوية، وأوقف عليه أوقافاً تقوم على نفقاته وإدارته، كما عمر بحمص مدرسة جميلة (١).

كما بنى الأبراج على نهر العاصي، وجعل فيها الرجال والحمام الزاجل، لمراقبة تحركات الفرنج، وللحيلولة دون مباغتتهم مملكة حمص، وقد ساعد بناء هذه الأبراج على إفشال جميع غارات الفرنج على حمص وريفها، إذ ما يكادون يشرعون في الحركة حتى يصل الخبر للملك المجاهد فيتصدى لهم ويفسد حركتهم (٢).

ويذكر المؤرخون أن بلاد المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه كانت طاهرة من الخمور والخواطىء والمكوس، فكانت تمر جميع القوافل التجارية ببلاده فلا يتعرض لها أحد بسوء، كما نشر العدل والأمن في جميع أرجاء مملكته (٣).

وبلغ من تشدده في توطيد الأمن في بلاده، أنه حمى الطريق بين دمشق وحمص من غارات الأعراب والفرنج، وكانت له معهم وقائع كثيرة. ويورد ابن واصل واقعة طريفة مع الفرنج. إذ أغارت جماعة منهم على وادي الربيعة التابع لحمص، واستاقوا قافلة معهم وساروا قاصدين حصن الأكراد التابع لهم، فأدركهم المجاهد واسترد القافلة وأسرهم جميعاً، وكان ضمن القافلة رجل صوفي، فشكى للمجاهد أن رجلاً من أولئك الفرنج ما زال يصفعه إلى أن وصل الملك وأنقذهم فقال المجاهد للصوفي: «افعل أنت به كما فعل بك» فتسلمه وظل يصفعه حتى وصولهم إلى مدينة حمص (٤).

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٤٠ - ١٤١؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٢٠ - ٢٢٢.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣١.
(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٥٤؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ١٥١.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٥٥.

غير أن ابن واصل يذكر أن المجاهد كان كثير الظلم والعسف لرعيته ومتشدداً في استخلاص الأموال منهم، وكان إذا حبس أحداً نسيه في سجنه مدة طويلة، وبلغ من تشدده أن منع النساء بحمص من الخروج خارج المدينة خوفاً أن يأخذ أهل البلد عائلاتهم ويهربوا [1]. أما سبط ابن الجوزي المؤرخ المعاصر، فقد ذكر أنه كان فعلاً ينسى سجنائه ومنع النساء من الخروج من باب حمص [2]، دون أن يذكر سبب منعهن. ولعل ذلك بدافع الغيرة خوفاً من وقوعهن بأيدي الفرنج أو الأعراب، أما وصف ابن واصل له بالجور والظلم، فيمكن التشكك فيه ولا سيما وأن ابن واصل ينتمي إلى مدينة حماه ويدين بالولاء لملوكها، والمعروف أن المجاهد شيركوه كان شديد العداء للحمويين، وكثيراً ما شن الغارات ضدهم، حتى أنه في سنة ٦٣٥ هـ وبعد موت السلطان الكامل عمد إلى قطع الماء الذي يجري في قناة من سلمية إلى حماه مما أدى إلى خراب الكثير من بساتين حماه، كما حاول المجاهد قطع نهر العاصي كلية عن حماه إلا أنه أخفق بسبب عجزه عن السيطرة على النهر [3]. لهذا فمن الطبيعي أن نشكك في الأحكام التي يصدرها ابن واصل ضد المجاهد، بسبب العداوة والمنافسة بين حمص وحماه.

ويبدو أن المجاهد صاحب حمص لعب دوراً هاماً في إفساد العلاقات الودية بين الأشرف وأخيه السلطان الكامل، وما ترتب على ذلك من تحالف ملوك الشام ضد الكامل [4] ومما يزكي هذا الرأي أن المؤرخ المعاصر للأحداث سبط ابن الجوزي، ذكر أنه في سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م وبعد وفاة الأشرف واستيلاء الكامل على دمشق ذكر له الكامل قائلاً: «قال لي - أي السلطان الكامل - ما أفسد أحوالنا إلا صاحب حمص والله لأمحون آثاره فقلت قريب وهو

---

(١) المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٥٦.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٨٣٢.
(٣) ابن واصل) مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٧٧ - ١٧٨.
(٤) انظر ما يلي ص: ١٤١ - ١٤٢.

خير من غريب» عندئذٍ قرر الكامل إلزام المجاهد بدفع أتاوة حربية ضخمة فأرسل المجاهد نسائه إلى دمشق يتشفعن ويطلبن إعفاءه من دفع الأموال التي طلبها الكامل، فرفض الأخير، وبينما المجاهد يزن الأموال لكي يقدمها للسلطان إذ ورد عليه نبأ وفاة الكامل على جناح طائر. ففرح فرحاً شديداً وأعاد الأموال إلى خزائنها وسار قاصداً دمشق [١].

ومهما يكن من أمر، فقد لعب المجاهد دوراً هاماً في الحرب الأهلية، وفي تأييد الصالح إسماعيل [٢]. وفي سنة ٦٣٧ هـ/١٢٤٤ م توفي المجاهد بقلعة حمص بعد أن حكم نحو ست وخمسين سنة [٣].

وخلفه ابنه المنصور إبراهيم واستولى على مملكته التي تضم حمص والرحبة وتدمر وسلمية وقلعتها المسماة شميميش، وسار المنصور على سياسة والده في تأييد الصالح إسماعيل ومعاداة المظفر صاحب حماة [٤]. ولعب المنصور أيضاً دوراً هاماً في درء خطر الخوارزمية عن بلاد الشام [٥].

وبعد أن تمكن الصالح أيوب من توحيد الدولة الأيوبية سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م وخضعت له دمشق مع مصر، رأى المنصور إبراهيم مصلحته في التقرب إلى الصالح أيوب والوقوف إلى جانبه، فساعده ضد الخوارزمية وأنزل بهم الهزيمة فرضي عنه الصالح أيوب واستدعاه إلى دمشق، وأرضاه مما جعله يعلن إخلاصه للصالح نجم الدين أيوب [٦].

أما عن سياسة المنصور داخل حمص فقد اتسمت باللين والإحسان إلى

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣١ - ٧٣٢.
(٢) انظر الفصل الثاني ص ١٤٧ - ١٥١، ١٦٢ - ١٦٤.
(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٥٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٦ ص ٢١٦ - ٢١٧.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧.
(٥) انظر الفصل الرابع ص ٣٤٢ - ٣٤٧.
(٦) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

الرعية فعمرت حمص في أيامه وازدهرت (١). وتوفي المنصور سنة ٦٤٤ هـ/١٢٤٦ م فقام مكانه ابنه الأشرف مظفر الدين موسى وكان ما يزال صغيراً، فعمد إلى تدبير دولته أحد أعيان حماه ويدعى إبراهيم ابن إسماعيل بن قرناص وهو الذي أشار عليه بالانحياز إلى جانب الصالح أيوب والدخول في طاعته (٢).

ولم تدم مملكة حمص زمن الأشرف موسى سوى عامين، ففي سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م سلم الأشرف صاحب حمص قلعة شميميش إلى الصالح أيوب فأغضب ذلك مملكة حلب فجرد الحلبيون حملة كبيرة وحاصرت حمص، فأذعن الأشرف إلى تسليم حمص مقابل تعويضه تل باشر وأن تبقى بيده تدمر والرحبة، وسلم حمص للناصر صاحب حلب، وحاول الصالح أيوب إنجاد حمص إلا أنه لم يتمكن بسبب مرضه. ووصول الأخبار بنزول الفرنج إلى دمياط (الحملة الصليبية السابعة) فاضطر إلى الاستجابة لوساطة مبعوث الخليفة وترك حمص بأيدي الحلبيين (٣).

د ـ مملكة دمشق (*):

سبق الحديث عن الدور الذي لعبه الأفضل بن صلاح الدين في تاريخ مملكة دمشق وما نجم عن سياسته من حوادث تمخضت أخيراً عن انتزاع دمشق

---

(١) المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٧١.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٦٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٦٢.

(٣) ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٢، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٥٩؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٥١؛ الغزى: نهر الذهب جـ ٣ ص ١٥٥؛ الطباخ: إعلام النبلاء جـ ٢ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(*) نتحدث هنا باختصار شديد عن مملكة دمشق نظراً لأن دمشق كانت محور الحوادث والعلاقات بين ملوك بني أيوب وما كان لذلك من نتائج بعيدة على أحوال بلاد الشام، وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل في الفصل الثاني إن شاء الله.

منه سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦ م وأصبحت دمشق تابعة لعمه السلطان العادل. وقد ذكر ابن تغري بردى أنه في آخر ليلة أقام فيها العزيز بدمشق بعد انتزاعها من الأفضل أمر العادل ابنه المعظم بالدخول إلى العزيز وقال له: «فَقَبِلَ يده واطْلُبْ منه دمشق... فدخل إلى ابن عمه العزيز وقبّل يده وطلب منه دمشق فدفعها إليه» [1].

وكيفما كان الأمر، فإن العادل بعد أن أصبح يملك دمشق قرر أن يجعلها لابنه المعظم وما يتبعها من بلاد الشام، ولكنه في البداية لم يترك له حرية التصرف التام فيها لافتقاره إلى الخبرة إضافة إلى صغر سنه [2].

ومن أعمال العادل الطيبة بعد استيلائه على دمشق، قيامه بتطهير بلاد الشام من الخمور والخواطىء والقمار والمكوس والمظالم «وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع لله تعالى «ولم يكتف العادل بهذا، بل أقام رجالاً بمرتبات على جبل قاسيون المشرف على دمشق وعلى مداخل المدينة ليقوموا بعمليات التفتيش ويمنعون كل من يحمل منكراً من الدخول إلى دمشق [3].

وحينما أطلق العادل لابنه المعظم حرية التصرف في مملكة دمشق سنة ٦٠٤ هـ [4] اهتم المعظم بمملكته غاية الأهتمام ولا سيما وأن مملكة دمشق أضحت تتمتع بأهمية خاصة نظراً لأنها نقطة الوصل بين مصر وبقية الممالك الأيوبية في بلاد الشام والجزيرة، إضافة إلى مجاورتها للصليبيين في ساحل الشام مثل صور وطرابلس وعكا وغيرها. فعمل المعظم على توطيد الأمن والنظام داخل حدود مملكته في وقت ازداد فيه نشاط اللصوص، وقطاع الطرق» وقد

---

(١) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٢٦.
(٢) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٢٦.
(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٦٩ ـ ١٧٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٦٧ ـ ٦٨.
(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٥ ص ٦٧ ـ ٦٨.

باشر المعظم بنفسه تحقيق الأمن والطمأنينة لمملكة دمشق، وتوفير الحماية الكاملة للمسافرين عبر المناطق التابعة لمملكته وتشدد المعظم في معاقبة اللصوص وقطاع الطرق، ومن ذلك ما فعله على سبيل المثال، مع جماعة يدعون بني رحمان، وكانوا يقطنون قرب البلقاء في الأردن، وكانوا يمارسون أعمال السلب والنهب ضد المسافرين والقوافل التجارية، وحدث أن أغاروا على قافلة كان فيها بعض جواري الملك المعظم وسبوهن، وعندما بلغه الخبر اشتد غضبه وجرد حملة عسكرية قادها بنفسه، وهاجم بني رحمان وقتل الكثير منهم، وعلى أثر ذلك بنى قلعة الصلت، وجعل بها حامية عسكرية لمراقبة الطرق التجارية وحمايتها [١].

وكان يوجد في منطقة الأغوار أحد اللصوص الخطرين ويدعى قنديل، وكان يقود عصابة مؤلفة من مائة لص، وكانوا يغيرون باستمرار على القوافل والقرى الواقعة في منطقة الأغوار، وكان من عادة الملك المعظم القيام بالدوريات العسكرية بنفسه لمراقبة تحركات الفرنج، فكان يسير من دمشق إلى القدس مروراً بجميع القرى والحصون المحاذية للفرنج، وقد بلغه في إحدى المرات خبر نشاط قنديل، فقرر التخلص منه، والتقى به قرب بيسان في فلسطين، وقبض عليه وأخذه معه إلى بيت المقدس، وأحضره بين يديه وهو يرسف في الأغلال، فأمر بقتله، وعندئذٍ توسل قنديل إلى المعظم قائلاً: «عوض ما تشنقني فاستبقيني أحمي بلادك وأجاهد الكفار» فرق له قلب المعظم واستتابه، واستحلفه على الإخلاص في الخدمة وأطلقه، ومنذ ذلك الحين أضحى قنديل حارساً مخلصاً فأمنت الطرق والأموال بفضل حراسته للطرق والأموال وحمايته للمسافرين. وحينما جاءت جحافل الصليبيين سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م إلى الطور تصدى لهم قنديل وقاتلهم بشجاعة فائقة حتى استشهد [٢].

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، قسم الأردن، ولبنان وفلسطين ص ٨٤.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥١ - ٦٥٢ وعن دور المعظم في الحياة العلمية ومنشآته العمرانية انظر الفصل الخامس ص: ٣٩٠ - ٣٩٣، ٤٦٢ - ٤٦٣.

وظل المعظم يحكم دمشق حتى وفاته سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م وخلفه ابنه الناصر داود، لكنه لم يلبث إلا قليلاً في حكم دمشق حيث انتزعها منه عمه السلطان الكامل وأعطاه الكرك والشوبك، وتسلم دمشق وأعطاها لأخيه الأشرف الذي ظل يحكمها حتى وفاته سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م، وبموته دخلت بلاد الشام مرحلة الحرب الأهلية التي كان لها أسوأ الأثر على أحوال بلاد الشام [١].

***

بقية الإمارات الأيوبية في بلاد الشام

بعلبك:

تنسب إمارة بعلبك إلى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب الذي أقطعه صلاح الدين بعلبك سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠ م [٢] وحينما توفي فرخشاه سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م آلت بعلبك إلى ابنه الأمجد بهرام شاه وأقره صلاح الدين عليها [٣].

وقد أحب الأمجد بعلبك لطيب هوائها وكثرة خيراتها التي تضاهي دمشق فابتنى بقلعتها برجين في الركنين الجنوبي الغربي والشمالي الغربي وبعض الاستحكامات الأخرى وأنشأ بها جيشاً قوياً لرد غارات الأعداء الصليبيين [٤].

اعتمد الأمجد في بداية حكمه على رجال اشتهروا بمكانتهم العلمية والأدبية ومنهم طبيبه الخاص مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري، وأضحى الأمجد يستشيره في سائر أموره ويعتمد على آرائه. وعلت منزلة مهذب الدين لدى الأمجد، مما أغرى أهل وأقارب مهذب الدين على القدوم إلى بعلبك

(١) انظر تفصيل هذه الحوادث في الفصل الثاني ص: ١٢٨ ـ ١٧٣.
(٢) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ٦٢؛ ديوان الملك الأمجد بهرام شاه الأيوبي ص ٢١.
(٣) ابن الأثير: الكامل جـ١١ ص ٤٩١؛ ديوان الأمجد ص ٢٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ٦٥.
(٤) ديوان الأمجد ص ٢٨.

والإقامة في كنف الأمجد، وتقلدوا الوظائف في دولته وسرعان ما عمد هؤلاء إلى استغلال نفوذ مهذب الدين في بسط هيمنتهم على بعلبك وسكانها، فكثر منهم الجور وظلم الأهالي، فضج السكان بهم، وأصبح الأمجد عرضة للنقد بسببهم حتى لامه ملوك بني أيوب على ذلك، وعندئذٍ قبض الأمجد على طبيبه مهذب الدين وأقربائه وصادر أموالهم (١). واستوزر الأمجد بعد ذلك أمين الدولة أبا الحسن بن غزال بن أبي سعيد وفوض إليه أمور دولته كلها، وظل يلي منصبه طوال حكم الأمجد بعلبك (٢).

وقد شارك الأمجد في حوادث حرب الوراثة وساند الأفضل وتقرر أن يكون الأمجد مؤازراً للأفضل وتابعاً له (٣). وقد ساءت العلاقات بين مملكة بعلبك ومملكة حمص لأن الأمجد كان مع الملك المعظم عندما هاجم الأخير حمص سنة ٦٢٣ هـ/١٢٢٦ م، وقد اهتبل الأمجد تلك الفرصة وضم بعض المناطق التابعة لحمص إليه (٤)، ويبدو أن العلاقات بين بعلبك وحمص تحسنت سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م (٥).

ومهما يكن من أمر، فقد ذكر ابن الفرات في حوادث سنة ٦٢٥ هـ أن الأمجد ظلم أهل بعلبك وجار عليهم وفرض عليهم ضرائب مرهقة، ويبدو أن ذلك كان بتأثير وزيره مهذب الدين السامري، مما دفع طائفة من جند بعلبك إلى تدبير مؤامرة للاطاحة بالأمجد وتسليم بعلبك إلى فخر الدين العزيز عثمان بن العادل صاحب بانياس، وتم الاتصال بينهم وبين فخر الدين، وسار الأخير إلى بعلبك، وما ان وصل حتى اكتشف الأمجد سر المؤامرة فقبض على مدبريها، ونازل عثمان بعلبك عازماً على أخذها بالقوة غير

---

(١) ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٧٢٢؛ ديوان الملك الأمجد ص ٢٩.
(٢) عيون الأنباء، ص ٧٢٣؛ ديوان الأمجد ص ٣٠.
(٣) ابن واصل؛ مفرج الكروب جـ٣ ص ٣٠ ـ ٣١.
(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥.
(٥) ابن نظيف، التاريخ المنصوري ص ١٦٠.

أن الناصر داود بن المعظم صاحب دمشق انزعج من حصار بعلبك ولا سيما وان الأمجد كان مخلصاً لوالده المعظم، فبعث الناصر داود إلى عثمان يأمره بترك بعلبك على حالها، فغضب عثمان ورحل إلى مصر وانضم إلى السلطان الكامل الذي وعده بالاستيلاء على بعلبك وتسليمها إليه[1].

وفي سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م استولى الأشرف بن العادل على بعلبك وأقطع الأمجد بعض قرى دمشق ولكن الأمجد لقي مصرعه في السنة التالية على يد بعض مماليكه، أما الأشرف فقد ضم بعلبك إلى دمشق ورفض تسليمها لأخيه عثمان بن العادل[2].

بصرى:

ومن الامارات الصغرى في بلاد الشام زمن السلطان العادل امارة بصرى وكانت لابنه الصالح إسماعيل[3]. غير أنه كان تابعاً لاخيه المعظم صاحب دمشق، ولمع نجم إسماعيل بعد وفاة أخيه الأشرف عندما استخلفه على دمشق وبعلبك ولعب دوراً خطيراً في حوادث الحرب الأهلية، وهو ما سنتحدث عنه مفصلاً في الفصل الثاني[4] إن شاء الله.

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٧؛ وانظر أيضاً ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٢٧؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٥٨.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١١٠ ـ ١١١؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٤ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٥٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٧٥.

(٤) انظر الفصل الثاني ص: ١٤٧ ـ ١٨١.

الفصل الثاني

العلاقات الداخلية بين ملوك بني أيوب ونتائجها
على النفوذ الأيوبي في بلاد الشام
٦١٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٩ م

الفصل الثاني

العلاقات الداخلية بين ملوك بني أيوب ونتائجها على النفوذ الأيوبي في بلاد الشام ٦١٥ ـ ٦٥٧ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٥٩ م

١ ـ وفاة السلطان العادل أبو بكر بن أيوب سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م ونتائجها على أحوال بلاد الشام السياسية.

٢ ـ العلاقات بين أبناء السلطان العادل وأثرها في بلاد الشام ٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٣٧ م.

٣ ـ الحرب الأهلية في بلاد الشام ونتائجها ٦٣٥ ـ ٦٤٢ هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٤٤ م.

٤ ـ الصالح أيوب وإعادة توحيد الدولة الأيوبية ٦٤٣ ـ ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٥ ـ ١٢٤٩ م.

٥ ـ بلاد الشام في مفترق الطرق.

انهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك ٦٤٧ ـ ٦٥٧ هـ/١٢٤٩ ـ ١٢٥٩ م.

وفاة السلطان العادل ونتائجها على أحوال بلاد الشام السياسية

تمكن العادل أبو بكر بن أيوب ـ كما رأينا ـ من توحيد الدولة الأيوبية من جديد، بعد أن كادت تعصف بها الخلافات والمنازعات التي ظهرت عقب وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م. وفي سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ جاءت الحملة الصليبية الخامسة التي كان هدفها الاستيلاء على مصر[1]. فخرج العادل إلى فلسطين لمراقبة تحركات الفرنج وإرسال النجدات لابنه الكامل المرابط قبالتهم على ثغر دمياط، ثم عاد العادل إلى مرج الصفر وعسكر به حيث ورد عليه الخبر بسقوط برج السلسلة بدمياط في أيدي الصليبيين، فتأثر بذلك النبأ غاية التأثر «ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً ومرض من ساعته»[2]ورحل من مرج الصفر واشتد به المرض وتوفي في السابع من جمادي الآخرة سنة ٦١٥ هـ/ ٣١ أغسطس ١٢١٨ م وحينما توفي لم يعلم بموته سوى صديقه كريم الدين الخلاطي، فكتم موته وأرسل على عجل إلى ابنه المعظم بنابلس، فجاء الأخير مسرعاً واجتمع بكريم الدين واتفق معه على استمرار كتمان خبر موته مؤقتاً، وأخذه المعظم في محفة وعاد إلى دمشق وأوعز إلى الأطباء بملازمة جثمان والده لإيهام الناس بأنه ما زال حياً، وحينما استقر المعظم بدمشق دفن والده سراً، ثم أحضر كبار رجال الدولة واستحلفهم على مملكة دمشق، واستولى على

---

(١) انظر ما يلي: الفصل الثالث ص: ٢٢٩ ـ ٢٥٥.

(٢) المقريزي، السلوك جـ ١ ص ١٩٠.

جميع أموال والده التي كان يحتفظ بها في دمشق والكرك، وأعلن موت والده وكتب إلى سائر ملوك بني أيوب يخبرهم بوفاته[1].

والحق لقد جاءت وفاة العادل خسارة كبرى منيت بها الجبهة الاسلامية، في وقت كانت فيه هذه الجبهة في أشد الحاجة لوجود شخصية مثله، لخبرته الطويلة في جهاد الصليبيين ومعرفته التامة بطبيعة الحركة الصليبية وأهدافها، ونقاط الضعف والقوة فيها. فعلى الرغم مما اشتهر به ابناء العادل الثلاثة، الكامل، والمعظم، والأشرف، من شهامة وشجاعة وسداد رأى فإنه لم يكن بمقدورهم ملء الفراغ المفاجىء الذي أحدثه غياب والدهم عن الساحة، ولا سيما في وقت كانت فيه أوروبا قد القت بكل ثقلها في حملة جديدة هي الحملة الخامسة، بغية السيطرة على مصر باعتبارها القاعدة الرئيسية لحركة الجهاد ومن ثمة الانقضاض على بقية بلاد الشام والاستيلاء عليها.

وأول النتائج الخطيرة التي نجمت عن وفاة العادل طمع بعض القادة العسكريين في السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة الأيوبية، وكان على رأس هؤلاء القادة عماد الدين أحمد بن علي بن المشطوب زعيم طائفة الأكـراد الهكارية[2]، الذي ما أن علم بوفاة العادل حتى دبر مؤامرة للإطاحة بالسلطان الجديد الكامل محمد واتفق مع أنصاره على جعل ملك مصر في يد الفائز إبراهيم بن العادل، ليغدو العوبة في أيديهم، ولما علم الكامل في هذه المؤامرة اشتد به الفزع وانسحب من منزلته المعروفة بالعادلية، حيث كان يرابط بازاء الفرنج، ويقال أنه فكر في الفرار إلى اليمن حيث كان يحكمها ابنه المسعود، وترتب على

---

(1) الجنابي، البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر، جـ ٢ ورقة ٨١ ب؛ الديبسياوي، الزهر الزاهر، ورقة ١١٩ ب ـ ١٢٠ أ؛ الزبيدي: ترويح القلوب ورقة ٣ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧؛ اليافعي: مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٩ ـ ٣٠.

(2) الهكارية: إحدى قبائل الأكراد التي كانت تقطن شمال الموصل في أعالي الجزيرة، وقد حاول عماد الدين زنكي إخضاعهم واستولى على كثير من قلاعهم، انظر ياقوت: معجم البلدن، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ حاشية رقم ٤.

انسحابه اضطراب العسكر الاسلامي بكامله واستيلاء الصليبيين على دمياط(١).

غير أن الملك المعظم صاحب دمشق سرعان ما قَدِمَ من الشام لنجدة أخيه الكامل على الصليبيين، فأخبره الاخير بمؤامرة ابن المشطوب، فعمد المعظم إلى استدراجه حتى انفرد به وقبض عليه ونفاه إلى الشام سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م كما أخرج الكامل أخاه الفائز إبراهيم من مصر إلى الشام بحجة احضار النجدات لجهاد الفرنج، ومضى إلى شرق الفرات وتوفي مسموماً في السنة نفسها(٢).

على أن خطر ابن المشطوب لم يقتصر على مصر، بل امتد إلى بلاد الشام، فبعد أن نفاه المعظم وصل إلى حماه وأقام بها في ضيافة الملك المنصور، وانضم إليه بحماه الكثير من الأكراد الهكارية وقرر على إثر ذلك العمل على إنشاء إمارة خاصة به، فغادر حماه سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م ومعه بضع مئات من أتباعه، وكان الأشرف بن العادل، في هذه الأثناء مقيماً بحلب فراسل ابن المشطوب لتطويعه، وعرض عليه أن يقطعه بعض البلاد، فرفض هذا العرض واستقر رأيه على استغلال العداء بين سلاجقة الروم والملك الأشرف، والذهاب إلى تخوم بلاد سلاجقة الروم للاتفاق معهم ومع الافضل ابن صلاح الدين صاحب سميساط ضد ابناء العادل ودخل ابن المشطوب بجموعه إلى مملكة حلب وخاض ريفها بفرسانه واستاق في طريقه كل ما وجده من الخيل والماشية، وحينما علم الأشرف بذلك أرسل جيشه على عجلٍ ولحق به على نهر الساجور وانقض عليه وهزمه وأسره، ثم عفا عنه وأقطعه مدينة رأس عين بالجزيرة(٣).

---

(١) الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٥ ب؛ الاصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٧٢ أ، ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٨٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٧٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٦ - ١٧.

(٢) الاصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٧٢ أ ب؛ المقريزي: المقفى ورقة ٢٤ أ؛ ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٠٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٧ - ١٨؛ ابن ايبك: كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ١٩٨،

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٨٧ - ١٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٩ - ٣٠؛ ابن ايبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٩٨ - ٢٠١ ونهر الساجور: نهر بجهات منبج

غير أن اطماع ابن المشطوب لم تلبث أن ظهرت من جديد في منطقة الجزيرة ولا سيما وان هذه المنطقة هي الموطن الاصلي للأكراد، فخرج على الملك الأشرف سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م غير أن الأخير تمكن من تجريده من حلفائه وبعد مطاردته فترة تمكن من القبض عليه واعتقله بسنجار[١].

ومهما يكن من شيىء فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو، ما الدافع الذي دفع ابن المشطوب إلى تدبير مؤامرته؟ في الوقت الذي لم تكن الظروف مهيأة لنجاح تلك المؤامرة ذلك آن استيلاءه على مصر باسم الفائز إبراهيم سيجلب عليه عداء الأشرف والمعظم ابن العادل، و وسيحرمه بالتالي من مساعدتهما ولن يتمكن بمفرده من الصمود أمام الحملة الصليبية الخامسة التي لا هدف لها إلا الاستيلاء على مصر. وبعد هذا: ألم يقدر ابن المشطوب خطورة وضع المسلمين في هذا الوقت ووجوب توحيد القوى بعد موت العادل لصد الصليبيين؟ أغلب الظن أن ابن المشطوب فقد القدرة على الرؤية الصحيحة لمجريات الحوادث، وبالتالي لم يعد يهمه مصير قضية الجهاد ضد الصليبيين في وقت أصبح فيه الجهاد فرض عين على كل مسلم قادر، بعد أن هاجم الصليبيون المسلمين في عقر دراهم. وهكذا أعمى التطلع إلى السلطة بصيرته عن فهم طبيعة الظروف الدقيقة التي كان يمر بها المسلمون في تلك الحقبة. وهذا إن دل على شيء فانما يدل على أن اطماع القادة العسكريين ظهرت حين انتاب الدولة الأيوبية الضعف، وأن كبح جماح تلك الاطماع يتوقف على وجود شخصية قوية ومحنكة من أفراد البيت الأيوبي، تستطيع فرض نفوذها على بقية الامراء، مثل شخصية السلطان العادل ومن قبله صلاح الدين.

من أعمال حلب تقع عليه عينتاب وتل باشر. انظر ياقوت: معجم البلدان؛ مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٠ حاشية رقم (٢).

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٧١ ـ ٧٢.

العلاقات بين أبناء العادل وأثرها في بلاد الشام
٦١٥ - ٦٣٥ هـ/ ١٢١٨ - ١٢٣٧ م

يصف المؤرخ ابن الأثير علاقة أبناء العادل في أعقاب موت والدهم مباشرة بأنها كانت على أحسن حال فثبت كل واحد منهم في المملكة التي أعطاها أبوه «واتفقوا اتفاقاً حسناً ، لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجر بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه»[١].

ولكن هذه العلاقات الطيبة بين أبناء العادل، لم يكتب لها الدوام والاستمرار: فحقيقةً أنهم اتفقوا بعد وفاة والدهم مباشرة، وكان لذلك أحسن الأثر في صد الصليبيين، لإدراكهم بخطورة المرحلة التي يمر بها المسلمون، ووجوب توحيد الجهود لصد الحملة الصليبية الخامسة. إلا أن طبيعة تكوين الدولة الأيوبية حتّمت وقوع الخلاف بينهم بعد ذلك. فالدولة الأيوبية كما سبق ومر شرحه[٢]. إتبعت النظام الذي جرى الأخذ به زمن السلاجقة، وهو تقسيم المملكة بين أبناء السلطان بعد موته، وأصبح لكل ابن منطقة أو مدينة هو الملك عليها، إضافة إلى وجود الكثير من الإقطاعيات داخل المملكة الواحدة لكبار القادة العسكريين. فالعادل حينما توفي خلف سبعة عشر ولداً[٣]، كان معظمهم يحكمون في بلاد الشام والجزيرة ومصر[٤].

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٥٢؛ وانظر أيضاً القرماني: أخبار الدول ص ١٩٥.

(٢) انظر ما سبق الفصل الأول ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) الزبيدي: ترويح القلوب ورقة ٣ ب؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٣؛ العصامي: سمط النجوم العوالي جـ ٤ ص ١٣

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر [illegible] ص ٢٣٢.

وكان لا بد لدولة هذه طبيعة تكوينها ونظامها أن تحدث داخلها المنافسات والمنازعات بين ملوكها، ولا سيما وأن رقعة الدولة جميعها محدودة، بالإضافة إلى أن حدود كل مملكة غير محددة تفصيلاً. كما أن بعض أبناء العادل الصغار كانوا تابعين عملياً لبعض اخوتهم الكبار، ومن المؤكد أنهم سيتطلعون إلى البحث عن ممتلكات خاصة مستقلة حينما يكبرون.

وقد نال أبناء العادل الثلاثة الكبار النصيب الأكبر من الدولة الأيوبية، فالكامل محمد كان يملك مصر وهو السلطان، بينما انفرد المعظم عيسى بدمشق والكرك والقدس حتى حدود مصر، في الوقت الذي نال فيه الأشرف موسى البلاد الجزرية الواقعة شرق الفرات. وفي سنة ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م عاد المعظم إلى الشام. وأقام الأشرف بمصر عند أخيه الكامل. وهنا يبدو أن الأشرف تحالف سراً مع الكامل ضد أخيهماالمعظم حيث يقول سبط ابن الجوزي «فغير الله القلوب وصارا متصادقين على المعظم[١]».

وكان المعظم يتطلع إلى بسط نفوذه على بلاد الشام جميعها وضم بقية الممالك الشامية إلى مملكته ولا سيما حمص وحماه، ولما كان يعلم بالاتفاق الذي تم بين أخويه ضده فقد أخذ يلتمس الحلفاء للوقوف إلى جانبه، فأرسل محتسب دمشق إلى جلال الدين خوارزم شاه طالباً منه محالفته ضد أخويه الأشرف والكامل، فأجابه جلال الدين إلى طلبه وبخاصة وأن جلال الدين كان في مقدوره الضغط على الأشرف الذي تقع ممتلكاته في شرق الفرات قريباً من الدولة الخوارزمية[٢].

وفي سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م أزمع المعظم على ضم مملكة حماه إلى مملكته، فسار إليها بجيوشه وضايقها حتى سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م بغية الاستيلاء عليها[٣]. إلا أن جهوده سرعان ما أخفقت، فاتفق الأشرف مع الكامل على

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢١ - ٦٢٢؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٠.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٩٨.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢٢٧ أ ب؛ وانظر ما سبق الفصل الأول ص: ٩١ - ٩٢

تهديده وتخويفه ومَنْعِهِ من الاستيلاء على حماة، حتى لا يذكي ذلك أطماعه بالتوسع في بقية بلدان الشام ومن ثم تهديدهما معاً، فأرسلا إليه مبعوثين يطلبان إليه ترك حماه على حالها، فانسحب على مضض بعد أن صالح ملك حماه وعاد إلى دمشق، «وكان ذلك ابتدأ الوحشة بينه وبينهما، وكانت أطماعه قد تعلقت بالاستيلاء على حماه وبلادها وإضافتها إلى ممالكه»[1].

لما علم المعظم بأن أخويه الأشرف والكامل على وفاق تام، توقع منهما العمل سوياً على اقتسام مملكته «فاستوحش لذلك»[2]. ولعل مما عزز مخاوفه وزاد في غضبه، هو قدوم الملك المسعود اقسيس بن الكامل من اليمن إلى أبيه بمصر ومعه هدايا قيمة لوالده سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م خاصة وقد اتضح أنه ما قدم من اليمن إلى مصر «إلا طمعاً في أخذ دمشق والشام» كما يقول سبط ابن الجوزي[3].

ولذلك قرر المعظم إشغال أخيه الأشرف عن مساندة الكامل وابنه في أطماعهما في بلاد الشام بالعمل ضده داخل مملكته بمنطقة الجزيرة. وكان الأشرف عندما غادر بلاده إلى مصر، جعل أخاه غازي بن العادل نائباً عنه بخلاط وأعمالها وميافارقين وغيرها. وجعله ولي عهده. فأرسل المعظم إلى مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل يدعوه إلى محالفته والاتفاق معه، وأغراه بمهاجمة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، الذي كان محالفاً للأشرف، فوجد عرض المعظم هوى في نفس مظفر الدين كوكبوري، لكراهيته الشديدة لبدر الدين لؤلؤ بسبب قضاء الأخير على البيت الأتابكي، وسيطرته على ابني الملك القاهر آخر ملوك الأتابكة، وشرع كوكبوري في حشد قواته لقصد الموصل، ويبدو أنه لم يكن يمنعه من مهاجمة الموصل قبل ذلك سوى

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٢٧ ـ ١٢٨؛ وانظر أيضاً ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٧ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٣٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٣٣.

خوفه من الأشرف نظراً لتحالف بدر الدين لؤلؤ معه ودخوله في طاعته. أما وقد وجد له الآن حليفاً قوياً، لذلك قرر العمل ضد صاحب الموصل كما أرسل المعظم في الوقت نفسه إلى أخيه غازي نائب الأشرف وحَسّنَ له الخروج على الأشرف ومحاربته، وتعهد المعظم لأخيه غازي ولصاحب أربل بالخروج من دمشق إليهما لمساعدتهما، وعندئذ طمع غازي فأعلن عصيانه على أخيه الأشرف بخلاط، وخرج المعظم في عساكره من دمشق مفصحاً عن نيته في قصد بلاد الشرق في سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م[١].

وحينما علم الأشرف بهذه الحوادث خرج من مصر على عجل قاصداً حران لمواجهة تمرد أخيه غازي[٢]. ولما كان الأشرف يخشى أن يقوم المعظم بمهاجمته من الخلف، أرسل إلى أخيه الكامل يخبره بخطورة موقفه، وعندئذ بعث الكامل إلى أخيه المعظم قائلاً له: «إن تحركت من بلدك سرت إليه وأخذته منك» وقد أخذ المعظم هذا التهديد مأخذ الجد، ولاسيما وأن ممالك حلب وحمص وحماه تؤيد الكامل والأشرف، فرجع المعظم إلى دمشق[٣].

وسار مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل إلى الموصل لحصارها في ربيع الأول ٦٢١هـ / ابريل ١٢٢٤م وذلك لكي يمنع الأشرف من مهاجمة خلاط، ولكن الموصل صمدت أمام الحصار، ووصل إلى الأشرف نجدة من حلب كما أنجده بعض أمراء الجزيرة فمضى إلى خلاط وحاصرها وتمكّن من الاستيلاء عليها بسبب مساعدة الأهالي له لما عرفوه عنه من سيرة طيبة ولسوء سيرة أخيه غازي، ودخل إلى خلاط في جمادي الآخرة ٦٢١هـ / يونيه ١٢٢٤م ونزل إليه غازي مستسلماً فعفى عنه وأبقى ميافارقين بيده. أما مظفر الدين كوكبوري فقد

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٧ أ؛ ابن الأثير: الكامل، جـ ١٢ ص ٤٢١ - ٤٢٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٣٧ - ١٣٨؛ وانظر أيضاً سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٢٥.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٤؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٥٥.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٤ ص ١٣٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢١٥.

انسحب عن الموصل حينما علم باستعادة الأشرف لمدينة خلاط[1]. وهكذا لم يستطع المعظم تقديم مساعدة فعالة إلى حلفائه بالجزيرة لأنه لم يعد بمقدوره مغادرة بلاد الشام خوفاً عليها من الملك الكامل، وكل ما فعله لم يتعد قيامه بغارة سريعة في أعمال حمص عاد على أثرها إلى دمشق[2].

ولم يستسلم المعظم لأول إخفاق واجهه، فعاد وأرسل في أواخر سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ابنه الناصر داود إلى أربل ليبقى رهينةً بها لتأكيد التحالف من جديد مع صاحبها مظفر الدين كوكبوري[3]. كما أرسل مبعوثاً إلى جلال الدين خوارزم شاه وتحالف معه من جديد[4]، إذ لم يتمكّن جلال الدين من تقديم المساعدة للمعظم أثناء عصيان غازي بخلاط بسبب انشغال جلال الدين باضطراب أحوال الدولة الخوارزمية. وخلال سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م - ١٢٢٦م تمكّن جلال الدين من الاستيلاء على أذربيجان ووصل إلى خوزستان وحدود العراق وهدد الخلافة العباسية في بغداد، وزادت قوته وأصبحت ممتلكاته تجاور فعلاً أملاك الأشرف بإقليم الجزيرة[5]. وترددت الرسل بين المعظم وحليفيه جلال الدين، وصاحب أربل للتنسيق، وتم الاتفاق بين الحلفاء الثلاثة على القيام بهجوم عام لتحقيق أهدافهم، فيهاجم المعظم حمص وحماه، بينما يهاجم جلال الدين خلاط عاصمة الملك الأشرف، ويشنّ صاحب أربل الحرب على الموصل المحالفة للأشرف[6].

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢٢٧ أ ب؛ اليافعي: جامع التواريخ المصرية، ورقة ٣ أ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٢١ - ٤٢٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٣٨ - ١٤١؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٠٤ - ١٠٧؛ ابن ايبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٦٥ - ٢٦٦؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٤؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٠٤.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٩٥.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٣ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٤٢.

(٤) اليافعي: جامع التواريخ ورقة ١١ ب؛ السبط: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٣٢ - ٦٣٣؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ٨١.

(٥) انظر تفاصيل ذلك في ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٢٥ - ٤٢٧، ٤٣٢ - ٤٣٥.

(٦) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١١ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٧٥ -

وتمكّن المعظم بدهائه من تحييد أخيه الكامل صاحب مصر، إذ أوهمه بأن معظم أمراء جيش مصر يميلون إليه ويساندونه «وأنه إذا خرج من مصر أخذه بعسكره، فلم يجسر على الحركة»[1] ومما زاد في تثبيط همة السلطان الكامل وعدم خروجه إلى الشام هو وصول ابن أخيه الجواد يونس بن مودود بن العادل إلى عمه المعظم بدمشق هارباً من مصر عن طريق البحر «وتخيَّل الكامل من أمراء دولته وميلهم إلى أخيه المعظم» فقبض منهم جماعة وزاد في حذره وترقبه[2].

واستقر رأي المعظم على قصد حمص وحماه في سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م ورأى أن يبدأ بحمص أولاً، فأرسل جماعة من عرب دمشق، فأغاروا على قرى حمص ونهبوها، وأرسل الأشرف بدوره الأمير مانع بن حديثه آل فضل أمير طي في جموع كثيرة من قبيلته نجدة لصاحب حمص شيركوه، غير أنهم هاجموا في طريقهم قرى المعرة ونهبوا محاصيلها، وأخيراً خرج المعظم من دمشق ووصل إلى حمص، فانسحب عرب مانع وحلب والجزيرة إلى قنسرين[3]، وتركوا إظعانهم بمرج دابق[3]، وساروا منجدين لحمص، وحدثت عدة معارك بين عرب مانع وعرب دمشق، كما أرسل الأتابك طغريل فرقة من حلب لمساعدة حمص، والتقت هذه الفرقة بعسكر المعظم واقتتلوا، ثم دخلوا حمص، وتراسل المعظم مع صاحب حمص وعرض عليه الاتفاق معه ضد الأشرف فرفض شيركوه، فقام المعظم بشن الغارات على قرى حمص ونهب عسكره الغلال والمواشي، وقاموا بقطع أشجار البساتين وتخريب الطواحين وفعلوا كل ما في وسعهم، ومع ذلك

١٧٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٠.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١١٧؛ وانظر أيضاً: اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١١ ب.

(٢) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١١٣.

(٣) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص، كانت قاعدة أجناد الشام، انظر ياقوت: معجم البلدان؛ أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ ودابق: قرية قرب حلب تبعد عنها أربعة فراسخ وعندها مرج معشب نزه، انظر: ياقوت: معجم البلدان.

فقد ظلت حمص صامدة لأن صاحبها أحسن الدفاع عن مدينته وشحنها بالرجال والمؤن[1].

وفي تلك الأثناء ترددت الرسل بين المعظم وأخيه الأشرف، واتفقا على الاجتماع معاً لبحث الخلافات بينهما على أن يرحل كل واحد منهم ومن حلفائهم عن المكان الذي يحاصره، وفي الوقت نفسه انتشر الوباء في معسكر المعظم ونفقت معظم دوابه، فآثر الاجتماع بأخيه الأشرف وبخاصة وأن الأخير أخبره بعزمه على المسير إليه مما يمنحه فرصة عظيمة للضغط عليه وتحقيق طموحاته في بلاد الشام. وَقَدِمَ الأشرف إلى الشام والتقاه المعظم قرب حمص وسارا إلى دمشق في أول رمضان ٦٢٣هـ / سبتمبر ١٢٢٦م[2].

ويبدو أن مما أجبر الأشرف على القدوم إلى أخيه المعظم هو ازدياد شقة الخلاف بينهما واتساع نطاق التحالفات مع القوى المحيطة بهما، ففي الوقت الذي حاصر فيه صاحب أربل الموصل[3]، ظهر خطر جديد هدد نفوذ الأشرف في منطقة الجزيرة، فقد كان صاحب آمد المسعود الأرتقي محالفاً للمعظم وصاحب اربل، فتحالف سلطان سلاجقة الروم كيقباذ مع الأشرف لخوفه من جلال الدين الخوارزمي، وأرسل إليه الأشرف يطلب منه مهاجمة صاحب آمد، فسار كيقباذ إلى ملطيه وأرسل منها العساكر إلى آمد ففتحوا حصن منصور وغيره، فأرسل صاحب آمد إلى الأشرف ودخل في طاعته من جديد، فأرسل الأشرف إلى كيقباذ يطلب منه ترك آمد وإعادة ما أخذه من بلادها، فامتنع من ذلك قائلاً: «ما كنت نائباً للأشرف يأمرني مرة وينهاني أخرى» فأرسل الأشرف

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٩٧ ـ ١٩٨؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٢٥ ـ ١٢٦؛ التاريخ المنصوري ص ١٢٥ حاشية رقم (٥) نقلاً عن تاريخ ابن الفرات.

(٢) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٢٦ ـ ١٢٧؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٣٦.

(٣) انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٨٨.

نجدة لصاحب آمد فهزمها كيقباذ[1]. وهذا يعني تدهور علاقة الأشرف ولو مؤقتاً مع سلاجقة الروم الذين يتاخمون مناطق نفوذه في الجزيرة وبلاد الشام.

وكيفما كان الأمر فإن الأشرف وصل إلى أخيه المعظم الذي تظاهر بالسرور لقدومه وأمر بضرب البشائر بدمشق، وزين البلد إبتهاجاً بتلك المناسبة وذلك سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م «وحاله في الباطن بخلاف ما أظهر، والرسل مع ذلك مترددة بين المعظم وبين جلال الدين خوارزم شاه»[2] وعمد المعظم إلى الضغط على أخيه الأشرف عن طريق إظهار المودة والاتفاق بينه وبين جلال الدين الخوارزمي حتى يوافقه الأشرف على جميع طلباته، فقد ذكر بعض المؤرخين أن جلال الدين بعث بخلعة سنية إلى المعظم فلبسها وصار يركب بها مع أخيه الأشرف كما تظاهر بالمودة بينه وبين جلال الدين وأخذ يُقْسِمُ برأسه في مجالسه[3]. وأزمع المعظم على تزويج إحدى بناته، من جلال الدين لتوطيد العلاقات معه وجرت بينهما مراسلات في ذلك، «وصار بينهما اتحاد كلي» كما يقول ابن واصل[4]. ولا شك أن هدف المعظم من كل تلك المناورات هو الحصول على موافقة أخيه الأشرف على إطلاق يده في بلاد الشام وضم حمص وحماه إلى مملكته. وحاول الأشرف الذهاب إلى مصر غير أن المعظم لم يمكنه من ذلك[5]. وأصبح الأشرف خاضعاً لسيطرته بحيث لا يستطيع أن ينفرد عنه بأمر ولا يجرؤ على مخالفته على الإطلاق لأنه أصبح في يد أخيه كالأسير[6].

وفي تلك الأثناء وردت الأخبار إلى دمشق بنزول جلال الدين الخوارزمي

---

(١) اليافعي، جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢ ب؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ ٢ ورقة ١٩ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٧٩.

(٣) تاريخ ابن الجزري مخطوط لوحة ٣٢٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٨١؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ٩٣؛ اليافعي: مرآة الجنان جـ ٤ ص ٥٣.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٥) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٢٩.

(٩) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٩٨ - ١٩٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٨٠.

محاصراً خلاط عاصمة الأشرف للاستيلاء عليها، فطلب الأشرف من أخيه المعظم أن يرسل إلى حليفه جلال الدين الخوارزمي يأمره بالرحيل عن خلاط[1]. واهتبل المعظم تلك الفرصة وألزم أخاه الأشرف بالسماح له بضم حمص وحماه إلى مملكته، وندم الأشرف على قدومه إلى دمشق ولم يسعه إلاّ الموافقة على طلبات أخيه المعظم[2]. أما جلال الدين فرغم حصاره الشديد لخلاط سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م فقد أخفق في الاستيلاء عليها بسبب بسالة أهلها في الدفاع عنها، وشدة البرد وهطول الثلج، فضلاً عن غارات التركمان على بلاده، فاضطر إلى الانسحاب عن خلاط في ذي الحجة سنة ٦٢٣هـ / ديسمبر ١٢٢٦م[3].

ظل الأشرف مقيماً بدمشق زهاء عشرة أشهر كالأسير لدى أخيه المعظم، ورأى بنفسه مدى تطور العلاقات الودية بين المعظم وجلال الدين الخوارزمي حتى أن المعظم زوجه إحدى بناته، ووجد الأشرف انه لا مناص من موافقة أخيه المعظم على كل ما يريد، فحلف له على مخالفته ضد السلطان الكامل، والمجاهد صاحب حمص، والناصر صاحب حماه. وطلب المعظم من الأشرف إقناع أتابك حلب بالانضمام إليه ضد الكامل، غير أن الأتابك رفض بحزم. وأخيراً سمح المعظم للأشرف بمغادرة دمشق والعودة إلى بلاده في جمادي الأولى ٦٢٤هـ / مايو ١٢٢٧م. وحينما وصل الأشرف إلى بلاده تراجع عن كل ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم، وتأول في ايمانه التي أقسمها بأنه كان مكرهاً عليها فندم المعظم على إطلاق سراحه وأرسل أعراب دمشق للإغارة على قرى حمص وحماه[4].

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٨٠؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ٩٣؛ ابن أيبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٨١.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٤) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٩٩ ـ ٢٠٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٣٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢١.

وهكذا وصلت العلاقات بين الأخوة الثلاثة إلى نقطة خطيرة جداً، فالمعظم بتحالفه مع جلال الدين لخوارزمي لعب دوراً هاماً ـ دون أن يدري ـ في حفز الخوارزمية على الطمع في بلاد الشام والجزيرة. ووقع الكامل في ما يشبه العزلة السياسية بعد أن أضحى عاجزاً عن مساعدة الأشرف ضد الخوارزمي بسبب منع المعظم للمساعدات القادمة من مصر. فأصبحت أطماع كل أخ في أملاك الآخر مدعاة للقلق والاضطراب في وقت كان يجب فيه على الأخوة الثلاثة توحيد القوى، وحشد الطاقات لمواجهة بقايا الصليبيين في بلاد الشام، إضافة إلى وجوب الإستعداد المبكر وبناء جبهة إسلامية متحدة، لاسيما وأن النذر بخطر التتار بدأت تظهر للعيان. بل إن خلافات الأخوة الثلاثة جلبت حملة صليبية جديدة ـ كما سنرى ـ هي الحملة السادسة، وما نجم عنها من نتائج لا تساوي إطلاق يد المعظم في بلاد الشام. وهكذا ساهم الأخوة الثلاثة ـ دون وعي منهم ـ في دق المسامير في نعش الدولة الأيوبية.

وعلى أية حال، فبعد أن شعر الكامل بالعزلة وبخطورة تحالف أخيه المعظم مع خوارزم شاه لم يجد حوله من حكام المسلمين حليف قوي يشد من أزره ويقف إلى جانبه، فقرر الإتصال بالأمبراطور فردريك الثاني Frederick II ١٢١٢ ـ ١٢٥٠م)، أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة طالباً منه المجيء إلى عكا لمساعدته ضد أخيه المعظم ووعده بأن يعطيه بيت المقدس وكل ما بيد المسلمين من ساحل فلسطين[١].

وما أن علم المعظم باستدعاء الكامل لفردريك حتى بعث على عجل إلى جلال الدين الخوارزمي يطلب منه النجدة على أخيه الكامل، ووعده بأن يقيم الخطبة له بمملكته ويضرب السكة باسمه وقطع خطبة الكامل من دمشق، وعندئذ خرج الأخير من القاهرة إلى بلبيس في رمضان ٦٢٤هـ / أغسطس ١٢٢٧م عازماً على الخروج إلى بلاد الشام[٢]. ولما كان المعظم لا يأمل في معونة

---

(١) Lanepepool, A History of Egypt p. 226. وانظر ما يلي، الفصل الثالث ص: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٢.

فورية من جلال الدين لبعد المسافة بين بلاد الشام وبين أراضي الدولة الخوارزمية في إيران، ولقرب المسافة بين الشام ومصر إضافة إلى انشغال الخوارزمي بأمور دولته وخطر التتار. فقد لجأ المعظم إلى مناورة سياسية بارعة لتثبيط همة الكامل وتخويفه، فبعث إليه رسالة سرية يتهدده فيها قائلاً: «إني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي وكتبهم عندي، وأنا أخذك بعسكرك» وكتب له رسالة أخرى علنية أمر بإظهارها أمام قادة الكامل جاء فيها «بأني مملوكك وما خرجت عن محبتك وطاعتك وحاشاك أن تخرج وتقابلني وأنا أول من أنجدك وحضر إلى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق» ولا شك أن المعظم أراد من الرسالة الثانية أن يحفظ ماء وجه أخيه الكامل أمام أصحابه حتى يترك له فرصة للتراجع، فأعلن الكامل الرسالة بين الأمراء ورجع من العباسة إلى قلعة الجبل[1].

ومن الواضح أن الكامل كان لا يثق في عساكره، ولاسيما بعد مؤامرة ابن المشطوب ويقدِّم ابن واصل تعليلاً منطقياً لعدم الثقة بهم، فيذكر أنه على الرغم من أن عسكر المعظم لا يتجاوز ثلاثة آلاف فارس مقارنة بعسكر الكامل الذي يناهز أثنيّ عشر الفاً فإن عسكر المعظم أفضل من عسكر الكامل في تجملهم وحسن زيهم وأسلحتهم، وكان الكامل يتوهم ميل عسكر مصر إلى أخيه المعظم ومحبتهم له لما يعرفونه عنه من عناية فائقة بأمر الجند ورعاية لشؤونهم ورفعة مكانتهم، وكان الكامل لا يجسر على الخروج إلى الشام خوفاً من انحياز عسكره إلى المعظم، ويؤكد ابن واصل تعليله ذلك بقوله: «وكان والله الامر كذلك»[2].

وحينما وصلت الأنباء بعزم الأمبراطور فردريك الثاني القدوم إلى الشام

---

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٢.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٠٩.

طمع صاحبا حمص وحماه في الملك المعظم وأرسلا إليه يطالبانه بتعويضات عما ألحقه بهما من خسائر، وأدرك المعظم عندئذ ـ وبعد فوات الأوان ـ ما يعنيه قدوم حملة صليبية جديدة، في وقت استحكمت فيه العداوة بين ملوك الدولة الأيوبية، فأرسل إلى أخيه الأشرف يلاطفه، فعنفه الأشرف «على أفعاله التي عامله بها وقرعه على ما اعتمد في حقه وحق أهله»[1].

وداهم المرض المعظم فتوفى في ذي القعدة ٦٢٤هـ / نوفمبر ١٢٢٧م وخلفه في مملكته بعده ابنه الناصر صلاح الدين داود، وقام بتدبير أمور دولته مملوك والده عز الدين أيبك المعظمي صاحب صرخد[2]. وظل في خدمته عماه العزيز عثمان صاحب بانياس وعماد الدين إسماعيل صاحب بصرى والسواد، وابن عمه المغيث محمود بن عمر بن العادل. وأرسل الناصر إلى عميه الكامل والأشرف معزياً بأبيه فأرسل الكامل إليه رسولاً ومعه الخلع وسنجق السلطنة، وطيب قلبه، وأقره على مملكة والده، فلبس الناصر خلعة عمه «وركب بالسنجق الواصل إليه»[3].

وفي الحقيقة فإن المشاعر الطيبة التي أبداها الكامل تجاه ابن أخيه الناصر داود ليست صادقة، فهو لم يخف سروره بموت أخيه المعظم[4]. وورث الناصر داود جميع المشكلات وسوء العلاقات التي كانت قائمة بين أبيه وعميه الأشرف والكامل، فما لبث الكامل أن التمس ذريعة لمهاجمة مملكة الناصر داود، فأرسل إليه طالباً منه التنازل عن قلعة الشوبك ليجعلها خزانة له، فرفض الناصر طلبه،

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠١.

(٢) العليمي: تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١٣ أ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٢١ ب؛ أبو الفدا: التبر المسبوك مخطوط حوادث ٦٢٤؛ القلقشندي: مآثر الأنافة جـ٢ ص ٨١ ـ ٨٢؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٣٨.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ ورقة ٢٠ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٤؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٢٤.

(٤) المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٢٤.

فقرر الكامل الخروج إلى الشام لانتزاع دمشق منه[١]. وعهد الكامل إلى إبنه الصالح أيوب بولاية العهد وجعله نائبه بمصر وخرج إلى الشام في رمضان ٦٢٥هـ / أغسطس ١٢٢٨م، وفي صحبته عدد من أمراء البيت الأيوبي، منهم ابن أخيه الجواد يونس بن مودود، وكان قد فر إلى المعظم سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م فعاد الكامل واسترضاه ورجع إلى مصر، والمظفر محمود بن المنصور صاحب حماه. وحينما وصل الكامل إلى غزة خيم بتل العجول وبعث بولاته إلى نابلس والقدس والخليل. فانزعج الناصر داود واستبد به الخوف والفزع[٢].

وانضم إلى الكامل أخوه العزيز عثمان بن العادل الذي تـطلع إلى انتزاع بعلبك من الأمجد بهرام شاه إلاّ أن الناصر داود منعه من ذلك فغضب وانضم إلى الكامل فوعده بتسليم بعلبك إليه[٣].

ويذكر بعض المؤرخين أن العزيز عثمان عندما سافر إلى الكامل سار الأمجد صاحب بعلبك ونهب بلاد العزيز وهي بانياس وأعمالها، وحينما بلغ ذلـك السلطان الكامل، أمر عساكره بنهب بلاد الناصر داود جزاء ما فعله صاحب بعلبك[٤]. وهذا يوضح حقيقة هامة تسترعي الانتباه وهي أن معظم الفلاحين والسكان في بلاد الشام والبعيدين كل البعد عن الاشتغال بالسياسة تضرروا كثيراً من المنازعات السياسية بين الأيوبيين، ودفعت بلاد الشام أثماناً باهظة حينما تشنّ العساكر المتناحرة الغارات ضد بلاد بعضهم البعض الأمر

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٠ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ مخطوط لوحة ٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤، ص ٢٢٥؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٢٤؛ العليمي: الأنس الجليل جـ١ ص ٤٠٥.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٦ - ٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٥ - ٢٢٨؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٢٦.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٢٢٧؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٦٢ - ١٦٣؛ أبو شامة: الروضتين ص ١٥٣.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ١٢؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٦٢ - ١٦٣.

الذي يعود بأفدح الضرر على الأهالي في وقت ليس فيه لصغار المزارعين والسكان ناقة ولا جمل في المنازعات السياسية.

ومهما يكن من أمر فحينما تأكد الناصر داود من خروج عمه الكامل للاستيلاء على مملكته أرسل الرسل تباعاً إلى عمه الأشرف يستنجد به ضد عمه الكامل، وكان الأشرف مقيماً بسنجار، فقدم إلى دمشق، فاستقبله الناصر استقبالاً حافلاً. ويقول ابن واصل: «وكنت حينئذ بدمشق... وفرح الناصر به غاية الفرح، وطاب قلبه، وأقام الأشرف مدة يتنزه في بساتينها... وكان الوقت صيفاً وبساتينها في غاية النظارة والحسن وكثرة الفواكه، وفي قلب الأشرف من محبة دمشق والميل إلى تملكها ما فيه، فهو يعمل على ذلك باطناً» [1] وهكذا غدا حال الناصر في استجارته بعمه الأشرف ضد الكامل كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وسلم الناصر داود مقاليد دولته إلى عمه الأشرف ووضع فيه كامل ثقته، وقدم إلى دمشق أيضاً المجاهد شيركوه صاحب حمص لأنه كان متحالفاً مع الأشرف[2].

وأرسل الأشرف إلى الكامل رسولاً ليشفع في الناصر داود ويطلب منه إبقاء دمشق عليه فرفض الكامل وساطة الأشرف لعلمه أنه لم يكن مخلصاً فيها وخاطب رسوله «بما فيه اطماع الأشرف بملك دمشق»[3]. وعندئذ أشار الأشرف على الناصر داود بالمضي معه إلى نابلس ليقيم بها ثم يسير هو لمفاوضة السلطان الكامل بتل العجول قرب غزة، فسارا ومعهما المجاهد صاحب حمص، وأقام

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، وانظر أيضاً تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٢.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ ورقة ١٢٤أ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٣٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٢٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧؛ أبو الفدا، ج ٣ ص ١٤٠.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

الناصر بنابلس بينما سار الأشرف والمجاهد إلى الكامل. وهنا غدر الأشرف بابن أخيه الناصر وأماط اللثام عن مطامعه، وتم عقد صفقة سياسية بينه وبين أخيه الكامل اقتسما بموجبها مملكة الناصر داود، وجرى الاتفاق على أخذ دمشق من الناصر وتسليمها للأشرف مع ما يتصل بها من البلاد إلى عقبة فيق، ويكون للسلطان الكامل المناطق الواقعة بين عقبة فيق وغزة، وأن يعوض الناصر داود ببعض بلدان الجزيرة التابعة للأشرف وهي حران والرقة والرها وسروج ورأس عين وجملين والموز، وأن تُنتزع بعلبك من الأمجد بهرام شاه وتُعطى للعزيز عثمان بن العادل، وتُنتزع حماه والمعرة وبعرين من قلج أرسلان وتعطى لأخيه المظفر، على أن تسلم سلمية للمجاهد صاحب حمص[1].

وحينما سمع الناصر داود بنبأ الاتفاق رحل من نابلس قاصداً دمشق، غير أنه بدلاً من أن يحاول استمالة كبار الأمراء والقادة إلى جانبه، ارتكب حماقة كبيرة عندما اختلف مع الأمير عز الدين أيدمر المعظمي صاحب جينين، فأحضره وأمر بضربه وإهانته، وكان أيدمر من كبار قادة المعظم، فهرب بأتباعه وانضم إلى السلطان الكامل الذي أحسن إليه فضَعُفت قوات الناصر بذلك[2]. ويذكر ابن الفرات أن أيدمر المعظمي عندما وصل إلى السلطان الكامل أنعم عليه بعشرين ألف دينار عيناً وكتب له توقيعاً على الأعمال القوصية بعشرين ألف أردب غلة كما أعطاه جميع أملاك وزير والده صفي الدين بن شكر[3]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى القوة التي تمتع بها هذا الأمير وقدرته على تغيير موازين القوى في الصراع الدائر، وهذا يلقي الضوء على

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ ورقة ٢٤ أ ب ـ ٢٥ أ؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٩٤ أ؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٠ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٧؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٤٠.

وعقبة فيق: ويقال أفيق مدينة بالشام بين دمشق وطبرية، وعقبة فيق تنحدر إلى غور الأردن، تشرف على طبرية وبحيرتها، أنظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٥

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥١.

دور القادة العسكريين من أصحاب الإقطاعيات في النزاع بين الأيوبيين.

وحينما رحل الناصر داود عائداً إلى دمشق لحق به عمه الأشرف تحت عقبة فيق بالغور واجتمع به وأخبره بالاتفاق الذي جرى مع السلطان الكامل، وأنه لا مناص من مخالفته وطلب منه التنازل عن دمشق والرضى بما تقرر له من البلاد الشرقية، وحضر الاجتماع الصالح اسماعيل بن العادل والمغيث بن عمر بن العادل وكانا مع الناصر داود، والأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد وكبير قادة الناصر، ورفض عز الدين أيبك تسليم دمشق وأمر الناصر بالرحيل معه فوراً إلى دمشق للاعتصام بها والدفاع عنها، وعندئذ انضم الصالح إسماعيل والمغيث، وكريم الدين الخلاطي ـ وكانوا جميعاً من أخلص أصحاب المعظم ـ إلى الملك الأشرف[1] كما تلقى الأشرف نجدة من حلب بعث بها الأتابك طغريل فوصلت إلى الغور في محرم ٦٢٦هـ / نوفمبر ١٢٢٨م[2].

وصل الناصر داود إلى دمشق وشرع في الإستعداد للحصار، وقام سكان دمشق بنصرته أحسن قيام، وسار الأشرف على رأس كتيبة حلب وصاحب حمص ومن انضم إليه من أصحاب الناصر لأن معظم عساكره كانوا بالمشرق بإزاء الخوارزمي، ولما وصل الأشرف دمشق نازلها في ربيع الثاني ٦٢٦هـ / مارس ١٢٢٨م وقطع عنها فروع نهر بردى، فخرج الدمشقيون وقاتلوا أصحاب الأشرف حتى أعادوا الماء إلى دمشق، وجرت بين الجانبين معارك عديدة، وهدمت الكثير من الأبنية والخانات خارج دمشق، واشتدت عمليات النهب والحريق في ضواحي دمشق، وتسلّم الأشرف حصن عزتا خارج دمشق بما فيه من سلاح وغيره[3].

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٠ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٨ ـ ٣٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٨٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٦.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٩؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٤.

وأرسل الناصر مبعوثا إلى جلال الدين الخوارزمي يخبره أن أعمامه قصدوه بسبب دخول والده المعظم في طاعته، ويحثّه على الهجوم على خلاط عاصمة الأشرف ليشغله عن دمشق[1]. واستغل الناصر تنازل الكامل عن بيت المقدس لفردريك الثاني وأخذ يشنع على عمه ويشهّر به لتنازله عن أولى القبلتين بدون قتال، وذلك كيما ينفر الناس عنه ويحثّ سكان دمشق على الصمود[2].

أما الملك الكامل فقد شُغل لفترة بالمفاوضات مع فردريك الثاني، وبعد عقد الصلح معه[3]، أرسل إليه الأشرف يحثّه على سرعة القدوم إلى دمشق للاستيلاء عليها، فبعث الكامل إليه يطلب منه الموافقة على تعديل الإتفاق الذي تم بينهما بحيث يأخذ الكامل البلاد الشرقية التي عينت للناصر داود بسبب صعوبة الاستيلاء على الكرك والشوبك والصلت لحصانتها، وتبقى دمشق وبلادها إلى عقبة فيق للأشرف، ويحتفظ الناصر بعد فتح دمشق ببعض الحصون الواقعة بين عقبة فيق وغزة، فوافق الأشرف على ذلك، ورحل الكامل قاصداً دمشق ووصل إليها في جمادي الأولى ٦٢٦هـ / أبريل ١٢٢٨م[4].

وأمر الكامل بإجراء بعض فروع نهر بردى لري الأراضي الزراعية، وأرسل إليه الناصر بعض أعيان دمشق لمفاوضته على الصلح ولكن الكامل أصرّ على تسليم دمشق وفشلت المفاوضات[5]. فاشتد الحصار على دمشق، وعاد المحاصرون إلى قطع فروع بردى وقنواته الداخلة إلى دمشق حتى جاف البلد

(١) اليافعي: جامع التواريخ ورقة ٢٨ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٩ ـ ٤٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٩ ـ ٥٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ١٤١ ـ ١٤٢؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٣١٢؛ العليمي: الأنس الجليل جـ١ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٣) انظر ما يلي الفصل الثالث ص: ٢٦٤ ـ ٢٦٧.

(٤) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٠ ب ـ ٢٣١أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٢.

(٥) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

بسبب ذلك، واقتصر شرب أهل دمشق على الآبار، ووقعت بين الجانبين معركة قبالة باب الحديد - أحد أبواب دمشق - انتصر فيها الدمشقيون، فرد المحاصرون بإضرام النيران حول باب توما، واحترقت العديد من الطواحين، وجرى تدمير معظم قرى غوطة دمشق، ومنعت القوافل التجارية من دخول دمشق حتى انقطعت المؤن والفواكه عن دمشق واشتدت الضائقة على أهل دمشق وبلغت القلوب الحناجر[1] ويحكي أبو شامة عن بعض المعاصرين قائلاً «وسمعت والدي وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار»[2].

وكان من أشد الأمور التي أضعفت الناصر داود، أن الأموال لديه قليلة لأن معظم أمواله كانت بالكرك، ولثقته في عمه الأشرف لم يحضر منها شيئاً، فلجأ إلى بيع حلى نسائه وملابسهن، وشرع في ضرب ما عنده من الأواني والتحف الفضية والذهبية دراهم ودنانير، وأنفقها في عسكره وبعد أن نفقت أمواله بدمشق غادرها بعض عساكره وانضموا إلى عميه الكامل والأشرف[3].

وبعد أن طالت مدة الحصار أدرك الناصر أنه لم يعد بمقدوره الصمود والمقاومة، فاستقر رأيه على الخروج إلى عمه الكامل، ليرى فيه رأيه، وخرج ليلاً من قلعة دمشق في أواخر رجب ٦٢٦هـ / يونيه ١٢٢٩م في نفر قليل من أصحابه وحينما علم السلطان الكامل بمجيئه استقبله بحفاوة وأكرمه وطيب قلبه بعد أن عاتبه، ثم أمره بالعودة إلى قلعة دمشق. وبعد يومين بعث الكامل بأحد

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ ب - ٢٩ أ؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٩٥ أ ب؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٢٢ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٠ - ٥٢؛ العليمي: المعتبر في أنباء من غبر ورقة ٧٥ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٢ - ٢٥٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٥؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٥.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٣؛ ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ٤٨٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٤.

أصحابه إلى دمشق وخرج بصحبة الناصر علناً، وجرى الاتفاق على إبقاء صرخد بيد عز الدين أيبك المعظمي، وترك للناصر داود الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونابلس وضواحي القدس وبيت جبريل، ثم تنازل الناصر عن الشوبك لعمه الكامل الذي نال أيضاً من مملكة الناصر الخليل وغزة وطبرية وعسقلان والرملة واللد وجميع مدن الساحل التي في حوزة المسلمين، وأقر السلطان الكامل أخويه العزيز عثمان والصالح اسماعيل وابن أخيه المغيث على ما بأيديهم من إقطاعات[١].

وفتحت أبواب دمشق في أول شعبان ٦٢٦ هـ/ يونيه ١٢٢٩ م ودخل الكامل إلى المدينة وتسلمها، وكان لسقوطها أسوأ الأثر في نفوس أهلها فعمهم الحزن والأسى رغم انفراج الأزمة الاقتصادية في دمشق عقب الصلح، ويصور المؤرخ المعاصر لهذه الحوادث ابن واصل ذلك بقوله: «وفتحت أبواب البلد مستهل شعبان، وكان ذلك في أول إقبال المشمش والفواكه وأهل دمشق قد يبست أكبادهم لعدم الخضروات والفواكه والثلج وانقطاع الماء، فانفرج عنهم الضيق، لكن حصل في قلوب الدمشقيين من الأسف والحزن ما لا مزيد عليه، ولقد كنت عند باب القلعة ذلك اليوم، وقد دخل العسكر المصري من جميع الأبواب، وامتلأت المدينة منهم، وكان إلى جانبي إنسان من أهل دمشق، فلما رأى ذلك بكى بكاء عالياً وأعلن بالعويل، وما رأيت يومئذ أحداً من الدمشقيين إلّا في صورة من فجع بموت ولد أو أب»[٢] وهذا النص يدل دلالة واضحة على روح الزعامة والقيادة في نفوس الدمشقيين وتطلعهم الدائم إلى أن تكون

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٤ ـ ٥٦؛ ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري لوحة ٥٥١ ـ ٥٥٢؛ أبو الفدا: التبر المسبوك مخطوط حوادث ٦٢٦هـ؛ ابن تغري بردى: المنهل الصافي جـ ٤ ورقة ٣٢١ أ؛ تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٨ أ؛ العليمي: تاريخ من ملك مصر والشام وحلب والسواحل ورقة ١١٣ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٢٨٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٢٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٧.

مدينتهم مستقلة بل وزعيمة للجهاد ضد الصليبيين، ورفضهم للتبعية لأي قوة إسلامية خارج مدينتهم.

وحينما تسلّم الكامل دمشق سلمها إلى أخيه الأشرف، وبعث الكامل بنوابه إلى البلاد الشرقية التي تقرر تسليمها له وهي حران والرقة والرها وسروج ورأس عين وجملين والموزر[١]. واحتفظ الكامل بقلعة دمشق مؤقتاً حتى تسلّم نوابه البلاد الشرقية من نواب الأشرف، فسلّم القلعة إليه[٢]. وهو أمر له دلالته بالنسبة للعلاقات بين الأخوين، إذ يشير بوضوح إلى وجود الشك والريبة وعدم الثقة بينهما رغم تحالفهما في هذه المرحلة.

وظل بيد الأشرف من البلاد الشرقية نصيبين وسنجار والخابور وبلاد خلاط، وكانت ميافارقين بيد أخيه غازي، بينما احتفظ أخوه الآخر أرسلان شاه بقلعة جعبر[٣].

وذهب الناصر داود إلى الكرك واستقر بها، وكان الكامل قد بعث قبيل الاستيلاء على دمشق بفرقة عسكرية للاستيلاء على الكرك إلّا أن حامية الناصر داود بالكرك تمكّنت من إنزال الهزيمة بفرقة الكامل وأسرت قائدها[٤].

أما السلطان الكامل فسار إلى جهة حماة لمساعدة المظفر على استعادتها من أخيه قلج أرسلان[٥] ثم سار شرقاً وعبر الفرات، ومر بقلعة جعبر وسار إلى الرقة وعيد بها عيد الفطر سنة ٦٢٦هـ / أغسطس ١٢٢٩م وخافه حكام الشرق وهم أصحاب ماردين وآمد، والموصل، وأربل وأذعنوا لطاعته[٦]. وبعد أن قرر

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣١ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٦ - ٥٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٨٤.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٦ - ٥٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٤) تاريخ ابن الفرات لوحة ٥٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥٨.

(٥) انظر ما سبق، الفصل الأول ص: ٩٣ - ٩٤.

(٦) اليافعي، جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٦٧ - ٦٨؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٨٢ - ١٨٣، ١٨٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٦.

أمر الشرق رجع إلى مصر بعساكره، وكان قد ورد عليه رسالة من أم ولده العادل الثاني تشكو من ابنه الصالح أيوب وتتهمه بالتخطيط لانتزاع الملك منه وأنه استكثر من المماليك الترك وحذرته من مغبة تأخره عن العودة إلى مصر، فعاد بعساكره على عجل، وتغير على ابنه الصالح أيوب وقبض على جماعة من أصحابه، وصرف عنه ولاية العهد، وجعلها لابنه الصغير العادل الثاني وأبعد الصالح أيوب عن مصر وجعله نائبه بالبلاد الشرقية[1].

أما عن نفوذ الأشرف في بلاد الشام، فبعد أن سيطر على دمشق رفض طلب أخيه الكامل بإعطاء بعلبك لأخيها العزيز، وقرر ضمها إلى مملكة دمشق، فبعث إليها جيشاً بقيادة أخيه الصالح اسماعيل، ونصب عليها المنجنيقات في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م وظل الحصار مضروباً عليها زهاء عشرة أشهر إلى أن أذعن صاحبها الأمجد بهرام شاه في سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م وسلمها إلى ابن عمه الأشرف الذي أقطعه عوضاً عنها بعض القرى التابعة لدمشق ولم يلبث الأمجد أن أغتيل على يد أحد مماليكه سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م[2].

وفي سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م غادر الأشرف دمشق إلى مصر للنزهة والاستجمام[3]. ثم استقر رأي الأخوين الكامل والأشرف على المضي بجيوشهما إلى الجزيرة لانتزاع آمد من يد صاحبها المسعود بن الصالح الأرتقي، وذلك لما بلغهما عنه من سوء السيرة وانتهاك الحرمات بحيث كثرت الشكاوى منه إلى السلطان الكامل إضافة إلى تحالفه مع الخوارزمي، وفي سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م خرجا من مصر، وتوجه الأشرف على رأس العساكر الأيوبية نحو دمشق بينما

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٧٧ - ٢٧٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٨.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ ب، ٣٨ ب؛ العليمي: المعتبر في أنباء من غبر، ورقة ٧٥ ب؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٣١؛ السيوطي: إتحاف الأخصا، ورقة ١٢٣ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٨٠، ٢٨٤ - ٢٨٥؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ٣٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٠١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣١٤؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٢٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٤١؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٤٧.

سار السلطان الكامل إلى الشوبك للنظر في مصالحه ثم توجه إلى الكرك[1].

وحينما علم الناصر داود صاحب الكرك بقدوم عمه الكامل، أمر بإقامة الإحتفالات والمهرجانات ابتهاجاً بمقدمه، واستقبله استقبالاً رائعاً، وقام الكامل بتوطيد علاقته بالناصر، فعقد له على ابنته عاشوراء خاتون شقيقة ولي عهده العادل الثاني[2]. ويعلق ابن واصل على هذه المودة الجديدة بين الناصر داود وعمه الكامل بقوله: «ولو كان الناصر التجأ إلى عمه في أول الأمر لم تخرج بلاد أبيه من يده»[3] ولكننا نفترض عدم صحة هذا الرأي، فأطماع الكامل لم تكن تقف عند حد، فقد ظل أمل توحيد مصر والشام تحت لوائه يداعب خياله، وقد اثبتت الحوادث بعد ذلك صحة هذا الافتراض وسنرى ذلك واضحاً في الصفحات التالية.

ورحل السلطان الكامل من الكرك في أواخر شعبان ٦٢٩هـ / يونيه ١٢٣١م وصحبته ابن أخيه الناصر داود كما وصل إليه المظفر صاحب حماه، وتوجهوا نحو دمشق، ووفدت بقية ملوك الشام إلى دمشق، وساروا جميعاً تحت قيادة السلطان الكامل شرقاً[4]، ووصل إلى آمد وحاصرها ونصب عليها المنجنيقات، ورغم مناعة آمد وحصانة أسوارها فإنها لم تصمد في وجه الكامل بسبب كراهية سكانها لحاكمهم المسعود الأرتقي، الذي ما أن شعر بتخلي السكان عنه حتى أذعن إلى التسليم وطلب الأمان لنفسه فأجابه الكامل إلى طلبه

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٤٥ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٩٩ - ٢٠١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢ - ١٣ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٣٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٢ ص ٢٣٢.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٠١ - ٢٠٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٦؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٥٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٦.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٠٣ - ٢٠٤؛ اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ٤٥ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٦ - ١٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ٢٣٢؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

وتسلم امد وبلادها وجميع ما يتبعها من حصون منيعة أشهرها حصن كيفا[1]. وعوض صاحبها المسعود بعض الإقطاعات بمصر وجعل ابنه الصالح أيوب نائباً عنه بأملاكه الشرقية وعهد إلى الأمير شمس الدين صواب العادلي بمهمة تدبير شئون ابن الصالح أيوب وتقديم المشورة إليه لأن الكامل كان يثق في الأمير صواب لما عرف عنه من إخلاص في خدمة الكامل ووالده العادل من قبل[2].

وبعد الاستيلاء على آمد شرع الكامل في تفقد أحوال مملكته بالمشرق، فَقَدِمَ إليه قاضي الرقة وشكى إليه سيرة ابن أخيه الجواد يونس بن مودود وأنه أجحف بسكان المدينة حتى جلا معظم سكانها ولم يبق بها سوى أقل من خمسمائة نسمة، فعزل الكامل الجواد عنها وسلمها للقاضي وطلب منه إعادة سكانها إليها، ثم قصد الرها وحران، والسويداء ورتب أمورها[3]. ثم رجع إلى مصر وعاد ملوك الشام من بني أيوب إلى بلادهم وذلك سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م[4].

وإذا كانت مرافقة ملوك بني أيوب للسلطان الكامل في حملته على آمد، تدل على اعترافهم بسلطانه وخضوعهم لنفوذه، فإن العلاقات بين الجانبين كان يمكن أن تستمر طيبة لو أن الكامل لم يتطلع لبسط سيطرته المباشرة على بلاد الشام على حسابهم وجعلها ولاية تابعة لمملكته بمصر. غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث فقد ظهرت لهم مطامعه واضحة جلية، عندما رافقوه مرة أخرى في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م في حملته الضخمة ضد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى،

---

(١) حصن كيفا، بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر: انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ ورقة ٤٥ ب ـ ٤٦ أ؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٣ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٠٤ ـ ٢٠٩؛ الديبسياوي: الزهر الزاهر ورقة ١٢٠ أ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٢٤ أ، ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٣٦ ـ ٢٤٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٦ ـ ٢٩، ٣٤؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٤٢؛ الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس جـ ٢ ص ٣٧١.

(٣) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٣٣ ـ ٢٤٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤ ـ ٣٥.

وتبيّن لهم أن هدفه الاستيلاء على آسيا الصغرى، وتوزيعها عليهم وانتزاع بلاد الشام منهم وضمها مع بلاد الجزيرة إلى مصر، فتخلوا عن مساعدته وأسهموا في فشل حملته على آسيا الصغرى، وبدأت العلاقات بين ملوك الشام والسلطان الكامل تسير من سيء إلى أسوأ[1].

وكان أول مظهر من مظاهر سوء العلاقات حدث بين الكامل وابن أخيه الناصر داود، بسبب امتعاض الكامل من الناصر لانضمامه إلى بقية ملوك الشام والجزيرة في العمل على إفشال حملته على آسيا الصغرى، فأعرض عن الناصر، وأجبره على أن يطلق ابنته عاشوراء خاتون ولم تكن قد زفت إليه بعد، وذلك في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م[2].

وقد أورد المؤرخون أسباباً عديدة لتدهور العلاقات بين الأشرف وأخيه الكامل، حيث توالت من الكامل أفعال كثيرة ضاق بها الأشرف ذرعاً منها: أنه أخذ منه بلاده الشرقية حين أعطاه دمشق بعد انتزاعها من الناصر داود، كما استأثر بمناطق هامة كانت تابعة أصلاً لدمشق، وحين استولى سلطان سلاجقة الروم على بلاد خلاط - وهي مناطق شاسعة وذات خيرات كثيرة - لم ينصره الكامل على سلطان الروم لاستعادتها، ولم يعد بيد الأشرف سوى دمشق، وأخيراً حين استولى الكامل على آمد وبلادها بمساعدة الأشرف لم يعطه شيئاً منها، واعتاد الكامل أيضاً على الخروج إلى بلاده الشرقية وكان في كل مرة يمر بدمشق ويقيم بها مع عسكره مما يكلف الأشرف أموالاً طائلة ينفقها في ضيافته وضيافة أصحابه. أما الكامل فقد استاء من الأشرف عندما عمل الأخير على إجهاض حملته على بلاد الروم فضلاً عن غضبه بسبب تجنيد الأشرف للخوارزمية

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٤ - ٧٧، وعن تفاصيل حملة الكامل على بلاد سلاجقة الروم. انظر الفصل الرابع ص: ٣٢٧ - ٣٣١.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٩ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٨٢ - ٨٣؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٥٥؛ ابن أيبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٣١٢.

بعد مقتل ملكهم جلال الدين منكبرتي[1].

ويضيف المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي وغيره من المؤرخين أسباباً أخرى إلى هذه الأسباب حيث أرسل الأشرف إلى أخيه الكامل يطلب منه الرقة، فرفض الكامل، زاعماً أن دمشق تكفيه لأنها مملكة بني أمية فبعث الأشرف إليه محتجاً بأنه أخذ منه بلاده الشرقية وأعطاها لابنه الصالح أيوب، وأضحى ملكه قاصراً على دمشق التي لم يعد إيرادها المالي يكفيه، فبعث الكامل له بعشرة آلاف دينار، فردها الأشرف قائلاً: «أنا أعطي هذه لأمير عندي»، فغضب الكامل وقال: «أيش يعمل بالملك، يكفيه عشرة المغاني وتعلمه لصناعتهم» فلما بلغ هذا القول الأشرف خنق وقال: «والله لأعرفنّه قدره»[2].

وتدهورت العلاقات بين الأخوين، وكان المجاهد صاحب حمص من أشد المناصرين للأشرف لإدراكه لنوايا الكامل في السيطرة على بلاد الشام، وكان أحد المحرضين على إفشال حملته على آسيا الصغرى إذ خاطب الأشرف قائلاً: «متى أخذ بلاد الروم تعبنا به وبقينا بين يديه يقلبنا كيف يشاء» فاتفقا عليه[3].

ولم يجد الأشرف والمجاهد صعوبة في ضم مملكة حلب إلى تحالفهما ضد السلطان الكامل، إذ كان لدى أهل حلب من الأسباب ما جعلهم ينضمون إلى

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٠ ـ ٣٦٢؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ ٢ ورقة ٢٠ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢١ ـ ١٢٣؛ ابن ايبك، كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ٣١٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٩٩ ـ ٧٠٠، ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣١٧ ـ ٣١٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤٥؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٧.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣١٨.

التحالف الجديد، حيث سبق وأن أشار الكامل عليهم بجعل الصالح بن الظاهر قائداً لعسكر حلب وذلك بعد موت العزيز وقيام ابنه الصغير الناصر يوسف في الملك بعده؛ الأمر الذي أغضب ضيفة خاتون ابنة العادل، جدة الملك الصغير والوصية عليه فوقعت الوحشة بين الحلبيين والسلطان الكامل [(١)]. فأرسل الأشرف إلى أخته ضيفة خاتون وأمراء حلب يحثهم على توحيد موقفهم معه ضد السلطان الكامل لمنعه من القدوم إلى بلاد الشام وأن يقتصر على الديار المصرية وذلك حتى لا يتركوا له أية فرصة للاستيلاء على أي جزء من بلاد الشام، وهكذا انضمت حلب بدورها إلى الأشرف والمجاهد في تحالفهم ضد السلطان الكامل [(٢)].

ولما كان المظفر صاحب حماه مؤيداً لخاله الكامل لأنه الذي استرد له حماه من أخيه قلج أرسلان وزوجه بابنته، فقد عمد الأشرف إلى استمالته إلى جانبه وتهديده بالحرب إن لم ينضم إلى التحالف الجديد، وتوسط المجاهد صاحب حمص بين المظفر وخاله الأشرف، فوافق المظفر مكرهاً، وتحالف معهم خوفاً على مملكته منهم إذا لم يجب طلبهم، وظل المظفر سراً على ولائه للكامل، وألزم المجاهد المظفر بالمضي معه إلى دمشق حيث اجتمع بخاله الأشرف وأقسم له اليمين على تأييده ضد الكامل. وأرسل ملوك الشام في الوقت نفسه وفداً إلى سلطان سلاجقة الروم كيقباذ يطلبون منه مناصرتهم ضد الكامل، غير أن كيقباذ توفي قبيل وصول الوفد سنة ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م وخلفه ابنه كيخسرو الذي أجابهم إلى طلبهم وتعهد بمساعدتهم [(٣)].

وأدرك الأشرف أهمية ابن أخيه الناصر داود صاحب الكرك وما جاورها،

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢١؛ وانظر ما سبق، الفصل الأول ص: ٨٥.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ أب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٢ ب - ٢٠٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦١ - ٣٦٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢٣ - ١٢٤؛ أبو الفدا: جـ ٣ ص ١٥٩.

إذ تتمتع بلاده بموقع عسكري هام، لوقوعها على الطريق الذي يربط بين بلاد الشام ومصر، إضافة إلى إمكانية مراقبة تحركات الكامل وأخذ الحيطة قبيل توغل جيوشه في بلاد الشام، كما أن حصانة الكرك وصعوبة الاستيلاء عليها ستجعل منها في حالة انضمام صاحبها إلى تحالف ملوك الشام شوكة مؤلمة في جنب الكامل إذا ما حاول غزو بلاد الشام.

ولهذا كله أرسل الأشرف إلى ابن أخيه الناصر داود يطلب منه الانضمام إلى تحالف ملوك الشام ضد السلطان الكامل، وقدَّم له عرضاً سخياً بأن يصبح ولي عهده على مملكته وأن يزوجه بابنته الوحيدة [1]. وكاد الناصر يوافق على هذا العرض غير أنه ورد إليه في الوقت نفسه ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م مبعوث من السلطان الكامل يدعوه إلى موافقته ضد الأشرف، وذكَّره بغدر الأخير به بعد موت والده، وطلب منه القدوم إلى مصر، ووعده بالمسير معه بعساكره وانتزاع دمشق من الأشرف وإعادتها إليه. وعندئذٍ احتار الناصر داود في أمره واستشار والدته في أي العرضين يقبل، فأشارت عليه بالانضمام إلى عمه الكامل، فاقتنع برأيها وتوجه إلى مصر [2].

ومن الواضح أن الناصر داود ارتكب خطأ بإجابته السلطان الكامل، فلم يستفد من الدروس التي تلقاها منه، فهو الذي أطمع الأشرف في دمشق أول مرة، ويبدو أن الأشرف كان صادقاً في عرضه سيما وأنه ليس له غير ابنة واحدة ولن يجد ولياً لعهده أفضل من ابن أخيه الناصر داود، ويعزو أبو الفدا سبب ميل الناصر لعمه الكامل ورفض عرض الأشرف «لسوء حظه» [3] ولكن الحظ ليس له دخل في اتخاذ قراره، فقد كان حراً في اختياره، وإنما يعود سوء الاختيار

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ أب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٤؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٢ ب -٢٠٣أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢٥؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٥٩.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ ب - ٦٤ أ، تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٥٩.

إلى افتقاره للحنكة السياسية والرؤية الصحيحة لطبيعة تكوين الدولة الأيوبية، وعدم إلمامه بأطماع عمه الكامل وتطلعه إلى توحيد مصر والشام تحت حكمه المباشر في الوقت الذي اتضحت فيه تلك المطامع لملوك الشام الآخرين، كما رفض الناصر نصيحة مملوك والده المخلص عز الدين أيبك صاحب صرخد الذي أشار عليه بالانضمام لعمه الأشرف وحينما رفض نصيحته تخلى أيبك عنه وانضم إلى الأشرف (١).

وكيفما كان الأمر، فإن السلطان الكامل ما أن علم بقدوم الناصر داود إليه حتى أمر بإقامة الاحتفالات لمقدمه، واستقبله استقبالاً حافلاً وخلع عليه خلع السلطنة وأركبه بالسناجق السلطانية وأمر بتجديد عقده على مطلقته عاشوراء خاتون (٢). وقد خُدع الناصر بكل مظاهر الحفاوة التي استقبله بها عمه الكامل حتى أنه بعث إلى نائبه بالكرك برسالة يخبره بهذا الاستقبال وتمثل في الرسالة ببيت من شعر أبي الطيب المتنبي وهو:

سيعلم قوم خالفوني وشرقوا   وغربت أني قد أصبت وخابوا (٣)

ويبدو أنه يشير بذلك إلى مملوك والده عز الدين أيبك صاحب صرخد الذي انضم إلى تحالف ملوك الشام ضد الكامل، وحينما بلغ الأشرف انضمام الناصر داود إلى الكامل أرسل عسكراً إلى نابلس فاستولى عليها «وأخذ ما كان فيها للناصر داود» (٤).

وذكر ابن العديم أن ملوك الشام حينما تحالفوا ضد السلطان

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٣ أ؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٤.
(٢) اليافعي، جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ؛ تاريخ ابن الفرات: جـ ٥ لوحة ٣٦٥ ـ ٣٦٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢٦ ـ ١٢٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٥٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣١٧.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢٧.
(٤) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٥٤.

الكامل «وعزموا على الخروج عليه عُيِّنَ لكل واحد منهم شيء من بلاده [(١)]، ويفهم من هذا النص أن البلاد التي اتفقوا على الاستيلاء عليها هي البلاد الواقعة شرق الفرات، إذ ليس من المعقول أن يفكروا في الاستيلاء على مصر. بدليل رسالتهم إلى الكامل، فبعد أن تحالفوا ضده، بعثوا وفداً ليؤدي رسالة على لسانهم يقولون فيها: «إننا قد اتفقنا كلنا ونطلب منك أنك لا تعود تخرج من مصر، ولا تنزل إلى الشام وتحلف لنا على ذلك» فقال لهم: «مبارك أنتم قد اتفقتم، فما تطلبون من يميني؟ احلفوا أنتم أيضاً لي أن لا تقصدوا بلادي ولا تتعرضوا لشيء مما في يدي وأنا أوافقكم على ما تطلبون» [(٢)] وهو يشير بذلك فيما يبدو إلى بلاده الواقعة شرق الفرات.

وتطورت الحوادث بسرعة، فمرض الأشرف موسى، ولما اشتد به المرض عهد إلى أخيه الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل بمملكته من بعده، واستحلف له المجاهد صاحب حمص وعز الدين أيبك صاحب صرخد، وتوفي الأشرف بدمشق في المحرم ٦٣٥ هـ/ سبتمبر ١٢٣٧ م وعمره ستون سنة [(٣)].

ولقد أزالت وفاة الأشرف، عقبة كأداء كانت تقف في طريق الكامل، الذي لم يكن يجرؤ على مواجهته في مكان مكشوف. فقد ذكر المؤرخون أن الأشرف كان محظوظاً في ميادين القتال بحيث لم يهزم في أي معركة شارك فيها بنفسه طوال حياته، وكان أيضاً كريماً جداً لا يبخل بمال [(٤)]. وكان أخوه الكامل

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٢٧.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٢٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢٨؛ وانظر أيضاً: ابن واصل التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٤ ب - ٢٤٥أ؛ البستان الجامع ، ورقة ٢٠٣ أ؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٥٥.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٥ أ؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٣ أب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٩١؛ أبو الفدا: التبر المسبوك، مخطوط حوادث ٦٣٥ هـ، تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٣٨؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٤١٠.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٩١ - ٣٩٢، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٣٨ - ١٤١؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠.

ـ يعي هذه الحقيقة جيداً، فحينما بلغه نبأ موته قال: «والله لو لم يمت لراحت البلاد منا، فقيل له: لك من باب الموصل إلى اليمن، فايش تلتفت إليه، فقال: اسكتوا كان كريماً والكرم ما معه حديث»[1].

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٠.

الحرب الأهلية في بلاد الشام ونتائجها
٦٣٥ - ٦٤٢ هـ/ ١٢٣٧ - ١٢٤٤ م

أنهت وفاة الأشرف مرحلة من العلاقات بين أبناء العادل الثلاثة الكبار - الكامل والمعظم والأشرف - تميزت بالشد والجذب، بالاتفاق والاختلاف، مرحلة نتج عن الاتفاق بينهم فشل الحملة الصليبية الخامسة، ونتج عن الاختلاف فقدان بيت المقدس لحساب الصليبيين دون قتال، فضلاً عن أنه فتح أعين الخوارزمية على بلاد الشام التي ستدفع ثمناً باهظاً نتيجة غاراتهم القادمة. ولم يقدر لبلاد الشام والدولة الأيوبية عموماً الوحدة الكاملة بسبب الخلافات بين أبناء العادل الثلاثة، وجاءت وفاة الأشرف إيذاناً ببدء فترة أخرى أشد قلقاً واضطراباً، هي فترة الحرب الأهلية، حيث انتشرت الحروب والأحقاد على نطاق واسع بين الأيوبيين في بلاد الشام، واستنزفت تلك الحروب الكثير من الطاقات، والقدرات المادية والبشرية التي كان يمكن ادخارها لمواجهة الصليبيين في بلاد الشام والاستعداد لمرحلة زحف المغول.

وعلى أية حال فحينما توفي الأشرف سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م، استولى أخوه الصالح عماد الدين إسماعيل على دمشق وبعلبك وجميع ما يتصل بدمشق من البلاد، وأرسل ابنه إلى الشرق ليتسلم من نواب الأشرف سنجار ونصيبين والخابور، وبعث إلى المجاهد صاحب حمص والمظفر صاحب حماه وأهل حلب يطلب استمرار الحلف الذي أبرمه الأشرف معهم قبيل وفاته، فوافق صاحب حمص والحلبيون على طلبه، وامتنع المظفر صاحب حماه وأعلن انحيازه لخاله

السلطان الكامل [1]. وقد اتخذ المظفر من صاحب حمص ذريعة للانسحاب من الحلف فأرسل إليه يقول: «إني لا أجيب إلا بشرط أن تعطيني سلمية وقلعة شميميش» لعلمه أن المجاهد لن يذعن لطلبه، وأرسل المظفر إلى السلطان الكامل يعلن انضمامه إليه ويعتذر عن تحالفه السابق مع الأشرف وأنه لم يفعل ذلك إلا مكرهاً ، فقبل الكامل عذره ووعده بانتزاع سلمية وقلعتها من المجاهد وتسليمها إليه، وقد أرسل الحلبيون وفداً إلى حماة بزعامة المؤرخ كمال الدين ابن العديم لمحاولة التوفيق بين المظفر والمجاهد صاحب حمص فاشتط المظفر في مطالبه، وفشلت جهود ابن العديم في إقناعه بالانضمام لتحالف بلاد الشام ضد الكامل [2].

وتواترت الأنباء بعزم الكامل على المسير إلى بلاد الشام للاستيلاء عليها وشرع الصالح إسماعيل في تحصين دمشق، والاستعداد للحصار بتخزين المؤن والأقوات داخل المدينة، وأمر جميع العساكر بالدخول إلى دمشق، وقبض على بعض أنصار الكامل داخل دمشق وصادر ممتلكاتهم، وأمر سكان الأحياء الواقعة خارجَ الأسوار بإخلائها، وقطع الجسور المنصوبة على فروع بردى وقنواته. وأرسل المجاهد صاحب حمص ابنه إبراهيم نجدة للصالح إسماعيل، وأرسل الصالح إسماعيل يطلب النجدة من سلاجقة الروم، كما وصلته نجدة كبيرة من حلب، وانضم إليه عز الدين أيبك صاحب صرخد برجاله [3].

سار السلطان الكامل نحو دمشق ومعه ابن أخيه الناصر داود الذي اعتقد

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٥ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٤ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٠٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٤٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٥٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥؛ وانظر أيضاً تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٠٣ ـ ٤٠٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٥ ب ـ ٢٣٦ أ، الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٤ ب ـ ٢٠٥ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٠٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧١٦ ـ ٧١٧.

بأن عمه سوف يسلم له دمشق، وبعث الناصر داود إلى نائب الأشرف بقلعة عجلون يطلب تسليمها إليه فأجابه إلى ذلك مشترطاً مبلغاً من المال، وتسلمها الناصر ولم يعارضه عمه الكامل حتى لا يثير الشك في نفسه قبل الاستيلاء على دمشق، ووصلا إلى دمشق وضربا الحصار حولها في ٢٠ ربيع الأول ٦٣٥ هـ/ ١٠ ديسمبر ١٢٣٧ م [١].

وقد اتبع الصالح إسماعيل سياسة الأرض المحروقة خارج دمشق حتى لا يستفيد منها الكامل وجيوشه، فأمر بإحراق الخانات والطواحين خارج دمشق، وترتب على ذلك، لجوء أعداد كبيرة من سكان الأحياء الخارجية إلى داخل المدينة حيث اكتظت بهم الأزقة والطرقات، حتى أضحى فرسان الصالح وحلفاؤه يدوسون على أمتعة اللاجئين في الطرق وليس في وسع أصحابها منعهم، وانتشر التخريب خارج دمشق، فدمرت البساتين والدور والأسواق حتى غدت قاعاً صفصفاً [٢]. وعمت الفوضى الشاملة دمشق وضواحيها «وصار كل من له غرض مع أحد وهو غائب خرج إلى داره، فاخر بها وربما أحرقها» [٣].

وفي تلك الأثناء بعث صاحب حمص بنجدة إلى دمشق، فقبض عسكر الكامل على نحو خمسين رجلاً من أفرادها، فأمر الكامل بشنقهم بين البساتين نكاية في صاحب حمص [٤]. واستمر القتال عدة أيام ثم خرج الدمشقيون إلى خارج الأسوار ونشبت معركة مع بعض عساكر الكامل انتصر فيها الدمشقيون وأسروا بعض الجنود وعادوا إلى دمشق [٥].

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٠٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥١.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ أب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٥ أب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٠٥ - ٤٠٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧١٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٢٤ - ٣٢٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٤٨.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٥ ب.

(٤) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٥ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٠٦ - ٤٠٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥١.

(٥) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ ب؛ البستان الجامع ورقة ٢٠٦ أ.

وظل القتال سجالاً بين الفريقين رغم حلول فصل الشتاء، وفي اليوم الأول من جمادي الأولى ٦٣٥ هـ/١٨ يناير ١٢٣٨ م شن الناصر داود هجوماً على دمشق من جهة باب توما ـ أحد أبواب دمشق ـ وتقدم بقواته حتى اقترب من الباب، ووصلت سهام أنصاره إلى داخل دمشق حتى أوشك على اقتحام المدينة، غير أن عمه الكامل أصدر أمره إليه بوقف القتال والانسحاب إلى الخلف (١). وهذا يدل على أن الكامل لم يكن صادقاً في وعده للناصر بتسليمه دمشق، فمنعه من اقتحامها حتى لا يصبح له الحق في دمشق باعتباره الفاتح لها.

وفي اليوم التالي لمحاولة الناصر داود خرج الصالح إسماعيل مع بعض أعوانه، وأضرموا النيران في بقية الأحياء الواقعة خارج دمشق، واحترقت بعض الدور بمن فيها، وعم الذعر مدينة دمشق وارتفعت الأسعار داخل المدينة، ومن الغريب أن غرارة القمح كانت تباع بخمسة وعشرين درهماً وتُطحن بثلاثين درهماً بسبب إحراق الطواحين (٢).

وحينما اشتدت الضائقة بدمشق وأوشكت على السقوط، أرسل الصالح إسماعيل إلى أخيه الكامل يقول: «متى فتحتها عنوة وقهراً رميت النار في أربع جوانبها فأحرقتها جميعاً ولا لي ولا لك» (٣) وكان الكامل يدرك جدية تهديد أخيه الصالح إسماعيل لما يعرفه عنه من الطيش وشدة التهور، فأذعن لوساطة مبعوث الخليفة العباسي الذي كان قد حضر إلى دمشق، وسلم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل في ١٠ جمادي الأولى ٦٣٥ هـ/ ٢٧ يناير ١٢٣٨ م وعوضه عنها بعلبك والبقاع فسار إسماعيل إليها وتسلمها (٤).

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ أ؛ الأصفهاني البستان الجامع ورقة ٢٠٦ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٠٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٧.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ أب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٦ ب ـ ٢٠٧ أ.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٢٥.

(٤) ابن أيبك: درر التيجان مخطوط حوادث ٦٣٥ هـ؛ العليمي: المعتبر في أنباء من غبر ورقة ٧٥

ولم ينس الكامل موقف المجاهد صاحب حمص فأرسل أثناء حصار دمشق إلى المظفر توقيعاً باستعادة سلمية من المجاهد، فتسلمها [١]، ولم يكتف الكامل بذلك بل قرر القضاء على مملكة حمص، بسبب الدور الذي لعبه المجاهد في تأليب بلاد الشام ضده، فأمر عسكره بالزحف على حمص كما أمر المظفر صاحب حماه بالمسير قبله إليها، فسار الأخير بعسكر حماه نحوها وعسكر على الرستن [٢] منتظراً وصول الكامل بنفسه [٣].

لكن القدر لم يمهل السلطان الكامل في إكمال وحدة مصر والشام إذ أصيب بالزكام بعد استيلائه على دمشق واشتد به المرض ولم يلبث أن توفي في رجب ٦٣٥ هـ/ مارس ١٢٣٨ م ودفن بدمشق وعمره نحو اثنتين وستين سنة [٤].

وحينما توفي السلطان الكامل، اجتمع أمراؤه وقادة عسكره بدمشق وعلى رأسهم أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه [٥]. وتشاوروا فيما بينهم،

أب؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٣٨؛ الأهدل: غربال الزمان ورقة ١٥٠ ب؛ جرجيس ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ١٦٣؛ الصفدي: أمراء دمشق في الإسلام ص ٩، ابن طولون: القلائد الجوهرية القسم الأول ص ٩٥.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥٢.

(٢) الرستن، بلدة قديمة تقع على نهر العاصي في منتصف الطريق بين حمص وحماه، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٧ أب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ لوحة ٤٠٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥٣ ـ ١٥٤؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ١ ص ١٩٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤٩؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٥) ينتمي أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه إلى أسرة فارسية متصوفة، وكانوا فقهاء شافعية وهاجر فرع من هذه الأسرة إلى مصر وتمتعوا بنفوذ كبير لدى السلطان الكامل وأولاده ـ وكانوا أربعة أخوة وهم فخر الدين، وعماد الدين، ومعين الدين، وكمال الدين، انظر المقريزي، الخطط جـ ٢ ص ٣٣ ـ ٣٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٩١ حاشية رقم (٣).

واستقر رأيهم أخيراً على أخْذ القَسَم من الجنود للسلطان الجديد، العادل بن الكامل. الذي استنابه والده بمصر واتفقوا على اختيار الجواد يونس بن مودود بن العادل نائباً عن ابن عمه بدمشق، وصرفوا النظر عن الناصر داود الذي وعده الكامل قبل موته بإعادة دمشق إليه، وذلك خوفاً من استبداده بالملك، وتهديد ابن سيدهم السلطان العادل الثاني [1]. ويبدو أنهم كانوا قد لمسوا عزم الكامل ـ أثناء حصار دمشق ـ على عدم تنفيذ وعده له. ويذكر المؤرخون أن الناصر داود لم ينفق الأموال لاستمالة الأمراء وقادة العساكر في الوقت الذي أنفق فيه الجواد يونس ستمائة ألف دينار وخمسة آلاف خلعة على كبار الأمراء والقادة لاستمالتهم إلى جانبه [2]. وبعد اختيار الجواد نائباً بدمشق، أرسل كبار القادة إلى الناصر داود يأمرونه بمغادرة دمشق لكن العامة التفت حوله حين خروجه من دمشق وهتفوا باسمه، وأعلنوا رفضهم لخروجه فجاء أحد الأمراء بأنصاره، وفرقوا المتظاهرين وضربوهم بالدبابيس، وأقام الناصر بإحدى ضواحي دمشق عدة أيام، وحينما عزم أمراء دمشق على القبض عليه رحل نحو عجلون وتحصن بها [3].

وأقام الجواد يونس بدمشق وتظاهر بأنه نائب عن ابن عمه العادل، وتوجهت غالبية عساكر الكامل عائدة إلى مصر، وبقي لدى الجواد بعض العسكر بقيادة عماد الدين بن شيخ الشيوخ لحماية دمشق من الناصر داود،

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٨ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٩ ب؛ اليافعي: جامع التواريخ ورقة ٧١ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤١٨؛ العليمي: تاريخ من ملك مصر وعكا والشام ورقة ١١٤ ب؛ الديري: الجدول الصفي من البحر الوفي ورقة ٢١٩ أ ب؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٦١.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٨ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٧ ـ ٧٠٨، ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٠.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤١٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٧١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٠٤.

إضافة إلى المماليك الأشرفية ـ أتباع الملك الأشرف بن العادل ـ وكانوا يعتبرون شوكة قوية بزعامة الأمير عز الدين أيبك الأسمر الأشرفي (١).

أما الناصر داود، فقد سار من عجلون واستولى على غزة وبعض الساحل الذي كان بيد السلطان الكامل، وجند أعداداً كبيرة من العرب وغيرهم، وأقام بغزة، وأرسل إلى ابن عمه العادل بن الكامل بمصر طالباً إليه تسليم دمشق ليصبح نائبه بها بدلاً من الجواد، وترددت الرسل بينهما، ولم يستجب العادل لمطالب الناصر داود (٢).

وخرج الجواد من دمشق لمواجهة الناصر داود، وتمكن من خداعه حينما طلب من المماليك الأشرفية استدراجه بعيْداً عن عساكره وقال لهم: «كاتِبُوا الناصر وأَطْمِعُوهُ، فكاتَبوه، وأطْمَعُوه واغترَ بهم، وساق من غزة في سبعمائة فارس إلى نابلس بأثقاله وخزائنه وأمواله وكانت على سبعمائة جمل.. وترك العساكر متقطعة خلفه» (٣) والتقى الجواد بالناصر في المنطقة بين نابلس وجينين في ذي الحجة ٦٣٥ هـ/ يوليه ١٢٣٨ م، حيث دارت المعركة وَهُزِمَ الناصر هزيمة شنيعة، وغنم الجواد وجيشه جميع أموال الناصر داود وخزائنه التي كانت معه، وكانت هزيمة الناصر هذه ساحقة حقاً، إذ بات ـ بعد أن فقد أمواله الضخمة التي ورثها عن أبيه ـ عاجزاً عن تجنيد عساكر جديدة لأن ذلك يتطلب الكثير من الأموال اللازمة لاستمالة قادة وعساكر الدولة الأيوبية، في الوقت الذي ازدادت فيه قوة الجواد وأصحابه بما حازوه من غنائم وفيرة، واستولى الجواد على نابلس وهرب الناصر إلى الكرك، وغادر عماد الدين بن شيخ الشيوخ ببقية عساكر مصر إلى القاهرة بعد سحق قوات الناصر وزوال خطره عن دمشق (٤).

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٧٣.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٧٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٧٥.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٣٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٨؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٠٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٢٩.

(٤) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٨ ب ـ ٢٣٩؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢١٠؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٣٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩١ ـ ١٩٣؛ سبط

وحينما بلغ السلطان العادل بن الكامل نبأ هزيمة الناصر داود، خشي أن يُغري ذلك الجواد بالاستيلاء على بلاد الشام فأرسل إليه يأمره بالرجوع إلى دمشق ورد بلاد الناصر التي استولى عليها بعد المعركة إليه، فنفذ الجواد أمر العادل على مضض وعاد إلى دمشق وأخذ يتطلع إلى الاستقلال بها [1].

أما عن الموقف في شمال بلاد الشام بعد وفاة السلطان الكامل مباشرة، فقد كان أشد ملوك الشام خوفاً وجزعاً من السلطان الكامل هو المجاهد صاحب حمص الذي أيقن بزوال مملكته بعد سقوط دمشق بيد السلطان، وفجأة وصل إليه نبأ وفاة الكامل على جناح طائر، فانقلب خوفه إلى سرور بالغ، ونزل إلى الميدان، وعمره يناهز السبعين عاماً، ولعب الكره مع أولاده ابتهاجاً بموت عدوه وشرع في شن الغارات على حماه وبلادها، حيث كان صاحبها المظفر قد عسكر على الرستن منتظراً وصول خاله الكامل لشن الهجوم المشترك على حمص، فانقلبت خططه رأساً على عقب وعاد إلى حماه خائفاً يترقب[2].

وبعث المجاهد بنوابه إلى سلمية واستعادها من المظفر بعد أن فقدها لحسابه أثناء حصار الكامل لدمشق. وقد حاول الاستيلاء على حماه فقطع القناة التي يصل منها الماء إلى بساتينها وخربت بسبب ذلك بساتين كثيرة. وعمد المجاهد إلى محاولة طموحه للاستيلاء على حماه عن طريق سد مجرى نهر العاصي حين خروجه من بحيرة حمص، وكان هدفه من ذلك أن يجف الوادي الذي تسلكه مياه النهر، وبالتالي يستطيع الاستيلاء على حماه نظراً لأنه لا يوجد للمدينة سور على ضفة النهر الذي تحمي مياهه جانب حماه المطل عليه، غير أن محاولة المجاهد فشلت، فبعد يومين فقط من سد مخرج مياه النهر، تراكمت المياه خلف

ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٨ ـ ٧٠٩؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٢ ـ ١٦٣؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٢٩؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٠٥؛ الكتبي: فوات الوفيات جـ ١ ص ٤٢٣.

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٣٨ ـ ٤٣٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٣.

(٢) تاريخ ابن الفرات: ج ٦ لوحة ٤٢٣ ـ ٤٢٤؛ ابن واصل: مفرج اكروب جـ ٥ ص ١٧٦ ـ ١٧٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٠.

السد وجرفته وعادت المياه إلى المجرى، وعندئذ عمد المجاهد إلى الإغارة على ريف حماه ونهب قراها وكان ذلك في سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م[١].

أما أهل حلب فلم يغفروا للمظفر انحيازه إلى السلطان الكامل، فبعد وفاته، أمرت الصاحبة ضيفة خاتون ـ الوصية على ابن إبنها الناصر يوسف ـ عسكر حلب بشن الهجوم على مملكة حماه، وأمرتهم بالبدء أولاً بالاستيلاء على قلعة المعرة وقراها ثم الزحف على حماه وحصارها، وسار العسكر الحلبي إلى المعرة واستولى على حواصلها ثم حاصر قلعتها التي بناها المظفر، وأرسل الأخير مبعوثاً إلى حلب ليستعطف خالته ضيفة خاتون، فلم يؤذن له بمقابلتها، ونصب الحلبيون المنجنيقات على قلعة المعرة وقذفوها بالحجارة حتى استسلمت في أواخر شعبان ٦٣٥هـ / أبريل ١٢٣٨م[٢].

وأثناء حصار الحلبيين للمعرة، تمكّن المظفر من إنزال الهزيمة بفرقة من عسكر حلب عند شيزر، وأسر منهم جماعة[٣]، ثم تقدم الحلبيون بعد الاستيلاء على المعرة إلى شيزر ثم شنوا الغارات على قرى حماه ومزارعها وأحرقوا أعنابها وأشجارها، واستمرت تلك الغارات طوال شهر رمضان ٦٣٥هـ / مايو ١٢٣٨م[٤]. وفي شوال تقدم العسكر الحلبي إلى حماه نفسها وحاصرها، واستمرت الحرب سجالاً بين الحلبيين وحماه حتى أوائل سنة ٦٣٦ هـ/ أغسطس ١٢٣٨م، حين ضجر الحلبيون من طول الحصار، لأن الصاحبة خاتون أمرتهم بعدم نصب المنجنيقات على حماه لأنها لم تكن تهدف من حصار حماة إلى إزالة

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ أ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢١٠ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٢٣ ـ ٤٢٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ٢٩ ب؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٢٧أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢١٠ ب ـ ٢١١ أ؛ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٢٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢١١أ.

(٤) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢١١ أ ب.

حكم ابن أختها المظفر، وإنما كان هدفها فقط معاقبته على تأييده للسلطان الكامل وإجباره على عدم المطالبة بالمعرة مرة أخرى، وانسحب الجيش الحلبي عائداً إلى بلاده في أوائل سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م[١]. وهكذا فقد المظفر سلمية لحساب المجاهد صاحب حمص وفقد المعرة لحساب حلب، ولم يبق بيده خارج حماه سوى بارين التي خشي أن يصيبها المصير نفسه فأمر بهدمها[٢].

وحينما تحقق السلطان العادل الثاني صاحب مصر في سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م من تصميم ابن عمه الجواد على الاستقلال بدمشق والانفراد بحكمها، أحضر أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه الأربعة وهم فخر الدين وعماد الدين، ومعين الدين، وكمال الدين وقال لهم: «أنتم ضيعتم علي ملك دمشق فإن أبي الكامل فتحها وتوفي وهو مالكها، فسلمتم دمشق وخزائن أبي إلى الجواد، فتغلب على دمشق وضيع الخزائن، وما أعرف عود دمشق إليّ وانتزاعها من يد الجواد إلاّ منكم»[٣]. ولم يكن بمقدور عماد الدين ابن الشيخ إلاّ الاستجابة لطلب العادل ولاسيما وأنه المسؤول الأول عن إختيار الجواد نائباً بدمشق بعد موت الكامل، فتعهّد بالمضي إلى الشام لإعادة دمشق إلى حكم العادل المباشر[٤].

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٩ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢١١ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٢٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٤٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٨٢ ابو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٦٣؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٠٩ - ٢١٠؛ الغزى: نهر الذهب جـ ٣ ص ١١٦؛ الطباخ: إعلام النبلاء جـ ٢ ص ٢٥٨.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٣.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٥٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٨ - ١٩٩، انظر أيضاً: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج ٨ ص ٦٢١؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١٣.

(٤) تاريخ ابن الفرات: ج ٦ لوحة ٤٥٩ - ٤٦٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٩؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٢١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٧٦؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١٣.

وحينما وصل عماد الدين بن الشيخ إلى دمشق استقبله الجواد، وأنزله في القلعة فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق إلى العادل وحذّره من مغبة العصيان لأن ذلك سيؤدي إلى قيام عساكر مصر بالمسير إليه وانتزاعها منه واعتقاله، وعرض عليه إقطاعات واسعة بمصر عوضاً عن دمشق، فلم يعط الجواد رداً واضحاً وأخذ في التسويف والمماطلة[1]. وعندئذ استدعى عماد الدين ابن الشيخ كبار موظفي دمشق وولاتها وقال لهم: «قد عزل السلطان الملك العادل الجواد عن نيابة دمشق فلا تدفعوا إليه مالاً ولا تقبلوا له قولاً»[2].

ولما أيقن الجواد بتصميم العادل الثاني على انتزاع دمشق منه، وتأكد له إستحالة الوقوف في وجهه، أرسل مبعوثاً إلى الصالح أيوب بالبلاد الشرقية يطلب منه أن يأخذ دمشق على أن يعرضه عنها بسنجار[3] والرقة[4] وعانة[5]، وقد قبل الصالح أيوب عرض الجواد الذي قطع الخطبة للعادل الثاني بدمشق وخطب للصالح أيوب وضرب السكة باسمه. وسار الصالح أيوب قاصداً دمشق، ولما كان الجواد يعرف مدى ثقة الصالح أيوب في عماد الدين بن الشيخ، شأنه في ذلك شأن والده الكامل، وأنه ـ أي عماد الدين ـ ربما يفسد ما بين الجواد والصالح أيوب من صلات، لذلك دبر مؤامرة راح ضحيتها عماد الدين بن الشيخ في جمادي الأولى ٦٣٦هـ / يناير ١٢٣٩م[6].

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٥ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٦٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٧٦.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٧٦.

(٣) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة تبعد عن الموصل مسيرة ثلاثة أيام، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٤) الرقة: مدينة في الجزيرة تقع على الضفة الشرقية للفرات بينها وبين حران ثلاث أيام، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٥) عانة: بلد بالجزيرة على الفرات تقع بين الرقة وهيت: انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٦) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٦٠ ـ ٤٦٣؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ ٢ ورقة ٢٠ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٩ ـ ٢٠٢؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٢١ ـ ٦٢٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧؛ المقريزي: الخطط جـ ٢

أما الصالح أيوب فقد عهد إلى ابنه تورانشاه بحكم بلاد الشرق، وسارهو قاصداً دمشق، كما أرسل إلى المظفر صاحب حماه يدعوه إلى لقائه. وقد سُر المظفر بتلك الدعوة لرغبته الشديدة في الانتقام من المجاهد صاحب حمص، فسار مع وزيره سيف الدين علي بن الهذباني، ولحقا بالصالح أيوب وهو في طريقه إلى دمشق. ودخل الصالح أيوب دمشق واستقر بقلعتها في جمادي الآخرة ٦٣٦هـ / فبراير ١٢٣٩م، لكن الجواد ندم على تنازله عن دمشق وخشي أن لا يفي له ابن عمه بما وعده به من البلاد الشرقية فأخذ يعمل سراً على استمالة الجنود إلى جانبه، ولاسيما وأن الصالح أيوب قدم إلى دمشق في قلة من العساكر، وكادت تقع الفتنة داخلها لولا وساطة المظفر صاحب حماه الذي أقنع الجواد بحسن نية الصالح أيوب، وضمن له الوفاء بما شرطه له، وعندئذ غادر الجواد دمشق إلى الشرق، وتسلّم سنجار وغيرها من البلاد التي أعطيت له عوضاً عن دمشق(١).

وبعد أن انفرد الصالح أيوب بحكم دمشق استقر رأيه على توطيد علاقته بملوك الشام الأقوياء لكي يضمن مساعدتهم على انتزاع مصر من يد أخيه العادل، فبعث إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك يطلب منه الاتفاق معه، فقدم الأخير إلى دمشق وأظهر لنجم الدين أيوب الود والصفاء، وحلف له على مناصرته وعاد إلى بعلبك(٢). وبعث الصالح أيوب إلى عمته ضيفة خاتون - الوصية على مملكة حلب - باذلاً طاعته لها والموافقة على كل ما تريده،

ص ٣٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٦٣؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣١٣ - ٣١٤.

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٤١ أ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢١٣ أ ب؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ٥ ورقة ٧ أ ب؛ اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٦ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٦٣ - ٤٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٠٢ - ٢٠٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ١٠ ص ٥٥ - ٥٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٦٣؛ المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٢٣٦؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٠٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٨٢٠.

وطلب منها مساعدته على أخْذْ مصر من أخيه العادل، فأجابته بعدم التدخل بينه وبين أخيه «وإنكما ولدا أخي» ولم تجبه إلى ما اقترح[1].

أما الناصر داود فحينما بلغه إستيلاء الصالح أيوب على دمشق بعث إليه يعرض مساعدته له على أخيه العادل والوقوف إلى جانبه لأخذ مصر منه، وطلب مقابل ذلك تسليم دمشق وما يتبعها من البلاد التي كانت بيد والده المعظم، فوعده الصالح أيوب بذلك بعد الاستيلاء على مصر، فأصرّ الناصر على تسليم دمشق مقدماً فرفض الصالح أيوب مطالبه[2]. لذلك قرر الناصر السفر إلى مصر للإفادة من الخلاف الناشب بين العادل وأخيه الصالح، فاستقبله العادل وأنزله بدار الوزارة، ووعده أن يسترد له دمشق وما يتبعها، وتم الاتفاق بينهما على محاربة الصالح أيوب[3].

وكان العادل الثاني قد أساء السيرة في مصر، وشُغل عن مصالح الدولة باللهو والعبث فاتفق أكثر الأمراء بمصر على مراسلة الصالح أيوب، نظراً لأنه الإبن الأكبر، ولما اشتهر به من حسن السيرة وجدارته بحكم الدولة الأيوبية، فبعثوا إليه يستدعونه إلى مصر، وأخبروه أنه بمجرد دخوله أرض مصر سينحاز إليه أكثر عسكرها، فانزعج العادل ووالدته من ذلك وخافوا من الصالح أيوب خوفاً شديداً بسبب ولاء عساكر مصر له[4].

وتواترت الرسل من المظفر صاحب حماه إلى الصالح أيوب بدمشق يطلب منه القدوم إلى حمص للاستيلاء عليها. وفي الوقت نفسه ظلت الرسل تصله تباعاً من مصر تحثه على القدوم إليها، مما جعله يتحير في اتخاذ قراره هل يقصد

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٤٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠٧.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ورقة ٤٤ أ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢١٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٤.

(٤) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٧ أ؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين ورقة ٤٤ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٧٥.

مصر أو حمص. وأخيراً استقر رأيه على السير إلى مصر لأنه إذا ملكها بكل إمكاناتها البشرية والمادية سَهُلَ عليه بعد ذلك ما سواها[1].

أرسل الصالح أيوب قطعة من عسكره بقيادة الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني إلى جينين قبالة الساحل، فسار الأخير وبصحبته المؤرخ المعاصر جمال الدين بن واصل، وعسكر بفرقته عند بحيرة طبرية حيث بلغه أن جماعة من أمراء مصر انفصلوا عن العادل الثاني وغادروا القاهرة صوب بلاد الشام للانضمام إلى الصالح أيوب. وقد خرج الصالح أيوب من دمشق في رمضان ٦٣٦هـ / مايو ١٢٣٩م بقوة من نحو خمسة آلاف مقاتل وبعض أمراء بني أيوب، وتقدم إلى نابلس واستولى عليها وعلى الأغوار وأعمال القدس والخليل وبعض الساحل ـ وجميعها تابعة للناصر داود ـ وولّى عليها من قبله وأقام بنابلس، وذلك حتى يتأكد من صدق نوايا أمراء مصر، وظلت الرسل والجواسيس تصل إليه تباعاً من مصر، تخبره بميل جندها إليه كما استقبل جميع الأمراء الذين انفصلوا عن أخيه العادل وأمر بعضهم بالمسير مع جزء من عسكره إلى غزة، ثم أصدر أوامره إلى بقية أتباعه وعساكره بتهيئة العدة والمؤن والمياه استعداداً للرحيل إلى مصر[2].

وأرسل الصالح أيوب إلى عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك يطلب منه القدوم إليه ليمضي معه إلى مصر، فتعلل اسماعيل واعتذر وأرسل ابنه المنصور محمود نائباً عنه في الخدمة، ووعد الصالح أيوب بالقدوم إليه في أقرب فرصة ممكنة، وكان إسماعيل في حقيقة الأمر يعمل سراً لانتزاع دمشق منه[3].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠٨ ـ ٢١٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٧ أ ب؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ٨ أ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧١٩ ـ ٧٢٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢١٠ ـ ٢١٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨١ ـ ٢٨٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٣ ـ ١٦٤؛ الصفدي: أمراء دمشق في الإسلام ص ١٥.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ٨ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢١٦؛ سبط

والواقع أنه في الوقت الذي صارت فيه الأمور مهيأة تماماً لاستيلاء الصالح أيوب على مصر، كانت المؤامرات تحاك ضده في دمشق، ولا سيما وأن من ألدّ أعدائه وأكثرهم حنكة ودهاء المجاهد أسد بن شيركوه صاحب حمص وهو ما لم يدرك الصالح أيوب خطورته فقد ذكر سبط ابن الجوزي، أنه بينما كان الصالح أيوب مقيماً بنابلس في انتظار عمه إسماعيل، كان معه ناصر الدين بن يغمور الذي أرسله إسماعيل صحبة ابنه المنصور محمود وكان ابن يغمور، يجتمع بالأمراء سراً لتأليبهم ضد الصالح أيوب «والدسائس تعمل في دمشق»[1].

وظل الصالح أيوب مقيماً بنابلس بقية سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م في انتظار عمه الصالح اسماعيل وفي تلك الأثناء وصل مبعوث الخليفة العباسي لمحاولة الإصلاح بين الصالح أيوب وأخيه العادل وكاد الصلح يتم بين الأخوين، لولا أن الحوادث تطورت بسرعة لصالح عماد الدين إسماعيل والمجاهد صاحب حمص[2].

فخلال إقامة الصالح أيوب في نابلس، أرسل إلى عمه إسماعيل أحد أطبائه المخلصين ويدعى «الحكيم سعد الدين الدمشقي» ليستعجله في القدوم للمضي معه إلى مصر، وأعطى لسعد الدين قفص حمام من نابلس ليوافيه بتقارير عن خطط إسماعيل، وحينما وصل الحكيم إلى بعلبك استقبله إسماعيل وأكرمه وأوعز إلى أحد أتباعه بتغيير الحمام بحمام من قلعة بعلبك دون علم سعد الدين الدمشقي. وشرع الصالح إسماعيل في العمل للإستيلاء على دمشق بالتعاون مع صاحب حمص وأخذ يحشد الرجال والمؤن لذلك، وحينما تحقق سعد الدين من خطط إسماعيل أخذ في كتابة التقارير بذلك إلى الصالح أيوب، وحينما يضع البطاقة تحت أجنحة الحمام ويطلقها، يهبط الحمام في أبراجه بقلعة

ابن الجوزي: مراة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٠؛ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٢؛ ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب جـ ٤ قسم ٢ ص ٦٩٢.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

بعلبك، فيأخذها البرّاج ويسلمها لإسماعيل، فيقوم بدوره بتزوير رسالة على لسان سعد الدين الحكيم إلى الصالح أيوب يخبره فيها باستمرار إسماعيل على الوفاء والإخلاص في الطاعة، وأنه في سبيله للقدوم إليه بنابلس، ويرسل الرسائل مع الحمام الذي قدم به الحكيم حينما وصل إلى بعلبك، وكان إسماعيل يرسل ـ في الوقت نفسه ـ إلى العادل صاحب مصر يخبره بعزمه الإستيلاء على دمشق، وأنه سيكون نائبه بها. ونجح الصالح إسماعيل في تضليل الصالح أيوب الذي لم يعد يتلقى من الرسائل سوى ما يبعثها إليه عمه على لسان طبيبه سعد الدين الدمشقي، وأخيراً بعث إسماعيل إلى الصالح أيوب يطلب منه إرسال ابنه المنصور بن إسماعيل ليجعله نائباً عنه ببعلبك ويسير هو إلى نابلس فخُدِعَ الصالح أيوب وأجابه إلى طلبه، كما أرسل ابنه المغيث عمر بن الصالح أيوب إلى دمشق نائباً عنه بها، فوصل إليها واستقر بقلعتها[1].

ولم يكن مخلصاً في ولائه من ملوك الشام للصالح أيوب غير المظفر صاحب حماه. ولكنه تعرّض ـ بسبب إخلاصه ذلك ـ لكارثة شنيعة على يد صاحب حمص، ففي أوائل سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م اتضح للمظفر ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ إتفاق الصالح إسماعيل والمجاهد على الاستيلاء على دمشق. ولما كان المظفر يعلم أنه لا يوجد بدمشق حامية تدافع عنها، لذلك قرر القيام بالمهمة، واستقر رأيه ورأى وزيره سيف الدين ابن أبي علي الهذباني ـ شقيق حسام الدين قائد الصالح أيوب ـ على إرسال عسكر حماه لحماية دمشق، ولما كان المظفر يعلم أن طريق عسكر حماه سيكون بالقرب من حمص، فقد عمد هو وسيف الدين الهذباني إلى إنتهاج حيلة ساذجة لخداع المجاهد صاحب حمص، لكي يسمح لعسكر حماه بالمرور عبر أراضيه إلى دمشق، فاتفقا على أن يوهم سيف الدين أهل حماه، بأن المظفر قرر تسليم المدينة إلى الفرنج، وأن يتظاهر سيف الدين

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢١٩ ـ ٢٢٢؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٦؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٦٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨٥.

ومعه عسكر حماه بالهجرة منها إحتجاجاً على هذا الإجراء، وعندما حدث ذلك خرج أكثر سكان حماه وعلمائها وأعيانها وانضموا إلى سيف الدين خوفاً من الفرنج. وغادر سيف الدين بعسكر حماه ومن تبعه من أهلها ومر بحمص وعسكر قرب بحيرتها، فخرج إليه المجاهد واستقبله وسأله عن سبب خروجه، فتظاهر سيف الدين بالغضب على المظفر الذي قرر تسليم حماه للفرنج، وحينئذ أدرك صاحب حمص مغزى الحيلة، فتظاهر أمام سيف الدين بالتعاطف معه وطلب منه الدخول إلى حمص بمن معه ليقوم بواجب الضيافة إزاءهم، ودخل سيف الدين بعكسر حماه وبعض أعيانها إلى حمص، فقبض المجاهد عليهم جميعاً وزجّ بهم في غياهب السجون واستولى على كل ما معهم، وأخذ من أغنياء حماه أموالاً طائلة كفدية لإطلاق سراحهم. ولقد قضت هذه الضربة الساحقة على قوة المظفر صاحب حماه ولم يعد في وسعه تقديم أي عون للصالح أيوب[1].

واغتنم الصالح إسماعيل والمجاهد هذه الفرصة واتفقا على إقتسام البلاد، وتقدما إلى دمشق ووصلا إليها في صفر ٦٣٧هـ / سبتمبر ١٢٣٩م وتسلّق جماعة من أتباعهما باب الفراديس ـ أحد أبواب دمشق ـ بمساعدة جماعة من المتعاونين معهم داخل دمشق، وكسروا قفل الباب، ودخلت جيوشهما إلى دمشق، وأمر الصالح إسماعيل بإقامة الخطبة للعادل بن الكامل وأعلن أنه نائبه بدمشق، وقد حاول المغيث عمر بن الصالح أيوب الاعتصام بقلعة دمشق ولكنه عاد وسلّم القلعة في اليوم التالي وصعد إسماعيل إلى القلعة واعتقل المغيث في أحد أبراجها[2].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٥.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٩٧ ـ ٤٩٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨٨ ـ ٢٣٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٤ ـ ٧٢٦؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨٧؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ ٥ ص ١٥٢؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

أما عن موقف الصالح أيوب بعد سقوط دمشق بيد أعدائه، فكان قد علم بعد فوات الأوان أن عمه اسماعيل وصاحب حمص قررا المسير إلى دمشق، فأمر قائده حسام الدين بن الهذباني بالمضي فوراً إلى دمشق للدفاع عنها قبل أن يصلها اسماعيل والمجاهد، فسار حسام الدين مسرعاً وصحبته صديقه المؤرخ ابن واصل[1]. فلما اقترب من دمشق اتاه الخبر بسقوطها، وأدرك حينئذ أنه فات الوقت لإنقاذها، ورجع إلى الصالح أيوب تاركاً خزائن سيده في حراسة جماعة من أصحابه قرب دمشق، فجاءت فرقة من أتباع الصالح اسماعيل واستولت على أموال الصالح أيوب وعادت إلى دمشق، وحينما اجتمع حسام الدين بالصالح أيوب عند نهر الأردن جاءتهم الأخبار بسقوط قلعة دمشق، وعندئذ انفصل عن الصالح أيوب جميع من كان معه من أمراء بني أيوب كما انفصل عنه معظم العساكر لأن أهلهم وأولادهم في دمشق، ولإدراكهم أنه لم يعد بمقدور الصالح أيوب تحقيق النصر في محيط كبير من الأعداء وانضمت معظم تلك العساكر إلى الصالح اسماعيل فازداد بهم قوة، وضعفت قوة ونفوذ الصالح أيوب إلى حد جعل بعض مماليكه ينهبون بقية أمتعته ويرحلون إلى دمشق ولم يبق معه سوى جماعة قليلة من مماليكه المخلصين وسار متجهاً إلى نابلس، وقد تعرض أثناء مسيره لطمع قطاع الطرق، حتى أنه لم يصل إلى نابلس الا بعد مشقة بالغة[2].

وأثناء ذلك قَدِمَ الناصر داود من مصر، بعد أن تدهورت العلاقات بينه وبين ابن عمه العادل، وحينما وصل إلى الكرك بلغه نبأ إستيلاء اسماعيل على دمشق وتفرُّق عساكر أيوب عنه، فأرسل إليه يطيب قلبه ثم قدم بنفسه إلى

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٠٤ - ٥١٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٠ أ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٣١ - ٢٣٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٥؛ ابن أيبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٦ - ٣٣٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٠٧.

نابلس، وأمر فرقة عسكرية باصطحاب الصالح أيوب إلى الكرك وليس معه سوى مملوكه بيبرس[1] وجاريته شجر الدر، أما بقية مماليكه فقد اعتصموا بقلعة الصلت، وأذن لقائده حسام الدين الهذباني في العودة إلى دمشق فاعتقله الصالح اسماعيل بقلعتها . وحينما وصل الصالح أيوب إلى الكرك، أنزله الناصر بقلعتها وبعث إليه يخبره أنه فعل ذلك حفاظاً على سلامته من أخيه العادل وعمه اسماعيل، وظل الصالح أيوب مقيماً بقلعة الكرك كالأسير لدى ابن عمه الناصر داود زهاء سبعة أشهر من سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ - ١٢٤٠م[2].

وحينما بلغ العادل الثاني نبأ إستيلاء عمه إسماعيل على دمشق وإعتقال أخيه أيوب بالكرك اشتد به الفرح وأمر بإقامة الإحتفالات الكبيرة بهذه المناسبة وأرسل إلى الناصر داود يطلب تسليم أخيه مقابل مبلغ كبير من المال، ووعده بدمشق، فرفض الناصر إجابة طلبه إلاّ بشرط تسليم دمشق أولاً، فبعث إليه العادل يتهدده بالخروج لمحاربته، فلم يحفل الناصر بوعيده، كما رفض طلباً آخر للصالح اسماعيل والمجاهد صاحب حمص بتسليم الصالح أيوب إليهما[3].

ومن الواضح أن الناصر داود أراد استخدام الصالح أيوب كورقة ضغط على العادل الثاني في سبيل تحقيق مآربه المتعلقة باستعادة مملكة دمشق، لا سيما وأنه حين ذهب إلى مصر للانضمام إلى العادل، وقت استيلاء أيوب على

---

(١) هو غير السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري ولا يتفق الرجلان سوى في الإسم والشهرة وبيبرس هذا من مماليك أيوب وكان قد خان سيده وانضم إلى الخوارزمية فاستدرجه الصالح أيوب حتى عاد إليه سنة ٦٤٤هـ واعتقله بقلعة الجبل وكان آخر العهد به، انظر مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٤٠ حاشية زقم (١٠).

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ ب؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٠ ب - ١١ أ؛ الجنابي: البحر الزاخر ورقة ٢١ أ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٣٩ - ٢٤٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٦ - ٧٢٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٨ - ٣٣٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨٩؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٣) اليافعي: جامع التواريخ ورقة ٨٠ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٨ ؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١٠.

دمشق، رأى بعينه مدى تعلق عساكر مصر بالصالح أيوب ونفورهم من أخيه العادل، لذلك أخذ الناصر يخطط لاستغلال أيوب لتحقيق طموحاته التي لا ترضى بأقل من إعادة مملكة والده إليه بدليل فشل مبعوث الخليفة في محاولته الصلح بين إسماعيل والعادل الثاني وبين الناصر داود «الذي كان لا يرضيه إلا أن ترد دمشق إليه» (١).

واتفق المظفر صاحب حماه مع جمال الدين بن مطروح أحد أنصار أيوب على أن يمضي إلى الشرق لاستدعاء الخوارزمية لنصرة أيوب كما حمل ابن مطروح معه رسالة من الناصر داود إلى زعيم الخوارزمية تفيد بعزم الناصر علي إطلاق سراح أيوب حين وصول الخوارزمية إلى الشام ليملك البلاد (٢).

وغدت مدينة حماه ملجأ لأنصار الصالح أيوب، بسبب ولاء صاحبها المظفر له بحيث كان يقيم الخطبة له بحماه رغم اعتقاله بالكرك، وظل المظفر يوالي إرسال الرسل إلى الخوارزمية لحثهم على نجدته، وإلى الناصر داود يطالب بإطلاق سراحه، لكنه ـ أي المظفر ـ اضطر أخيراً إلى قطع خطبة الصالح أيوب وإن ظل على ولائه له ولم يقم الخطبة لأخيه العادل الثاني (٣).

أما الناصر داود فبعد أن فشلت جهوده في استعادة دمشق من الصالح إسماعيل والعادل الثاني عن طريق المفاوضات (٤)، عمد إلى استخدام آخر ورقة في يده وهي إطلاق سراح الصالح أيوب مقابل صفقة يعقدها معه، فأطلق سراحه في أواخر رمضان سنة ٦٣٧ هـ/ أبريل ١٢٤٠ م واستدعاه إلى نابلس واجتمع به، وأمر الخطيب بالدعاء له في خطبة عيد الفطر، وأركبه بشعار السلطنة. فلما انتشر خبر إطلاق سراحه انضم إليه مماليكه وأصحابه الذين

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٤٨؛ وانظر أيضاً المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٢.
(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٥٢، ٢٥٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٣.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٣.

تفرقوا بعد دخوله الكرك وقصدوه من كل ناحية، ثم سار الناصر داود والصالح أيوب إلى القدس حيث اجتمعا عند الصخرة المقدسة وتحالفا، وأقسما اليمين على أن تكون مصر للصالح أيوب وبلاد الشام والمشرق للناصر داود، وأن يعطي السلطان الصالح أيوب لابن عمه الناصر مائتي ألف دينار بعد استعادة مصر. وبعد توكيد الإيمان بينهما سارا إلى الكرك وعسكرا بها [١].

واستشعر العادل الثاني والصالح إسماعيل الخطر الكامن وراء إطلاق سراح نجم الدين أيوب «ورموا الناصر عن قوس واحدة» [٢] وتأهب العادل الثاني وخرج من مصر إلى بلبيس في ذي القعدة ٦٣٧ هـ/ يونية ١٢٤٠ م وأرسل إلى عمه إسماعيل يأمره بالخروج بعساكر دمشق ويقصد أخاه الصالح أيوب وابن عمه الناصر، ويتقدم هو بجيش مصر من الجنوب ليطبقا عليهما، كفكي كماشة، وينتزعان بلاد الناصر داود، ورحل إسماعيل من دمشق ومعه المنصور إبراهيم صاحب حمص - الذي خلف أباه المجاهد بعد موته - فلما علم الناصر داود والصالح أيوب بقصد عساكر الشام ومصر لهما استبد بهما الخوف والفزع لأن الصالح أيوب منذ إطلاق سراحه لم يتلق أية رسائل من قادة مصر فرجعا إلى نابلس، وأزمع الناصر داود على العودة إلى الكرك ليتحصن بها، ويعمل على مداراة إسماعيل وابن عمه العادل ريثما تتضح له الأمور من جديد [٣].

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٨١ أب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٢١ - ٥٢٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام الإسلام جـ ٥ ورقة ١١ ب؛ النويري: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٦٨ أب؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٢٨ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٥٧ - ٢٦٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٨، ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٨ - ٣٣٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١٠.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٨.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٢٢، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٦٠ - ٢٦١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٢٧، أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٤؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ٥.

غير أن الأمور تطورت بسرعة لصالح نجم الدين أيوب، ذلك أن سياسة العادل الثاني الخرقاء أدت إلى نفور قادة عساكر مصر، وتوغرت صدورهم تجاهه، فاتفق مقدم المماليك الأشرفية عز الدين أيبك الأسمر مع جماعة من كبار مماليك الكامل على خلع العادل والقبض عليه، فقاموا في إحدى ليالي شهر ذي القعدة ٦٣٧ هـ/يونية ١٢٤٠ م بالقبض عليه في بلبيس، وكان المماليك الأشرفية يميلون إلى الصالح إسماعيل في الوقت الذي تميل فيه الكاملية إلى الصالح أيوب، ولما كانت الكاملية هي الأكثرية الساحقة بين عساكر مصر فقد طغت كلمتهم، واتفق الجميع على استدعاء الصالح أيوب لتعيينه سلطاناً على مصر، ووصلت الدعوة إلى الصالح أيوب والناصر داود عند جبل الطور في سيناء، فسارا على عجل إلى مصر، واستقبلتهما عساكر مصر عند بلبيس، فقبض الصالح على أخيه العادل، وسار في عساكره نحو القاهرة، وصعد إلى قلعة الجبل في أواخر شهر ذي القعدة سنة ٦٣٧ هـ/ يونيه ١٢٤٠ م وبسط نفوذه على مصر [(١)].

لكن التحالف الذي أبرم بين الصالح أيوب وابن عمه الناصر داود سرعان ما انفرط عقده بعد فترة قصيرة من استيلاء أيوب على مصر فقد ذكر المؤرخون أن سبب ذلك يعود إلى قيام الناصر بعقد الاجتماعات السرية مع بعض أمراء مصر، ورفض الصالح أيوب إعطاءه قلعة الشوبك وإرسال العساكر معه لاسترداد دمشق فاستوحش من الصالح أيوب وعاد إلى الكرك ولا سيما وأنه علم أن الصالح إسماعيل أوعز إلى الفرنج بمهاجمة نابلس. وحينما وصل الناصر إلى نابلس أرسل إلى الصالح أيوب يطلب المال الذي وعده به، فبعثه إليه، وأخذ الصالح أيوب يتأول في يمينه التي أقسمها عند الصخرة المقدسة للناصر

---

(١) تاريخ ابن الفرات: جـ ٦ لوحة ٥٢٣ ـ ٥٢٩؛ اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٨١ أب ـ ٨٢ أ، ابن دقماق: الجوهر الثمين ورقة ٤٤ ب ـ ٤٥ أ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٤٠؛ العليمي: المعتبر في أنباء من غبر ورقة ١٧٦أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٦٢ ـ ٢٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١١.

داود بأن يسترد له دمشق وغيرها، وذكر أنه لم يفعل ذلك إلا مكرهاً وهو تحت رحمة الناصر داود [1]. وقد ذكر المؤرخ المعاصر ابن الجوزي أن الصالح أيوب أخبره بالسبب في عدم وفائه للناصر حيث قال: «حلّفني علي شيء ما تقدر ملوك الأرض عليه، وهو أن أخذ له دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب، فحلفت من تحت القهر والسيف» [2].

أما الصالح أيوب فبعد استقراره بالقاهرة، عمد إلى توطيد نفوذه فيها، وتخلص نهائياً من المماليك الأشرفية. بعد أن لمس عدم إخلاصهم له وميلهم إلى عمه الصالح إسماعيل، وشرع في شراء المماليك الترك، وبنى لهم قلعة الروضة، فسموا لذلك بالبحرية، وازداد بهم قوة وتمكن نفوذه في مصر [3].

وكان الصالح إسماعيل يدرك تمام الإدراك أن ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب لن يغفر له الطعنة التي وجهها إليه في الظهر حينما أوهمه، أنه يتجهز للمسير إليه لمساعدته في الوقت الذي كان يعمل فيه ضده، وانقض على دمشق واستولى عليها، وكاد يقضي عليه نهائياً. لذلك قرر الصالح إسماعيل المبادرة بالهجوم على مصر قبل أن يتمكن نجم الدين أيوب من توطيد نفوذه فيها، وأخذ الصالح إسماعيل يلتمس الحلفاء، فلم يجد غضاضة في الاستعانة بالصليبيين، فأعطاهم قلعة صفد [4] وبلادها وقلعة الشقيف [5] وبلادها ومناصفة صيدا

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٢٩؛ النويري، نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٦٩ أب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٢٨.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٦٢ ـ ٥٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧.

(٤) صفد: أوصفت بلدة متوسطة لها قلعة حصينة تشرف على بحيرة طبرية في فلسطين، انظر أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٥) الشقيف: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل، انظر ياقوت معجم البلدان.

وطبريه وأعمالها، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل، مقابل مشاركتهم له في هجومه على مصر، وبادر بالزحف قاصداً مصر في سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤١ م وأرسل في الوقت نفسه يستعين بحمص وحلب، فلما وصلته نجداتهم، تقدم إلى نهر العوجاء في فلسطين، فعلم أن الناصر داود يعسكر بالبلقاء، ولما كان الصالح إسماعيل يدرك تطلع الناصر الدائم نحو دمشق، فقد خشي أن يعقبه ويستولي عليها، لذلك قرر إسماعيل المبادرة بالهجوم على قواته، ونجح في إنزال الهزيمة به، وانسحب الناصر إلى الكرك. وعاد الصالح إسماعيل إلى العوجاء وبعث إلى الصليبيين يطلب منهم النجدات على أن يعطيهم جميع ما استرده صلاح الدين يوسف منهم، وحينما بلغ الصالح أيوب حشود عمه والصليبيين، أرسل العساكر المصرية إلى لقائهم، وحينما التقى الفريقان سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤١ م أظهرت عساكر الشام أصالة معدنها وتمسكها بعقيدتها وشرفها فانحازت طائعة إلى عساكر مصر ومالوا جميعاً على الصليبيين وسحقوهم وأسروا منهم أعداداً كبيرة، وبهؤلاء الأسرى بنى الصالح أيوب قلعة الروضة والمدارس الصالحية بالقاهرة [(١)].

وفي سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١ م دخل الناصر داود في تحالف الصالح إسماعيل وحمص وحلب ضد الصالح أيوب، ورد الأخير بإرسال قوة عسكرية بقيادة كمال الدين بن شيخ الشيوخ لقتال الناصر داود، الذي استعد لمواجهة ابن الشيخ والتقى به قرب جبل القدس وأنزل به الهزيمة وأسره فوبخه وأطلقه مع أصحابه، فعادوا إلى القاهرة [(٢)]. وفي السنة التالية ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م عاود الصالح أيوب محاولة غزو بلاد الشام، فأراد الخروج بنفسه إلّا أنه تراجع عن

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٨٥ أ؛ النويري: نهاية الأرب جـ ٢٨ ورقة ٧٢ أب؛ العليمي: تاريخ من ملك مصر وعكا والشام ورقة ١١٥ أ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٢٩ أ؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥، الذهبي: دول الاسلام جـ ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٩ ص ٢١٥؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣٦ ـ ٧٣٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٤٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٩؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٤٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٧.

الخروج على رأس جيشه وعهد مرة أخرى إلى كمال الدين بن الشيخ بقيادة حملته على الشام ولكن الحملة فشلت بسبب وفاة كمال الدين بن الشيخ عند وصوله إلى غزة [١].

أدرك الصالح أيوب أنه ليس من السهل غزو بلاد الشام بعد تلك الإخفاقات التي تعرض لها، وبخاصة وأن ملوك الشام جميعاً تحالفوا ضده، ولم يعد معه سوى المظفر صاحب حماه الذي أصيب بالفالج واشتد به المرض [٢]. ويبدو أن الصالح أيوب لم يكن يريد لعلاقته مع عمه الصالح إسماعيل أن تصل إلى طريق مسدود، لأن ابنه المغيث عمر ما زال معتقلاً لديه بقلعة دمشق، ومن الطبيعي أن يخشى على حياته ، لذلك قرر العمل على إطلاق سراحه عن طريق المفاوضات. ففي سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م ترددت الرسل بينه وبين عمه إسماعيل، واستقر الرأي بينهم على أن تكون مملكة دمشق للصالح إسماعيل، وأن تقام الخطبة والسكة في بلاد الشام للصالح أيوب، وأن يطلق إسماعيل سراح المغيث عمر وحسام الدين بن أبي علي الهذباني من الاعتقال، وجرى الاتفاق أيضاً على انتزاع بلاد الناصر داود من يده بحيث يكون بعضها للصالح أيوب والجزء الآخر لعمه إسماعيل [٣].

وشرع الصالح إسماعيل في تنفيذ الاتفاق فأرسل المنصور صاحب حمص على رأس عسكر دمشق للاستيلاء على عجلون، وهي من أملاك الناصر داود، غير أنه أخفق في الاستيلاء عليها وتكبد أمامها خسائر فادحة وأقيمت الخطبة بدمشق وحمص للصالح أيوب، وأطلق الصالح إسماعيل سراح حسام الدين بن

---

(١) الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٤٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤٥.

(٢) ابن واصل مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٢٣.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٩١ ب؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ص ١٢ أب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٢٧ - ٣٢٨؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٤١؛ ابن أيبك. كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٢؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٢، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٢؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤٦ - ٣٤٧؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ٦.

أبي علي الهذباني وبعض أصحابه، كما أطلق المغيث عمر بن الصالح أيوب ولكنه استبقاه إلى جانبه ريثما يتم توقيع الصلح رسمياً وأخذ اليمين من والده نجم الدين أيوب (١).

وأثناء تردد الرسل بين الجانبين، وقع بيد الصالح إسماعيل رسالة سرية أرسلها ابن أخيه الصالح أيوب إلى الخوارزمية يطلب منهم التحرك ضد أعدائه في بلاد الشام، وأخبرهم أنه باقٍ على عداوته للصالح إسماعيل، وأن هدفه من المفاوضات إطلاق سراح ابنه المغيث عمر، وبعدها سوف يقصد دمشق ويستولي عليها (٢). وبادر الصالح إسماعيل بقطع المفاوضات، وأعاد المغيث إلى الاعتقال، وألغى الخطبة للصالح أيوب وسحب قواته من أمام عجلون، وراسل الناصر داود، وصالحه واتفق معه على قتال الصالح أيوب، وانضم إليهما صاحبا حمص وحلب، وصارت كلمة ملوك بلاد الشام موحدة ضد الصالح أيوب (٣).

وحينما أدرك ملوك الشام أن الخوارزمية لا بد وأن يهاجموا بلاد الشام، وأنهم لا يستطيعون مواجهتهم إذا انضموا للصالح أيوب، اتفقوا سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م على مراسلة الصليبيين والتحالف معهم ضد الصالح أيوب وأنصاره من الخوارزمية، وسلم الصالح إسماعيل وحلفائه للصليبيين بيت المقدس وطبرية وعسقلان، وكوكب، وضمنوا لهم نصيباً من مصر إذا ملكوها. وكان لا بد أن يغري هذا التفريط في حقوق المسلمين، الصليبيين فحشدوا قواتهم لمناصرة إسماعيل وبقية ملوك الشام، وأرسل الصالح إسماعيل جزءاً من عسكره إلى غزة فعسكروا بها، وبعث بالمنصور بن المجاهد إلى عكا واتفق مع الصليبيين على المضي إلى مصر لقتال الصالح أيوب (٤).

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠، الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٤٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢١.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٢ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٤) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٢ أ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٣ أ؛ ابن

وبعث الصالح أيوب إلى أنصاره الخوارزمية الذين كانوا يقيمون شرق الفرات طالباً منهم القدوم إلى الشام لنصرته على عمه الصالح إسماعيل وحلفائه، فاستجاب الخوارزمية لطلبه وعبروا الفرات في أوائل سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م ونهبوا كل البلاد التي مروا بها، وهاجموا القدس، واستعادوه من الصليبيين ثم ساروا إلى غزة ونزلوا بها، وبعثوا إلى الصالح أيوب يخبرونه بقدومهم، ويطلبون منه إرسال عساكر مصر للانضمام إليهم ومقاتلة أعدائه جميعاً، فخلع الصالح أيوب على رسلهم وبعث الخلع والتحف لزعمائهم وأرسل العساكر إليهم[1].

وخرجت عساكر الشام من دمشق بقيادة المنصور صاحب حمص وبعث الناصر داود بقواته واجتمع الجميع بيافا ومعهم الصليبيون بكل قواتهم، وساروا إلى غزة. وفي جمادي الأولى سنة ٦٤٢ هـ/ اكتوبر ١٢٤٤ م التقت الخوارزمية وعساكر مصر مع المنصور صاحب حمص قائد جيوش ملوك الشام وحلفائهم الصليبيين، ودارت معركة رهيبة انتصر فيها الخوارزمية وعساكر مصر انتصاراً ساحقاً وسحقت قوات الصليبيين ومن معهم من عساكر دمشق وحمص وغيرها ونهب الخوارزمية أثقالهم وأسلحتهم[2].

واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٢ - ٣٣٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٥؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٢؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٠؛ (Campball, G.R. The Crusades p.415.)

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٦ - ٣٣٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٣ ب - ١٤ أ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٣١ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٦ - ٣٣٩؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٤٥ - ٧٤٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٣ - ٣٥٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٢؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٤١٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٦ - ٣١٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤ - ١٦٥؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٤٨.

وانظر تفصيل معركة غزة في الفصل الثالث ص: ٢٨٢ - ٢٨٧.

الصالح أيوب وإعادة توحيد الدولة الأيوبية
٦٤٣ - ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٥ - ١٢٤٩ م

كان من الطبيعي أن يتطلع الصالح أيوب بعد انتصار قواته في معركة غزة إلى استثمار ذلك النصر والانتقام من عمه الصالح إسماعيل جزاء خيانته واعتضاده بالصليبيين، وذلك بالاستيلاء على دمشق وإعادة توحيد الدولة، فأرسل نوابه واستولوا على غزة والسواحل والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار، وكانت هذه البلاد جميعها في حوزة الناصر داود، ولم يبق بيده سوى الكرك والبلقاء والصلت وعجلون [١]، وبلغ الصالح أيوب نبأ موت ابنه المغيث في سجنه بقلعة دمشق سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م فاشتد غضبه وحقده على عمه إسماعيل واتهمه بقتله وصمم على حربه [٢].

وجهز الصالح أيوب قواته وأسند قيادتها إلى وزيره معين الدين ابن شيخ الشيوخ، وأمره بالمسير إلى الشام ومنحه سلطة مطلقة على قواته وأمواله، فرحل معين الدين نحو بلاد الشام، وكتب الصالح أيوب إلى الخوارزمية لينضموا إلى قواته الزاحفة على دمشق، فانضموا إليها عند غزة، وسار معين الدين إلى دمشق

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٨.

(٢) العليمي: المعتبر في أنباء من غبر ورقة ٧٦ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٨.

التي تحصن بها الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص، وحاصرت قوات الصالح أيوب دمشق في أواخر سنة ٦٤٢ هـ/ أوائل سنة ١٢٤٥ م [١].

وظل حصار دمشق مستمراً «وعاثت الخوارزمية في أعمال دمشق» [٢] وقطعوا الطرق المؤدية إليها [٣]. وفي تاسع المحرم ٦٤٣ هـ/ ٦ يونية ١٢٤٥ م أمر معين الدين بن الشيخ الجنود بالزحف على دمشق. فتقدموا إلى أسوارها من جميع الجهات، وضربوها بالمنجنيقات ورموا بالنيران في إحياء قصر حجاج والشاغور وغيرها داخل دمشق، فرد الصالح إسماعيل بإحراق الأحياء الواقعة خارج الأسوار مثل زقاق الرمان والعقيبة، وقُطعت قنوات المياه الداخلة إلى دمشق، فاشتدت الضائقة الاقتصادية على أهل دمشق وارتفعت الأسعار، كما انعدم الأمن داخلها وانتشرت بها أعمال النهب والسلب وهتك الأعراض، وجرى بها أعمال في غاية البشاعة والسوء [٤].

ودام حصار دمشق بضعة أشهر [٥]، حتى شعر المحصورون داخل دمشق بعجزهم عن مواجهة عساكر مصر والخوارزمية لكثرتها، وقلة عدد العساكر المدافعة عن المدينة، ونفاذ ما بقلعة دمشق من المؤن والذخائر فضلاً عن تخلي الحلبيين عن مساعدتهم [٦]. وقرروا طلب الصلح، وفي ربيع الآخر خرج المنصور صاحب حمص من دمشق واجتمع ببركة خان زعيم الخوارزمية،

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤١؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٤، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٩.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٥٢.

(٤) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٦٢ أ ب؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢٠، وقد أورد سبط ابن الجوزي مثلاً على الفظائع التي جرت، فذكر أن رجلاً كان يقطن في أحد الأحياء التي أضرمت فيها النيران وكان له عشر بنات أبكار فقال لهن «أخرجن فقلن لا والله، الحريق ولا الفضيحة فاحترقت الدار واحترقن ولم يخرجن» انظر مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٥٢.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٦.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٨.

واستبشر الناس خيرا بهذا الاجتماع وعاد المنصور إلى دمشق [١]. ويبدو أنه أقنع الصالح إسماعيل بعدم جدوى المقاومة. وعهد إسماعيل إلى وزيره أمين الدولة السامري بترتيب الصلح مع ابن الشيخ، فخرج الوزير من دمشق وقابل معين الدين بن الشيخ وتحادث معه، وتقرر تسليم دمشق، وأن يخرج منها الصالح إسماعيل وصاحب حمص مع أتباعهم دون التعرض لأموالهم، وأن يعوض الصالح إسماعيل ببعلبك وبصري وأعمالها وجميع بلاد السواد الواقعة نواحي البلقاء، وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة، وأعطى معين الدين بن الشيخ يمينه على ذلك، وسار المنصور إلى بلاده، وغادر إسماعيل دمشق إلى بعلبك، ودخل ابن الشيخ بقوات الصالح أيوب إلى دمشق في جمادي الأولى ٦٤٣ هـ/ اكتوبر ١٢٤٥ م [٢].

وبعد فترة وجيزة من الاستيلاء على دمشق ، وصل إليها أمر الصالح أيوب بعدم إعطاء الأمان لعمه إسماعيل، وأمر بالقبض عليه وإرساله إلى مصر، ولكن بعد فوات الأوان، وقد أنكر الصالح أيوب على قائده معين الدين بن الشيخ إطلاق سراح عمه الصالح إسماعيل «فإنه كان لا يرى إلا إعدامه حنقاً عليه بسبب اتهامه بقتل ولده ولما بدا منه في حقه» [٣].

أما معين الدين فإنه قام بعد دخوله دمشق بتنظيم شئونها فأسند الوظائف المهمة إلى رجال يثق بهم [٤]. ولكن ابن الشيخ لم يلبث أن توفي في رمضان ٦٤٣ هـ/ فبراير ١٢٤٦ م فجعل الصالح أيوب نيابة دمشق إلى قائده حسام

---

(١) سبط ابن الجوزي: مراة الزمان جـ ٨ ص ٧٥٣.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٧ أ ب؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٤ أ؛ النويري: نهاية الأرب: جـ ٢٧ ورقة ٨١ أ ب ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٣١ ب؛ الديبساوي: الزهر الزاهر، ورقة ١٢٠ أ ب؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٥٥؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٥٣؛ المقريزي: السلوك جـ ٢ ص ٣٢٠؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٢٠١؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٩ ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٩.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٦.

الدين بن أبي علي الهذباني، كما أسند ولاية قلعة دمشق إلى الطواشي شهاب الدين الكبير، وتعاون الرجلان في إدارة شئون دمشق حيث «يجتمعان كل يوم ويتفقان على مصالح الدولة»[1].

وسرعان ما تعرض نفوذ الصالح أيوب في بلاد الشام للخطر من قبل حلفائه بالأمس، وهم طائفة الخوارزمية، إذ كانوا يتوقعون الحصول على ثمن كبير من الصالح أيوب جزاء خدماتهم له، وأن يقطعهم الإقطاعات الواسعة بمصر، ويقاسمهم بلاد الشام وهو ما لم يحدث كما أن ابن الشيخ حين استولى على دمشق لم يعطهم من الإقطاعات ما يرضيهم[2]. بل إنه ـ كما يذكر المقريزي ـ منعهم من دخول دمشق، خوفاً من تعرضهم للسكان بالنهب. وأقطعهم ساحل الشام «بمناشير كتبها لهم»[3]. ويبدو أن إقطاعهم الساحل لم يكن يشكل أي إغراء لهم، وذلك بسبب خضوع أهم مدن ساحل الشام للصليبيين، وهذا سيدخلهم في نزاع معهم. ولذلك قرر الخوارزمية الانفصال عن الصالح أيوب والعمل ضده، فنهبوا داريا ـ وهي إحدى قرى غوطة دمشق ـ وانسحبوا شرقاً[4].

وأخذ الخوارزمية يبحثون عن الحلفاء للعمل ضد الصالح أيوب، وكان يلي غزة من قبله مملوكه ركن الدين بيبرس الصالحي، فراسلوه وعرضوا عليه أن يميل إلى جانبهم، ويكونوا يداً واحدة وأن يزوجوه امرأة منهم، ويبدو انه تعاطف معهم، غير أن سيده الصالح أيوب استدرجه واستدعاه إلى القاهرة «فاعتقله بقلعة الجبل وكان آخر العهد به»[5]. كما راسل الخوارزمية أيضاً الناصر داود

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠؛ وانظر أيضاً المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٣) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢١.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٦.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١؛ وانظر أيضاً ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٤.

صاحب الكرك، فوجد في مخالفتهم فرصة لاستعادة ما فقده من بلاده لحساب الصالح أيوب، فاجتمع بهم وتزوج منهم وتمكّن بمساعدتهم من إستعادة نابلس والقدس وبيت جبريل والأغوار[1]. ولم يكتف الخوارزمية بذلك بل بعثوا إلى الصالح اسماعيل العدو اللدود للسلطان نجم الدين أيوب واستمالوه إلى جانبهم «وحلفوا له فقدم عليهم، وصاروا معه واتفقت كلمة الجميع على محاربة السلطان الملك الصالح نجم الدين»[2] كما يقول ابن واصل.

وجه الجميع هجومهم ضد دمشق عاصمة بلاد الشام وفرضوا عليها الحصار الشديد في ذي القعدة ٦٤٣هـ/ أبريل ١٢٤٦م ويظهر أن المؤن والأقوات كانت قليلة قبل الحصار، ونفدت أثناء الحصار، وعانت دمشق من غلاء شديد لم تشهد له مثيلاً طوال عصر الحروب الصليبية، بحيث بلغ سعر غرارة القمح ألف وستمائة درهم، وسعر قنطار الدقيق ستمائة درهم، وعدمت الأقوات وانتشرت المجاعة داخل دمشق حتى أكل الناس الميتات والدم والقطط والكلاب، ومات الكثير من الناس على الطرق، وانتشرت الروائح الكريهة داخل دمشق بسبب تعفن جثث البشر وضجر من بقي من السكان على قيد الحياة من غسل وتكفين الموتى ودفنهم، فأخذوا يحفرون الآبار ويرمون الجثث فيها[3]. ومع ذلك فقد ظلت دمشق صامدة بسبب صلابة واليها حسام الدين بن أبي علي الهذباني رغم قلة العساكر التي كانت تحت قيادته[4].

على أن الصالح أيوب تمكّن خلال حصار الخوارزمية لدمشق من استمالة

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥٠؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة: قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٢٤٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥١.

(٣) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٦٢ أ ب؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٤ ب - ١٥ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥٢ - ٣٥٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٥٣ - ٧٥٤؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٧٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٦ - ١٦٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥٢؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٥.

المنصور ابراهيم صاحب حمص إلى جانبه، وأوعـز إليه بقتالهم. فشرع المنصور في حشد الجيوش من العرب والتركمان والحلبيين وغيرهم فلما علم الخوارزمية بحشوده عند حمص، فكوا حصار دمشق وساروا إلى حمص لقتاله ومعهم الصالح اسماعيل، وعسكر الناصر داود، وخرجت حامية دمشق في إثرهم وانضمت إلى المنصور، والتقى الجمعان في أول سنة ٦٤٤هـ / مايو ١٢٤٦م عند بحيرة حمص حيث دارت معركة حاسمة، انتصرت فيها قوات الصالح أيوب وحلفائه على الخوارزمية وحلفائهم، وقتل الكثير منهم كما قُتل زعيمهم بركة خان، وتفرّقوا أيدي سبأ، فمنهم من ذهب إلى المغول وانضموا إليهم، وطائفة ذهبوا إلى مصر، وفلول أخرى تفرقوا في بلاد الشام لخدمة ملوكها[1] وقد ترتب على هزيمة الخوارزمية أن توطدت العلاقات بين الصالح أيوب وبين المنصور إبراهيم بن المجاهد صاحب حمص، كما تحسَّنت علاقات الصالح أيوب مع أهل حلب «واتفقت كلمة الجميع»[2].

ولجأ الصالح إسماعيل - بعد هزيمته مع حلفائه الخوارزمية عند حمص - إلى حلب واستجار بملكها الناصر يوسف بن العزيز، وبعث الصالح أيوب إلى الناصر يوسف يطلب تسليم عمه إسماعيل فاعتذر ملك حلب عن تسليمه وجاء في إعتذاره لمبعوث السلطان قوله : «وليس من المروءة إذا استجار انسان بإنسان أن يخفر ذمته ويسلمه إلى عدوه» فقبل الصالح أيوب عذر الناصر يوسف على مضض وسكت عن طلبه[3].

ولكن الصالح أيوب قرر تجريد عمه إسماعيل من إمارته في بلاد الشام

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥٤، ٣٥٨ - ٣٥٩؛ سبط ابن الجوزي: مراة الزمان جـ ٨ ص ٧٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٧؛ أبو الفـدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٥؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٣) المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٦٠؛ وانظر أيضاً: اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٨٣ - ١٨٥.

فأوعز إلى واليه على دمشق حسام الدين بن أبي علي الهذباني بذلك، فسار الأخير بعسكر دمشق وحاصر بعلبك، فسلّم المنصور محمود ابن اسماعيل بعلبك وبلادها لحسام الدين الذي ولّى عليها ورتّب أمورها، وقبض على المنصور وأخوته وأنصارهم وصادر أموالهم وبعث بالجميع إلى القاهـرة حيث جرى إعتقالهم بقلعتها[1].

وبعد أن فرغ الصالح أيوب من عمه إسماعيل التفت إلى ابن عمه الناصر داود فأرسل فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على رأس حملة كبيرة إلى الشام لقتال الناصر داود الذي استخدم بعض فلول الخوارزمية، ووصل الجيش المصري إلى غزة وأوقع بالناصر داود وفلول الخوارزمية في ربيع الآخر ٦٤٤هـ / سبتمبر ١٢٤٦م وارتد الناصر إلى الكرك واستولى ابن الشيخ على ما كان بيده من البلاد، وهي القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبقاء، وولّى فيها من قبله ثم توجه إلى الكرك، ودمر ضياعها، وحاصرها حصاراً شديداً، حتى قل ما بيد الناصر داود من الأموال والذخائر، فأرسل يطلب الأمان، فاشترط عليه ابن الشيخ إخراج الخوارزمية الذين استخدمهم، فبعث بهم إليه، فجندهم ابن الشيخ في جيشه، وترك الكرك على حالها[2]. ثم سار إلى بصرى وهي آخر أملاك الصالح إسماعيل في بلاد الشام فحاصرها واستولى عليها[3].

أما الصالح أيوب فبعد تقليم أظافر خصومه في بلاد الشام، قرر المسير إليها لتفقد أحوالها بنفسه، فوصل إلى دمشق في ذي القعدة ٦٤٤هـ / مارس ١٢٤٧م وزيّنت المدينة لقدومه وأنفق أربعين ألف درهم على المدارس والأربطة،

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٦١ - ٣٦٢؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٩؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص٣٦٣ - ٣٦٥؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٧٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢٤ - ٣٢٥؛ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٦.

(٣) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢٥.

والمصالح العامة، كما تصدّق على الفقراء، وأحسن إلى أهل دمشق وخلع على أعيانها، ثم ذهب إلى بعلبك ورتّب أمورها وعاد إلى دمشق[1].

وخلال إقامته في بلاد الشام أخضع بعض الحصون الهامة فتسلّم حصن عجلون بعد وفاة صاحبه سيف الدين بن قلج[2]. وأرسل بعض أعوانه إلى عز الدين أيبك صاحب صرخد يطلب تسليمه إليه، ولم يسع عز الدين إلاّ الموافقة فتنحّى عن صرخد للصالح أيوب[3]. وأخيراً تسلم حصن الصبيبة[4] من ابن عمه السعيد بن العزيز بن العادل وعوضه عنه إقطاعاً بمصر[5]. ووصل إليه بدمشق الأشرف موسى بن المنصور، صاحب حمص، والمنصور صاحب حماه فأكرمهما وقربهما[6].

وغادر الصالح أيوب دمشق في أوائل سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م عائداً إلى مصر ومر أثناء رجوعه ببيت المقدس وأمر بعمارة أسواره، وأوصى بصرف كل خراج ولاية القدس على عمارته وإذا أعوزه شيء حُمِلَ إليه من مصر، وتصدّق فيه بألفيّ دينار وغادره عائداً إلى القاهرة[7].

---

(١) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٧٠ ب؛ سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ٣٦٠ - ٣٦١؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٦٨.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٦٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٧٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢٦.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٦٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢٦.

(٤) الصبيبة: اسم لقلعة بانياس وهي من الحصون المنيعة، وبانياس بلدة صغيرة تشتهر بأشجار الحمضيات وهي على مسافة مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب. انظر أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٤٨ - ٢٤٩، (Lestrange, Palestine Under the Moslems p. 419.).

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٦؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٩؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ١٨٢؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٥٦.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٧٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٦.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٦٣ - ٧٦٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٦؛

وبعد وصوله إلى القاهرة أرسل مبعوثاً إلى دمشق ومعه قائمة بأسماء بعض زعماء وأعيان دمشق، ثبت له ولاءهم لعمه إسماعيل فخشي أن يقوموا بالتآمر لتسليمها إليه مثلما حدث في المرة السابقة، فاعتقلهم واليه على دمشق وأرسلهم إليه، وفرض عليهم الإقامة الجبرية في مصر، ولم يعودوا إلى الشام إلّا بعد وفاته[1].

واضطر السلطان الصالح أيوب للعودة مرة أخرى إلى بلاد الشام بسبب تطور الحوادث بين حمص وحلب، ففي سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م، جرت مراسلات بين الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص وبين الصالح أيوب وتنازل الأشرف للصالح أيوب عن قلعة شميميش، وحينما بلغ ذلك أهل حلب، خشوا أن يُطْمِع ذلك نجم الدين في حلب، فقرروا مهاجمة حمص والإستيلاء عليها، فأمر الصالح أيوب فخر الدين يوسف بن الشيخ بالمسير إلى الشام على رأس فرقة من فرسانه ريثما يلحقه هو ببقية الجيش إلى دمشق[2].

وبينما كانت عساكر الصالح أيوب تزحف على الشام تمكّن الحلبيون من الإستيلاء على حمص من الأشرف موسى، ووصل الصالح أيوب إلى دمشق في سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م رغم شدة مرضه، فأقام بدمشق وبعث بالأمير فخر الدين بن الشيخ لاسترداد حمص فنصب عليها المنجنيقات، وضمنها منجنيق ضخم زنة حجره مئة وأربعون رطلاً، وكادت حمص تسقط في يد جيش الصالح أيوب، غير أنه بلغه من الأنباء ما يفيد باحتشاد الصليبيين في قبرص ووصول طلائع الحملة الصليبية السابعة إلى دمياط، فاضطر السلطان الصالح أيوب للاستجابة لوساطة مبعوث الخليفة وترك حمص بأيدي الحلبيين وأمر جيشه

ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧١؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٥٠؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ١٨٢.

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥أ؛ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ ١٥ ورقة ١٠ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٦٦ - ٧٦٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٣؛ ابن تغري بردى: النجم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٥٨.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٧٧ - ٣٧٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٣٠.

بالعودة إلى مصر للدفاع عنها، وعاد هو محمولاً في محفة بسبب ازدياد مرضه[1].

أما الكرك، فيبدو أن صاحبها الناصر داود، توقع أن يشن الصالح أيوب عليه هجوماً كبيراً وينتزعها منه بعد فراغه من حمص، فبعث إليه بدمشق يعرض التنازل عن الكرك، على أن يعوضه بقلعة الشوبك وإقطاعاً بمصر، فوافق الصالح أيوب على هذا العرض،وأوفد أحد أعوانه لاستلام الكرك،غير أن الناصر داود ما لبث ـ حينما بلغه عودة الصالح أيوب إلى مصر إضافة إلى سماعه بقدوم الحملة الصليبية السابعة ـ أن تراجع عن عرضه ورفض التنازل عن قلعته المنيعة[2].

ولكن تراجُع الناصر داود لم يطل في عمر مملكته الصغيرة، ففي سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ذهب إلى حلب ليعقد فيما يبدو تحالفاً جديداً ضد الصالح أيوب مع مملكة حلب، ولاسيما بعد تدهور علاقاتها مع الصالح أيوب بسبب حمص ـ وكان قبيل مغادرته الكرك ـ قد أناب ابنه الأصغر المعظم شرف الدين عيسى على القلعة، وترك إبنيه الآخرين، الظاهر شادي، والأمجد حسن، وهما أكبر سناً، فاشتد غضبهما وقبضا على أخيهما المعظم، واتفقا على تسليم الكرك للسلطان الصالح أيوب، فسافر الأمجد حسن إليه بالمنصورة وعرض عليه إستلام الكرك، فأكرمه السلطان وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال. وأرسل معه خادمه بدر الدين الصوابي نائباً على الكرك والشوبك، وغادر ابنا الناصر داود إلى القاهرة فأقطعهما الصالح أيوب إقطاعات كبيرة بمصر، وقد سُرَّ الصالح أيوب سروراً

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥ أ ب؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٦ ب؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٤؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ١٨٨؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، القسم الأول ص ٨٩.

(٢) ابن واصل: تاريخ الواصلين ورقة ٣٥٥أ؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٣٢؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٩.

عظيماً بالإستيلاء على الكرك واستكمال وحدة مصر والشام، وجعل الكرك مخزنا لأمواله وأسلحته وذخائره[1].

(1) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٨ أ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٩ أ؛ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٦ ـ ١٧؛ العليمي: تاريخ من ملك مصر وعكا والشام والسواحل ورقة ١١٥ ب؛ العليمي: المعتبر في أنباء من غبر ورقة ٧٦ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٣، ابو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٢.

بلاد الشام في مفترق الطرق
إنهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك
٦٤٧ - ٦٥٧هـ / ١٢٤٩ - ١٢٥٩م

عاد السلطان الصالح أيوب من بلاد الشام مريضاً محمولاً في محفة لشدة مرضه، ومع ذلك فقد قام بتنظيم شؤون الدفاع عن مصر إزاء حملة لويس التاسع، غير أن القدر لم يمهله فتوفي بالمنصورة في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ / نوفمبر ١٢٤٩م بعد أن عهد لإبنه المعظم تورانشاه بولاية العهد أثناء مرضه[١]. ونظراً لأن تورانشاه لم يكن موجوداً بمصر، فقد استقر رأي شجر الدر - أرملة الصالح أيوب - وفخر الدين بن الشيخ (قائد الجيش) على كتمان خبر وفاة السلطان ريثما يتم إستدعاء السلطان الجديد من حصن كيفا وديار بكر بالجزيرة وشرعت شجر الدر في تقليد توقيع السلطان على الأوامر والمراسيم مثلما كان يفعله قبل موته، لتوهم عسكره بأنه ما زال حياً، حتى لا يفت خبر موته في عضد المسلمين في وقت يواجهون فيه عدواً عنيداً هو الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية السابعة[٢].

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين ورقة ٤٥ أ ب؛ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٥؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٣٩: العيني: السيف المهند ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين ورقة ٤٥ ب؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ٥ لوحة ١٧ - ١٨؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٧٠ - ٣٧٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٤؛ ابو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٩ - ١٨٠؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣؛ ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

وكان الصالح أيوب قد جعل ابنه تورانشاه نائباً عنه بحصن كيفا على البلاد التابعة له شرق الفرات، وبعد موت الصالح أيوب بعث فخر الدين بن الشيخ بالفارس إقطاي زعيم المماليك البحرية إلى الشرق لإحضار تورانشاه، وأمر ابن الشيخ في الوقت نفسه باقامة الخطبة على منابر مصر لتورانشاه ونقش اسمه على السكة بعد أبيه(١).

غادر تورانشاه حصنه ومعه خمسون فارساً، وسار متخفياً خوفاً من أعداء والده، وعلى رأسهم أهل حلب، الذين ما أن علموا بمسيره حتى جهزوا كتيبة للقبض عليه، ولكنه سلك طريق الصحراء، حتى كاد يموت مع أصحابه عطشاً، وتمكّن بعد مشقة بالغة من الوصول إلى دمشق في أواخر رمضان ٦٤٧هـ / ديسمبر ١٢٤٩م(٢). وقد استقبله نائب والده بدمشق الأمير جمال الدين بن يغمور، وأخذ له العهد من أمراء دمشق وقادتها وأعلنه سلطاناً على مصر والشام، فقام تورانشاه بصرف أموال قلعة دمشق على قادة وعساكر دمشق كما أمر بإحضار أموال أخرى من الكرك وأنفقها في دمشق، وبعد أن أقام في بلاد الشام بضعة عشر يوماً أقرّ ابن يغمور على نيابة دمشق ثم غادرها إلى مصر(٣).

وصل تورانشاه إلى مصر في ذي القعدة ٦٤٧هـ / يناير ١٢٥٠م، وتسلّم مقاليد الحكم من أرملة والده شجر الدر، وبعد وصوله تمكّن المسلمون من إنزال الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة، ووقع لويس التاسع في الأسر مع كثير من فرسان الحملة(٤). غير أن تورانشاه لم يستغل هذا النصر في توطيد نفوذه

---

(١) المقريزي: المقفى. ورقة ٢٨٩ أ.

(٢) المقريزي: المقفى ورقة ٢٨٩ أ؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) ابن واصل: تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٧هـ؛ المقريزي: المقفى ورقة ٢٨٩ أ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١٣٥.

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٤٧ - ٥٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٥١ - ٣٥٦؛ سعيد عاشور: مصر والشام ص ١١٣ - ١١٤؛ علي ابراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ص ٣٧.

تدريجياً على مصر، فقد كان عابثاً ومفتقراً إلى الحنكة السياسة وعدم المعرفة بطبيعة الدولة الأيوبية في مصر، تلك الدولة التي وطّد الصالح أيوب نفوذه عليها بواسطة مماليكه الذين أطلق عليهم اسم البحرية. وكان من المهم أن يقوم تورانشاه بمداراة تلك الطائفة الجديدة ريثما يقوم بتوطيد نفوذه. إلاّ أنه لم يفعل فأماط اللثام عن تهوره، معلناً عزمه على القضاء على المماليك البحرية، كما أساء إلى أرملة والدة شجر الدر. وهي التي لعبت دوراً حاسماً في وصوله إلى سدة الحكم، فضلاً عن مكانتها لدى طائفة البحرية، فأوعزت إليهم بالتخلص منه، وفعلاً قتلوه في محرم ٦٤٨هـ / مايو ١٢٥٠م[١].

وبمقتل تورانشاه انتهت الدولة الأيوبية من مصر، وأسند المماليك منصب السلطنة إلى شجر الدر، أرملة الصالح أيوب التي اشتهرت بحسن سيرتها وقوة شخصيتها[٢]. غير أن قيام امرأة في حكم المسلمين قد أحرجها كثيراً، فتزوجت من الأمير عز الدين أيبك أتابك العسكر وتنازلت له عن الحكم ليصبح أول سلاطين المماليك[٣].

ولن نتعرض هنا لشرح الحوادث التي صاحبت سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك في مصر وإنما الذي يهمنا موقف بلاد الشام من هذه التطورات الجديدة والأثر الذي تركته على بلاد الشام عشية الغزو المغولي.

---

(١) بيبرس: التحفة الملوكية في الدولة التركية ورقة ١ أ ب ـ ٢ أ؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين ورقة ٤٦ أ ب؛ الديري: الجدول الصفي من البحر الوفي ورقة ٢٢٠ ب ـ ٢٢١ أ ب؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ٤٧ ـ ٥٠؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١٣٥ ـ ١٣٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠؛ ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب جـ ٤ قسم ١ ص ٣٧ ـ ٣٨؛ ابن اياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥؛ سعيد عاشور: مصر والشام ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٢٣٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٤؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ١١.

(٣) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٢ أ ب؛ المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٢٣٧؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٢ ـ ١٥.

فبعد مقتل المعظم تورانشاه أوفدت القاهرة مبعوثاً إلى دمشق لأخذ يمين الولاء من نائب السلطنة بالشام جمال الدين بن يغمور والأمراء القيمرية[1] للسلطانة الجديدة شجر الدر، ولكنهم رفضوا طلبه. كما سار الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل إلى غزة واستولى على أموالها ثم سار إلى قلعة الصبيبة واستولى عليها، وحينما علم المماليك بذلك أحاطوا بداره في القاهرة وأخذوا ما كان له بها[2].

ولم يقتصر رد الفعل في بلاد الشام على قيام دولة المماليك على ذلك بل أن بلاد الشام الخاضعة للأيوبيين لم تتقبل الوضع الجديد في مصر، ذلك أن نائب الكرك بدر الدين الصوابي حين سمع بنبأ مقتل تورانشاه، اتفق مع نواب الشوبك على إطلاق سراح المغيث عمر بن العادل بن الكامل الذي كان معتقلاً بالشوبك، وأحضره بدر الدين الصوابي إلى الكرك وسلمه ما كان بها من أموال الصالح أيوب وأعلنه ملكاً عليها وعلى الشوبك وما يتبعها من بلاد في ١٣ ربيع الأول ٦٤٨هـ / ١٦ يونيه ١٢٥٠م، وأصبح بدر الدين الصوابي مدبراً ووزيراً لدولة المغيث الجديدة[3].

كما أرسل الأمراء القيمرية من دمشق مبعوثاً إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب حلب يخبرونه برفضهم مبايعة شجر الدر ويحثونه على القدوم إلى دمشق ليملكها. فخرج الناصر يوسف من حلب في مستهل ربيع الآخر ٦٤٨هـ / ٣ يوليه ١٢٥٠م ووصل إلى دمشق وفتح له الأمراء القيمرية أبوابها ودخلها في ٨ ربيع الآخر ٦٤٨هـ / ١٠ يوليه ١٢٥٠م، بدون قتال، وخلع على

---

(١) القيمرية: نسبة إلى قلعة قيمر التي تقع فيما بين الموصل وخلاط، وهم أكراد. انظر ياقوت: معجم البلدان، سعيد عاشور: مصر والشام حاشية رقم (١).

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٦٦.

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٠٤ أ ب؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٧٥ - ٧٦؛ ابن أيبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٦٤٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٦٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٧٦؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤٣١ - ٣٣٢.

الأمراء القيمرية ووهبهم الأموال، وملك قلعة دمشق وشرع في توطيد نفوذه على بلاد الشام[1].

ويجب أن نشير هنا إلى أن خضوع دمشق لحلب أمر له دلالته خلال الحقبة موضع الدراسة فطوال العصر الأيوبي ظلت حلب تكافح في سبيل إستقلالها عن دمشق واحتفاظها بشخصيتها المتميزة وهنا انعكس الوضع ، وانقادت دمشق لسيطرة حلب ، والسبب في هذا واضح تماماً وهو سقوط الأيوبيين في مصر وشعور زعماء بلاد الشام من الأيوبيين وأنصارهم بالحاجة الماسة لتوحيد قواهم وجهودهم لمواجهة التطور الخطير الذي حدث في مصر على حساب الأيوبيين حتى ولو اقتضى الأمر تخلي دمشق عن الزعامة لمنافستها الرئيسة حلب.

أخذ الناصر يوسف بن العزيز يعمل على توسيع دائرة نفوذه في بلاد الشام بعد إستيلائه على دمشق، فأرسل إلى بعلبك في جمادي الآخرة ٦٤٨هـ / سبتمبر ١٢٥٠م وطلب من نائبها ويدعى شرف الدين عيسى بن أبي القاسم تسليمها فأبى قائلاً : «في عنقي يمين للملك الأوحد ابن المعظم ـ تورانشاه ـ لا يمكنني التسليم إذا لم يعوضوه عنها» فعوضه الناصر يوسف عنها قرى زراعية في إقليم الجزيرة يبلغ دخلها السنوي مئة ألف درهم، وتسلّمها وضمها إلى مملكته[2]. كما ضمّ الناصر يوسف القدس وفلسطين إليه[3] . وخضعت له عجلون والسلط وبصرى وصرخد وأعمالها وتقدمت عساكره صوب غزة[4].

---

(١) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب جـ٢ لوحة ٤٤٣ ـ ٤٤٤؛ اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٥ أ؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ورقة ١٧٢ أ ب؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ٢ ورقة ٢٣ أ ب؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ١٥ لوحة ٢٥ ـ ٢٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٧٩ ـ ٧٨٠؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٨٣، المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧، ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٥٠ ـ ٥١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٦.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٦.

وحاول الناصر يوسف الإستيلاء على الكرك والشوبك، فأرسل رسولاً إلى بدر الدين الصوابي في جمادي الأولى ٦٤٨هـ / أغسطس يطلب تسليمها إليه، فتظاهر الصوابي بأنه لا يملك من أمرهما شيئاً وأحضر المغيث عمر أمام مبعوث الناصر يوسف وأخبره أن المغيث هو ملك الكرك والشوبك فلما خاطبه الرسول في تسليم الكرك والشوبك أجابه المغيث قائلاً: «إني كنت في الحبس وقد منّ الله بإطلاقي وليس لي ولا من بقي من أهلي موضع ينضوون إليه . . . والسلطان أعز الله نصره إذ أخذ هذا الحصن لا بد له من نائب، والمملوك نائبه فيه، لا أصدر ولا أرد إلّا عن رأيه ومراسمه «وهكذا استطاع المغيث بهذا الإستعطاف إقناع الناصر يوسف* بصرف النظر عن الكرك والشوبك وأقره عليهما[1].

وقد أقلقت هذه التطورات الجديدة في بلاد الشام المماليك البحرية وأدركوا أنه لا يوجد مبرر شرعي لحكمهم مصر، فقرروا إقامة صبي من بني أيوب لجعله سلطاناً إسمياً عليها، وليكون الحكم الحقيقي لهم، فانتخبوا الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل ـ وكان عمره دون العاشرة ـ وأعلنوه سلطاناً على مصر في جمادي الأولى ٦٤٨هـ / أغسطس ١٢٥٠م وخطبوا له، وجعلوا المعز أيبك أتابكاً له[2]. ويبدو أن المماليك البحرية أرادوا ـ بهذا الإجراء ـ الحيلولة دون قيام بني أيوب ـ في بلاد الشام ـ بمحاولة إستعادة مصر، وفي الوقت نفسه أرسل المعز أيبك فرقة عسكرية بقيادة الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير إلى غزة، لمراقبة الموقف في بلاد الشام عن كثب. غير أن الأمير ركن الدين خاص ترك تراجع إلى الصالحية[3]عندما وجد عسكر الناصر يوسف عند

---

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٣ أ ب؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥٥ ـ ٥٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٣؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥ ـ ٦؛ ابن تغري بردى: المنهل الصافي جـ ١ ص ٦ ـ ٧؛ سعيد عاشور، مصر والشام ص ١٦١.

(٣) الصالحية: بلدة بناها الصالح أيوب سنة ٦٤٤هـ في أول الرمل بين مصر والشام وأنشأ بها سوقاً وجامعاً لتكون قاعدة لجيوشه إذا خرجت إلى الشام. انظر المقريزي: الخطط جـ ١ ص ١٨٤.

غزة، وتشاور مع أصحابه، فاتفقوا على مراسلة المغيث عمر صاحب الكرك، وطلبوا منه القدوم إلى مصر لخلع المعز وتعيينه سلطاناً عليها، وخطبوا له بالصالحية في جمادي الآخرة ٦٤٨هـ / سبتمبر ١٢٥٠م[١].

ومن الواضح أن المغيث عمر خشي من المخاطرة بالمسير إلى مصر كي لا يتعرّض للمصير الذي انتهى إليه تورانشاه على أيدي المماليك، إضافة إلى خشيته من الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق الذي لن يرضى بالسلطنة لأحد غيره، أما المعز أيبك فقد خشي من هذه الحركة التي تزعمها الأمير ركن الدين خاص ترك، وأعلن في القاهرة بأن البلاد للخليفة العباسي المستعصم بالله، وأخيراً تمكّن بعض المماليك من القبض على ركن الدين خاص ترك وسلموه إلى المعز أيبك، وبذلك فشلت أول محاولة للقضاء على دولة المماليك الناشئة[٢].

وفي أعقاب تلك المحاولة أرسل المعز أيبك فرقة عسكرية مكونة من ألفيّ فارس من المماليك البحرية بزعامة فارس الدين أقطاي الجمدار إلى غزة لمواجهة جيش الناصر يوسف المعسكر بها، وتمكّن أقطاي من إنزال الهزيمة بعسكر الناصر في رجب ٦٤٨هـ / اكتوبر ١٢٥٠م وفروا إلى دمشق وعاد أقطاي بفرسانه إلى القاهرة[٣].

وعلى الرغم من هزيمة عسكر الناصر عند غزة، فإن ذلك لم يثن عزمه عن غزو مصر، فقد استقر رأيه ورأى أمراء بني أيوب في بلاد الشام على إستعادة

---

(١) ابن واصل: تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨هـ؛ بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٣ ب؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٣؛ ابن تغري بردى: المنهل الصافي جـ ١ ص ٨ ـ ٩.

(٢) ابن واصل: تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨هـ؛ بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٣ ب؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥٦، (Lanepool, A History of Egypt p. 257.).

(٣) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٤ أ؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٠؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

مصر من المماليك، غير أن الناصر يوسف خشي من الناصر داود على نفوذه في بلاد الشام إذا ما تركه بها طليقاً وسار نحو مصر، لذلك اعتقله وسجنه بقلعة حمص في شعبان ٦٤٨هـ / نوفمبر ١٢٥٠م[١].

وكان أشد أمراء الناصر يوسف تحريضاً على غزو مصر هو مدبر دولته الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني، الذي كان يعبر عن قدرته على إستعادة مصر «بمائتيّ قناع» على حد زعمه[٢]. ويبدو أنه أقنع الناصر يوسف بسهولة القضاء على قوة المماليك. وتصوّر الناصر يوسف أنه سيغدو سلطاناً على مصر والشام «ولم يعلم أن أيام تلك الدولة ـ الأيوبية ـ قد انقضت، وبروق هذه ـ المماليكية ـ قد أومضت وشتان بين الإقبال والإدبار» على حد تعبير بيبرس الداوادار[٣].

خرج الناصر يوسف بعساكر دمشق في منتصف شهر رمضان ٦٤٨هـ / ديسمبر ١٢٥٠م وصحبته جماعة من ملوك أهل بيته وعلى رأسهم الصالح إسماعيل والأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه، وتورانشاه وأخيه نصرة الدين ابنا السلطان صلاح الدين، والظاهر شادي بن الناصر داود وأخوه حسن، والأمجد عباس بن العادل وغيرهم[٤]. وحين وصول الخبر بمسيرهم نحو مصر، اضطربت دولة المماليك الناشئة، وتم القبض على جماعة من المماليك أُتهموا بالميل إلى الناصر يوسف، وشرع المعز أيبك في إعداد المماليك لمواجهة الخطر

---

(١) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٤ أ؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ٢٦؛ النويري: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٩٧ أ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٠؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦. ويقصد بمائتيّ قناع أي مائتيّ امرأة ـ انظر النجوم الزاهرة جـ ٧، حاشية رقم (٤).

(٣) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٣ أ.

(٤) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب جـ ٢ لوحة ٤٤٥؛ ابن حبيب درة الأسلاك في دولة الأتراك ورقة ٢ ب؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ٢٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٢؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٤؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٣.

الداهم، وصدرت الأوامر أيضاً بالإستعانة بعرب الصعيد[1].

ويفهم مما ذكره ابن أيبك أن الناصر يوسف مرض ثم عوفي[2]، الأمر الذي أبطأ في حركته إلى مصر، وأتاح فرصة للمماليك للإستعداد له. وقد حاول المعزل أيبك إفشال حملة الناصر يوسف ومن معه من ملوك الشام ببعض الإجراءات، فعمد إلى إطلاق سراح المنصور محمد وأخيه عبد الملك إبنيّ الصالح اسماعيل ـ وكانا معتقلين بالقاهرة منذ زمن الصالح أيوب ـ وخلع عليهما، وذلك كي يزرع بذور الشك والريبة في نفس الناصر يوسف إزاء والدهما اسماعيل[3]. كما أعلن المعز أيبك في القاهرة بانتظام الصلح بينه وبين المغيث عمر صاحب الكرك، حتى يوهم الناصر يوسف ويجعله يخشى على أملاكه ببلاد الشام من المغيث، فيحجم عن غزو مصر[4].

غير أن كل تلك المحاولات لم تنجح في النيل من عزم الناصر، إذ يبدو أنه أدرك المغزى من تلك الإجراءات التي اتخذها المعز أيبك فقرر المضي قدماً في حملته على مصر. وفي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة ٦٤٨هـ / ٢ فبراير ١٢٥١م التقى الناصر يوسف بقوات المماليك بالقرب من العباسة[5]، وتمكّنت قوات الناصر يوسف من إنزال الهزيمة بالمماليك، الذين فر أكثرهم نحو الصعيد، وتبعتهم القوات الشامية تطاردهم وتجمع الغنائم، في الوقت الذي بقي فيه الناصر يوسف ثابتاً في مكانه في جماعة من مماليكه منتظراً نتيجة المعركة غير أن بعض مماليكه الأتراك استجابوا لنداء رابطة الدم، إضافة إلى كراهيتهم لمدبر دولته شمس الدين لؤلؤ، فانضموا إلى المعز أيبك الذي تمكّن بمساعدتهم ومن

---

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.
(٢) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٨ ص ١٦.
(٣) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٤؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٣.
(٤) ابن واصل: تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨هـ؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٣.
(٥) العباسة: بليدة تقع على طريق القاصد مصر من الشام وبينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخاً عمرها السلطان الكامل وجعلها إحدى منتزهاته، انظر ياقوت معجم البلدان.

بقي معه من أتباعه من إنزال الهزيمة بالناصر يوسف الذي فر هارباً إلى الشام وقُتل مدبر دولته لؤلؤ الأميني، ووقع في الأسر الكثير من بني أيوب ومنهم الصالح اسماعيل وابنيّ صلاح الدين الكبير والأشرف موسى بن إبراهيم ابن شيركوه وغيرهم (١).

ومن العجيب أن عساكر الناصر يوسف الذين كانوا قد انتصروا في بداية الأمر، وصلوا إلى القاهرة واستبشر الناس بوصولهم، وخُطب للناصر يوسف يوم الجمعة ١١ ذي القعدة ٦٤٨هـ ببعض مساجد مصر، وهم لا يدرون أن الدائرة دارت على الناصر وجنده مما يدل على أن سكان مصر لم يقبلوا سيطرة المماليك باعتبارهم أرقاء، ثم وصل الخبر إلى القاهرة بانتصار المعز أيبك وفرار الناصر يوسف إلى الشام، فقررت عساكره الإنسحاب إلى الشام. وعاد المعز أيبك إلى القاهرة منصوراً وقد توطدت دعائم سلطته الجديدة(٢). وبعد فترة وجيزة من وصول المعز أيبك، قام المماليك بإعدام الصالح اسماعيل وبعض أنصار الأيوبيين الذين وقعوا في الأسر(٣).

وبعد المعركة توجه فارس الدين أقطاي الجمدار قائد المماليك البحرية على رأس ثلاثة آلاف فارس، ووصل إلى غزة، واستولى على الساحل ونابلس إلى نهر الأردن وذلك في مستهل سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م. فسارع الناصر يوسف

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٦ أ ب؛ ابن حبيب: درة الأسلاك في دولة الأتراك ورقة ٢ ب - ٣ أ؛ ابن خطيب الناصرية الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب جـ ٢ لوحة ٤٤٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ٣٥ ب - ٣٦ أ؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ٢٦ - ٢٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٠ - ٧٨١، اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥٦ - ٥٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٥؛ أبو الفدا: جـ ٣ ص ١٨٤ - ١٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦ - ٧.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٨ ص ١٧ - ١٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٦ - ٣٧٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧ - ١٠؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٤.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٨ ص ١٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٨.

فأرسل عسكره إلى غزة واستعادها وخيم بها. وحينما علم المعز أيبك بذلك خرج من القاهرة بجيشه وعسكر قرب العباسة، غير أنه لم تقع مواجهة حاسمة بين الطرفين وجمد الموقف بينهما مدة سنة وترددت بينهم الرسل للبحث عن حل للنزاع بين الطرفين[1].

ولم تكن الخلافة العباسية ـ رغم ظروفها الصعبة ـ غائبة عن مسرح هذه الحوادث، إذ بذلت جهدها لإصلاح ذات البين ففي سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م قدم مبعوث الخليفة العباسي محاولاً عقد الصلح بين الطرفين ولكنه أخفق في البداية بسبب إشتراط الناصر يوسف بأن تكون الخطبة والسكة بمصر له، فرفض المعز أيبك ذلك الشرط وقال المماليك البحرية: «نحن خلصنا مصر والشام بسيوفنا من الفرنج ولا صلح بيننا إلاّ أن يكون لنا من غزة إلى العقبة» ورفض الناصر يوسف شروط البحرية فدارت المناوشات بين الجانبين طيلة سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م[2].

وفي سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م تمكّن المماليك من إستمالة نائب المغيث عمر على قلعة الشوبك وتسلموها منه وبذلك لم يبق بيد المغيث سوى الكرك والبلقاء وبعض مناطق الغور[3]. ويبدو أن سيطرة المماليك على قلعة الشوبك الحصينة وذات الموقع الهام، جعل الناصر يوسف يتنازل عن تشدده، وقدم تنازلات هامة ووافق على الصلح الذي تضمن، أن يكون للمماليك مصر وغزة والقدس ونابلس والساحل، وللناصر يوسف بقية بلاد الشام وأن يطلق المعز أيبك بقية

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٨ ب؛ ابن حبيب: درة الأسلاك في دولة الأتراك، ورقة ٤ أ؛ بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٥ أ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٨٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٨ ص ١٩؛ ابن كثير: البداية جـ١٣ ص ١٨١؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٨١؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٤.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر جـ٨ ص ٢٢.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢١ ب؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٨ ص ٢٣؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٨٦.

الأسرى من أصحاب الناصر يوسف وتم توقيع الصلح بين الجانبين سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م وهكذا اعترف الناصر يوسف بقيام دولة المماليك بل وأقر سيطرتها على أجزاء هامة من بلاد الشام[١].

على أن السلام لم يدم طويلاً بين الناصر يوسف والمعز أيبك، ففي مصر ازداد نفوذ فارس الدين أقطاي الجمدار قائد المماليك البحرية، وشعر المعز أيبك بخطورته على نفوذه داخل مصر، فدبر المعز مؤامرة راح ضحيتها أقطاي الجمدار في شعبان ٦٥٢هـ / اكتوبر ١٢٥٤م، ونجم عن مقتله تفرّق أنصاره من المماليك البحرية، فذهبت طائفة منهم إلى الشام بزعامة بيبرس البندقداري، وراسلوا الناصر يوسف وطلبوا منه قبولهم في خدمته، فأجاب طلبهم وقدم لهم الأعطيات، وأقطع بيبرس جينين وزرعين[٢].

حاول بيبرس البندقداري وأصحابه من البحرية، حمل الناصر يوسف على غزو مصر، فسار معهم إلى الغور، وأرسل إلى غزة فرقة عسكرية، وتأهب المعز أيبك لمواجهته فخرج وعسكر بالعباسة في سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م[٣]. ومن الواضح أن الناصر يوسف لم يكن يهدف من إيواء البحرية، وقبولهم في خدمته

---

(١) ابن حبيب: درة الأسلاك ورقة ٦ أ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٩؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٢ - ٢٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٨٥ - ٣٨٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠؛ Lanepoole, A History of Egypt p. 259).

(٢) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٦ أ ب؛ النويري: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١١٦ أ؛ ابن أيبك كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٥؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٩٠؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٢٧٢؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٩١ - ٣٩٢؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٣٢ - ٤٣٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠ - ١٢؛ ابن أياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٩١ - ٢٩٢ - وزرعين: قرية تقع قرب مدينة الناصرة بفلسطين انظر: (Lestrange: Palestine Under the Moslems p. 441).

(٣) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٦ ب؛ ابن أيبك، كنزل الدرر جـ ٨ ص ٢٨ - ٢٩؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٩٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٩٣؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٣٣؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٥.

إلى غزو مصر من جديد، بعد أن تلقى درساً قاسياً في حملته السابقة، وإنما كان هدفه الضغط على المعز أيبك، لإنتزاع بعض التنازلات منه. ومما يبرهن على صحة هذا القول، أن الناصر يوسف قبل وساطة مبعوث الخليفة العباسي وتم توقيع الصلح بينه وبين المعز أيبك في سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م وحصل بموجب الصلح الجديد على تنازل المعز أيبك عن كل ما أعطته الإتفاقية السابقة من بلاد الشام إذ تضمن الصلح: أن يستبعد الناصر يوسف البحرية من خدمته، وأن يكون الشام جميعه له، ويكون الحد بين مملكته وبين دولة المماليك في مصر بئر القاضي الواقعة فيما بين الورّاده والعريش(١).

وحاول المماليك البحرية بعد هذا الصلح الإنتقام من الناصر يوسف واغتياله والإستيلاء على مملكته، غير أنه حينما شعر بخطورتهم طردهم من دمشق، فخرجوا غاضبين وساروا إلى القدس، واستولوا عليه سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م، ثم استولوا على غزة فأرسل الناصر يوسف في إثرهم جيشاً ولكنهم انتصروا عليه، فعاد وأرسل قوات كبيرة لمحاربتهم واستطاعت إنزال الهزيمة بهم عند البلقاء، فانسحبوا إلى ناحية الكرك حيث دخلوا في خدمة المغيث عمر صاحب الكرك(٢).

وشرع البحرية في تحريض المغيث عمر على غزو مصر، واستعادة ملك آبائه بها، زاعمين له أن أمراء الجند بمصر كاتبوهم، ووعدوهم بمد يد المساعدة لهم. وقد اقتنع المغيث بأقوالهم وطمع في الإستيلاء على مصر(٣). ويبدو أن مما

---

(١) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٧ أ؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٩٠ - ١٩١؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٢ - ١٣ - والورّادة: منزل في طريق مصر من الشام في وسط الرمل والماء والملح فيها سوق ومنازل ومسجد، وبرج للحمام الزاجل حيث ينقل إلى مصر تقارير بالوارد والصادر. انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٧ ب؛ اليونيني: ذيل مرآة للزمان جـ ١ ص ٤٩ - ٥١؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٩٢ - ١٩٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٤٤ - ٤٥؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٦.

(٣) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٧ ب؛ النويري: نهاية الإرب جـ٢٧ ورقة ١١٦ أ؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥١؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٩٣؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥

شجعه على قبول رأيهم ما وقع من الإضطراب في مصر بسبب مقتل المعز أيبك وشجر الدر[1]. فقد ظن المغيث أن بمقدوره إستغلال تلك الظروف واسترداد سلطان الأيوبيين على مصر، ولذلك استجاب لإغراءات البحرية، وأنفق فيهم الأموال، وبعث إليهم بفرقة من عسكره بقيادة مدبر دولته بدر الدين الصوابي، وسار الجميع إلى مصر. غير أن الأمير سيف الدين قطز أتابك الملك المنصور بن أيبك استطاع إنزال الهزيمة بهم في معركةٍ دارت قرب الصالحية في ذي القعدة ٦٥٥هـ / نوفمبر ١٢٥٧م كما وقع العديد من زعماء البحرية في الأسر وعلى رأسهم سيف الدين قلاوون الألفي وبلبان الرشيدي، أما زعيمهم بيبرس البندقداري وبدر الدين الصوابي فقد هربا إلى الكرك[2].

ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عضد ركن الدين بيبرس الذي يبدو أنه كان يريد السيطرة على مصر بصورة غير مباشرة عن طريق المغيث عمر، واستغلال إسمه ونسبه في الفوز بعرش دولة المماليك الناشئة. فقد استغل بيبرس مراسلة بعض أمراء العساكر المصرية في تحريض المغيث عمر على معاودة الهجوم مرة أخرى على مصر. كما انضم إلى المغيث وبيبرس بعض عساكر الناصر يوسف صاحب الشام، وشعر المغيث بازدياد قوته وطمع في الإستيلاء على مصر، وسار

ص ٤٢٠ - ٤٢١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٤٥؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٦.

(١) في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ / أبريل ١٢٥٧م ازدادت الوحشة بين شجر الدر وزوجها المعز أيبك بعد أن عزم أيبك على الزواج من إبنة صاحب الموصل، فدبرت شجر الدر مؤامرة راح ضحيتها المعز أيبك، ولكن مماليكه انتقموا له فقتلوها بعد ذلك مباشرة، وأقاموا إبن المعز أيبك ويدعى نور الدين علي سلطاناً ولقبوه بالملك المنصور، وعينوا سيف الدين قطز أتابكاً للملك الصغير. انظر أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٩٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٨ ص ٣٠ - ٣١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٧٣، ٣٧٦؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص ١١ - ١٤؛ ابن أياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٥.

(٢) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٧ ب - ٨ أ؛ النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ورقة ١١٦ أ؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥١ - ٥٢؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٩٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٤٥؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٦.

بنفسه في صحبة الظاهر بيبرس، وتقدما بالعساكر إلى غزة في سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م بقصد المضي إلى مصر[١].

وخرج عسكر مصر بزعامة سيف الدين قطز لصد الحملة الجديدة وهرب إلى بيبرس والمغيث العديد من أمراء المماليك الذين كاتبوهما، مما شجعهما على المضي قدماً في حملتهما على مصر، فتقدما إلى الصالحية والتقى الفريقان في ١٤ ربيع الآخر ٦٥٦هـ / ٢٠ مايو ١٢٥٨م حيث دارت بمعركة حامية، كاد يتحقق فيها النصر للمغيث وبيبرس، لولا إستبسال قطز وحماسته التي حالت دون تحقيق ذلك، وانتصر المماليك بزعامة قطز، وحلت الهزيمة الساحقة بالمغيث ووقعت أمواله وذخائره غنيمة في أيدي المماليك وأسر قطز الكثير من أتباع بيبرس فأمر بقتلهم. وهكذا فشلت آخر محاولة قام بها الأيوبيون لاسترداد مصر من أيدي المماليك[٢].

ظل بيبرس وأتباعه من البحرية يهددون النفوذ الأيوبي في بلاد الشام ويستنزفون قواهم وقوى الأيوبيين في معارك جانبية لا طائل من ورائها. فبعد فشل حملتهم الأخيرة على مصر، قصدوا غور الأردن حيث التقوا بطائفة من الأكراد يسمون الشهرزورية[٣]، هربوا من بلادهم أمام زحف المغول، وساروا إلى الشام، والتقى بهم بيبرس وتزوج منهم، ودخلوا معه في طاعة المغيث عمر صاحب الكرك [٤]. وخشي الناصر يوسف من ازدياد نفوذ البحرية بزعامة

---

(١) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٨ أ ب؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١١٦ أ؛ بيبرس: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة جـ ٩ تحقيق زبيدة محمد عطا «رسالة دكتوراه لم تطبع» ص ١٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٩٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٣) الشهرزورية، نسبة إلى شهرزور، وهي كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان، وأهلها أكراد اشتهروا بالبطش وشدة البأس، انظر ياقوت: معجم البلدان؛ القلقشندي صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٦٦.

(٤) النويري: نهاية الإب جـ ٢٧ ورقة ١١٦ أ ب؛ بيبرس، زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٣.

بيبرس وخطورتهم على نفوذه في بلاد الشام، وخصوصاً بعد انضمام الشهرزورية إليهم، فأرسل فرقة لمحاربتهم سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م ولكنهم أنزلوا الهزيمة بفرقته عند غور الأردن، فعاد وأرسل إليهم جيشاً كبيراً بقيادة اثنين من كبار أمرائه بيد أن البحرية تمكنوا مرة أخرى من الإيقاع بعسكر الناصر يوسف وانتصروا عليه قرب غزة وأسروا قائديه [١].

وبعد هذين الإنتصارين أقنع البحرية المغيث عمر بمحاربة الناصر يوسف، وأغروه بسهولة الإستيلاء على دمشق وتوحيد بلاد الشام تحت لوائه. وقد استجاب المغيث إلى ذلك وصمم على إنتزاع دمشق من الناصر يوسف، وبخاصة بعد هزيمة جيشه مرتين على أيدي البحرية. ولم يجد الناصر يوسف بداً من مواجهة خطر المغيث والبحرية، فخرج بجيوشه من دمشق والتقى بالمغيث وحلفائه من البحرية والشهرزورية وأنزل بهم الهزيمة قرب أريحا في غور الأردن وهرب المغيث إلى الكرك واعتصم بها، وسار الناصر يوسف نحو القدس ونظر في أحواله، وعاد إلى دمشق في سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م[٢].

وعلى الرغم من انتصار الناصر يوسف على المغيث وحلفائه من البحرية، فإن غارات البحرية تواصلت على أعمال دمشق نفسها الأمر الذي جعل الناصر يوسف يقرر ملاحقتهم واستئصال شأفتهم، واستعان في ذلك بالمنصور صاحب حماه، وخرج من دمشق في أوائل سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م وطارد المماليك البحرية بزعامة بيبرس حتى لجأوا إلى الكرك، وسار الناصر يوسف في أثرهم إلى قرب الكرك، وعسكر أمامها قرابة ستة أشهر، وأظهر تصميمه على القضاء على البحرية، ودارت المفاوضات بينه وبين المغيث صاحب الكرك، وطالب الناصر

---

(١) ابن واصل: تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٥٦هـ، بيبرس: زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٣ - ١٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٩١ - ٩٢؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٩٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤٦؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤٣٢.

(٢) ابن واصل: تاريخ الواصلين مخطوط حوادث سنة ٦٥٦هـ، بيبرس زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤١١ - ٤١٤.

يوسف المغيث بتسليم البحرية إليه، وهدده إن لم يجب طلبه[1]، وحين شعر ركن الدين بيبرس بتخاذل المغيث، بادر بمراسلة الناصر يوسف، وطلب الأمان له ولعشرين من أصحابه وأن يقطعه نابلس وجينين وزرعين، فأجابه الناصر إلى طلبه، ولم يقطعه إلاّ نابلس فقط، ونزل بيبرس من الكرك وانضم إلى الناصر يوسف في رجب ٦٥٧هـ / يوليه ١٢٥٩م، أما بقية المماليك البحرية فقد أرسلهم المغيث مكبلين إلى الناصر يوسف الذي سجنهم في قلعة حلب، أما الشهرزورية فقد غادروا بلاد الشام إلى مصر[2]. وأخذ بيبرس من جديد في تحريض الناصر يوسف على غزو مصر مرة أخرى، ولكن الناصر يوسف رفض تحريضه، فطلب بيبرس أن يوليه على أربعة آلاف فارس ليتوجه بها إلى شط الفرات ليمنع المغول من العبور إلى بلاد الشام، فلم يجب الناصر طلبه، وعندئذ راسل بيبرس الملك سيف الدين قطز واستحلفه لنفسه وغادر بلاد الشام إلى مصر[3].

وقد جرت كل هذه الحوادث في الوقت الذي اجتاح فيه المغول بغداد، وشرعوا في زحفهم على الجزيرة وبلاد الشام. ولا شك أن هذه الحروب التي دارت رحاها بين الأيوبيين أنفسهم، ثم بينهم وبين دولة المماليك في مصر، ودخول البحرية في علاقات متشابكة مع الناصر يوسف، والمغيث عمر. كل هذه الحوادث صرفت إنتباه هذه القوى الإسلامية عن مجابهة بقايا الصليبيين في بلاد الشام. كما استنزفت الكثير من الطاقات المادية والبشرية التي كان يمكن إدخارها لمواجهة زحف المغول على بلاد الشام. أ. هـ.

(١) ابن واصل: تاريخ الواصلين مخطوط حوادث سنة ٦٥٧ هـ؛ بيبرس التحفة الملوكية ورقة ١ ب؛ النويري: نهاية الإرب جـ ٢٧ ورقة ١١٧ أ ب؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٨، أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٩٨.

(٢) ابن واصل: المصدر السابق مخطوط حوادث ٦٥٧هـ؛ بيبرس: زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٩٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠٠ ـ ١٠١.

الفصل الثالث

موقف ملوك بني أيوب من الصليبيين

في بلاد الشام

٥٨٩ - ٦٥٦ هـ / ١١٩٣ - ١٢٥٨ م

الفصل الثالث

موقف ملوك بني أيوب من الصليبيين في بلاد الشام
٥٨٩ ـ ٦٥٦ هـ / ١١٩٣ ـ ١٢٥٨ م

١ ـ الموقف في بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل ٥٨٩ ـ ٦١٤هـ.

٢ ـ أثر الحملة الصليبية الخامسة في تاريخ بلاد الشام ٦١٤ ـ ٦١٨هـ.

٣ ـ خلفاء السلطان العادل موقفهم من الصليبيين ٦١٨ ـ ٦٤٠هـ.

٤ ـ الصالح أيوب واسترداد بيت المقدس ومعركة غزة ونتائجها ٦٤١ ـ ٦٤٦هـ.

٥ ـ الموقف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام عشية الغزو المغولي ٦٤٦ ـ ٦٥٦هـ.

الموقف في بلاد الشام
بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل

قام السلطان صلاح الدين كما هو معروف بجهد كبير في جهاد الصليبيين، واستعاد منهم بالقوة أجزاء واسعة من بلاد الشام، كانوا قد اغتصبوها منذ بداية الحروب الصليبية. وكان يهدف في نهاية المطاف إلى إقتلاع جذور الوجود الصليبي بكامله. ولم يقدر للعمل العظيم الذي بدأه صلاح الدين وقطع فيه شوطاً بعيداً أن يستمر بعد وفاته. ولم يحرز الأيوبيون بعده من النجاح ما يمكن مقارنته بما فعله صلاح الدين، مع أن الدولة الأيوبية دامت بعده أكثر من نصف قرن إلّا أنها لم تستطع الإرتقاء بفريضة الجهاد إلى المستوى الذي وصلت إليه زمن صلاح الدين. بمعنى أن الدولة الأيوبية تحولت من موقف الهجوم واسترداد البلاد المغتصبة إلى موقف الدفاع عما بقي في حوزتها من ممتلكات إزاء الصليبيين كما سنرى في هذا الفصل. وكان ذلك في الواقع هو السبب الرئيس الذي أدى إلى سقوطها حيث فقدت مبرر وجودها الشرعي بعد أن أخفقت في حمل راية الجهاد مثلما كانت عليه زمن صلاح الدين.

غير أن ذلك لا يعني أن جهاد المسلمين ضد الصليبيين توقف نهائياً بعد صلاح الدين كما لا يعني أيضاً توقف الأعمال العدائية والحملات المتكررة التي قام بها الصليبيون ضد بلاد المسلمين في بلاد الشام وغيرها.

فالأمر الذي لا شك فيه أن حرب الوراثة التي اندلعت بين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ / ١١٩٣م أضعفت موقف المسلمين إزاء الصليبيين

حتى أن العزيز عثمان صاحب مصر جدد الصلح معهم سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م[١]، كما فقد أخوه الأفضل لحساب الصليبيين حصناً هاماً في السنة نفسها وهو حصن جبيل، إذ قامت حاميته الكردية ببيعه للصليبيين بستة آلاف دينار وغادرته، وفشل الأفضل في محاولة إسترداده منهم[٢].

والحقيقة أن وفاة صلاح الدين وحدوث الإنقسام والمنازعات بعده بين أفراد الأسرة الأيوبية شجع القوى الصليبية في أوروبا على القيام بحملة صليبية جديدة تزعم الدعوة إليها هنري السادس (Henry VI)إمبراطور ألمانيا (١١٩٠ - ١١٩٧م / ٥٨٦ - ٥٩٣هـ) الذي كان يتطلع إلى إخضاع الدولة البيزنطية والأراضي المقدسة في بلاد الشام لنفوذه. وبدأت جموع الصليبيين الألمان تتوافد على بلاد الشام للإستيلاء على بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة[٣].

ويبدو أن قدوم تلك الأفواج الجديدة من الصليبيين الألمان جعلت عز الدين أسامة والي مدينة بيروت يحاول عرقلة وصولهم إلى عكا قاعدة الصليبيين الرئيسة، فشرع في إرسال السفن الحربية المحملة بالمجاهدين المسلمين للإغارة على سفن الصليبيين وقطع الطريق عليهم وذلك سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٦م، وقد كان لهذه الغارات أثرها على الصليبيين فشكوا إلى العادل والعزيز أعمال أسامة التي اعتبروها خرقاً للهدنة القائمة بين الجانبين. فلم يمنعا أسامة من ذلك لأنه كان يقوم بعمل مشروع وهو الحيلولة دون إزدياد قوة الصليبيين في عكا ومن ثمة مهاجمة بلاد المسلمين[٤].

---

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٢٩.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٩٦ - ٩٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٦؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٠٣.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٧٩ - ٨٨٠؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٦٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٢٦؛ فايد عاشور: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي ص ٢٦٢.

أرسل الصليبيون بالشام إلى أوروبا يطلبون النجدة لحرب المسلمين، ويخوِّفون النصارى في أوروبا من إستيلاء المسلمين على ما تبقّى بأيديهم من بلاد الشام «فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكانْ أكثرهم ملك الألمان»[1] إذ بادر هنري السادس ملك ألمانيا إلى إرسال حملة عاجلة إلى بلاد الشام. ووصلت تلك القوات إلى عكا وشرعت في شن الغارات على بلاد المسلمين[2]، وبلغت الجرأة بالصليبيين الجدد إلى حد الإغارة على أطراف بلاد القدس وهاجموا المسلمين فيه «فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة، ورجعوا بغنائم كثيرة»[3].

ولم يجد العادل مفراً من التصدي للعدوان الجديد فبعث إلى ملوك بني أيوب بالجزيرة وبلاد الشام ومصر يحثهم على إرسال الجيوش لجهاد الفرنج، فقدمت إليه العساكر واجتمعت الجيوش الإسلامية في عين جالوت وتقدموا إلى مروج عكا حيث أوقعوا بالصليبيين الألمان ومن معهم من أتباع هنري دي شامبني (Henry du Champagne) ملك الصليبيين بالشام (١١٩٢ ـ ١١٩٧م / ٥٨٨ ـ ٥٩٤هـ). وانتصر المسلمون وأسروا جماعة من الصليبيين وعادوا بغنائم وفيرة [4].

وقد نتج عن تلك الهزيمة التي مني بها الصليبيون، أن أرسل هنري دي شامبني إلى هنري السادس يحثّه على القدوم إلى الشام، ويحرضه على الإنتقام من المسلمين، ولاسيما وأن والده فردريك بربروسا دفن في صور أثناء قيامه بحملته على بلاد الشام. وفي ذلك يذكر أبو شامة نقلاً عن العماد الكاتب أن الفرنج قالوا في رسالتهم لهنري السادس: «إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج وكأنه في الأسر منتظر الإفراج، فإنه لا يقبر إلاّ بالبيت المقدس إذا

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٢٧.

(٢) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٦٩ ـ ١٧١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣ ص ٧٤.

(٤) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٤٠ أ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٧٤؛ أبو شامة: الروضتين جـ ٢ ص ٢٣٣؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٨٢.

استخلص والآن ما كان غلا ثمنه استرخص فإن المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض وهو عن كل سنة وفرض»[١].

أما بالنسبة للجانب الإسلامي فقد تقدم العادل بقواته إلى يافا واستولى عليها وعلى قلعتها في شوال ٥٩٣هـ / سبتمبر ١١٩٧م وأخذ المسلمون من يافا آلاف الأسرى من الصليبيين وغنموا كميات كبيرة من الأموال والمؤن والعدة[٢]. وحاول العزيز عثمان صاحب مصر من جانبه عرقلة الإمدادات الصليبية القادمة إلى الشام فأرسل من أسطول مصر أربعة غربان[٣]، وقصدوا الطريق البحري المؤدي إلى عكا حيث تمكّنت غربان المسلمين من أخذ عدة بطس[٤] صليبية برجالها ومؤنها، وأحرقوا أخرى فغرقت وبها خمسون صندوقاً من الذهب والفضة كان قد جمعها الفرنج من أوروبا لدعم حملتهم الصليبية، وعاد رجال البحرية الإسلامية بغنائمهم إلى مصر «وكان لوصولهم يوم عظيم وفتح جسيم»[٥].

ولم يتمكّن الصليبيون في عكا من تقديم المساعدة ليافا، بسبب موت الملك هنري دي شامبني المفاجىء، مما جعل عرش مملكة الصليبيين بالشام

(١) أبو شامة: الروضتين جـ ٢ ص ٢٣٣.

(٢) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٤٠ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٢٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٤٠.

(٣) الغربان: مفردها غراب، وهي نوع من المراكب أخذه العرب عن القرطاجنيين والرومان وغيرهم من أمم البحر المتوسط، وقد سمى بهذا الإسم لأن مقدمته تشبه رأس الغراب، ومن خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على سفن العدو فيقتحمها الرجال ويقاتلون عدوهم بالأسلحة البرية، انظر: سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٤) البطس: مفردها بطسة، وهي نوع من مراكب البحر الكبيرة، وقد يصل عدد الشرع في البطسة الواحدة إلى أربعين شراعاً. وقد لعب هذا النوع دوراً هاماً في الحروب الصليبية. إذ كانت البطس أشهر سفن الصليبيين، فشحنوها بالمجانيق والمقاتلة، والأسلحة، والذخيرة، وسائر آلات الحرب والحصار. كما شحنوها بالأقوات والميرة، وتصل حمولة البطسة إلى بضع مئات من الرجال بأسلحتهم. ولها طبقات متعددة: انظر سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٥) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٤٠ ب ـ ١٤١ أ.

شاغراً. وبحث الصليبيون عن زعيم ليتزوج بإيزابيل (Isabella) أرملة هنري دي شامبني، لكي يقوم بالدفاع عن كيانهم الدخيل ضد المسلمين، ووقع إختيارهم على عموري لوزجنان (Amaury Lusignan). ملك قبرص[١] (٥٩٤ - ٦٠٢هـ / ١١٩٧ - ١٢٠٥م) «وكان رجلاً عاقلاً يحب السلامة والعافية» على حد قول ابن الأثير[٢].

ولكن على الرغم من ميل عموري لوزجنان للسلامة إلّا أنه أراد - فيما يبدو - أن يبرهن على جدارته بحكم الصليبيين في بلاد الشام، ففكر في الهجوم على بيروت لتعويضهم عن سقوط يافا بيد المسلمين. وكانت بيروت قاعدة عسكرية هامة طالما شن منها المجاهدون المسلمون الغارات على مراكب الصليبيين في البحر، ولم يكن إحتمال مهاجمة الصليبيين بيروت بعيداً عن ذهن العادل، ولذلك أمر بتخريب ربضها حتى لا يفيد منه الصليبيون، ولما أراد تدمير المدينة رفض عز الدين أسامة صاحبها وتعهد بالدفاع عنها، وتقدّم الصليبيون شمالاً وجرت بينهم وبين المسلمين مناوشة قرب صيدا ثم تقدموا نحو بيروت، فأدرك صاحبها عز الدين أسامة عجزه عن المقاومة. فانسحب منها، واستولى الصليبيون عليها دون قتال في ذي الحجة ٥٩٣هـ / اكتوبر ١١٩٧م[٣]، ولم يسع الرعايا المسلمين حول بيروت سوى الإذعان للفرنج وتقديم الأتاوة لهم. أما عز الدين أسامة فبقي بيده الأقليم الجبلي التابع لبيروت[٤].

وأغرى سقوط بيروت الصليبيين بتوسيع عدوانهم على بعض الموانىء التابعة للمسلمين فقرروا المضي إلى جبلة واللاذقية للإستيلاء عليهما، غير أن

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٢٨؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٨٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٢٨.
(٣) العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢١١؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٠٨؛ السيوطي: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ورقة ١٢٢ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٢٧؛ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢١ - ٢٢؛ الحريري: الأعلام والتبيين ص ٨٨.
(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٢.

العادل أرسل إلى ابن أخيه الظاهر صاحب حلب أواخر سنة ٥٩٣ هـ/ ١١٩٧ م يحذّره فاستعد الظاهر وحشد جيشاً من التركمان وهدم حصنيّ جبلة واللاذقية وأجلى سكانها، واحتشد العسكر الإسلامي في جبلة واللاذقية منتظراً قدوم الصليبيين وجاء البرنس بوهيمند الثالث (Bohemond)أمير إنطاكية (٥٦٠ ـ ٥٩٩هـ / ١١٦٣ ـ ١٢٠١م) إلى ساحل اللاذقية ، وأرسل إلى قائدي الظاهر واجتمع بهما وأشار عليهما بعدم تدمير اللاذقية وعندئذ سار الظاهر إلى اللاذقية في أوائل سنة ٥٩٤هـ / أواخر ١١٩٧م وأمر بعمارة ما تهدم من تحصينات المدينة وعاد إلى حلب(١). ويبدو أن بوهيمند الثالث لم يشأ الإعتداء على اللاذقية، وذلك لأنه أدرك عدم قدرته على مجاهرة مملكة حلب بالعداء ولاسيما وأنها تجاور إمارته في إنطاكية، الأمر الذي سيهدد إمارته بالخطر إذا ما أخفقت الحملة الألمانية على فلسطين وجنوب الشام.

أما الملك العادل فقد رد على إستيلاء الصليبيين على بيروت فأرسل بعض العساكر للإغارة على صور الخاضعة للصليبيين، فقطعوا أشجارها ودمروا قراها وأبراجها. وحينما علم الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت إلى صور للدفاع عنها ضد المسلمين(٢).

ولما كان العادل يعتقد أن الصليبيين سيكتفون ببيروت عوضاً عن يافا، وأنهم لن يتقدموا إلى غيرها، فقد سمح للعساكر الشرقية ـ التي قدمت إليه من إقليم الجزيرة ـ بالعودة إلى بلادهم(١). ولكنه كان مخطئاً في حدسه إذ سرعان ما تقدّم الصليبيون في منتصف المحرم ٥٩٤هـ / نوفمبر ١١٩٧م إلى حصن تبنين(٤) وضربوا الحصار حوله ، فأرسل العادل على عجل إلى العزيز عثمان يحثه

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢١٦ ب؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٢٧ ؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٨٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٢٨.

(٤) يقع حصن تبنين في جبل بني عامر بين صور ودمشق. انظر : يا قوت: معجم البلدان.

على الخروج بعساكر مصر ولاسيما وأن العادل أضحى في قلة من العساكر بعد رحيل عساكر الشرق، فخرج العزيز من مصر مسرعاً إلى الشام، بينما رابط العادل قريباً من تبنين. وقد صمدت حامية تبنين في وجه الحصار حتى وصل العزيز في ربيع الأول ٥٩٤هـ / يناير ١١٩٨م وحينما شاهد الصليبيون اجتماع عساكر مصر والشام خافوا، ووصل في الوقت نفسه عموري لوزجنان من قبرص فآثر السلامة وبخاصة وقد حل فصل الشتاء فاشتد البرد وهطلت الثلوج والأمطار إضافة إلى وفاة ملك الألمان هنري السادس في الغرب، فانسحب الصليبيون إلى صور وتعقبهم المسلمون يلتقطون من ظفروا به منهم، وغنموا شيئاً كثيراً من عسكرهم. وأمر العزيز بنقل المؤن والذخائر إلى تبنين وإصلاح ما تهدم من أسوارها، وأبقى معظم عساكر مصر عند عمه العادل، وعاد هو إلى مصر تاركاً لعمه تقدير أمر الحرب أو الصلح مع الصليبيين[1].

وقد واصل العادل شن الغارات على الصليبيين مرة بعد أخرى حتى أجبرهم على طلب الصلح، كيما يتفرغ لحل المشكلات داخل الدولة الأيوبية. وفعلاً تم عقد الصلح بين الجانبين في شعبان ٥٩٤هـ / يوليه ١١٩٨م وتضمن الصلح إحتفاظ العادل بيافا مقابل أن يحتفظ الصليبيون ببيروت، على أن تصبح صيدا مناصفة بين الطرفين ومدة الصلح ثلاث سنوات[2].

---

(١) ابن قاضي شهبة: الاعلام بتاريخ أهل الإسلام مخطوط حوادث سنة ٥٩٤؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٢٨ - ١٢٩؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٤٥٥ - ٤٥٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٧٥ - ٧٦؛ أبو شامة: الروضتين جـ ٢ ص ٢٣٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٤ قسم ٢ ص ١٣٥ - ١٣٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٦٩؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٠٤؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٠٤ - ٢٠٥؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٨٤ - ٨٨٥.

(٢) ابن قاضي شهبة: الأعلام بتاريخ أهل الإسلام حوادث ٥٩٤هـ؛ العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٢١٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٧٨؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٤ قسم ١٢ ص ١٣٩؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ٩٣ - ٩٤؛ المقريزي جـ: السلوك جـ ١ ص ١٤١ - وقد ذكر الدكتور سعيد عاشور أن بعض المراجع الصليبية حدد ت مدة الهدنة بخمس سنوات وثلاث أشهر، انظر الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٨٦ حاشية رقم (١) غير أننا وجدنا بعض المصادر العربية حددتها بأكثر من خمس سنوات ووافقت بذلك المراجع التي أشار إليها الأستاذ

وبعد مضي زهاء خمس سنوات على توقيع الهدنة استأنف الصليبيون الأعمال العدائية ضد المسلمين، فقد ذكر ابن العديم أن جموعاً من الفرنج خرجت من البحر واجتازوا باللاذقية عن طريق البر، وكان هدفهم البحث عن أي نقطة ضعف في تحصينات اللاذقية للإنقضاض عليها، ولكن خططهم فشلت عندما خرج إليهم سيف الدين ابن علم الدين والي اللاذقية واشتبك معهم وهزمهم وقتل منهم عدداً كبيراً وأسر آخرين وضمنهم بعض زعمائهم وأرسل الأسرى والغنائم إلى حلب(١).

وترامت إلى مسامع المسلمين أيضاً أنباء تفيد بوصول بعض جموع الفرنج إلى عكا واجتماعهم بها وأن حشوداً أخرى بدأت تتجمع في جزيرة صقلية لقصد مصر، وإزاء ذلك أرسل الظاهر صاحب حلب إلى عمه العادل خمسمائة فارس ومائة راجل من الحلبيين ليرسلهم إلى مصر للمساعدة في صد العدوان المتوقع(٢). غير أن سوء الأحوال الإقتصادية بعكا وانتشار الغلاء بها وندرة المؤن والأقوات أجبرت القادمين الجدد من الصليبيين على العودة إلى أوروبا(٣).

وعلى الرغم من إخفاق تلك التحركات التي قام بها الصليبيون، فإن المنصور صاحب حماه بادر بالخروج إلى بارين لمراقبة تحركاتهم، وأرسل إلى العادل يطلب المدد، فأمر الأخير الأمجد صاحب بعلبك والمجاهد شيركوه صاحب حمص بتقديم العون للمنصور وحينما اكتملت النجدات لديه تقدم لقتال الصليبيين

عاشور، فأبو شامة ذكر أن مدتها خمس سنوات وثمانية أشهر. انظر ذيل الروضتين ص ١٣، بينما ذكر الحريري أن مدة الهدنة خمس سنين ونصف. انظر الحريري: الأعلام والتبيين ص ٨٨، ٨٩ ونحن نرجح رأي الحريري وأبي شامة وسعيد عاشور بتقدير الهدنة بأكثر من خمس سنوات بدليل أنه لم تقع إشتباكات بين المسلمين والصليبيين إلّا بعد مضي أكثر من خمس سنوات.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٥؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٦٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٠؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٨؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٦٠.

الذين كانوا قد تجمعوا من حصن الأكراد[1] وطرابلس والحصون التي حولها والتقى بهم في ثالث رمضان ٥٩٩هـ / يونيه ١٢٠٣م وهزمهم وأسر من قادتهم وفرسانهم جماعة «وبعث بهم إلى حماه فدخلوها راكبين خيولهم، لابسين عددهم وبأيديهم رماحهم وكان يوماً مشهوداً»[2].

وأرسل الداوية[3] بعد المعركة مباشرة إلى المنصور صاحب حماه رسولاً ليخبره بوصول الفرنج إلى عكا في ستين الف فارس وإنهم سوف يقصدون جبلة واللاذقية وأن مقدم الأسبتارية[4] ومقدم الداوية والملك عموري لوزجنان سوف يمضون إلى ملك الأرمن ليصلحوا بينه وبين صاحب انطاكية ثم يتحد الجميع

(١) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب وهو بين حمص وبعلبك، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٢٧٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٥؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥.

(٣) الداوية: وهي طائفة فرسان الهيكل (Templers) وتختلف عن الأسبتارية في كونها نشأت أصلاً على أساس حربي منذ سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م، واتخذت هذه المنظمة العسكرية من ساحة المسجد الأقصى مقراً لها، وتعهد أتباعها بحماية الطريق بين يافا وبيت المقدس، ثم أسهم فرسان الداوية في جميع الأعمال العدائية التي قام بها الصليبيون في بلاد الشام وأضحت الداوية تابعة للبابوية مباشرة شأنها في ذلك شأن الأسبتارية وشكلت مع الأسبتارية أقوى دعامتين للوجود الصليبي في بلاد الشام ـ انظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ١ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٩، رنسيمان: الحروب الصليبية جـ٢ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠، ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٧٧ حاشية رقم (٥)، الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٣٥٩.

(٤) الأسبتارية (Hospitallers) طائفة من الفرسان الصليبيين نشأت منذ فجر الحروب الصليبية وبدأت أول الأمر على هيئة جمعية هدفها العناية بمرضى الصليبيين وإيواء الحجاج ورعايتهم، وطبقت مبادىء الديرية البندكتية في فلسطين ولم تلبث أن تخلت عن تبعيتها للبندكتية وانتمت للبابوية مباشرة، ثم تطورت واكتسبت صفة حربية فأصبح أعضاؤها يرتدون زي الرهبان ويقاتلون من على ظهور الخيل كالفرسان تماماً، ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين واشترك أفرادها في العدوان على المسلمين منذ سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م وكانت مع طائفة الداوية من الدعائم الأساسية التي أسهمت في حماية كيان الصليبيين طوال أكثر من قرن من الزمان، وقد سيطر الأسبتارية على العديد من القلاع الحصينة في بلاد الشام مثل حصن الأكراد، وقلعة المرقب وغيرها ـ انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ١ ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧؛ الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ٢ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٩؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٣.

على قتال المسلمين. ولم تكن هذه الأنباء التي حملها مندوب الداوية سوى محاولة لتخويف الملك المنصور لإجباره على توقيع الصلح مع الأسبتارية، بعد أن أنزل بهم الهزيمة السابقة في ثالث رمضان ٥٩٩هـ / يونيه ١٢٠٣م، فقد طلب الأسبتارية من الداوية التوسط لدى المنصور. وهكذا حاول الداوية تخويف المنصور بحمل هذه الأنباء الكاذبة غير أن المنصور أبدى شجاعة ورباطة جأش في جوابه لمبعوث الداوية وقال له: «بأنا لا نجزع بما تقول ولا نكترث ولو أنهم أضعاف ذلك لناجزتهم. . . ولا سبيل إلى مصالحة الأسبتار بوجه «وعندما ادرك مبعوث الداوية إصرار المنصور على عدم مصالحة الأسبتارية تضرع إليه معتذراً عن قوله الأول وتوسل إليه إبقاء الصلح بينه وبين الداوية فأجابه المنصور إلى طلبه «فسُرّ الرسول بذلك وقام وكشف رأسه وقبل يده»[1].

وحينما علم الأسبتارية برفض المنصور مصالحتهم بادروا بالعدوان فاجتمعوا من حصن الأكراد والمرقب ومن وصل إليهم من الغرب، وأغاروا على بارين، فتقدّم إليهم المنصور وأنزل بهم هزيمة ساحقة «وقتل منهم مقتلة عظيمة» وأسر منهم جماعة وذلك في أواخر رمضان ٥٩٩هـ/ يونيه ١٢٠٣م وعاد المنصور إلى حماه ومدحه الشعراء بهذه المناسبة[2].

وبعد إنتصار المنصور على الأسبتارية أرسل إلى السلطان العادل يخبره برغبتهم في الصلح، ويطلب أوامره في ذلك الأمر فرد عليه العادل برسالة أوضح له فيها أنه لديه من التقارير ما يؤكد ضعف موقف الصليبيين جميعاً في بلاد الشام. وترك العادل للمنصور الحرية في عقد الصلح مع الأسبتارية إذا كان في

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص١٤٥ - ١٤٧؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص١٤٨ - ١٤٩؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم٢ ص٢٥٦ - ٢٥٧؛ وانظر أيضاً: العيني: عقد الجمان جـ١٣ مخطوط لوحة ٢٧٨ - ٢٧٩؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٠٩ ب؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص١٠٣.

ذلك مصلحة للمسلمين[1]. ودارت المراسلات بين المنصور والأسبتارية وتم عقد هدنة بين الجانبين في أوائل سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م[2].

ويجب أن نشير هنا إلى الحملة الصليبية الرابعة التي دعي إليها البابا انوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ ـ ١٢١٦م) وكان هدفها الإتجاه إلى مصر غير أنها انحرفت عن هدفها واستولت على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م وأقام بها الصليبيون إمبراطورية لاتينية ظلت قائمة حتى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م[3].

ومن المعروف أن الدولة البيزنطية دأبت منذ فجر الحركة الصليبية على وضع العراقيل أمام الصليبيين بسبب النفور المستحكم بين الكنيستين الشرقية والغربية[4]، غير أن إستيلاء الصليبيين على القسطنطينية وإقامة إمبراطورية لاتينية بها منح جموع الصليبيين القادمين من أوروبا ميزة فريدة حيث وفر لهم قاعدة متقدمة يستطيعون الحصول على مساعدتها ودعمها في حملاتهم على بلاد الشام، ونتج عن ذلك تغيير ميزان القوى لصالح الصليبيين. وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ ابن الأثير فذكر أنه في سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م «خرج جمع كثير من الفرنج في البحر إلى الشام وسهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية وأرسوا بعكا وعزموا على قصد بيت المقدس»[5].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٢ ـ ١٥٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٦٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٤؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٥.

(٣) عن الحملة الصليبية الرابعة والإستيلاء على القسطنطينة وإقامة إمبراطورية لاتينية بها انظر تفصل هذا الموضوع في: (The Cambridge Medieval History Vol. IV (The Byzantine - Empire) pp. 275 - 330). وانظر أيضاً كتاب: اسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية إنحرافها ضد القسطنطينية.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٨٩٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٩٤.

وبعد أن أخذوا قسطاً من الراحة بعكا خرجوا إلى نواحي الأردن وأغاروا على بلاد المسلمين وفتكوا بهم، وكان السلطان العادل بدمشق فأرسل على عجل يستدعي العساكر من بلاد الشام ومصر، وسار بنفسه إلى الطور لمنع الصليبيين من المضي قدماً في غاراتهم على بلاد الشام، ولكنهم أغاروا على كفركنا بمرج عكا وأخذوا كل من كان بها من المسلمين ونهبوا أموالهم. وحث أمراء الجيش السلطان العادل على مهاجمة الأراضي الخاضعة لهم إلّا أنه تردد في إجابة رغبة قادته، وأخيراً جرت المراسلة بينه وبين الفرنج وعقد الصلح بين الجانبين في سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٥م وتنازل لهم العادل عن جميع المناصفات التي كانت للمسلمين في صيدا والرملة وصفد كما أعطاهم الناصرة وغيرها وسار عائداً نحو الديار المصرية[١].

وهنا يتبادر إلى الذهن تساؤل هو، لماذا تلكأ العادل في الانتقام من الصليبيين رغم إلحاح قادته بالإغارة عليهم؟ ولماذا قدّم لهم تلك التنازلات في الصلح الذي عقده معهم؟ من الواضح أن السلطان العادل كان على علم تام باستيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية وأدرك أن ذلك منح الصليبيين ميزة عسكرية هامة وأعطاهم قاعدة متقدمة يستطيعون بمساعدتها الاستمرار في حملاتهم على بلاد الشام، ويبدو أن العادل توقع قدوم حملة جديدة كبيرة، لذلك آثر عدم استنفاد قواه في معارك صغيرة مع الصليبيين في بلاد الشام إضافة إلى إيثاره عدم استثارة البابوية والصليبيين في الغرب الأوروبي، لأنه تعلّم من التجارب السابقة مع الصليبيين أن كل هزيمة يوقعها المسلمون بالصليبيين يترتب عليها ردة فعل عنيفة لدى الغرب الأوروبي ويتمثل رد الفعل ذلك في تجريد حملة جديدة إلى بلاد الشام. ويبدو أن كل هذه الاعتبارات هي التي حملت السلطان

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٥٣ ب؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٨ أ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٩٤ - ١٩٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٩، ١٦٢؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص١٣، ٢٠ - ٢١؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩٤؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص١٦٣ - ١٦٤.

العادل على عدم مهاجمة الصليبيين بالشام بل وتقديم التنازلات لهم لتوقيع الصلح معهم[1].

ومن الواضح أن الصلح الذي عقده العادل مع الصليبيين كان قاصراً على مملكة بيت المقدس الصليبية، ولم يلتزم فرسان الاسبتارية في حصن الأكراد وغيره بالهدنة التي عقدها العادل مع الصليبيين. ومما يبرهن على صحة هذا القول إن الاسبتارية أغاروا في سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٥م على حماه لأن الهدنة التي كانت بينهم وبين مملكة حماه انتهت، وانضم إلى الاسبتارية في هذه الغارة بعض الصليبيين الآخرين، ووصلوا إلى قرب مدينة حماه نفسها وقتلوا أعداداً من المسلمين العزل وسبوا النساء الغسالات من على ضفة نهر العاصي وعادوا إلى حصونهم محملين بالغنائم، ولم يستطع المنصور صاحب حماه عمل شيء إزاء هذه الغارة سوى طلب النجدة من المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق الذي أرسل إليه عسكراً لمساعدته ولكنه لم يشتبك مع الصليبيين بعد أن دارت المفاوضات بين المنصور والفرنج وعقد الجانبان هدنة بينهما لمدة معينة[2].

ولكن الصليبيين نظروا إلى هذه الهدنة على أنها بينهم وبين مملكة حماه فقط ولذلك أغاروا في السنة نفسها على أراضي حمص وقتلوا وأسروا من أهل حمص جماعة، فتصدى لهم المجاهد صاحب حمص وردهم على أعقابهم[3]. ولم يكتف المجاهد بذلك بل شنّ الغارة على أعمال حصن الأكراد التابع للإسبتارية وغنم أعداداً هائلة من الأغنام والماشية[4].

ولم تتوقف المناوشات بين المسلمين والصليبيين طيلة سنة ٦٠١ هـ/

---

(١) انظر أيضاً سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٠٤.

(٢) ابن نظيف: التاريخ المنصور ص ٤٤ ـ ٤٥ وحاشية رقم (١)، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٣ ـ ١٦٤؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٢ ـ ٢٤؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٥١؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) ابن نظيف: التاريخ المنصور ص ٤٦١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٦٤؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٦٨.

١٢٠٥م، فقد نشبت معركة بين والي جبلة التابعة لمملكة حلب وبين الاسبتارية في حصن المرقب واستطاع والي جبلة إنزال الهزيمة بهم غير أنهم أسروا ابنه فارتفعت معنوياتهم وطمعوا في المسلمين[١]. فأرسل الظاهر صاحب حلب عسكره إلى حصن المرقب فهدموا أحد أبراجه وعادوا إلى حلب وأيديهم ملآنة بالغنائم[٢]. ورد الصليبيون في طرابلس على ذلك بالإغارة على جبلة واللاذقية في ذي القعدة ٦٠١هـ / ١٢٠٥م، وتمكّنوا من استدراج المسلمين والإيقاع بهم إذ نصبوا معظم معسكرهم كميناً للمسلمين وأمروا فرقة صغيرة من الصليبيين بالتقدم إلى جبلة وحينما شاهدت حامية جبلة فرقة الفرنج طمعت فيها لقلة عددها، فطاردوها فخرج عليهم كمين الفرنج وقتلوا من المسلمين جماعة كثيرة وعادوا إلى طرابلس بالغنـائم والسبى[٣].

وتواصلت اعتداءات الصليبيين في بلاد الشام على بلاد المسلمين فأغاروا من حصن الأكراد وطرابلس على حمص ولاسيما في سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٧م، ويبدو أنهم طمعوا في الاستيلاء على حمص ولم يستطع المجاهد صاحب حمص دفعهم عن مملكته فاستنجد بالظاهر صاحب حلب وغيره من ملوك الشام، ولم ينجده إلاّ الظاهر حيث أرسل له عسكراً لمساعدته على صد الصليبيين[٤].

وإزاء ذلك العدوان الصليبي المتكرر لم يجد العـادل بداً من القيـام بمسؤولياته تجاه المسلمين باعتباره سلطان الدولة الأيوبية، فخـرج من مصر بجيوشه إلى بلاد الشام في سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٧م وفي طريقه نازل عكا وطالب حنا دي برين (Jean du Brienne) الوصي على مملكة بيت المقدس بأن يكف عدوان قراصنة الصليبيين في قبرس الذين هاجموا مصر في العام السابق وتعرّضوا

---

(١) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص٤٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٦٥؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٦٦ ـ ١٦٧؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٣٠ ـ ٣١.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٢٧٣.

لبعض سفن الأسطور المصري في عرض البحر ، فأجاب صاحب عكا بأنه ليس في وسعه إعطاء الأوامر لصليبيي قبرس لأنه لا سلطة له عليهم، وتم توقيع الصلح بين العادل وصاحب عكا الذي أطلق بموجب الصلح سراح الأسرى المسلمين وأصبح في مقدور العادل أن يتفرغ للاسبتارية وأنصارهم في حصن الأكراد وطرابلس وغيرها[١].

ورحل العادل عن عكا وسار إلى دمشق ثم خرج منها عازماً على الجهاد، وأرسل يستدعي ملوك بني أيوب لشد أزره والوقوف إلى جانبه في مواجهة الصليبيين، فجاءته العساكر من الجزيرة وبلاد الشام واجتمع عنده زهاء عشرة آلاف فارس وعسكروا معه عند بحيرة حمص، وبعد أن قضى شهر رمضان ٦٠٣هـ / أبريل ١٢٠٧م أشاع أنه يريد قصد طرابلس ليباغت الاسبتارية في حصن الأكراد ثم سار إليه وقاتله قتالاً شديداً وفتح برجاً قريباً منه يسمى أعناز وأخذ منه خمسمائة أسير وأموالاً وسلاحاً كثيراً[٢].

ثم توجه العادل بجيوشه إلى جهة إمارة طرابلس الصليبية، وحاصر إحدى القلاع القريبة منها ونصب عليها المنجنيقات وضربها حتى فتحها واستولى على ما كان فيها من أموال وذخائر، ورحل عنها إلى طرابلس ونازلها وقذفها بالمنجنيقات وضيق على الفرنج بها أشد تضييق، وهاجمت عساكر المسلمين قرى طرابلس وبساتينها وقطعوا عيون الماء المؤدية إلى طرابلس واستمر القتال حتى شهر ذي الحجة سنة ٦٠٣هـ / يوليه ١٢٠٧م[٣]. ولقد كان في مقدور العادل في

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٢٧٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٢؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٤٧ - ٤٨؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٩٥؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢١٥؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٠٨.

(٢) العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٢٩١ - ٢٩٢؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١١ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٢ - ١٧٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٤٩ - ٥٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٦٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٠٧ - ١٠٨؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٦٠.

(٣) العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٢٩٢؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١١ أ؛ ابن

هذه الحملة بما توافر له من إمكانات مادية كبيرة فتح طرابلس والقضاء على إحدى الإمارات الصليبية الهامة في بلاد الشام، ففرسانه بلغوا هذه المرة عشرة آلاف فارس إضافة إلى مجموعة قيمة من المنجنيقات وآلات الحصار، غير أن العادل حسب ما ذكره المؤرخون المسلمون لاحظ في أصحابه «فشلاً وضجراً»[1] ولم يوضح المؤرخون سبب ذلك الضجر والفشل، على أن السبب لا يمكن أن يخفى عنا، فنقطة الضعف التي عانت منها العسكرية الإسلامية زمن الحروب الصليبية تكمن في طبيعة الإقطاع الحربي الذي ساد تلك الحقبة، فالجنود الذين احترفوا الجندية كانوا كما سبق أن أوضحنا[2] يمتلكون إقطاعات زراعية وليس لهم رواتب مقررة، وكانوا يحتاجون إلى العودة الدورية إلى إقطاعاتهم للعناية بمحصولاتهم والإشراف على تخزينها وبيعها، ويتضح هذا من أن العادل أدرك الضجر من عساكره في ذي الحجة ٦٠٣هـ / الموافق لشهر يوليه ١٢٠٧م وشهر يوليه كما هو معروف من أشهر الصيف حيث تنضج فيه معظم الفواكه، ويبدأ فيه حصاد القمح في بلاد الشام والجزيرة، ولهذا فمن الطبيعي أن يتقاعس فرسان الأيوبيين بغية الإذن لهم بالعودة لجني محصولاتهم والإشراف على فلاحيهم. ولذلك عاد السلطان العادل إلى حمص وتبادل المراسلات مع صاحب طرابلس الذي بعث إليه بمال وهدايا وثلاثمائة أسير من المسلمين وتم توقيع الصلح بين الجانبين في آخر شهر ذي الحجة سنة ٦٠٣هـ / يوليه ١٢٠٧م[3].

ولكن فرسان الداوية والاسبتارية دأبوا دائماً على خرق الهدنة مع

واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٥١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٦٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٠٨.

(١) العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٢٩٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٣؛ تاريخ ابن الفرت جـ ٥ ص ٥١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٦٦.

(٢) انظر ما سبق الفصل الأول ص: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) للعيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٢٩٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٥١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٦٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٦٠.

المسلمين، فقد ذكر بعض المؤرخين أنهم شنوا الغارة سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨ - ١٢٠٩م على حمص ووصلوا إلى باب تدمر - أحد أبواب حمص - بعد أن مدوا جسراً من الخشب على نهر العاصي وعبروا عليه إلى الضفة الشرقية للنهر، ولكن المسلمين في حمص تصدوا لهم وردوهم على أعقابهم وحازوا أخشابهم وما تركوه من أثقالهم[1].

ولم تتوقف جموع الصليبيين المتعصبين عن التدفق على بلاد الشام، ففي سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م تحركوا جهة ساحل الشام واحتشدت بعكا أعداد كبيرة منهم، وشرعوا في شن الغارات على بلاد المسلمين في فلسطين، فخرج المعظم بن العادل صاحب دمشق للتصدي لهم[2].

ولقد أثارت غارات الصليبيين المتكررة حفيظة جمهور المسلمين في عاصمة بلاد الشام دمشق، إذ أدت كما يذكر المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي إلى قيام حركة جهاد شعبية، انطلقت من دمشق للثأر من الصليبيين، فاجتمع عشرات الألوف من سكان دمشق في الجامع الأموي للاستماع إلى موعظة المؤرخ سبط ابن الجوزي التي ألقاها عن فضائل الجهاد، وبلغت الحماسة بالمسلمين حداً جعل الكثير من نسائهم يقدمن على قص شعورهن لجعلها شكالات لخيول المجاهدين، ويقول سبط ابن الجوزي عن تلك الشعور: «ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها فحملت على أعناق الرجال وكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها وقامت القيامة». وخرج سبط ابن الجوزي من دمشق واحتشد المطوعون من سكان دمشق في إثره ووصلت الحماسة بين صفوف سكان دمشق ذروتها حتى أن قرية واحدة من قراها تسمى زملكا انخرط جميع سكانها في صفوف الخارجين للجهاد وذكر ابن الجوزي أن عدد من خرج منها «ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح» وخرجت تلك الجموع من

---

(١) العيني: عقد الجمان، جـ١٣ لوحة ٣١٤؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٦٧.

(٢) العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٢٧؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ٢ ورقة ١٨ أ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٥٧؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١٠٧.

دمشق احتساباً للجهاد في سبيل الله ، ووصلوا إلى عقبة فيق «والطير لا يقدر أن يطير خوف الفرنج» وساروا حتى وصلوا إلى نابلس فاستقبلهم المعظم عيسى بن العادل، واجتمع بهم في جامع نابلس، وأحضروا الشعور بين يديه «فأخذها وجعلها على صدره ووجهه وجعل يبكي وكان يوماً عظيماً». وعندما وصلت أخبار تلك الجموع إلى الصليبيين في عكا وغيرها من المعاقل تحصنوا داخل أسوارهم وقلاعهم ولم يتجاسروا على الخروج، فأغار المسلمون على بلادهم وقطعوا أشجارهم، وقتلوا وأسروا من ظفروا به منهم. ثم سار المسلمون في صحبة المعظم إلى الطور حيث استقر رأيه على بناء قلعة على الطور. ولقد نجم عن هذه الحركة الشعبية أن اشتد الخوف بالصليبيين فراسلوا السلطان العادل يطلبون الصلح فأجابهم إليه[1].

ويمكن أن نستنتج من هذه الحادثة التي أوردها سبط ابن الجوزي الحقائق التالية :

أولاً : شعور عامة المسلمين في بلاد الشام بوجود إقامة فريضة الجهاد التي تصبح فرض عين على كل مسلم قادر وبخاصة وأن العدوان مستمر على بلاد المسلمين من جانب الصليبيين .

ثانياً : رفض المسلمين في بلاد الشام لحالة الجمود التي خيّمت على سياسة الحكام المسلمين بعد وفاة صلاح الدين، حيث توقف زخم حركة الجهاد لتحرير البلاد المغتصبة من أيدي الصليبيين وهي السياسة التي بدأها صلاح الدين وقطع فيها شوطاً بعيداً .

ثالثاً : استعداد جميع المسلمين في بلاد الشام لتقديم التضحيات وحشد الطاقات وتقديم الغالي والنفيس في سبيل استرداد الحقوق وتصفية الوجود الصليبي الدخيل من بلاد الشام .

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥؛ وانظر أيضاً العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٢٧ ـ ٣٢٨؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٦٩ ـ ٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية ص ٥٧ ـ ٥٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٨.

رابعاً : أظهر المسلمون في دمشق - بهذه الحركة - رفضهم لسياسة المهادنة التي يلجأ إليها ملوك الشام بعد كل اشتباك مع الصليبيين .

وقد استمر الملك المعظم عيسى بن العادل في بناء قلعة الطور على جبل الطور المشرف على طبرية طوال سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١ - ١٢١٢م وأنفق في سبيل ذلك أموالاً كثيرة حتى غدت قلعة الطور في غاية الحصانة والمنعة. وقد شعر الصليبيون في عكا ويافا وغيرها من مدن ساحل فلسطين، بخطورة بناء تلك القلعة لأنها تشرف على قلاعهم وحصونهم المقابلة للمسلمين في بلاد الشام، فسارعوا بطلب الصلح من السلطان العادل وأرسلوا في الوقت نفسه إلى الغرب الأوروبي يشرحون للصليبيين وللبابا انوسنت الثالث خطورة بناء قلعة الطور ذات الموقع الهام وتهديدها المباشر للممتلكات الصليبية في بلاد الشام، ويحثونهم على القيام بحملة صليبية للاستيلاء على هذه القلعة الجديدة، وهكذا كان بناء قلعة الطور من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى قدوم الحملة الصليبية الخامسة[١].

وفي سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م قتل الباطنية[٢] في بلاد الشام ريموند بن

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٤٥، ابن نظيف: التاريخ المنصور ص ٦٣ ؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٧٠، تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ١٠٧ ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان (مادة طور)؛ محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص ١٤٦.

(٢) الباطنية، فرقة من الإسماعيلية الذين يثبتون الإمامة في إسماعيل بن جعفر الصادق، والباطنية لقب من ألقابهم لقولهم: «إن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً» وقد أسس حركة الباطنية الحشيشية الحسن بن محمد الصباح الذي سافر من إيران وقابل الخليفة الفاطمي المستنصر، وتلقى منه أصول الدعوة وعاد إلى فارس واستولى سنة ٤٧٣هـ / على قلعة آلموت التي عرفت باسم عش العقاب لمناعتها وحصانتها. ووضع الحسن الصباح لاتباعه تنظيماً دقيقاً وقسمهم إلى خمس مراتب. وألف كتاباً من أربعة فصول ضمنه أهم مبادىء دعوته. وجند فئة من أتباعه عرفت باسم الفدائيين أو الحشيشية - لتعاطيهم الحشيش أثناء تنفيذ عملياتهم - وتميزت طائفة الحشيشية بقوة أبدانها وطاعتها العمياء لزعمائها فهم لا يتحرجون عن اغتيال خصومهم بالخناجر مهما كانت النتائج حتى اتخذوا من الاغتيال فناً. وقد ظهر نفوذهم في بلاد الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، واستطاع الباطنية خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، السيطرة على العديد من القلاع الحصينة في بلاد الشام مثل مصياف قرب طرابلس والخوابي وغيرها. وبدأوا نشاطهم بعد وصول الصليبيين، ولعبوا دوراً هاماً في بذر روح الكراهية بين السكان تجاه الحكام الترك والأمراء المحليين الآخرين. واغتالوا بعض

بوهيمند الرابع أمير إنطاكية وطرابلس (١٢٠١ - ١٢١٦م) بينما كان في كنيسة انطرطوس، ويبدو أن ذلك كان بإيعاز من طائفة الاسبتارية أعداء بوهيمند الرابع، فاشتد حزنه وغضبه وشن الحرب على بلاد الباطنية في بلاد الشام، ونازل قلعة الخوابي[1] التي كانوا يتحصنون بها، وقتل منهم وسبى، فأرسلوا إلى الظاهر صاحب حلب، يستنجدونه، فأرسل لهم فرقة عسكرية للدخول إلى حصنهم لمساعدتهم في الدفاع عنه، كما أرسل فرقة من الفرسان إلى جهة اللاذقية للضغط على صاحب إنطاكية، ولكن الصليبيين تغلبوا على تلك النجدات التي أرسلها الظاهر، وقتلوا بعض رجاله وأسروا آخرين. ولما سمع المعظم عيسى صاحب دمشق بتلك الأنباء، سار في عسكره مغيراً على أعمال طرابلس، فنهب قراها واستاق أغنامها ومواشيها، وأسر الكثير من الصليبيين الذين وجدهم في طريقه. وعند ذلك اضطر الصليبيون إلى الانسحاب عن حصن الخوابي، وأطلقوا أسرى الظاهر صاحب حلب وأرسلوا إليه يتلطفونه ويعتذرون عما بدر منهم إزاءه، وهكذا فشلت حملتهم على بلاد الباطنية بفضل الغارة العنيفة التي شنّها المعظم عيسى على بلاد إمارة طرابلس الصليبية[2].

زعماء المسلمين والصليبيين في بلاد الشام على حد سواء، الأمر الذي جعل زعماء الجانبين يقدمون لهم العطايا والأموال إتقاء لشرهم. بل وبلغت الجرأة بالباطنية في بلاد الشام أن حاولوا اغتيال صلاح الدين مرتين إلّا أنهم أخفقوا في ذلك مما جعل صلاح الدين يهاجم قلاعهم سنة ٥٧٢هـ، ثم قبل اعتذارهم له وتركهم ليتفرغ لجهاد الصليبيين. انظر: الشهرستاني: الملل والنحل ص ١٩٨ - ٢٠٧، القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٤٦ - ١٤٧، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١ - ١٤٢، ١٤٩ - ١٥٠، ١٩٠، ٢٢١ - ٢٢٥، ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٥٢، ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ٤١٩، ٤٣٠، فيليب حتي: تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٦، أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ٦١ - ٦٢، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ص ٦٣، Cahen, La Syrie du Nord, p. 191; Gibb, The Damascus Chronicle of the Crusades, pp. 29- 30.

(١) تقع قلعة الخوابي في الإقليم الجبلي على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشرق من مدينة أنطرطوس التي تقع على ساحل بلاد الشام شمال مدينة طرابلس انظر:
(Lestrange, Palstine under th Moslems p. 485.)

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٦٦ - ١٦٧، رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٤٧.

أثر الحملة الصليبية الخامسة في تاريخ بلاد الشام
٦١٤ - ٦١٨هـ / ١٢١٧ - ١٢٢١م

ظل الصليبيون في الغرب الأوروبي يتطلعون دائماً إلى الاستيلاء على بيت المقدس منذ استعادته على يد صلاح الدين، حتى أن البابا انوسنت الثالث أرسل رسالة إلى السلطان العادل يطلب منه التنازل عن بيت المقدس، ويحذّره من مغبة الاحتفاظ به، وظل الباب انوسنت الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة سنة ٦١٢هـ /١٢١٥ م، ورغم وفاته سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م فإن خليفته هونوريوس الثالث(Honorius III)(١٢١٦ - ١٢٢٧م) سار على نهجه في الدعوة للقيام بالحملة، فأرسل إلى ملك هنغاريا أندريه الثاني (١٢٠٥ - ١٢٣٥م) يدعوه إلى القيام بحملته الصليبية التي سبق أن وعد بها، فوافق على طلبه فبعث البابا إلى «حنا دي بريين» ملك مملكة بيت المقدس يخبره أن الحملة الجديدة على وشك القدوم إليه[١].

والواقع أن تفكير الصليبيين منذ بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، اتجه نحو الدعوة إلى السيطرة على مصر. إذ آمن الصليبيون بالشام وأنصارهم في الغرب الأوروبي، بأن مصر هي مركز المقاومة الحقيقي في العالم الإسلامي ضد الحركة الصليبية، وأنه منذ أن نجح نور الدين محمود في توحيد مصر والشام في إطار جبهة إسلامية واحدة والصليبيون مطوقون

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٥٧ - ٢٦٠ ؛ وانظر أيضاً:
.(Harold Lamb. The Crusades the Flame of Islam p. 240.)

بالمسلمين. هذا فضلاً عما أثبتته التجارب من أن صلاح الدين اعتمد على مصر، بمواردها البشرية والمادية الضخمة في الحصول على أدوات الجهاد، فاستمد منها كل ما احتاجه من قوة ومن رباط الخيل حتى أنزل بالصليبيين الهزيمة الساحقة في حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م واسترد منهم بيت المقدس، ولم يعد بيد الصليبيين في أواخر عهده سوى بعض مدن الشريط الساحلي من بلاد الشام. لذلك أدرك الصلبيون أن الاستيلاء على بيت المقدس لن يدوم طويلاً طالما بقيت مصر الإسلامية بعيدة عن سيطرتهم. بل وستكيل لهم الضربات حتى تستعيد بيت المقدس مرة أخرى، ولذلك استقر رأيهم على الاستيلاء على مصر لضمان السيطرة الدائمة على بيت المقدس[١].

ومن هنا يمكن لنا القول: إن الصليبيين أدركوا قوة مصر التي انبثقت أولاً من عظمة موضعها حيث الإمكانات المادية الضخمة والموارد البشرية الهائلة وقدرتها على مد المجاهدين بما يحتاجونه من أدوات الجهاد، وانبثقت تلك القوة ثانياً من تفرد موقعها بين القارات الثلاث حيث منحها ذلك الموقع مكانة فريدة وجعل منها قوة رائدة للدفاع عن محيطها الإسلامي. كما جعل منها ذلك الموقع في الوقت نفسه مطمعاً لكل القوى المتربصة بالإسلام والمسلمين باعتبارها محور المقاومة الأساسي، لذلك لا نعجب إذا اتجه تفكير الصليبيين للسيطرة على مصر كيما يدوم استعمارهم للأراضي المقدسة في بلاد الشام.

وإذا كان الصليبيون قد أدركوا حقيقة أن مصر أضحت قاعدة ومركزاً للقوة الإسلامية شرق البحر المتوسط[٢]. فإن المؤرخين المسلمين أدركوا هذا الاتجاه الذي طرأ على تفكير الصليبيين، إذ يقول المؤرخ ابن واصل: «ولما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدأون بقصده، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولاً ، وقالوا : «إن صلاح الدين إنما استولى

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٢٠ - ٩٢١؛
Campbell, The Crusades pp. 382 383 .

(٢) The Cambridge History of Islam p. 207.

على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن القدس وغيره من البلاد»[1].

وبدأت طلائع الحملة الصليبية الخامسة في الوصول إلى عكا سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م بقيادة أندريه الثاني (Andrew II) ملك هنغاريا الذي كان يقود خمسة عشر ألف مقاتل كما شارك في الحملة ليوبولد السادس (Leopold VI) دوق النمسا وهيو الأول (Hugh i) ملك قبرص (١٢٠٥ - ١٢١٨ م). واجتمع الصليبيون في عكا واستقر رأيهم على الاستيلاء على قلعة الطور للأهمية العسكرية التي تمتاز بها وسيطرتها على إقليم الجليل، ثم التقدم بعد ذلك لاحتلال بقية فلسطين وجميع ما استرده صلاح الدين من الصليبيين قبيل موته[2].

وحين سمع السلطان العادل بوصول طلائع الحملة الصليبية إلى عكا (الحملة الهنغارية) خرج مسرعاً من مصر لصد هذه الجموع الصليبية الجديدة. ونظراً لأنه كان في قلة من العساكر، فإنه حينما وصل إلى الشام تحاشى الاصطدام بالصليبيين، لأن هزيمته أمامهم وهو السلطان سيكون لها آثار سيئة على الموقف الإسلامي برمته، ولذلك فعندما وصل إلى بيسان تراجع حتى لا يواجه الصليبيين فسأله ابنه المعظم عيسى قائلاً: «إلى أين؟ فشتمه بالعجمية وقال بمن أقاتل؟ أقطعت الشام مماليكك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول، وذكر كلاماً كثيراً في هذا المعنى»[3]، كما يذكر ابن الأثير أن العادل لم

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٨؛ وانظر أيضاً: تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٨٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٤؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢١٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٨٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٢؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٨٦.

يشأ أن يلقى الصليبيين فيمن معه «خوفاً من هزيمة تكون عليه وكان حازماً كثير الحذر، ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر»[١]، ويستنتج بعض الباحثين المحدثين من عبارة ابن الأثير هذه، أن السلطان العادل لم يكن مستعداً للحرب[٢]. غير أن الأمر لم يكن كذلك وإنما طبيعة تكوين الدولة الأيوبية كانت هي السبب لأنها تعتمد في عسكريتها على نظام الإقطاع الحربي، فبلاد الدولة الأيوبية كما هو معروف مقسمة إلى إقطاعات بين أمراء البيت الأيوبي وغيرهم من القادة العسكريين الذين كان عليهم مقابل تلك الإقطاعات تقديم الخدمة العسكرية للسلطان وقت الحرب، بمعنى أن الدولة الأيوبية لم تكن ذات جيش كبير ودائم التواجد مع السلطان وإلى جانبه وإنما يوجد وقت الحرب فقط، حتى إذا ما انتهى القتال تعود هذه العساكر إلى إقطاعاتها. يضاف إلى ذلك أن السلطان العادل فوجىء بوصول الصليبيين إلى عكا واندفاعهم إلى بيسان بحيث لم يتوفر له الوقت اللازم لاستدعاء العساكر قبيل وصول الصليبيين إلى بيسان، وهو الأمر الذي تحقق في نهاية المطاف وأسهم في فشل الحملة الصليبية الخامسة برمتها.

وعلى أية حال فقد اطمأن أهل بيسان وما حولها بقرب السلطان العادل منهم[٣]. غير أنه سرعان ما انسحب مندفعاً أمام الصليبيين وعبر نهر الأردن قاصداً الصعود نحو دمشق في أواخر شعبان سنة ٦١٤هـ / نوفمبر ١٢١٧م[٤]. ولقد جاء انسحاب العادل كارثة على أهل بيسان إذ تقدم ملك هنغاريا على رأس قواته إليها «وبها الأسواق والغلال والمواشي شيء لا يعلمه إلاّ الله تعالى فأخذ

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢١؛ وانظر أيضاً: ابن واصل مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٥؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٢٠؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٩٨.

(٢) انظر محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص ١٨٣ حاشية رقم (٣).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٥؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٢١.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٨٣؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٥.

الجميع»[1]. ويفهم من هذه العبارة : أنه كان يوجد في بيسان سوق دوري لسكان المنطقة، تُباع وتُشترى فيه المؤن والمواشي والذخائر وغيرها. ومما يزكي هذا الرأي أن ابن الأثير يقول : «فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة، وغنموا شيئاً كثيراً»[2]. ويمكن لنا أن نتصوّر حجم الكارثة التي لحقت بأهل بيسان إذا ما عرفنا أن غارة الصليبيين كانت في أواخر شعبان، والمعروف أن الأسواق الدورية في البلاد الإسلامية تبلغ ذروة نشاطها خلال المواسم الدينية ولاسيما قبيل شهر رمضان والعيدين .

ولم يقتصر عدوان الصليبيين على بيسان وأسواقها بل نهبوا كل المناطق الواقعة ما بين بيسان وبانياس فنشروا سراياهم العسكرية في جميع قرى المنطقة ووصلت غاراتهم إلى قرب بلاد السواد الواقعة شرقي طبرية. وحاصروا نابلس ثلاثة أيام ثم عادوا إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي ما يفوق الوصف، إضافة إلى ما فعلوه بأهل تلك المناطق من القتل والحرق والخراب، وبعد أن أخذوا قسطاً من الراحة بمرج عكا، أغاروا مرة ثانية على مناطق صيدا والشقيف، ولـم يسلم أحد من سكان هذه المناطق الإسلامية إلاّ من تمكّن من الفرار والنجاة بنفسه[3].

وانتشرت موجات عارمة من الخوف والقلق بين صفوف المسلمين داخل مدينة دمشق وما جاورها[4]. وتوقع العادل أن يشنّ الصليبيون الهجوم على

---

(1) سبـط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٨٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٢.

(2) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢١.

(3) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ١٧٠ أ ب؛ العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٦٨؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ ٢ ورقة ١٨ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢١ - ٣٢٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٥ - ٢٥٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧ - ١٨؛ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٩٨ - ٣٩٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٨٦ - ١٨٧.

(4) يورد ابن الأثير قصة في ذلك فيقول: « لما سار العادل إلى مرج الصفر رأى في طريقه رجلاً يحمل شيئاً وهو يمشي تارة وتارة يقعد ليستريح فعدل العادل إليه وحده فقال يا شيخ لا تعجل وارفق

دمشق، فأرسل إلى والي دمشق يأمره بالاستعداد وتجنيد الرجال وتدريب سكان دمشق وقراها على أعمال المقاومة، وأمر بنقل غلة داريا ـ أشهر قرى غوطة دمشق ـ إلى داخل القلعة، وغمر أراضي الغوطة بالمياه لمنع الصليبيين من التقدم خلالها. ولقد أدت هذه الإجراءات إلى اضطراب دمشق ولجوء سكان قرى الغَوطة إلى داخل المدينة «وغلت الأسعار وعزم الناس على النزوح عن البلد متى تحققوا طلوع الفرنج من الغور، وكان للناس ضجيج بالجامع في أوقات الصلاة وبكاء ودعاء»[1].

وأرسل العادل ابنه المعظم على رأس فرقة عسكرية إلى نابلس للدفاع عن بيت المقدس[2]. كما أرسل «إلى ملوك الشرق مستحثاً لعساكرهم»[3] وكان أول ملوك بني أيوب وصولاً إلى دمشق المجاهد شيركوه صاحب حمص. الذي ما أن وصلها حتى خرج الدمشقيون لاستقباله واطمأنوا بقدومه وزال خوفهم. وبعد أن أقام بدمشق يوماً واحداً غادرها إلى مرج الصفر حيث يقيم العادل منتظراً وصول كافة العساكر الإسلامية إليه[4].

وتجاوز الصليبيون في غاراتهم غور الأردن إلى الجولان، وقرروا أخيراً مهاجمة قلعة الطور، وقد ساعدتهم ظروف الطقس على مباغتة حامية الطور إذ تقدموا في يوم كان «كثير الضباب، فما أحس بهم أهل الطور إلّا وهم عند الباب

بنفسك، فعرفه الرجل فقال: يا سلطان المسلمين انت لا تعجل فإنا إذا رأيناك سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل؟» ويلتمس ابن الأثير العذر للسلطان العادل في انسحابه قائلاً: «وبالجملة فالذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق العساكر» انظر الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٢.

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠١ ـ ١٠٢؛ وانظر أيضاً العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٦٨ ـ ٣٦٩؛ تاريخ ابن الجزري، لوحة ٣٢٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٩١ ـ ١٩٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٧٦؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١١٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٦؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٢٢.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٢.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٩٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٧٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٨٧.

وقد ألصقوا رماحهم بالسور» وكان ذلك في ثاني أيام رمضان ٦١٤هـ / ١٣ ديسمبر ١٢١٧م . ولكن المسلمين خرجوا من داخل القلعة وقاتلوهم حتى أبعدوهم إلى أسفل جبل الطور، وعادوا في رابع رمضان وطلعوا جميعاً إلى الجبل «ومعهم سُلّم عظيم . . . وألصقوا السلم بالسور»[١] فقاتلهم المسلمون في جرأة وبسالة وتمكّنوا من إحراق السلم، ورغم كثافة الصليبيين وقلة عدد المدافعين عن الطور فقد أبدى المسلمون شجاعة فائقة في الدفاع عن الحصن، واتفقوا على الاستماتة في الجهاد، لأنهم علموا أن تسليم أنفسهم للصليبيين يعني الانتحار لما عرف عن الصليبيين الجدد من روح التعصب والحقد الأعمى ضد الإسلام والمسلمين. وتمكّن المدافعون من إلحاق أفدح الخسائر في صفوف الصليبيين ، وقتلوا العديد من زعمائهم واستشهد بعض أبطال المسلمين. ولقد ترتب على صمود المدافعين عن الحصن، إنسحاب الصليبيين سادس رمضان ٦١٤هـ / ٧ ديسمبر ١٢١٧م قاصدين عكا، فجاء المعظم بن العادل وصعد إلى قلعة الطور، وخلع على المدافعين وكافأهم على حسن جهادهم. وبذلك فشل الصليبيون في الاستيلاء على حصن الطور الذي كان بناؤه من الأسباب المباشرة للحملة الخامسة[٢].

وبعد انسحاب الصليبيين قام بطريق بيت المقدس وأسقف عكا بتعميد الأطفال الأسرى المسلمين، وهو أمر يكشف ارتباط التنصير بالفكرة الصليبية بحيث لا يمكن فصلها عن بعض[٣] كما يكشف ذلك التعميد أيضاً روح التزمت والتعصب الديني لدى الصليبيين وحقدهم العميق تجاه الإسلام والمسلمين .

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٨٤؛ وانظر أيضاً: أبو شامة ذيل الروضتين ص ١٠٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٨٥؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٢ - ١٠٣؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ١٩٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٧٧؛ محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص ١٨٨.

(٣) محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ١٨٨.

وبعد أن فشل الصليبيون أمام الطور أراد ديونيس (Dionise) ابن أخت ملك هنغاريا أن يستأنف غاراته من جديد، ولا سيما بعد الغنائم التي حازها الصليبيون في غاراتهم على بيسان وغيرها. وقرر ديونيس مهاجمة المناطق الجبلية الواقعة شرق صيدا، وقد نصحه صاحب صيدا الصليبي من مغبة الاشتباك مع سكان الجبال. موضحاً له أن هؤلاء السكان رعاة وبلادهم وعرة فرفض ديونيس الإصغاء لنصيحته. فسار ومعه خمسمائة من فرسان الفرنج إلى منطقة جزين الجبلية شرقي صيدا، فأخلى السكان بلدة جزين وكمنوا للفرنج الذين ما أن ترجلوا عن خيولهم حتى فاجأهم السكان وقتلوا أكثرهم «وأسروا ابن أخت الهنكري» وهرب الباقون يريدون صيدا، وكان معهم أحد أسرى المسلمين ويدعى الجاموس. فقال لهم: «أنا أعرف إلى صيدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليها، فقالوا: إن فعلت أغنيناك» فاستدرجهم إلى أودية وعرة ومسالك شديدة والمسلمون خلفهم يطاردونهم ويقتلون منهم ويأسرون. فشعروا أن الجاموس خدعهم وغرر بهم للقضاء عليهم فقتلوه، ومع ذلك فقد أبيد معظمهم وأسر الكثير ولم يصل منهم إلى صيدا سوى ثلاثة أشخاص فقط، وسيق الأسرى إلى دمشق «وكان يوماً عظيماً»[١].

وفي أواخر سنة ٦١٤ هـ/ ١٢٢١م سار أندريه الثاني ملك هنغاريا عائداً إلى بلاده عن طريق البر. وكانت حملته على بلاد الشام بلا ثمرات بالنسبة للصليبيين سوى ما قامت به قواته من أعمال تخريبية، كما توفي هيو الأول ملك قبرس. ثم تشاور حنا دي برين ملك الصليبيين بالشام ودوق النمسا وغيرهما من زعماء الصليبيين واستقر رأيهم على تحصين مدينة قيسارية[٢]، وبناء قلعة كبيرة في عثليت[٣] جنوبي جبل الكرمل[٤]، وهي القلعة التي عرفت باسم

---

(١) سبط ابن الجوزي: مراة الزمان جـ ٨ ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٣.

(٢) قيسارية: بلد على ساحل الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام سيراً على الأقدام. انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) عثليت: حصن بسواحل الشام يعرف بالحصن الأحمر، فتحه صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ. انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٤) جبل الكرمل: هو الجبل المشرف على حيفا بساحل فلسطين، انظر ياقوت: معجم البلدان.

«قلعة الحجاج» وبعد إتمام تلك التحصينات عاد الصليبيون إلى عكا في انتظار القوات الرئيسة للحملة الصليبية الخامسة[1].

غير أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن رحيل ملك هنغاريا ووفاة ملك قبرس لا يعني نهاية الحملة، لأن حملتهما كانت مجرد مقدمة أو طليعة للحملة الخامسة فقط، إذ أخذت بعد ذلك جموع الصليبيين تصل تباعاً إلى بلاد الشام، ففي أوائل سنة ٦١٥هـ / مايو ١٢١٨م وصل إلى عكا ثلاثين ألف رجل من الهنغاريين أتباع الملك أندريه الثاني ويبدو أنها كانت قواته الرئيسة، وإنما سار هو طليعة لها، وهذا يعني أن الحملة الهنغارية لم تنته برحيله، كما وصلت إلى عكا جموع أخرى من النمساويين والإسكندنافيين وغيرهم[2].

وقد اتصل الصليبيون ـ المحتشدون في عكا بزعامة حنا دي برين ـ بنجاشي الحبشة النصراني وقصدوا من وراء ذلك أن يتعاون معهم في ضرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة[3]. وعلى الرغم أن محاولة الصليبيين مع ملك الحبشة لم تنجح في تحقيق هدفها الدنيء، فإنها تكشف بجلاء عن الحقد الأعمى المتأصل في نفوس الصليبيين ضد الإسلام والمسلمين، وتدل أيضاً على جهلهم التام بمبادىء الدين الإسلامي الحنيف، الذي لم يتعرّض لكنائس النصارى ومعابدهم بأي سوء منذ ظهور الإسلام. إذ عاش النصارى في أمن وسلام في داخل حدود الدولة الإسلامية طيلة عصورها التاريخية المتتابعة، ولم يواجهوا أي اضطهاد أو سوء، لأن المسلمين عاملوهم معاملة حسنة شعارها التسامح والرأفة، فتركوا لهم الحرية الدينية، وممارسة شعائرهم بالطريقة التي يرونها، بل وحتى بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واسترداد بيت المقدس منهم لم يشأ أن يأخذ بثأر المسلمين منهم جزاء تلك

---

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦؛ محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص ١٩١ ـ ١٩٣.

(٢) Lamb. H. The Crusades the Flame of Islam p. 242. وانظر أيضاً: رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٦٧، سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٢٤.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٢٤.

المذبحة المريعة التي ارتكبوها عند دخولهم بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م بل لقي أسرى الصليبيين المتعصبين منه كل رحمة وتسامح فسمح لهم بمغادرة القدس إلى صور، ولم يتعرّض لكنائس النصارى أو أديرتهم حتى أشاد به المؤرخون الصليبيون أنفسهم[١]. وإضافة إلى هذا فإن تلك المحاولة التي قام بها الصليبيون مع ملك الحبشة تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى انحراف الصليبيين عن مبادىء العقيدة المسيحية الأصيلة التي أرسل بها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام والتي تدعو إلى التسامح والسلام مع سائر البشر. وأن ما يعتقده الصليبيون من انتماء للديانة المسيحية لا يمتّ للمسيحية الحقيقية بصلة.

وعلى أية حال فقد أقلع الصليبيون بجموعهم الكثيفة من عكا بقيادة حنا دي بريين قاصدين مصر، وأبحروا حتى وصلوا قرب دمياط حيث يصب أحد فروع نهر النيل في البحر المتوسط، وتقع مدينة دمياط على الضفة الشرقية لذلك الفرع، فنزل الصليبيون أواخر ربيع الأول ٦١٥هـ / مايو ١٢١٨م ونزلوا ببر الجيزة على الضفة الغربية لفرع النيل بحيث صار يفصلهم عن مدينة دمياط نهر النيل[٢].

وكان المسلمون في مصر قد بنوا في مجرى النيل المحاذي لدمياط برجاً بالغ التحصين وجعلوا فيه سلاسل حديدية ضخمة لمنع المراكب المعادية من الصعود في نهر النيل إلى ديار مصر «ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها»[٣].

وبعد أن استقر الصليبيون ببر الجيزة المقابل لدمياط، بنوا حول معسكرهم

(١) عن تسامح صلاح الدين مع أسرى الصليبيين وحسن معاملته لهم انظر تفاصيل ذلك في رسالة الماجستير للزميل عبد الله سعيد الغامدي: استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين ص ٢٣٨ ـ ٢٤٣ (رسالة ماجستير من جامعة أم القرى، كلية الشريعة، قسم التاريخ سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م).

(٢) الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٥ أ؛ تاريخ ابن الجزري مخطوط لوحة ٣٢٥؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٥٨؛ تاريخ ابن الفرات: ٥ قسم ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨؛ (The Cambridge History of Islam p. 207.).

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٣.

سوراً، وحفروا خندقاً وشرعوا في قتال أهل دمياط، واتخذوا آلات ومرمات[1] وأبراجاً يزحفون بها في المراكب نحو برج السلسلة في محاولات جادة للاستيلاء عليه لكي تدخل سفنهم في مياه النيل، وكان برج السلسلة مشحوناً بالمدافعين المسلمين الذين ما انفكوا يدافعون عنه في شجاعة فائقة. وحينما نزل الصليبيون ببر الجيزة تقدم الملك الكامل إلى قرب دمياط على الضفة الشرقية في مكان يسمى «العادلية»[2]. وتقدمت عساكره على ضفة النهر الشرقية لمنع العدو من العبور إليها. وظل الصليبيون يقاتلون برج السلسلة زهاء ثلاثة أشهر دون أن يظفروا بشيء،بل وكسرت مرماتهم وآلاتهم. بينما ظل السلطان العادل يواصل إرسال النجدات تباعاً من بلاد الشام إلى ابنه الكامل بثغر دمياط حتى لم يبق معه في بلاد الشام سوى القليل من العساكر،وذلك خوفاً على مصر من الصليبيين الذين عقدوا العزم على الاستيلاء عليها[3].

ولجأ السلطان العادل إلى الضغط على البلاد الخاضعة للصليبيين في بلاد الشام، فأمر ابنه الأشرف موسى أن يهاجم بلاد الفرنج، فسار بعسكره إلى حمص سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م ودخلوا منها إلى صافينا[4] «فخربوا ربضها[5]،

---

(١) المرمة: نوع من السفن الكبيرة في العصور الوسطى، يظهر أنها من أصل إيطالي، انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٠ حاشية رقم (١)؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٦٨.

(٢) العادلية: قرية قرب ثغر دمياط أسسها السلطان العادل سنة ٦١٤هـ / انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦٠، حاشية رقم (٢).

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٩ ـ ٢٦١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨؛ محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص ٢١٣.

(٤) صافينا: من أشهر حصون الداوية في بلاد الشام وبه برج يسميه الصليبيون القصر الأبيض ويقع إلى الجنوب الشرقي من أرواد وتقع كل تلك المناطق على الجبال التي تسمى حالياً بجبال العلويين المشرفة على ساحل الشام الممتد فيها بين اللاذقية وطرطوس. انظر جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٥ حاشية رقم (١) وانظر خريطة بلاد الشام في آخر الكتاب ص: ٥٢٩.

(٥) الربض: وجمعه أرباض، وهو ما حول المدينة أو البلدة، انظر ابن منظور: لسان العرب جـ ٧ ص ١٥٢.

ونهبوا رستاقها[1]، وهدموا ما حولها من الحصون»[2] ثم تقدموا إلى ربض حصن الأكراد فنهبوا ما حوله وحاصروا الحصن حتى أوشك على السقوط بأيدي المسلمين، غير أن جهد الأشرف ضد الصليبيين سرعان ما تلاشى، واسْتُنزف في حرب داخلية بين المسلمين، فبينما كان الأشرف يتقدّم في ممتلكات الصليبيين ببلاد الشام ويهدد معقل الاسبتارية في حصن الأكراد إذ داهم مملكة حلب خطر من الشمال من قبل سلطان سلاجقة الروم كيكاوس بن كيخسرو (٦٠٧ - ٦١٦هـ / ١٢١٠ - ١٢١٩م)، الذي هاجم مملكة حلب طامعاً في الاستيلاء عليها وعلى مملكة الأشرف في منطقة الجزيرة، الأمر الذي هدد النفوذ الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة على حد سواء، وجعل أتابك حلب يستنجد بالأشرف الذي لم يجد بداً من الذهاب إلى حلب لصد سلطان سلاجقة الروم واستعادة البلاد التي استولى عليها في شمال الشام وبذلك زال الضغط الذي هدد معاقل الداوية والاسبتارية في بلاد الشام[3].

أما السلطان العادل فقد استدعى ابنه المعظم وأوضح له أن بناء قلعة الطور، كان سبباً في قدوم الحملة الصليبية الخامسة وتهديد بلاد الشام كلها، وأشار عليه بهدمها وإرسال حاميتها إلى دمياط لمساعدة المسلمين، ونقل أسلحة القلعة وذخائرها إلى القدس والكرك وعجلون ودمشق، وقد تلكأ المعظم بادىء الأمر في إجابة طلب والده، لأن قلعة الطور تابعة لمملكة دمشق التي منحها له ولكن

---

(١) الرستاق: كلمة فارسية معربة جمعها رساتيق، وهي السواد من النخل والشجر والبساتين. انظر لسان العرب جـ٣ ص ٢٢٤، جـ ١٠ ص ١١٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٣٦٥؛ وانظر أيضاً ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٣٩.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٨٠ - ١٨١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٨؛ أبو شامة: ذيل الروضتين، ص ١٠٩، وعن تفاصيل حملة سلطان سلاجقة الروم على مملكة حلب وشمال الشام، انظر الفصل الرابع ص: ٣١٩ - ٣٢٣.

العادل استرضاه بالمال ووعده بإقطاعات أخرى في مصر فاستجاب المعظم لطلب والده وهدم قلعة الطور[1].

وظل الصليبيون من جانبهم يشنون الهجمات المتتابعة على برج السلسلة حتى تمكنوا أخيراً من الاستيلاء عليه في **٢٩** جمادي الأولى **٦١٥** هـ/ **٢٤** أغسطس **١٢١٨**م، وقاموا بقطع السلاسل التي كانت تحول دون دخول سفنهم في نهر النيل[2]. ولقد جاء سقوط برج السلسلة خسارة فادحة للمسلمين حتى أن العادل عندما بلغه الخبر ببلاد الشام، لم يحتمل الصدمة «فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت» وتوفي في سابع جمادى الثانية / آخر أغسطس من السنة نفسها[3]. وهو ما يوضح مدى الأهمية العسكرية لبرج السلسلة الذي اعتبره المعاصرون قفل الديار المصرية[4].

وقد أدرك السلطان الجديد الكامل بن العادل الخطر الكامن وراء سقوط

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٩٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٩؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٧٥؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب، ص ٢٢٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٢٢.

(٢) العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٧٣؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٤؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٩٣؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٩٦؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٢٥ - ٩٢٦؛ محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص ٢٢٦؛ محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ص ٤٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٩٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٢؛ زيادة: حملة لويس التاسع ص ٤٦.

(٤) يقول المؤرخ أبو شامة في ذلك: «وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة ومنهم شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله ورأيته يضرب يداً على يد ويعظم أمر ذلك، وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه فقال هو قفل الديار المصرية. وصدق. . . فإني لما رأيته سنة ثمان وعشرين وستمائة - ٦٢٨هـ - بان لي صحة ما أشار الشيخ إليه. وذلك أنه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى الجيزة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو، فهو قفل البلاد بالديار المصرية، إذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان». أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٩.

برج السلسلة، لذلك أمر بإقامة جسر بعرض مجرى النيل لمنع سفن الصليبيين من الدخول إلى مصر، غير أن الصليبيين تمكّنوا من قطع الجسر، فأمر الكامل بإحضار عدة مراكب وأغرقها في المجرى وتمت إعاقة السفن الصليبية، ولكن الصليبيون تمكّنوا مرة أخرى من تجاوز تلك العقبة، فعمدوا إلى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجري فيه قديماً، فحفروه حفراً عميقاً وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط وتمكنت سفنهم من دخول النيل إلى قرب العادلية وبذلك أصبح في إمكان الصليبيين مهاجمة المعسكر الإسلامي عن طريق البحر[١].

ولقد شجعت تلك الانتصارات التي أحرزها الصليبيون عند دمياط حامية عكا الصليبية، فخرجت للإغارة على بلاد فلسطين إلاّ أن المعظم تمكّن من الإيقاع بها عند القيمون[٢] في جمادى الثانية ٦١٥هـ / سبتمبر ١٢١٨م وقتل المسلمون معظم أفراد الحامية وأسروا من أفرادها مئة فارس وأُحضروا إلى بيت المقدس «منكسة أعلامهم»[٣].

ولكي يصرف المعظم الصليبيين عن مصر رأى أن يلحق نصره السابق بمهاجمة قيسارية فخرج لهدم قلعتها الجديدة ومعه عدد ضخم من آلات الحصار، وتمكّن المسلمون من دخول قيسارية، ودمروها ثم اتجه المعظم لمهاجمة قلعة عثليت ولكن الداوية تحصّنوا وراء أسوارها، ولم يتمكّن المعظم من الاستيلاء عليها فتركها على حالها[٤]. على أن المعظم سرعان ما تراجع عن الضغط على الصليبيين في بلاد الشام، وعمد بدلاً من ذلك إلى هدم قلعتيّ بانياس وتبنين وكانتا في حوزة المسلمين وأعلن أنه خربها خوفاً من استيلاء الصليبيين عليهما

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص٩٢٦؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص١٩٥؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ص٩٢٦.

(٢) القيمون: حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص٥٩٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص١٠٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص١٩٨؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص٩٢٧.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص٦٠٤؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص١١٧؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ص٩٢٧ ـ ٩٢٨.

الأمر الذي يمنحهم - إذا استولوا عليها - قاعدتين هامتين يمكنهم عن طريقهما التقدم بسهولة إلى بقية بلاد الشام[1]. ويبدو أنه فعل ذلك بعد أن تلقى استغاثة أخيه الكامل طالباً النجدة، فقرر الذهاب إلى مصر وخشي من سقوطهما بأيدي الصليبيين الأمر الذي سيجعل من مهمة استعادتهما أمراً بالغ الصعوبة لما عرف عنهما من حصانة حيث كانتا «قفلاً للشام» كما يقول الذهبي[2].

ورحل بعض الصليبيين إلى أوروبا بعد الاستيلاء على برج السلسلة بعد أن رأوا أنهم وفّوا بقسمهم الصليبي، ولكن ذلك لا يعني ضعف موقف الصليبيين أمام دمياط، فقد وصلت إلى الصليبيين المرابطين قبالة دمياط، في جمادى الآخرة ٦١٥ هـ/ سبتمبر ١٢١٨ م إمدادات ضخمة من أوروبا، بقيادة مندوب البابا. الكاردينال بلاجيوس (Pelagus)، الذي أصبح منافساً خطيراً للملك حنا دي بريين على قيادة الصليبيين وهو الأمر الذي ساعد في نهاية المطاف على فشل الحملة الصليبية برمتها[3].

وفجأة تطور الموقف لصالح الصليبيين بسبب المؤامرة التي حاك خيوطها القائد الكردي عماد الدين أحمد بن المشطوب، لعزل السلطان الكامل وإحلال أخيه الصغير الفائز بن العادل محله في حكم مصر ومن ثم سيطرة ابن المشطوب على مقاليد الأمور فيها[4] واشتد القلق بالسلطان الكامل حينما علم بالمؤامرة، ولم يستطع مواجهة المتآمرين لأن ابن المشطوب يسيطر على قطاع كبير من العساكر الأكراد، وانسحب الكامل ليلاً من العادلية وسار إلى قرية تسمى أشموم طناح[5] فعسكر عندها، وحينما أصبح العساكر لم يجدوا السلطان بينهم

---

(١) الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٥ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٩٧ - ٥٩٨؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٣.

(٢) الذهبي: العبر جـ ٥ ص ٥٣.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٧٥ - ٢٧٦؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٢٦ - ٩٢٧، (Campbell: The Crusades pp. 383 - 384.).

(٤) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٩٥ - ١٩٦، (Stevenson, The Crusaders in the East. p. 304).

(٥) أشموم طناح: أو أشمون طناح، من أقدم القرى المصرية قرب دمياط سماها العرب أشمون

تفرقوا وتركوا أثقالهم، فلما وصل النبأ للصليبيين، اهتبلوا الفرصة وعبروا النيل إلى الضفة الشرقية في ٢٠ ذي القعدة ٦١٥هـ / ٥ فبراير ١٢١٨ وتقدموا إلى العادلية حيث استولوا على كميات ضخمة من المؤن والميرة والأسلحة والذخائر بعد أن أصبح المعسكر الإسلامي خالياً من الرجال، وبذلك أضحى الصليبيون وجهاً لوجه أمام مدينة دمياط[١].

وعلى الرغم من وصول المعظم إلى أخيه الكامل بعد يومين من مؤامرة ابن المشطوب وقبضه عليه ونفيه إلى الشام، إلّا أنه كان لانسحاب السلطان واضطراب عساكره واستيلاء الصليبيين على معسكر العادلية، نتيجة سيئة أخرى على الموقف الإسلامي، وذلك حينما اجتمعت قبائل العرب الذين لم يكونوا على وعي بطبيعة الحملة الصليبية الخامسة، فجاءوا ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط «وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج»[٢]. وبعد أن ساعد المعظم أخاه الكامل وتغلب على ابن المشطوب عاد إلى بلاد الشام بينما ظل الكامل يكافح الفرنج الذين ظلوا يشددون الضغط على دمياط التي ظلت صامدة بقية سنة ٦١٥هـ / ١٢١٩م[٣].

«ولما اشتدت مضايقة الفرنج لثغر دمياط وأشرفت على الأخذ خاف المعظم... صاحب دمشق أن تصل من البر أمم عظيمة إذا سمعوا بقوة أصحابهم وتمكّنوا من الديار المصرية والملك الكامل مشغول بمحاربة من بديار مصر من الفرنج فيقصدون البيت المقدس وهو عامر فيملكونه ولا يمكن بعد

الرمان نسبة إلى اسمها القبطي، كما سميت طناح نسبة إلى طناح التي كانت معها في كورة واحدة، وقد ازدهرت في العصر المملوكي وصارت مدينة كبيرة وقاعدة لكورة الدقهلية، انظر ياقوت: معجم البلدان؛ ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ٦٨.

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٩٦؛ زيادة: حملة لويس التاسع ص ٤٨؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٣٠، (Lanepoole. A History of Egypt p. 221).

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٩.

ذلك استنقاذه منهم»[١]. وبناء على هذه القناعة التي توصل إليها المعظم، قرر تدمير أبراج بيت المقدس وتخريب أسواره وتحصيناته فأرسل إلى أخيه العزيز عثمان بن العادل ومملوكه عز الدين أيبك بالقدس يأمرهما بتدمير الأسوار وتخريب التحصينات «فتوقفا وقالا نحن نحفظه» فأرسل إليهما المعظم يخبرهما أن الفرنج لو أخذوه «لقتلوا كل من كان فيه وحكموا على دمشق وبلاد الإسلام»[٣]، فشرعوا في تدمير الأسوار وتخريب التحصينات في أول المحرم سنة ٦١٦هـ / ١٩ مارس ١٢١٩م، ودمروا جميع الأبراج ما عدا برج داود غربي القدس. ولقد ترتب على هذا الإجراء انتشار موجات عارمة من الذعر والفزع والسخط بين سكان بيت المقدس «ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز، والشباب والصبيان إلى الصخرة والأقصى فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور»[٢].

وبعد هذا الاحتجاج الصارخ خرج سكان القدس هاربين، وقد تركوا أموالهم وبيوتهم ظانين أن فرسان الفرنج يسيرون في إثرهم، وتفرقوا أيدي سبأ، فبعضهم هاجر إلى مصر وبعضهم نزح إلى الكرك وآخرون لجأوا إلى دمشق «ومات خلق كثير من الجوع ومن العطش وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها، ونهبت الأموال التي كانت لهم بالقدس»[٣] ولم يبق إلّا القليل من السكان

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٢.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٠١؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٥ ـ ١١٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٤٤؛ وانظر أيضاً العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٩٥ ـ ٣٩٦؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٤٥ ب؛ السيوطي: إتحاف الاخصا ورقة ١٢٣ أ ب؛ الأهدل: غربال الزمان ورقة ١٤٥ ب؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٨٣؛ الحريري: الإعلام والتبيين ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٠١؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٤) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٣ ب ـ ١٥٤ أ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٠١ ـ ٦٠٢؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٦؛ وانظر أيضاً ابن أيبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٠٢؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ١ ص ٤٠٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٤٥.

بالقدس، وقام المعظم بنقل ما كان فيه من المؤن والذخائر وغير ذلك إلى حصونه الأخرى مثل الكرك والشوبك، وقد انتشر الحزن وعم الأسى نفوس المسلمين في بلاد الشام على تدمير أسوار القدس وتحصيناته وهجا الشعراء الملك المعظم[1].

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو: هل كان تدمير أسوار القدس وتحصيناته عملاً صائباً؟ الراجح أن ذلك العمل كان خطأً جسيماً ارتكبه المعظم، فالصليبيون لم يستولوا على القدس خلال الحملة الخامسة، كما أن الموقف عند دمياط ما زال جامداً بين المسلمين والصليبيين فدمياط كانت ما تزال صامدة وقت تدمير أسوار بيت المقدس. والحق أن مخاوف المعظم من قدوم حشود صليبية كبيرة بهدف الاستيلاء على بيت المقدس ليس لها ما يبررها، ولاسيما وأن أبراج القدس وأسواره كانت قد بلغت في ذلك الوقت الغاية في العظمة والحصانة والمنعة «فإنه من حين استنقذه الملك الناصر صلاح الدين ـ رحمه الله ـ من الفرنج ما زالت فيه العمارة قائمة فكان كل برج من أبراجه نظير قلعة» كما يقول ابن واصل[2]. وهذا يعني أن عمارة أسوار وتحصينات وأبراج بيت المقدس ظلت مستمرة زهاء ثلاثين سنة حتى أصبح في إمكان فرقة عسكرية الدفاع عنه في ظل تحصيناته القوية، كما أن كلاً من العزيز عثمان وعز الدين أيبك تكفلا بحمايته لكن المعظم رفض الإصغاء لقولهما، وكانت النتيجة أن سفح في الرمل أموال وجهود ثلاثين سنة ظلت تُنفق في بناء تلك التحصينات وعمارتها. ثم لماذا لم يستفد المعظم من الدرس السابق الذي ضربه عمه صلاح الدين عندما قدمت إلى الشام الحملة الصليبية الثالثة وحاول ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا الاستيلاء على بيت المقدس فقام صلاح الدين بتخريب ما حول المدينة المقدسة مثل الرملة وعسقلان وغيرها وتحصّن هو ببيت المقدس للدفاع عنها رغم أنها

---

(1) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٤ أ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٢؛ وانظر نماذج من أبيات الشعر التي قيلت في هدم القدس؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٦.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٢.

كانت في ذلك الوقت ٥٨٧هـ / ١١٩١م ضعيفة التحصين(١). عكس ما وصلت إليه زمن الحملة الصليبية الخامسة، حيث صارت من الحصانة والمنعة، بما يجعل من عملية الاستيلاء عليها بالقوة أمراً صعباً عسيراً، إن لم يكن مستحيلاً.

أياً كان الأمر فقد استمر الصليبيون في الضغط على دمياط(٢)، بينما قدمت النجدات للكامل من بلاد الشام وعلى رأسها المنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك وغيرهم حتى أن المقريزي يقدر عدد المسلمين بعد وصول النجدات بأربعين ألف مقاتل(٣). وهو رقم مبالغ فيه إلاّ أن الصليبيين أيضاً تلقوا بدورهم إمدادات من فرنسا(٤). كما ظلت كتائب الفرسان والمؤن والأقوات تصل إليهم تباعاً من جزيرة قبرس(٥).

ويبدو أن الكامل خشي إن سقطت دمياط بأيدي الصليبيين أن يمنحهم ذلك قاعدة مهمة في مصر مما يهدد القاهرة ذاتها، ومن أجل ذلك تقدم إلى الصليبيين بعرض للصلح وتضمن العرض إعادة بيت المقدس إليهم مع عسقلان وطبرية وكافة الأراضي التي استردها صلاح الدين منهم عدا قلعتيّ الكرك والشوبك، وأن يعيد إليهم خشبة الصليب المقدس الذي غنمه المسلمون منهم بقيادة صلاح الدين في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وذلك كله مقابل جلائهم عن مصر(٦).

وقد قبل الملك حنا دي برين عرض السلطان الكامل وأيّده في ذلك

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص١٨٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٤١٠؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٧١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٣ ص ٨٤٢ ـ ٨٤٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٢٦.

(٣) المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٠٣.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣١.

(٥) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص ٤٠.

(٦) Lanepool, A History of Egypt p. 222; Campbell, The Crusades p. 385.

الأمراء الفرنسيون، ولكن المندوب البابوي بلاجيوس رفض العرض وآيده فرسان الداوية والاسبتارية، والإيطاليين الذين لا هم لهم سوى مصالحهم التجارية، لأن السيطرة على مصر يمنحهم ميزة تجارية فريدة ويعفيهم من الرسوم التي كانوا يدفعونها للأيوبيين مقابل مرور تجارتهم عبر مصر، ولذلك تطلّع بلاجيوس للسيطرة على مصر، ويبدو أنه اتخذ من الإصرار على تسليم الكرك والشوبك ذريعة للمضي في حملته على مصر، ورفض الكامل التخلي عن قلعتيَ الكرك والشوبك[1]. والحقيقة أن رفض الكامل التنازل عن الكرك والشوبك يعود للأهمية العسكرية لهما إذ إن تسليمهما للصليبيين يعني التخلي تماماً عن كل مكاسب صلاح الدين السابقة، إضافة إلى أن تسليمهما إلى الصليبيين يفصل الدولة الأيوبية في مصر عن بلاد الشام فصلاً تاماً وبالتالي يحول دون اتصالهما الأمر الذي يسهّل على الصليبيين ضرب كل من القطرين على حدة.

أحاط الصليبيون بدمياط وقاتلوها براً وبحراً ولكي يمنعوا عساكر الكامل من مهاجمتهم أثناء تقدمهم إلى دمياط، حفروا خندقاً بينهم وبين المسلمين، وبعد صمود طويل دام تسعة أشهر، استسلمت دمياط للصليبيين في ٢٥ شعبان سنة ٦١٦هـ / ٥ نوفمبر ١٢١٩م، فدخلوها وحولوا جامعها إلى كنيسة وارتكبوا فيها أعمالاً قبيحة من السبي والقتل والهتك، وتفرّق سكانها أيدي سبأ[2].

ولقد حاول المعظم عيسى بن العادل ـ بعد سقوط دمياط ـ حمل سكان دمشق والشام على الاشتراك في الجهاد ضد الصليبيين، وربما جال في ذهنه تلك

(١) (Campbell, The Crusades p.386)؛سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص٩٣٢؛ نظير سعداوي: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٥ ب؛ العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٩٢ ـ ٣٩٤؛ الأهدل: غربال الزمان ورقة ١٤٥ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٢٦، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢ ـ ٣٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٦ ـ ١١٧؛ الذهبي: دول الإسلام جـ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٠؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٧٢٤ ـ ٧٢٥؛ خاشع المعاضيدي وآخرون: الوطن العربي والغزو الصليبي ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، (The Cambridge History of Islam, p. 208).

الحماسة الدافقة والرغبة الجامحة في جهاد الصليبيين التي أبداها سكان دمشق سنة ٦٠٧هـ عندما تزعم المؤرخ سبط ابن الجوزي الحملة الشعبية من سكان دمشق وخروجها إلى نابلس لقتال الصليبيين[١]. فقد ذكر سبط ابن الجوزي أن الملك المعظم كتب إليه وهو بدمشق يقول له: «قد جرى على دمياط ما جرى وأريد أن تحرض الناس على الجهاد فإني كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفيّ قرية منها ألف وستمائة أملاك أهلها، وأربع مائة سلطانية وكم مقدار ما تقوم به هذه الأربعمائة من العساكر، وأريد أن يخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم... فجلست بجامع دمشق وقرأت كتابه عليهم... فتقاعدوا فكان تقاعدهم ثمناً لأخذه الثمن والخمس من أموالهم»[٢] ولم يبين لنا سبط ابن الجوزي سبب ذلك التقاعد. والحق أننا لا نستطيع تفسير هذا التقاعد المناقض لتلك الحماسة التي أبداها سكان دمشق سنة ٦٠٧هـ، إلاّ بانهيار الروح المعنوية بين صفوف المسلمين وبخاصة سكان بلاد الشام في هذا الوقت، ولا سيما بعد أن أصبح التتر يضغطون على بلاد المسلمين من الشرق بينما يهددهم الصليبيون من الغرب بل ويهددون مركز القوة الإسلامية وقلبها في مصر وبلاد الشام، وقد عبّر المؤرخ ابن الأثير عن وضع المسلمين المعنوي بعد سقوط دمياط أصدق تعبير حين قال: «وأشرف الإسلام وأهله على خطة خسف في شرق الأرض وغربها: أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا إلى نواحي العراق وأذربيجان وأران وغيرها، وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط من الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء، وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تُملك، وخافهم الناس كافة، وصاروا يتوقعون البلاء صباحاً ومساء»[٣].

وكيفما كان الأمر فبعد استيلاء الصليبيين على دمياط، شرعوا في بث سراياهم في المناطق المجاورة لها «ينهبون ويقتلون» وبدأوا في عمارة دمياط

---

(١) انظر ما سبق ص: ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٠٤؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٢٧.

وتحصينها «وبالغوا في ذلك حتى أنها بقيت لا ترام» ولم يقتصر الموقف على ذلك، بل إن الصليبيين في الغرب عندما سمعوا بانتصار إخوانهم في دمياط «أقبلوا إليهم يهرعون من كل فج عميق، وأصبحت دار هجرتهم»[1].

أما السلطان الكامل فقد انسحب ـ عقب سقوط دمياط ـ جنوباً وعسكر في مكان سمي فيما بعد بالمنصورة وتقع إلى الشرق حيث يتفرع النيل هناك إلى فرعين يذهب أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشموم طناح، وعسكر الكامل هناك، حيث وفر له ذلك المكان حصانة عسكرية هامة كان لها أبلغ الأثر في إنزال الهزيمة بالحملة الصليبية الخامسة والسابعة بعدها[2].

وتابع الكامل إرسال الرسائل إلى أخويه المعظم صاحب دمشق، والأشرف صاحب الجزيرة وأرمينية وديار بكر يحثهما للإسراع بنجدته. والحق فلقد قدّم المعظم كل ما وسعه، كما رحل إلى أخيه الأشرف بالجزيرة يحثّه على مد يد المساعدة للكامل. لكن الأشرف اعتذر لأنه كان مشغولاً ـ وقتذاك ـ بتمرد زعماء الجزيرة عليه وخروجهم على طاعته، مما لم يمكّنه في هذا الوقت من تقديم المساعدة الفعّالة للكامل، فقبل المعظم عذره وعاد إلى بلاد الشام[3].

وفي هذه الأثناء يتغير الموقف داخل المعسكر الصليبي فيتعرّض للضعف، بسبب ما حدث بين الصليبيين من انقسام عقب استيلائهم على دمياط، مما جعل حنا دي برين يعود إلى الشام تاركاً المندوب البابوي بلاجيوس قائداً وحيداً للصليبيين في دمياط لمدة عام كامل ٦١٧هـ / ١٢٢٠ـ ١٢٢١م دون القيام بعمل عسكري ذي أهمية، كما كان لانغماس الفرسان ـ خلال فترة الركود

---

(١) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٣؛ محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠، Lanepoole. A History of Egypt, p. 223.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٧، وعن نزاع الأشرف مع زعماء الجزيرة انظر، ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٣٧ ـ ٣٤٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٧٠ ـ ٧٧.

تلك ـ في الفسوق والفجور وارتكاب المعاصي والأعمال القبيحة[1]، من الأثر ما ساعد المسلمين على تنظيم صفوفهم وتجميع قواهم من جديد، فتمكّن الأشرف خلال تلك المدة من توطيد نفوذه في إقليم الجزيرة ودخل زعماؤ ها في طاعته، وعندئذ أرسل الكامل إلى أخويه الأشرف والمعظم يطلب قدومهما لنجدته[2].

سار المعظم إلى الأشرف بالجزيرة واصطحبه مع عساكره إلى الشام وقررا المضي إلى مصر لتقديم المساعدة لأخيهما الكامل وحسم الموقف مع الصليبيين. وحين وصولهما إلى الشام استدعى الأشرف عسكر حلب، كما انضم إليه عسكر حماه بقيادة الناصر قلج أرسلان وعسكر حمص وعسكر صاحب بعلبك وغيرهم من أمراء الشام، وتقدم الأشرف بعساكر الشام والجزيرة قاصداً مصر، وسار أخوه المعظم في إثره، فوصل الجميع إلى مصر في جمادى الآخرة سنة٦١٨هـ/ يوليه ١٢٢١م[3].

وكان الصليبيون قد تلقوا نجدة بقيادة لويس دوق بافاريا في جمادى الأولى سنة ٦١٨هـ / يونيه ١٢٢١م كما عاد إليهم من جديد حنا دي برين صاحب عكا، وقرر بلاجيوس الزحف بجموع الصليبيين إلى القاهرة للاستيلاء عليها[4].

ولقد أدى وصول النجدات إلى الكامل إلى رفع الروح المعنوية لدى المسلمين بحيث يمكن تشبيه هذا الحشد الإسلامي بذلك الذي توافر لصلاح الدين حين قام بمحاصرة عكا[5]. وتمخض عنه تعديل ميزان القوى لصالح

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣٦ ـ ٩٣٧؛ محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص ٣٤١ ـ ٣٥٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٢٨.

(٣) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٢ أ؛ العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٤١٨؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ورقة ٤٣ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦١٩ ـ ٦٢٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٤ ـ ٩٥؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٣٧؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ٣ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٥) Lanepoole , A History of Egypt, p. 223.

المسلمين، واستقر رأي الكامل وأخيه الأشرف على الزحف إلى أحد فروع النيل ويسمى بحر المحلة وقاتلوا الصليبيين، وتقدمت شواني[1] المسلمين واشتبكت مع شواني الفرنج فغنموا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال والأموال، وفرح المسلمون بذلك «واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم، واستطالوا على عدوهم»[2].

ويبدو أن السلطان الكامل بلغه نبأ تعهد الامبراطور فردريك الثاني (١٢١٢ ـ ١٢٥٠م) ملك الامبراطورية الرومانية المقدسة بالقدوم للاشتراك في الحملة، ولا سيما وأن فردريك أمر لويس دوق بافاريا أن لا يقوم بهجوم كبير إلا بعد أن يصل في إثره[3]. ولذلك لم يغتر الكامل بالإمدادات التي وصلت إليه خشية وصول فردريك الثاني، فتقدم بعرضه لإجراء الصلح مرة أخرى، وبذل للصليبيين تسليمهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين من ساحل الشام ما عدا الكرك والشوبك. مقابل جلاء الصليبيين عن مصر وإعادة دمياط. غير أن الصليبيين بزعامة بلاجيوس رفضوا العرض وأصرّوا على تسليم الكرك والشوبك. ودفع ثلاثمائة ألف دينار لتعمير أسوار بيت المقدس ومن الواضح أن بلاجيوس تشدد بغية الحيلولة دون قبول شروطه بعد أن توهم أن الطريق إلى القاهرة أضحى سالكاً أمامه[4].

---

(١) الشواني: مفردها شيني: من أقدم السفن، وكانت أهم قطع الأسطول الروماني وفي العصور الوسطى كانت من أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الإسلامي، وكانت أكبر السفن وأكثرها استعمالاً لحمل المقاتلين، وكانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم، وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد مئة وخمسين رجلاً ويجدف بمائة مجداف. انظر سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٥٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٩٥.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦، (The Cambridge History of Islam, p. 208).

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٩٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٠٩ ـ ٢١١؛ Campbell. The Crusades p. 398، ويذكر المقريزي أن المبلغ الذي طلبه الصليبيون خمسمائة ألف دينار، انظر المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٠٧.

ولا سيما بعد أن لمس مدى الحماس الطاغي الذي يعتلج في نفوس الصليبيين الجدد الذين أتوا أخيراً من أوروبا [١].

وتقدم الصليبيون وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هي بحيرة المنزلة وبحر أشموم ـ أحد فروع النيل ـ وفرع دمياط غرباً، وأمامهم جنوباً رأس المثلث حيث يتفرّع النيل إلى الفرعين السابقين[٢]. وكان الغرور قد بلغ بالصليبيين درجة مفرطة بحيث لم يأخذوا معهم من الميرة «ما يقوتهم عدة أيام ظناً منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم وأن القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة، لأمر يريده الله بهم»[٣].

وكان السلطان الكامل قد أعد خططه، فعبرت فرقة من عساكر المسلمين إلى الأرض التي عليها الصليبيون «ففجروا فجوة عظيمة في النيل، وكان ذلك في قوة زيادته»[٤] وحدد المقريزي ذلك بأول ليلة من شهر توت ـ رجب ٦١٨هـ / أغسطس ١٢٢١م ـ وهو وقت ارتفاع الفيضان وشدة حرارة الصيف «والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل»[٥] وغمرت المياه كل الأرض التي يقيم عليها الصليبيون، ولم يبق لهم غير جهة واحدة ضيقة يسلكونها، فنصب الكامل الجسور على النيل وعبرت العساكر واستولوا على الطريق الذي سوف يسلكه الصليبيون في عودتهم إلى دمياط. وهكذا أحيط بالصليبيين فوقعوا في مأزق صعب، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وطوقتهم عساكر المسلمين من كل ناحية يرمونهم بالسهام ويضيقون عليهم الخناق[٦]. ووصل في هذه الأثناء

---

(١) (Steevenson, The Crusaders in the East, p. 305).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٤١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٣٨؛ محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، خريطة رقم ٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٢٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٩٦.

(٥) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٢٣٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٩٦؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٢٩.

مركب عظيم يسمى مرمة، وحولها عدة حراقات[1] تحميها وجميعها محملة بالمؤن والسلاح للصليبيين فاشتبكت معها شواني المسلمين وظفروا بالمرمة، وما معها من الحراقات وأخذوها غنيمة، الأمر الذي حطم معنويات الصليبيين «ورأوا أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها»[2].

وبعد أن أيقن الصليبيون أنه لم يعد في مقدورهم القتال في أرض موحلة، ولا سيما بعد أن بلغت المياه إلى ركبهم، وليس في إمكانهم الانسحاب في أمان، وأنهم معرضون للهلاك، أرسلوا إلى السلطان الكامل يطلبون الصلح، فعرضوا عليه استعدادهم للجلاء عن دمياط وكل أرض مصر، مقابل السماح لهم بالخروج سالمين، فأجابهم السلطان الكامل إلى طلبهم، ورفض مشورة أخويه المعظم والأشرف بالإجهاز عليهم. وطلب الكامل منهم إرسال رهائن من ملوكهم حتى تسليم دمياط، فأرسلوا إليه عشرين من زعمائهم وعلى رأسهم حنا دي برين صاحب عكا، والمندوب البابوي بلاجيوس، وبعث الكامل مقابل ذلك ابنه الصالح أيوب وبعض خواصه. وفعلاً انسحب الصليبيون إلى دمياط وأخيراً تم جلاؤهم عنها، وتسلمها المسلمون في ٩ رجب سنة ٦١٨ هـ / ٧ سبتمبر ١٢٢١م[3].

ورحل الصليبيون إلى أوروبا بينما عاد الملك حنا دي برين برجاله إلى

---

(١) الحراقة: جمعها حراقات وحراريق وهي سفن بها مرامي للنيران وقيل هي المرامي نفسها، ومهمتها رمي النار على الأعداء. انظر سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠؛ وانظر أيضاً ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٦.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٦ أ ب؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٢ ب ـ ١٥٣ أ؛ العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٤٢٠ ـ ٤٢٣؛ أبو الفدا: التبر المسبوك حوادث ٦١٨هـ مخطوط؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٨ أ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٩٧ ـ ٩٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ٢١١؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧؛ الحريري: الأعلام والتبيين ص ٩٤ ـ ٩٥؛ نظير سعداوي: الحرب والسلام ص ٧٩، (The Cambridge History of Islam, p. 208).

الشام بعد أن عقد مع السلطان الكامل هدنة مدتها ثمان سنوات على أن يطلق كل من الجانبين أسرى الجانب الآخر[1]. واحتفل الكامل وإخوته باسترداد دمياط، وفشلت الحملة الصليبية بفضل اتحادهم وتعاونهم، ومدحهم الشعراء بهذه المناسبة[2].

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٠٩، (Stevenson, op. cit. p. 307).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٠٠ ـ ١٠٥؛ الصفدي: **الوافي بالوفيات** جـ ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧؛ اليافعي: مرآة الجنان جـ ٤ ص ٣٩.

خلفاء السلطان العادل وموقفهم من الصليبيين

٦١٨ ـ ٦٤٢ هـ

أسهم التعاون بين أبناء العادل الثلاثة في إفشال الحملة الصليبية الخامسة، وتم شرح الدور الذي لعبه المعظم بن العادل صاحب دمشق في الضغط على الصليبيين في بلاد الشام خلال هجوم الصليبيين على مصر، ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال ذلك الدور الذي قام به المعظم في التجسس على الصليبيين، لما له من أهمية وطرافة في الوقت نفسه. فقد ذكر الصفدي أن المعظم تنكر في زي زيات ـ بائع زيوت ـ ودخل إلى عكا للاطلاع عن كثب على تحركات الصليبيين واستعداداتهم، ورهن خاتمه عند صاحب حانوت ثم عاد إلى دمشق، وأرسل إلى صاحب عكا حنا دي برين ـ يخبره بذهابه إلى عكا «وأمره أن يفك خاتمه، فقامت قيامته وكاد يموت غيظاً»[١].

أما المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي فقد ذكر أن المعظم كان في أيام الحرب ضد الصليبيين «يرتب النيران على الجبال من نابلس إلى عكا وعلى جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم وبين الجواسيس علامات» وكانت استخبارات المعظم حتى في عكا ذاتها، إذ جند بعض نساء الفرنج، للعمل في خدمته، وكانت طاقات بيوتهن تفتح قبالة جبل الكرمل، فإذا قرر الفرنج شن الغارة على المسلمين تفتح المرأة ـ التي تعمل مخبرة للمعظم ـ الطاقة، وإذا كان عدد فرسان الغارة مئة، توقد المرأة شمعة واحدة

(١) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٣ أ.

وإذا كانوا مئتين توقد شمعتين وهكذا[1]. وكان أولئك النسوة يعطين إشارات متفق عليها للجهة التي سوف يقصدها الصليبيون. وكان المعظم يعطيهن جزاء خدماتهن تلك أموالاً كثيرة وهدايا قيمة حتى أن صديقه المؤرخ سبط ابن الجوزي انتقد إسرافه في إعطاء الأموال بكثرة للجواسيس، فأخبره المعظم أن تلك الأموال التي يدفعها لا تقارن أبداً بما يمكن أن يحدث للمسلمين لو لم يتجسس على الصليبيين ويعلم تحركاتهم. وضرب المعظم مثالاً على ذلك حينما قرر الامبراطور فردريك الثاني أن يقوم بحملته الصليبية زمن الحملة الخامسة، فبعث بأحد فرسانه إلى الشام ليوافيه بالأخبار، وأمره بكتمان الخبر حتى ينزل الامبراطور فجأة إلى الشام، أثناء انشغال الأيوبيين بالحملة الخامسة على مصر، الأمر الذي سوف يمكنه من المسير إلى عاصمة الشام دمشق. واستطاعت امرأة صليبية تعمل لحساب المعظم كشف أمر ذلك الفارس الذي أرسله الامبراطور، وأخبرت المعظم بذلك، فأرسل لها ثياباً من الحرير وعنبراً وأشياء أخرى ثمينة وأوعز إليها بجمع كل أخبار ذلك الفارس. وتمكنت تلك المرأة من استدراجه حتى وثق بها، وصار يطلعها على رسائل الامبراطور، فتقوم هي بدورها بإخبار المعظم بذلك، وتمكن المعظم من معرفة نوايا فردريك الثاني وخططه، ويضيف المعظم في رده على سبط ابن الجوزي حين اتهمه بالإسراف قائلاً: «فلو لم أدار عن المسلمين، فلو جاء الانبرور [الامبراطور] وساق أهل الشام ومواشيهم وأموالهم ما لا يعد ولا يحصى، فأنا أفدي المسلمين بالشيء الكثير، وأحفظ الخطير بالحقير»[2].

ولم تقتصر جهود المعظم على استطلاع أخبار الفرنج بالشام فحسب، بل تعدت ذلك إلى الغرب الأوروبي مصدر الحملات الصليبية المتلاحقة ضد بلاد المسلمين، فقد ذكر سبط ابن الجوزي أن والي الشوبك ـ ويدعى سعد الدين بن

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٤٦.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٤٦ ـ ٦٤٧؛ وانظر أيضاً اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ أ؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٨٠.

مسعود ـ أخبره أنه كان يوجد بولايته راهب نصراني منصرف للعبادة في بيعته بأحد الجبال قرب الشوبك، فجاء كتاب المعظم إلى الوالي يأمره بنفي ذلك الراهب، فنفاه فغاب مدة سنة ثم عاد إلى الشوبك بكتاب من المعظم يأمره بالإحسان إليه وإعادته إلى صومعته والعناية بأموره، وبحث الوالي عن سبب نفيه وعودته بعد سنة مكرماً، فاتضح له أن المعظم جنّد الراهب، وأرسله إلى جزر البحر المتوسط ليكشف له أخبار الامبراطور فردريك الثاني «وإنما نفاه حتى لا يُتهم وأطلق له أرضاً يعيش منها وأعطاه مائة دينار»[1]. ويتضح من كل هذا دهاء المعظم الذي لم يستخدم المسلمين في أعمال الجاسوسية بل عمد إلى تجنيد العملاء من الصليبيين وبعض رجال الدين النصارى للقيام بهذه المهام وذلك لكي لا تحوم الشكوك والشبهات حولهم الأمر الذي يتيح لهم العمل بحرية تامة، حيث يستطيعون الوصول إلى المناطق الهامة والحساسة من المعاقل الصليبية التي يصعب أن يصل إليها الجواسيس من المسلمين.

على أن جهود المعظم ضد الصليبيين لم يكتب لها الدوام بسبب الخلاف الذي دب بينه وبين أخويه الكامل والأشرف، واحتدم ذلك الخلاف وتفاقم حتى وصل مرحلة بالغة الخطورة، فتحالف المعظم مع جلال الدين الخوارزمي أقوى ملوك المسلمين في ذلك الحين وأصبح الكامل مهدداً، ولم يجد من الحكام المسلمين من يقف إلى جانبه لمواجهة تحالف أخيه المعظم مع الخوارزمي، وخشي الكامل أن يهاجم الخوارزمي ممتلكات أخيه الأشرف في الجزيرة ثم يمتد خطره على الدولة الأيوبية في مصر والشام[2]. ولذلك قرر الاستعانة بالامبراطور فردريك الثاني امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة. كرد فعل على تحالف أخيه المعظم مع جلال الدين الخوارزمي وللضغط على المعظم لكي يتخلى عن حليفه ويعود إلى طاعته من جديد باعتباره سلطان الدولة الأيوبية، فأرسل

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٤٧؛ وانظر أيضا اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ أ؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب، ص ٢٨٠.

(٢) عن الخلاف بين المعظم وأخويه الكامل والأشرف وأسبابه وتطوراته، انظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١١٨ ـ ١٢٨.

الكامل فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى الامبراطور فردريك الثاني يطلب منه القدوم إلى عكا، ووعده أن يعطيه بيت المقدس وبعض فتوح صلاح الدين. وجميع هذه البلاد التي عرض الكامل تسليمها كانت داخلة في مملكة المعظم صاحب دمشق (١).

والحق أن الامبراطور فردريك الثاني كان قد وعد منذ زمن مبكر ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م بالقيام على رأس حملة صليبية، ولكن تبين فيما بعد أن الامبراطور غير مستعد لإظهار وعده إلى حيز الوجود على الرغم من المطالبات المستمرة لثلاثة من البابوات له بتنفيذ وعده (٢). وفي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م تزوج فردريك الثاني من يولاند ابنة حنا دي بريين الوريثة الشرعية - بزعمهم - لمملكة بيت المقدس، وبذلك أضحى لدى الامبراطور حافز شرعي للقيام بحملته إلا أنه ظل - مع ذلك - متقاعساً عن بدء رحلته إلى الأراضي المقدسة، الأمر الذي جعل البابا جريجوري السابع (١٢٢٧ هـ - ١٢٤١ م) يصدر ضده قرار الحرمان سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م (٣).

على أي حال، فقد جاء عرض الملك الكامل تسليم بيت المقدس وبعض مدن الساحل إلى فردريك الثاني في صالح الأخير الذي وجد في ذلك العرض فرصة سانحة يجب اقتناصها لتسوية الخلاف مع البابوية ولإبطال أية حجج

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٠٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢١؛ Conder, the Latine Kingdom of Jerusalem p. 312, Stevenson, op.cit. p.310.

(٢) Painter, A History of the Middle Ages ,p.217.

(٣) (Painter. Ibid. p.217): وجدير بالملاحظة هنا أن الأزمة الناشبة بين الامبراطور فردريك الثاني والبابوية لم يكن سببها تقاعسه عن القيام بحملته الصليبية وإنما يعود أصلاً إلى النزاع الطويل الذي دار بين البابوية والامبراطورية في غرب أوروبا من أجل السيادة العليا على العالم المسيحي. وعن ذلك النزاع وأدواره ونتائجه - راجع: سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٣٣٨ - ٣٩٤، (Painter , op. cit.pp. 276 - 288)

تتذرع بها ضده [1]، فبادر بتلبية طلب الكامل وأرسل له هدية قيمة تضمنت تحفاً نادرة وبعض الخيول التي كان من بينها فرس الامبراطور نفسه فضلاً عن بعض الجواهر [2].

فلما وصل مبعوثه إلى مصر أمر السلطان الكامل بالاحتفاء بمقدمه وترتيب الإقامات له في الطريق من الاسكندرية إلى القاهرة، حتى اقترب من القاهرة، تلقاه بنفسه، وأكرمه، وأنزله في دار الوزير صفي الدين بن شكر، وبعث الكامل إلى ابن أخته العزيز صاحب حلب بثلاثة أفراس من هدية الامبراطور بينها فرسه وبعض مراكب الذهب وغيرها. وأمر السلطان بالرد على هدية الامبراطور بأضعافها من تحف الهند واليمن والشام والعراق وسروج الذهب، وأمر بجعل أحد السروج مرصعاً بالجواهر بما قيمته عشرة آلاف دينار مصرية وبعث بها مع أحد أصحابه ويدعى جمال الدين إسماعيل بن منقذ الشيزري [3].

---

(1) يرى بعض الباحثين المحدثين، أنه ربما تكون أخبار حملة فردريك المنتظرة قد وصلت إلى أسماع الكامل الذي أدرك أن الامبراطور بهذه الحملة سيقع في عداء مع المعظم صاحب دمشق وبيت المقدس، لذلك فإن الكامل رأى ضرورة الاتفاق مع فردريك على تسليمه بيت المقدس، ليتفادى وقوع حرب صليبية جديدة. انظر حامد زيان: العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية (رسالة دكتوراه قدمت بجامعة القاهرة ولم تطبع) ص ١٢٣. لكن من الصعب التسليم بهذا الرأي، لأن استدعاء الكامل لفردريك، وكما أوضحنا آنفاً، كان سببه الخلاف الذي نشب بينه وبين المعظم وتحالف الأخير مع الخوارزمي بحيث أصبح الكامل في عزلة وبات نفوذه مهدداً ولم يجد من القوى الإسلامية المعاصرة من يستطيع الوقوف إلى جانبه ومواجهة تحالف أخيه مع الخوارزمي، فلم يجد أمامه سوى فردريك الثاني. وليس معنى ذلك أن الكامل كان مصيباً في توجهه للتحالف مع عدو لدود للإسلام والمسلمين، يستعين به على أخيه المعظم والخوارزمي وهم مسلمون مثله، فلا شك أن ذلك خطأ جسيم منه، وللمزيد من البراهين على صحة هذا التحليل، انظر ما سبق ص ١١٨ ـ ١٢٨.

(2) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ١٤٨ ـ ١٤٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٣.

(3) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٤٨ ـ ١٤٩؛ وحاشية رقم (٢) نقلاً عن ابن الفرات؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٣؛ حامد زيان: العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية ص ١٢٦.

ومن الواضح أن الامبراطور فردريك الثاني كان على معرفة تامة بالقوى الإسلامية الموجودة في بلاد الشام. فقد ذكر ابن نظيف الحموي في حوادث سنة ٦٢٤ هـ أن رسول الامبراطور وصل إلى الإسماعيلية بالحصون الشامية حاملاً معه جواب رسالة الإسماعيلية التي كانوا قد بعثوها إليه ومع الرسول هدية لهم بما قيمته ثمانون ألف دينار، وكان هدف الامبراطور من تلك الهدية العمل على تحييد الإسماعيلية لكي لا يقفوا ضده ويحاولوا اغتياله، فبعث زعيم الإسماعيلية بالشام بقميصه إلى الامبراطور كعنوان أمان له حين قدومه إلى الشام [١]. غير أن الاسبتارية لم يرضوا بتلك العلاقة الوطيدة بين الامبراطور والإسماعيلية، ولا سيما وأن فردريك محروم من الكنيسة، في الوقت الذي كانت فيه الاسبتارية من أشد طوائف الصليبيين ولاء للبابوية، لذلك عمد فرسان الاسبتارية إلى محاولة إفساد العلاقة بين الامبراطور والإسماعيلية فبعثوا إليهم يطلبون الأتاوة فرد الإسماعيلية بقولهم: «ملككم يعطينا وأنتم تأخذون منا، ومنعوهم» وعند ذلك شن الاسبتارية الغارة على الإسماعيلية «وأخذوا من بلدهم جملة» [٢].

وحاول الامبراطور فردريك الحصول على موافقة الملك المعظم على تسليم القدس وغيرها من البلاد، فبعد أن فرغ مبعوثه من السلطان الكامل ذهب إلى دمشق وقابل المعظم مطالباً بتسليم البلاد التي عرضها الكامل، فغضب المعظم وخاطب رسول الامبراطور فردريك قائلاً: «قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ما له عندي سوى السيف» [٣].

وشرع المعظم في الاستعداد لصد الامبراطور، فسار إلى بيت المقدس وخرب أساسات قلاع صفد وكوكب وتبنين وصهاريج المياه الواقعة في الطريق

(١) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٥١.

(٢) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ١٥١.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨ ص ٦٤٣؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥١؛ ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ٢٨٤.

إلى بيت المقدس حتى لا يفيد منها الصليبيون بقيادة فردريك إذ ما تقدموا نحو القدس [1]. كما جهز المعظم جزءاً من قواته إلى جهة طرابلس لمراقبة تحركات الصليبيين. وأنفق على عساكره تسعمائة ألف درهم لتجهيزها للمواجهة القادمة مع قوات الامبراطور. غير أن الأجل لم يمهل الملك المعظم لحماية بيت المقدس فتوفي في ذي القعدة ٦٢٤ هـ/ نوفمبر ١٢٢٧ م [2].

أما في الجانب الصليبي فقد وصلت إلى عكا ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م فرقتان صليبيتان انتظرتا الامبراطور فردريك الثاني، ولم تقوما بأي عمل عسكري يذكر ضد المسلمين [3]. غير أن المسلمين لم يعبأوا بتلك الجموع الجديدة فتقدم العزيز عثمان بن العادل، وقاد جيشاً من المسلمين وأغار على بلاد صور، فخرج إليه قرابة مائتي فارس من الصليبيين ، فأوقع بهم بين قتيل وأسير، وكان من جملة الأسرى ابن والي صور الصليبي، كما استاق العزيز غنيمة كبيرة من الماشية وستة آلاف رأس من الغنم، وسار بالجميع إلى دمشق [4].

والواقع أن وفاة المعظم في ذي القعدة ٦٢٤ هـ/ نوفمبر ١٢٢٧ م أتاحت الفرصة لأخيه الكامل للاستيلاء على مملكته، فاتخذ من رفض الناصر داود بن المعظم التنازل له عن قلعة الشوبك، ذريعة للخروج إلى الشام في رمضان ٦٢٥ هـ/ أغسطس ١٢٢٨ م، والاستيلاء على القدس وغيرها من مدن فلسطين التابعة للناصر داود [5].

على أن المؤرخين لم يوردوا نصوص المراسلات التي دارت بين الكامل وفردريك قبيل موت المعظم، ووصول الامبراطور إلى الشام. وإن كان ابن

---

(١) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٤٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٤٧ - ٦٤٨.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٦؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٧٧ - ٤٧٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٤.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٢ - ١٥٣؛ وانظر أيضاً تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٢؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٥٨.

(٥) انظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١٢٨ - ١٢٩.

الفرات أشار إلى أن الكامل ـ حين وصل إلى نابلس وسيطر على ممتلكات الناصر داود في فلسطين ـ بلغه «أن الامبراطور وصل إلى يافا في ميعاده فعاد السلطان من نابلس إلى تل العجول ونزل عليها» (١). فهو يؤكد أن الامبراطور وصل «في ميعاده» الأمر الذي يُفهم منه أنه قد تم خلال المراسلات الأولى بينهما قبيل موت المعظم تحديد الزمن الذي سوف يصل فيه الامبراطور إلى بلاد الشام.

وكيفما كان الأمر، فقد جاء وصول الامبراطور فردريك الثاني إلى يافا في شوال ٦٢٥ هـ/ سبتمبر ١٢٢٨ م بعد أن تغيرت الظروف في بلاد الشام لصالح الكامل، فالمعظم توفي وأخوه الآخر الأشرف عيسى انضم إليه واتفقا على اقتسام مملكة الناصر داود بينهما، ولم يعد الكامل في حاجة إلى مساعدة الامبراطور غير أنه وقع في موقف حرج معه، فهو الذي استدعاه ووعده بتسليمه بيت المقدس وما يتصل بها من بلاد. وقد أشار المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقف الذي وقع فيه الكامل فقال بعضهم: «ولما وصل الامبراطور إلى عكا نشب به السلطان الكامل لأن أخاه المعظم الذي كان السبب في استدعائه توفي وقد استغنى عنه ولم يمكنه دفعه لما تقدم بينهما من الاتفاق» (٢).

وحين وصول الامبراطور فردريك إلى عكا اضطر الكامل إلى مداراته وملاطفته (٣). وعمد فردريك إلى الحجج السياسية لإقناع الكامل بتسليم بيت المقدس، فبعث إليه بأحد أمرائه ويدعى الكونت توماس وصحبته صاحب صيدا وقالا له: «الملك يقول لك أن الجيد للمسلمين والمصلحة لهم أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي في زمان حصار دمياط الساحل كله... ومن نائبي؟ إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له» (٤). وشرع الصليبيون في عمارة صيدا وكانت مناصفة بينهم

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٩ ـ ٣٠ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٣.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٧ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ؛ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٧ ـ ٢٨ ؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٦٤ ؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ؛ ويقصد فردريك عروض الكامل للصليبيين بالتنازل عن بيت

وبين المسلمين، وسورها خراب، فاستولوا عليها وعمروها بعد أن أزالوا حكم المسلمين عنها، وقد تمكنوا من ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها مثل هونين وتبنين زمن الحملة الصليبية الخامسة. ويبدو أن هذا الإجراء كان محاولة من الامبراطور فردريك الثاني لتخويف السلطان الكامل وإظهار قوته له في الوقت الذي استمرت فيه الرسل تتردد بينهما بقية سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م [١].

وقد تردد الكامل في بادىء الأمر في إجابة فردريك إلى مطالبه وطالت المفاوضات بين الجانبين [٢]. حتى أن البابا بدأ يعمل ضد الامبراطور في أوروبا، فأصدر ضده قرار الحرمان مرة أخرى، وأشاع أنه قُتِل ، وشرع في العدوان على ممتلكاته، فساء موقف الامبراطور فردريك الثاني كثيراً، ولجأ إلى سلاح الاستعطاف والتذلل للسلطان، ويحكى أنه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات، الأمر الذي أثر في نفسية الكامل الذي عرف بالتسامح والبعد عن التطرف في علاقاته مع الصليبيين [٣].

على أن بعض المستشرقين يرى أن السلطان الكامل أصبح مستعداً للاتفاق مع الامبراطور حتى لا يتحالف الأخير مع ابن أخيه الناصر داود [٤]. ولكن هذا الافتراض غير صحيح، لأنه من الصعب على الناصر داود، وهو في دمشق أن يُقْدِم على التحالف مع الصليبيين خشية سكان دمشق الذين كانوا أكثر المسلمين إحساساً بالخطر الصليبي، ولن يقبلوا لملكهم بالانحدار إلى التحالف مع العدو، إضافة إلى أن الناصر داود لم يكن في وسعه الاتصال

المقدس وغيرها لقاء انسحابهم من مصر زمن الحملة الصليبية الخامسة، انظر ما سبق ص: ٢٤٧ ـ ٢٤٨، ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٥ ب؛ تاريخ ابن الفرات؛ جـ ٦ لوحة ٢٧، ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٧٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٥؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٥٦؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٢٢؛ الحريري، الإعلام والتبيين، ص ٩٥.

(٢) تاريخ ابن الفرات، جـ ٦ لوحة ٤٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤١.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٦٥ ـ ٩٦٦.

(٤) Campbell: The Crusades, P.405. Stevenson, the Crusaders in the East, p.311.

بفردريك بعد أن أضحت دمشق محاصرة بقوات عمه الأشرف. ومن الواضح أن الكامل لم يشأ أن يطول جمود الموقف بينه وبين فردريك مما قد يؤدي إلى نشوب الحرب بين الجانبين في وقت كانت ما تزال دمشق صامدة أمام حصار الأشرف كما أن مدينة القدس باتت مفتوحة منذ تدمير أسوارها زمن الحملة الصليبية الخامسة ومن الصعب الدفاع عنها، إضافة إلى أن الناصر داود بعث يستنجد بجلال الدين الخوارزمي أقوى حكام المسلمين في ذلك الوقت، ويخبره أن عميه الكامل والأشرف لم يهاجما مملكته إلا بسبب انتماء والده إليه ودخوله في طاعته [١]. وهكذا أضحى الوقت في غير صالح الكامل، لأن استمرار الموقف جامداً سوف يتيح الفرصة للخوارزمي لتلبية استغاثة الناصر داود.

وقد ذكر أحد المؤرخين الأوروبيين المحدثين أن فردريك اجتمع بالسلطان الكامل إلى الجنوب من قيسارية في شتاء عام ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م [٢] غير أنه لم يرد في المصادر العربية ما يشير إلى عقد مثل هذا الاجتماع إلا أنه ليس من المستبعد انعقاده وقتذاك نظراً لقصر المسافة بين تل العجول قرب غزة - حيث كان يقيم السلطان الكامل - وبين قيسارية على ساحل فلسطين المقابل لطبرية، كما أن من المحتمل أن يكون ذلك الاجتماع قد تم بصورة سرية لوضع اللمسات الأخيرة على اتفاقية الصلح بين الجانبين.

ومهما يكن من شيء، فقد كان السفير المتنقل بين الكامل والامبراطور فردريك خلال مراحل المفاوضات الطويلة، هو الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذي انعقدت بينه وبين الامبراطور صداقة متينة [٣]. وتوصل الجانبان إلى عقد الصلح بينهما في ٢٨ ربيع الأول ٦٢٦ هـ/ ١٨ فبراير ١٢٢٩ م لمدة عشر سنوات، وتقرر بمقتضى الصلح أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس

(١) انظر ما سبق، الفصل الثاني ص: ١٣٣.

(٢) Conder, the Latin Kingdom, p.313.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٢.

وبيت لحم والناصرة [1]، وأن يبقى سور بيت المقدس خراباً فلا يجدد، وتكون جميع القرى التابعة للقدس بأيدي المسلمين، ويحكمها والٍ مسلم يقيم بالبيرة شمال القدس، ويكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط [2]. كما كفلت الاتفاقية حرية العبادة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء [3]. ومنحت الاتفاقية الصليبيين عدداً من القرى الواقعة فيما بين عكا ويافا وبين اللد وبيت المقدس وذلك لضمان سلامتهم أثناء تنقلهم إلى المدينة المقدسة [4]، وتعهد الامبراطور فردريك الثاني من جانبه للسلطان الكامل بعدم الاشتراك أو المساعدة في أية حملة صليبية للهجوم على أملاك السلطان، بل وعرقلة أي جهد صليبي ضد أملاكه [5].

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن فردريك الثاني استطاع مع ضعف إمكانياته أن يحقق من المكاسب ما عجزت عنه جهود ريتشارد قلب الأسد بإمكانياته الضخمة، مع ملاحظة أن فردريك حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً [6]. إلا أنه ليس من السهل القبول بهذه المقارنة غير المتكافئة فريتشارد قلب الأسد واجه صلاح الدين ذلك المجاهد العظيم الذي نذر نفسه وعمره لجهاد الصليبيين، واسترداد ما اغتصبوه من بلاد

---

(١) Campbell: op. cit. p.406; The Cambridge History of Islam p.208; Painter: op. cit. p. 217

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية، ورقة ٢٧ ب - ٢٨ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٢ - ٤٣؛ السيوطي: اتحاف الاخصا ورقة ١٢٤ أ ؛ ابن أيبك: درر التيجان مخطوط حوادث ٦٢٦ هـ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٠.

(٣) Painter; op.cit. p.217.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤١ - ٢٤٢؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٠؛ (Campbell: op. cit. p.406, Painter: op. cit. P 217; The Cambridge History of Islam, P. 208.

(٥) Campbell: op. cit. p. 406; Painter: op. cit. p.217.

(٦) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٦٧.

المسلمين في غفلة منهم، ولا يمكن لقائد كصلاح الدين آمن بالجهاد إيماناً عميقاً، باعتباره أعظم فرائض الإسلام وأفضلها، وصرف أكثر عمره في جهاد الصليبيين حتى هزمهم في حطين واستعاد منهم بيت المقدس وغيرها. وقدم في سبيل ذلك آلاف الشهداء، لا يمكن لرجل هذه صفاته وسجاياه أن يسمح لريتشارد قلب الأسد بتحقيق أية مكاسب على حساب الإسلام والمسلمين. كما أنه من الظلم مقارنة الناصر صلاح الدين، بالملك الكامل، الذي تنازل للصليبيين عن أجزاء هامة من بلاد الشام في سبيل تحقيق أطماعه بضم دمشق إلى مملكته.

ويبرر بعض المؤرخين المسلمين هذا التصرف من السلطان الكامل بقولهم: «ورأى الكامل أنه إن شاقق الامبراطور ولم يف له بالكلية أن يفتح له باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق ويفوت عليه كل ما خرج بسببه فرأى أن يرضي الفرنج بمدينة القدس خراباً ويهادنهم، وهو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء»[1]. ولكن هذا التصرف حينما ينظر إليه من المنظور الإسلامي لا يمكن اعتباره إلا جرماً ارتكبه الكامل في حق الإسلام والمسلمين بتنازله عن

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٢ - وقد بلغ التزلف ببعض المؤرخين المعاصرين إلى حد إصدار فتوى بإباحة فعلة السلطان الكامل، فابن أبي الدم الحموي أفاض كثيراً في مدح السلطان الكامل والإشادة بصلحه مع فردريك الثاني وتسليمه بيت المقدس ومما قاله عنه أنه: «صالحهم صلحاً تاماً رأى فيه صلاحاً للمسلمين وغبطة... وعقد معهم الهدنة الشرعية» انظر ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري لوحة ٥٤٩ - ٥٥١، غير أننا نلتمس العذر لابن أبي الدم الحموي لأنه ألَّف تاريخه زمن السلطان الكامل وكان يعيش في كنف ابن أخت السلطان وزوج ابنته المظفر صاحب حماه، ولكن يجدر التحذير بعدم أخذ رواياته عن بني أيوب على علاتها حتى لا تضلل الدارس. كما أصدر ابن واصل هو الآخر فتوى في كتابه التاريخ الصالحي أجاز فيها للسلطان الكامل إعطاء بيت المقدس للامبراطور فردريك، وبرر فتواه تلك بقوله: «فإن الإمام يجوز له تسليم بلد من البلاد الإسلامية إلى الكفار، إذا رأى في ترك التسليم لهم ضرراً ظاهراً لا يمكن تلافيه»؛ انظر ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٠ أ - وهنا نعذر ابن واصل في فتواه هذه لأنه ألَّف تاريخه هذا للصالح أيوب بن الكامل ولم يجرؤ على نقد الملك الكامل في كتاب سيقدمه هدية لابنه السلطان الصالح أيوب. بينما نجده في كتابه مفرج الكروب الذي صنفه بعد سقوط الدولة الأيوبية يكتب عن تسليم بيت المقدس بموضوعية بعيدة عن التزلف والمؤثرات ونجده يُبرز السخط العارم الذي عَمَّ صفوف المسلمين بعد تسليم بيت المقدس شأنه في ذلك شأن بقية المؤرخين المسلمين كما سنرى في الصفحات التالية.

أراض إسلامية للأعداء، مقابل التفرغ بالكلية لانتزاع مملكة ابن أخيه المسلم، مع العلم أن ابن أخيه لم يعلن العصيان ضده، بل كان في إمكان الكامل بعد موت أخيه المعظم حشد كل قوى ملوك بني أيوب خلفه لجهاد الصليبيين وتحرير الأراضي المغتصبة من قبضتهم.

ولم يغفر المسلمون المعاصرون للسلطان الكامل هذه الفعلة الشنيعة، حتى أن أحد قادة جيشه ويدعى سيف الدين بن أبي زكري حذره من مغبة تسليم بيت المقدس والتفريط في حقوق المسلمين ونصحه قائلاً: «ابق دمشق على ابن أخيك الناصر واطلبه واطلب أخاك الملك الأشرف وعسكر حلب، ونقاتل هذا العدو فإما لنا وإما علينا، ولا يقال عن السلطان أنه أعطى الفرنج القدس». ولم يجد ابن أبي زكري من الكامل أذناً صاغية بل غضب عليه واعتقله «وسيره إلى مصر فحبسه بها»[1].

وحينما بعث الكامل ينادي في القدس بخروج السكان المسلمين وتسليمه إلى الصليبيين «وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم وأنكروا على الكامل هذ الفعل واستشنعوه منه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الناصر صلاح الدين»[2]. وعبر الأئمة والمؤذنون الذين في المسجد الأقصى والصخرة وبقية مساجد القدس عن سخطهم وسخط جميع المسلمين بصورة مدوية ومؤلمة، فأخذوا ستائر المسجد وقناديله الفضية وآلاته وحضروا إلى باب خيمة السلطان الكامل «وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان» فأمر بسلب ما معهم وزجرهم أعوانه وطردوهم إلى خارج معسكره[3].

وقد حاول الكامل تبرير تفريطه في مقدسات الاسلام وحقوق المسلمين

---

(١) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٢٢٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٣،

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٤ ـ ٤٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣١،

بقوله: «إنا لم لهم نسمح إلا بكنائس وأدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله»(١) غير أن هذا التبرير لم يخفف من الغضب والسخط العارم الذي عم بلاد المسلمين بسبب تسليم بيت المقدس للصليبيين «فقامت القيامة في جميع بلاد الاسلام واشتدت العظائم وأقيمت المآتم»(٢). ففي دمشق اتخذ الناصر داود من تسليم القدس وسيلة دعائية للتشهير بعمه الكامل وتنفير قلوب الناس عنه، فأوعز إلى المؤرخ سبط ابن الجوزي بالجلوس في جامع دمشق والحديث عن التفريط في بيت المقدس، فوجد ابن الجوزي أن «من الحمية للإسلام موافقته»(٣) فجلس بالجامع الأموي، وحضر إليه الناصر داود بنفسه وجميع سكان دمشق، وخطب في الجماهير المحتشدة ذاكراً فضائل بيت المقدس وما جرى عليه ومما تحدث به قوله: «انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين. كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، وكم جرت لهم على تلك المساجد من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين» كما ألقى قصيدة تائية عن بيت المقدس حتى أبكى سكان دمشق جميعاً في ذلك اليوم(٤).

وحينما اشتد البلاء على المسلمين بسبب تسليم القدس «والانكار على

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٤.
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٦٥٤.
(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٤ - ٦٥٥، وانظر أيضاً: ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٩ - ٥٠، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٥ - ٢٤٦، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٣، أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤١ - ١٤٢، ابن أيبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٩٥.
ومما جاء في قصيدته التائية قوله:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
على قبة المعراج والصخرة التي ... تفاخر ما في الأرض من صخرات

الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار» [1] أرسل من لدنه أحد أعوانه ويدعى جمال الدين الكاتب الأشرفي إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة في بغداد في محاولة لتسكين غضب المسلمين وتهدئة خواطرهم وإزالة انزعاجهم من استلام الصليبيين لبيت المقدس[2].

أما الامبراطور فردريك الثاني فبعد توقيع الصلح طلب من الكامل تبنين وأعمالها فأنعم بها عليه «ودخلت في نسخة المهادنة وتسلم الامبراطور ما وقع عليه الاتفاق» [3] ثم قام بزيارة بيت المقدس وغادرها بعد ذلك إلى عكا ثم أبحر عائداً إلى بلاده في جمادى الثانية ٦٢٦ هـ / مايو ١٢٢٩ م ولا سيما بعد أن سمع بأن حميه حنا دي بريين سار بقوات البابا وهاجم بعض ممتلكاته في إيطاليا[4].

ولم يشمل صلح يافا بين الكامل والامبراطور فردريك، فرسان الداوية والاسبتارية الذين دأبوا على شن العدوان على بلاد المسلمين في شمال الشام، فقد كانت علاقاتهم بممالك حلب وحمص وحماه تتوقف على مدى قوة تلك الممالك وقدرتها على الدفاع عن رعاياها المسلمين. ففي سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م وقبل مجيء فردريك الثاني، ظفر التركمان بفارس مشهور من الداوية بأطراف حلب فقتلوه، وحينما علم الداوية بذلك ساروا من انطاكية، وباغتوا التركمان المسلمين، وقتلوا منهم جماعة وأسروا آخرين وغنموا أموالهم وحريمهم، وحينما علم الاتابك طغريل صاحب حلب بذلك أرسل إلى الداوية يتهددهم، وتمكن عسكر حلب من مطاردة فارسين من الداوية وقتلهما، وحينئذٍ أذعن الداوية «وردوا إلى التركمان كثيراً من أموالهم وحريمهم وأسراهم[5]».

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣١.
(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ ص ٤٨؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري: ص ١٧٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢.
(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٥.
(٤) Painter: op. cit. p. 217.
(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٧٣ - ٤٧٤.

ولم تتوقف غارات الصليبيين على شمال بلاد الشام بعد رحيل الامبراطور فردريك الثاني، ففي ذي الحجة ٦٢٦ هـ / ديسمبر ١٢٢٩ م هاجموا بلدة بارين ونهبوا ست قرى تابعة لها، وفي طريقهم وجدوا جماعتين من التركمان والأكراد فأسروهم واستولوا على جميع أموالهم وضمنها بضعة ألوف من الماشية، ولم يجد الصليبيون من يتصدى لهم إذ كان المجاهد صاحب حمص في تدمر وحينما سمع بهجوم الفرنج عاد مسرعاً ولكن بعد فوات الأوان وأرسل إلى الكامل يخبره بما فعل الفرنج «فشق ذلك عليه» ولكنه لم يفعل شيئاً إزاء ذلك[1].

وفي السنة التالية، رمضان ٦٢٧ هـ / أغسطس ١٢٣٠ م احتشد فرسان الاسبتارية من حصن الأكراد وغيرها، وقرروا الإغارة على أعمال حماه، ولكن المظفر محمود تصدى لهم بين حماه وبارين وهزمهم وقتل منهم عدداً كبيراً وأسر آخرين واستعاد ما نهبوه من أموال رعاياه وعاد إلى حماه منصوراً فمدحه الشعراء بهذه المناسبة[2].

وكرر الداوية والاسبتارية اعتداءاتهم سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م فهاجموا جبلة التابعة لحلب، وأخذوا منها غنيمة وأسرى. فأرسل الأتابك طغريل في إثرهم بعض القادة فقاتلهم واستعاد منهم الغنيمة والأسرى [3]. ولكنهم تحركوا من جديد في السنة نفسها، وشرعوا في الاحتشاد، فخرج إليهم عسكر حلب وأغاروا على قرى المرقب واستولوا على حصن بانياس ودمروه وأطلقوا سراح من كان به من الأسرى، ثم حدثت معركة أخرى لم ينعقد فيها النصر لأي من

(١) ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٧٨؛ وانظر أيضاً ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٧٩؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٤٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٦.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٤٣ - ١٤٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٠٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٥٠٤؛ الغزي: نهر الذهب جـ ٣ ص ١١٤؛ الطباخ: إعلام النبلاء جـ ٢ ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

الجانبين وأخيراً «استقرت الهدنة بين عسكر حلب والداوية والاسبتارية» في شعبان ٦٢٨ هـ / يوليه ١٢٣١ م[(١)].

وظل الموقف هادئاً بين المسلمين والصليبيين في شمال الشام حتى سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م حين توفي العزيز بن الظاهر صاحب حلب، وانشغل الحلبيون بتعيين مجلس وصاية على ابنه الصغير يوسف حتى يكبر، ودرء المؤامرات التي نجمت عن ذلك[(٢)]. فاستغل فرسان الداوية ـ الذين كانوا يسيطرون على بغراس ـ [(٣)] تلك الظروف التي مرت بها حلب فأغاروا على أعمالها، واستاقوا قطعان الماشية والأغنام العائدة للتركمان والبدو وغيرهم. فخرج إليهم المعظم تورانشاه بن صلاح الدين على رأس عساكر حلب، فنازلوا بغراس مدة ونهبوا ريفها، وشددوا عليها الحصار، ونقبوا عدة مواضع من سورها، ونفد جميع ما بها من المؤن والذخائر، وكادت تسقط بيد المسلمين غير أن بوهيمند الخامس أمير إنطاكية (١٢٣٣ ـ ١٢٥١ م) تدخل في النزاع وتوسط لدى الحلبيين في ترك بغراس على حالها. وقد أجابوا طلبه نظراً للعلاقات الطيبة بين مملكة حلب وإمارة إنطاكية الصليبية، وتم عقد هدنة بين مملكة حلب والداوية، وترك الحلبيون بغراس بأيديهم [(٤)].

ولكن الداوية سرعان ما نقضوا الهدنة بعد انسحاب عسكر حلب من أمام بغراس إلى قرب دربسك التابعة لحلب، وجمع الداوية فلولهم واستعانوا

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) انظر عن هذه الحوادث ما سبق الفصل الأول، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) بغراس: هي إحدى ثغور شمال بلاد الشام، وتقع في لحف جبل اللكام وبينها وبين إنطاكية أربعة فراسخ (١٢ ميلاً) وعلى يمين القاصد إنطاكية من حلب. وتقع بغراس إلى الجنوب من دربساك على مسافة قريبة، انظر ياقوت: معجم البلدان، أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٩ ـ ٣٧٠؛ اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ ب؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٢٧أ ب؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٣١ ـ ١٣٢؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٥٩؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤٠٩.

بصاحب جبيل وغيره من الصليبيين وساروا جميعاً ناحية دربساك في محاولة لمباغتة ربضها على غرة من أهله، ولكن حامية دربساك استعدت لهم وقاتلتهم قتالاً شديداً، وبلغ الخبر عسكر حلب، فتقدم إلى دربساك وقد تعب الصليبيون بسبب بسالة الحامية وصمودها في قتالهم واستغل عسكر حلب حالة التعب تلك وهاجموا الداوية ومن معهم من الصليبيين وألحقوا بهم هزيمة شنيعة، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، كما أسروا أعداداً أخرى من الفرسان والمشاة، بينما حاول الباقون الاختباء بين الأشجار والغابات المجاورة، فتبعهم المسلمون وأبادوهم، ولم ينج منهم إلا القليل. وعاد المسلمون إلى حلب بالأسرى واعتقلوهم بقلعتها[١].

ولقد قضت هذه الضربة المدمرة على القوة الرئيسة لفرسان الداوية، فانحسر خطرهم عن المسلمين في شمال الشام، بل وحتى عن إمارة إنطاكية الصليبية نفسها التي لم تسلم من شرهم حتى إن ابن العديم يعلق على هذه المعركة بقوله: «وفتت هذه الوقعة في أعضاد الداوية بالساحل، ولم ينتعشوا بعدها وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج»[٢].

أما عن الموقف في جنوب بلاد الشام، فقد ظل هادئاً بين المسلمين والصليبيين، تنفيذاً للهدنة التي أبرمها الامبراطور فردريك الثاني مع السلطان الكامل. ولما اقتربت من نهايتها دعا البابا جريجوري التاسع Gregory IX (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) إلى حملة صليبية أخرى. وقد وجدت تلك الدعوة قبولاً لدى ثيبوت الرابع (Thibaut IV) ملك نافارو أمير شامبني، الذي وصل إلى فلسطين بمصاحبة صديقه القديم بطرس موكليرك (Peter Mauclerk) دوق بريتاني وذلك سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م[٣]. وبعد مشاورات بين الصليبيين تقرر أن يسيروا إلى

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٧٠ - ٣٧١؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٥٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٣١ - ٢٣٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٣٢ - ١٣٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٥٩؛ الغزي: نهر الذهب جـ ٣ ص ١١٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٣٢.

(٣) Painter: A History of The Middle Ages P. 217,Campbell: The Crusades, P. 214:Conder: The Latine Kingdom, P. 315.

عسقلان للاستيلاء عليها وبناء تحصيناتها المهدمة ثم اتخاذها قاعدة لمهاجمة دمشق، وفي تلك الأثناء علموا أن قافلة تجارية من المسلمين تسير في غور الأردن نحو دمشق، فباغتها الصليبيون وقتلوا رجالها وغنموها[1].

غير أن هذه الحملة الصليبية سرعان ما واجهت مصيرها المحتوم إذ كان يرابط في غزة أحد قاعدة العسكر المصري ويدعى ركن الدين الهيجاوي، فتقدم بقواته والتقى بالصليبيين قرب غزة وأنزل بهم هزيمة ساحقة في منتصف ربيع الآخر ٦٣٧ هـ / نوفمبر ١٢٣٩ م فقتل من الصليبيين ألف وثمان مئة رجل وأسر منهم ثمانين فارساً ومائتين وخمسين راجلاً، وسيق الأسرى يجرون أذيال الخيبة والندامة إلى القاهرة[2].

عمل الناصر داود صاحب الكرك على استثمار هذه الضربة القاسية التي حلت بالصليبيين لصالحه، فقرر استعادة بيت المقدس، وكان الصليبيون بعد موت السلطان الكامل سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م قد عمدوا إلى بناء قلعة غربي بيت المقدس وجعلوا برج داود أحد أبراجها ـ ذلك أن برج داود قد تركه المعظم عندما خرب أسوار القدس سنة ٦١٦هـ ـ وشحن الصليبيون القلعة الجديدة بالمؤن والذخائر، مخالفين بذلك نصوص معاهدة يافا المبرمة بين الكامل والامبراطور فردريك الثاني[3]. فسار الناصر داود بقواته نحو القدس، واختار وقت الهجوم عليه ليكون أثناء انشغال الصليبيين هناك بأحد أعيادهم في جمادى الاولى ٦٣٧ هـ / ديسمبر ١٢٣٩ م[4]. فدخل إلى القدس وفاجأهم وهم

---

(١) (Stevenson: op. cit. p.317) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٢؛ وانظر أيضاً ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٠؛ رنسيمان جـ ٣ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥١٣؛ ابن شداد: الاعلاق الخطيرة قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٤٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩١؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٥.

(٤) السيوطي: اتحاف الاخصا ورقة ١٣٤ ب؛ ابن شداد: الاعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٢٢٧.

منصرفون إلى الاحتفالات بعيدهم واستعاده منهم، ثم ضرب الحصار حول القلعة التي عمروها وضربها بالمنجنيقات حتى استولى عليها وعلى برج داود، وسمح للصليبيين بمغادرة بيت المقدس بعد أن أعطاهم الأمان على أنفسهم، ومدحه الشعراء بهذه المناسبة[١]. ثم أرسل إلى بغداد مخبراً باسترداد بيت المقدس من الصليبيين، وأرسل مع مبعوثه خطاباً إلى الخليفة العباسي يحيطه علماً باستعادة ثالث الحرمين ويستشيره في أمر القلعة التي بناها الصليبيون هل يهدمها أم يبقي عليها لحراسة بيت المقدس[٢] .

ولم تلبث الحرب الأهلية بين الأيوبيين أن ألقت بظلالها وآثارها على ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين وجعلته يميل مؤقتاً لصالح الصليبيين. فبعد أن تمكن الصالح أيوب من الوصول إلى سدة الحكم في مصر عمل على توطيد نفوذه بها وشرع يفكر في الانتقام من عمه الصالح إسماعيل بن العادل الذي تآمر عليه وانتزع دمشق منه[٣]. فاتجه الصالح إسماعيل إلى التحالف مع الصليبيين ضد ابن أخيه الصالح أيوب. ومن الطبيعي أن يرفض الصليبيون تقديم خدماتهم له دون مقابل، ولذلك أعطاهم صفد وقلعة الشقيف، وهونين وتبنين، كما تنازل عن حقوق المسلمين في مناصفات صيدا وطبرية وبعض بلاد الساحل وذلك سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م[٤].

---

(١) السيوطي: اتحاف الاخصا ورقة ١٣٤ ب - ١٣٥ أ؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٨ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥١٣ - ٥١٤؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ ٢ ورقة ٢١ أب؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة١٢٨ ب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٤٧؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٤٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩١ - ١٩٢، العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٧٦؛ الكتبي: الوافي بالوفيات جـ ١ ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٢٢٦ - ٢٣٣؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٣) انظر ما سبق، الفصل الثاني ص: ١٦٣ - ١٧٠

(٤) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٨٥ أ، النويري: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٧٢ أب، ابن شداد: الاعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ١٤٧ - ١٤٨، ١٥٢ - ١٥٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٣.

ولم يجد الصالح إسماعيل حرجاً حينما منح الصليبيين هذه البلاد، في الوقت الذي تنصل فيه بعض أتباعه من ذلك الجرم. ففي أوائل سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م أمر نائبه على شقيف أرنون ويدعى الحاج موسى بتسليمه لفرسان الداوية، فرفض قائلاً: «والله لا جعلته في صحيفتي» فقبض الصالح إسماعيل عليه وضربه ضرباً مبرحاً حتى قتله وصادر كل أمواله وممتلكاته، غير أن حامية الحصن بزعامة رجل يدعى أحمد الشقيفي، عصوا بالحصن على الصالح إسماعيل ورفضوا تسليمه للصليبيين. وراسلوا الناصر داود صاحب الكرك ودخلوا في طاعته. وعندما اتضح للصالح إسماعيل «حميتهم للمسلمين وانتصارهم للدين» خرج من دمشق بعسكره وحاصر الحصن حتى أخذه منهم بعد أن طلبوا منه الأمان على أنفسهم قائلين «أنت أمرتنا أن نسلمه إلى نواب الداوية، ونحن فما يحل لنا أن نسلمه للفرنج، ونحن نسلمه إليك وأنت تفعل فيه ما تختار» فسلمه الصالح إسماعيل للداوية وظل بأيديهم حتى استرده الظاهر بيبرس(١).

وتسلم الصليبيون من الصالح إسماعيل قلعة صفد ـ التي كانت خراباً منذ سنة ٦١٧ هـ /١٢٢٠م ـ حين دمرها المعظم زمن الحملة الخامسة ـ فقرروا إعادة بنائها، ولما كان البناء يحتاج إلى أيدٍ عاملة كثيرة فقد جمع الصليبيون ألف أسير مسلم كانوا في سجونهم وشرعوا في تسخيرهم لبناء القلعة. وكان يحرسهم قرابة مائتي رجل من الصليبيين، فاتفق الأسرى فيما بينهم على الانقضاض على حراسهم وتجريدهم من أسلحتهم والاستيلاء على صفد، ولضمان نجاح خطتهم أرسلوا إلى الأمير سيف الدين علي بن قلج النوري والي قلعة عجلون من قبل الناصر داود ليبعث إليهم من يتسلم القلعة إذا تخلصوا من حراسهم، فأرسل والي عجلون برسالة الأسرى إلى سيده الناصر داود صاحب الكرك الذي أرسلها بدوره إلى عمه الصالح إسماعيل. وكان في إمكان الأخير إهمال شأن الرسالة وعدم الرد عليها أو تحذير الأسرى من تنفيذ خطتهم، ولكنه بدلاً من ذلك

(١) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

أرسل الكتاب إلى فرسان الداوية، وحينما اطلعوا عليها قبضوا على أولئك الأسرى ودخلوا بهم عكا «فذبحوهم عن آخرهم» ثم واصل الداوية بناء أسوار قلعة صفد بمساعدة الصالح إسماعيل[1]. الذي ارتكب بعمله هذا جرماً شنيعاً يتنافى وكل القيم الخلقية، ناهيك عن خيانة الدين والوطن والشرف.

ولكي يبرهن الصالح إسماعيل على صدق نواياه تجاه الصليبيين سمح لهم بالدخول إلى دمشق لشراء السلاح، فتحرج بعض تجار السلاح من مبايعتهم فاستفتوا الشيخ عبد العزيز عبد السلام[2]، فأفتى بتحريم بيعهم السلاح قائلاً: «انهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين» [3].

ولقد أثارت أفعال الصالح إسماعيل تلك الرأي العام الاسلامي في بلاد الشام، وعمد الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام خطيب جامع دمشق إلى قطع الدعاء للصالح إسماعيل[4]. وندد به وأكثر من التشنيع عليه، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي [5]. وكان الصالح إسماعيل في تلك الأثناء غائباً عن دمشق، وحينما بلغه موقف الشيخ عبد العزيز بن

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) عبد العزيز عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد السلمي، من كبار علماء الشافعية وفقهائها، كان عالماً بالتفسير صالحاً عابداً لا يخشى في الله لومة لائم ولد سنة ٥٧٧ هـ وصنف الكثير من الكتب في الشريعة وعلومها وتوفي سنة ٦٦٠ هـ / انظر ترجمته مفصلة في السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ٢٠٩ ـ ٢٥٥.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢٤٣؛ انظر أيضاً: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٧٢ ب، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٤.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢٤٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٤، وقد استبدل الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام الدعاء للصالح إسماعيل بقوله: «اللهم ابرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياءك وتذل فيه أعداءك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك» والناس يبتهلون وراءه بالدعاء. انظر السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢٤٣.

(٥) ولد الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب بأسنا في الصعيد سنة ٥٧٠ هـ وبرع في علوم اللغة العربية والنحو وألف في النحو والفقه، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ / انظر الأدفوي: الطالع السعيد: ص ٣٥٢ ـ ٣٥٧؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

عبد السلام وصاحبه ابن الحاجب، أصدر أمره بعزل الشيخ عبد العزيز من خطابة جامع دمشق واعتقله مع صاحبه، ثم أطلق سراحهما بعد مدة، فغادرا بلاد الشام إلى مصر [١].

وبعد أن تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين، سار إلى فلسطين حيث انضم إليه الصليبيون بزعامة ثيبوت الرابع ملك نافارو أمير شامبني الذي كان يتوق منذ وصوله إلى بلاد الشام إلى تدعيم مركز الصليبيين[٢]. وتقدمت قوات الصليبيين والصالح إسماعيل نحو غزة في بداية طريقها إلى مصر، ولكن السلطان الصالح أيوب جرد العساكر المصرية لملاقاة عمه إسماعيل وحلفائه الصليبيين سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م «وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة ومالوا جميعاً على الفرنج وهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون»[٣].. وكان ضمن الأسرى بعض زعماء الداوية، واستطاع الصالح أيوب الوصول إلى اتفاق مع الصليبيين أطلق بموجبه سراح بعض الأسرى وأن يكون لهم الحق في إعادة بناء عسقلان وتحصينها في مقابل وقوفهم على الحياد في الصراع بينه وبين عمه إسماعيل[٤].

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ـ مخطوط ـ نسخة عارف حكمت ورقة ١٤٦ أب؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤، أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٠، أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٥ ـ . وقد ذكر السبكي أن الصالح إسماعيل حاول استمالة الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام فلما أخفق أمر باعتقاله مرة أخرى في خيمة بجانب خيمته قرب القدس حيث اجتمع ببعض زعماء الصليبيين وظل الشيخ يقرأ القرآن، فقال لهم الصالح إسماعيل «أتسمعون هذا الذي يقرأ القرآن؟ قلوا: نعم، قال: هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين. . . وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم. فقالت ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها». . . انظر طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٢) انظر رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٧٩.

(٣) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٩ ـ ٣٠٥.

(٤) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٧٩؛ Stevenson: op. cit. O. ?è—; Painter: op; 218

وفي تلك الأثناء وصل إلى عكا الأمير الشاب ريتشارد شقيق هنري الثالث ملك إنجلترا في صحبة جيش صليبي جديد، ولكن على الرغم مما اشتهر به ريتشارد من الحكمة والكياسة فإنه لم يكن بوسعه سوى التصديق على تلك الاتفاقية التي عقدت مع السلطان الصالح أيوب وبالتالي لم يحقق للصليبيين إلا القليل من المكاسب[1].

وفي جمادى الأولى سنة ٦٤٠ هـ /ديسمبر ١٢٤٢ م تقدم الفرنج من عكا وقصدوا نابلس التي كانت تابعة للناصر داود، وكان دخولهم يوم الجمعة فساروا إلى المسجد وقتلوا المصلين وكسروا منبر الخطيب، وأسروا الكثير من السكان ونهبوا المدينة[2]. وذكر سبط ابن الجوزي أن الجواد يونس بن مودود بن العادل كان في صحبتهم عندما هاجموا قلنسوه ـ ضيعة من أعمال نابلس ـ «وقتلوا فيها ألف مسلم وهو قائم لم يتكلم كلمة واحدة» وقد خشي الصالح إسماعيل من الجواد على نفوذه ومكانته لدى الصليبيين فاستدرجه حتى قضى عليه[3].

(١) (Painter: Op. P. cit. P. 218)

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٤٣ ـ ٧٤٤.

الصالح أيوب واسترداد بيت المقدس ومعركة غزة ونتائجها
٦٤١ - ٦٤٦هـ / ١٢٤٣ - ١٢٤٨م

ظل الخلاف محتدماً بين الصالح أيوب وعمه إسماعيل الذي كان يحالفه من ملوك الشام المنصور صاحب حمص، وانضم إليهما أخيراً الناصر داود صاحب الكرك، وفشلت محاولة الصلح بينهم وبين الصالح أيوب، فاضطر الأخير إلى طلب مساعدة الخوارزمية الذين كانوا يقيمون بمنطقة الجزيرة[1].

وعندما اجتمعت كلمة هؤلاء الثلاثة على قتال الصالح أيوب وتأكدوا أنه أرسل يستعين بالخوارزمية، استقر رأيهم على التحالف مع الصليبيين، واتفق الصالح إسماعيل مع ابن أخيه الناصر داود في سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م على تسليم بيت المقدس بكامله إلى الصليبيين، وكذلك المسجد الأقصى والصخرة المقدسة وما فيهما من المزارات، واتفقا أيضاً على تسليمهم طبرية والسماح لهم بعمارتها، وشرعوا في بناء تحصيناتهم. كما أخذ فرسان الاسبتارية كوكب، وعزموا على عمارتها، ثم دخل الصليبيون إلى بيت المقدس، وتسلموا الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى وجميع المزارات الإسلامية والمسيحية وغيرها وبالإضافة إلى ذلك فقد تعهد الصالح إسماعيل لحلفائه الصليبيين بجزء من ديار مصر إذا فتحوها، وبدأ الصليبيون في حشد قواتهم وإعدادها لتنفيذ اتفاقهم مع إسماعيل والناصر داود[2]. وهكذا تخلّى الصالح إسماعيل والناصر داود عن مقدسات

(١) انظر ما سبق، الفصل الثاني، ص ١٧١ - ١٧٣.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٢ أ؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ٦٣أ. الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٣ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٢ - ٣٣٣؛

المسلمين في بيت المقدس وغيرها في برود تام. وليس لنا من تعليق ينطبق على إسماعيل والناصر داود سوى قوله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[1].

وقد حكى المؤرخ المعاصر ابن واصل كيف انتهك الصليبيون حرمة المقدسات الإسلامية في بيت المقدس حين مر بها في أواخر سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م وهو في طريقه إلى مصر فقال: «ودخلت البيت المقدس ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلت الجامع الأقصى وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الأذان والإقامة وأعلن فيه بالكفر»[2].

ولما وصلت دعوة الصالح أيوب إلى الخوارزمية بالجزيرة يحثهم على القدوم إليه لمناصرته عبروا الفرات إلى بلاد الشام في زهاء عشرة آلاف فارس، وساروا حتى وصلوا بيت المقدس فدخلوه في صفر ٦٤٢هـ / يوليه ١٢٤٤م ووضعوا

المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٥؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٢؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ٦؛ Selections From Tarikh Ibn al - Furat, Vol. 2 pp. 1 - 2. - ويرى بعض المستشرقين أن الصالح أيوب عرض على الصليبيين العرض نفسه الذي قدمه إسماعيل والناصر داود، مقابل تحالفهم معه ضدهما - انظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٩٥ نقلاً عن المؤرخ الفرنسي جروسيه، وانظر أيضاً: رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣، ص ٣٨٩، Stevenson: op. cit. p. 321. غير أننا لا نستطيع قبول هذا الرأي لأسباب هي أولاً: أنه لم يرد في المصادر العربية المعاصرة للحوادث أي إشارة على الإطلاق لهذا العرض، ولو حدث فعلاً لذكر ذلك ابن واصل صديق حسام الدين الهذباني قائد الصالح أيوب ووزيره، ثانياً: إن الصالح أيوب ليس هو الحاكم الذي يقدم على التحالف مع الصليبيين بدليل أنه لم يفعل ذلك في أسوأ الظروف التي مرت به حين كان أخوه العادل يحكم مصر ولم يكن بيده غير دمشق ثم انتزعت منه واعتقل بالكرك ومع ذلك لم يفكر في الاستعانة بالصليبيين فكيف يفكر في الاستعانة بهم بعد أن أصبح سلطاناً على مصر بإمكاناتها الضخمة؟ وثالثاً: وما ينفي هذا الرأي أن بيت المقدس وطبرية وكوكب وجميع البلاد التي أعطاها إسماعيل والناصر داود للفرنج لم تكن تحت سيطرة الصالح أيوب حتى يعرضها عليهم مقابل التحالف معه، وهل يعقل أن يعرض عليهم بلاداً لا يملكها؟

(١) سورة الكهف آية ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٣، (Selections From Tarikh Ibn al - Furat Vol. 2 p. 2).

سيوفهم في رقاب النصارى، وقتلوا من وجدوه بها من الصليبيين ثم دخلوا كنيسة القيامة ونهبوها وهدموا المقبرة التي يعتقد النصارى بأنها مقبرة المسيح، ونبشوا قبور ملوك الصليبيين بحثاً عن الأموال. وطهروا الحرم وما به من المزارات من براثن الصليبيين[1]، وقد وجدوا في بيت المقدس ستة آلاف من الفرنج، فقتلوا منهم أكثر من ألفين وطاردوا الباقين إلى قرب يافا بحيث لم يصل إليها سوى ثلثمائة شخص فقط[2]. واستردوا بذلك بيت المقدس، ولم يقدر لجيش نصراني الوصول إليه حتى الحرب العالمية الأولى[3].

وتوجه الخوارزمية إلى غزة، وراسلوا الصالح أيوب يخبرونه بقدومهم لنصرته، وطلبوا منه إرسال عسكر مصر إليهم لقتال أعدائه جميعاً، فأمرهم بالبقاء في غزة ريثما تصلهم عساكره ووعدهم أن يعطيهم بلاد الشام[4]. وجهّز الصالح أيوب مملوكه ركن الدين بيبرس إلى غزة للانضمام إلى الخوارزمية، وأمر قائده حسام الدين بن محمد الهذباني بأن يمضي بفرقة أخرى من العسكر المصري إلى نابلس للمرابطة بها[5].

وشرع الصالح إسماعيل في العمل على مجابهة الخوارزمية وعساكر مصر فأرسل يستدعي حليفه المنصور صاحب حمص ليجعله قائداً على عساكره، لما اشتهر به المنصور من الشجاعة وشدة المراس في قتال الخوارزمية، وتطلع إسماعيل إلى أن يكون النصر على الخوارزمية على يديه، وحين قدم المنصور إلى الصالح إسماعيل بدمشق «اقتضى رأيهما أن يقصدا الديار المصرية وأرسلا إلى الفرنج وبذلا لهم جميع الأعمال الساحلية من الماء ومغرب إذا ملكوا مصر،

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧، (Selections From Tarikh Ibn al - Furat Vol. 2 pp. 3 - 4).

(٢) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٢.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٩٨.

(٤) Selections From Tarikh Ibn al - Furat Vol. 2 P. 5.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٧، (Selections From Tarikh Ibn al - Furat Vol.2 p. 5).

وأشرطا عليهم أن يخرجوا ويمضوا معهما إلى مصر بجموعهم، فارسهم وراجلهم، فأجابوا إلى ذلك وتحالفوا عليه»[1]، فقاد المنصور عسكره وعساكر دمشق ووصل إليه نجدة من حلب، وتقرر أن يكون المنصور قائداً عاماً على كل العساكر الشامية والصليبية المتوجهة إلى مصر، وأن يقيم الصالح إسماعيل في دمشق، وسار المنصور بالعساكر الشامية من دمشق ثم عرج على رأس كتيبة صغيرة إلى عكا فدخلها، ونزل في دار فرسان الداوية، واجتمع بزعماء الصليبيين وتشاور معهم، وجرى الاتفاق على خروج الصليبيين جميعاً بما فيهم الاسبتارية والداوية وكل أمراء الصليبيين وفرسانهم «ولم يتأخر منهم أحد»[2]. ويبدو أن مما أغرى الصليبيين على الخروج بأكملهم أن المنصور وإسماعيل وعداهم «أن يكون لهم جزء من الديار المصرية»[3].

وساروا جميعاً إلى غزة، وبعث المنصور إلى الناصر داود صاحب الكرك يطلب حضوره معه لخوض المعركة. ولكن الناصر لم يحضر بنفسه واكتفى بإرسال عسكره إلى المنصور بقيادة اثنين من كبار أمرائه وهما الظهير بن سنقر الحلبي، والوزيري[4]، فاجتمعوا وساروا نحو الخوارزمية وعسكر مصر، وكان الصليبيون يكونون ميمنة الجيش بينما المنصور بعساكره وعساكر دمشق وكتيبة حلب في القلب أما الميسرة فكانت من نصيب عساكر الناصر داود صاحب الكرك. وكانت أعلام الصليبيين ترفرف فوق رؤوس المنصور وأصحابه، وفي أعلى سواري الأعلام شارات الصليب، ومعهم الرهبان والقسيسين يدورون على كتائب العساكر الشامية يصلبون عليهم ويباركونهم وبأيديهم كاسات الخمر يسقونهم[5].

---

(١) (Selections From Tarikh Ibn al - Furat Vol. 2 p. 5).

(٢) (Ibid. pp. 5 - 6)، وانظر أيضاً ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٨.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٨.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٨، (Selections From Tarikh Ibn al - Furat Vol. 2 p. 6).

(٥) الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ٦٣ أ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٤٦؛

والتقى الجمعان في مكان يسمى أربيا على بعد بضعة أميال شمال شرق غزة يوم الاثنين ١٢ جمادى الأولى ٦٤٢هـ / ٧ اكتوبر ١٢٤٤م ودارت معركة حامية الوطيس، وانهزمت عساكر مصر إلى قرب العريش ورموا أثقالهم وأمتعتهم، غير أن الخوارزمية ثبتوا في ميدان المعركة وحاقت الهزيمة الساحقة بالقوات الشامية. فأول ما حلت الهزيمة بالميسرة المكونة من قوات الكرك فهرب الوزيري وأسر القائد الآخر الظهير سنقر الحلبي، ثم انهزم المنصور صاحب حمص، وعندئذ أحاطت الخوارزمية بالصليبيين وحصدوهم بسيوفهم وأسروهم، ولم ينج منهم إلاّ القليل[١]. ووقع في الأسر من الصليبيين ثمان مئة أسير[٢]. أما عدد القتلى من الصليبيين والشامين وغيرهم فقد ذكر المؤرخ سبط ابن الجوزي أنه شاهدهم بنفسه قائلاً: «ولقد أصبحت ثاني يوم الكسرة إلى غزة فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب، فقالوا هم زيادة على ثلاثين ألفاً» وقد أيده في هذا التقدير كثير من المؤرخين[٣]. وغنم الخوارزمية وعسكر مصر أثقال الشامين وأسلحتهم ومؤنهم، وأموال وخزائن المنصور صاحب حمص، حتى إنه

المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤، (Selection From Tarikh Ibn al - Furat Vol. 2 p. 6).

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٤ ب - ٩٥ أ، الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ٣٣ أ ب؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ٦٣ أ ب؛ النويري: نهاية الارب جـ ٢٧ ورقة ٧٩ أ ب؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٣١ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٤٦ - ٧٤٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٨ - ٣٣٩؛ المقريزي جـ ١ ص ٣١٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤ - ١٦٥؛ (Selections From Tarikh Ibn al - Furat Vol. 2 pp. 6 - 7).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٧ ص ٧٤٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٧ (Selections From Tarikh Ibn al - Furat Vol.2 p. 6).

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٧ ص ٧٤٦؛ وانظر أيضاً اليافعي: جامع التواريخ ورقة ٩٥ أ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٥ ورقة ١٣ ب - ١٤ أ؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ٦٣ ب؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٧؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٤٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٥، (Selections: op. cit. p. 7).

طلب شاشاً يتعمم به فلم يجده وجعل يبكي ويقول: «قد علمت أنا لما سرنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح»[١].

ولقد كانت هذه المعركة من أعظم المعارك في تاريخ الحروب الصليبية حتى إن بعض المؤرخين ذكر أنه لم يجر مثلها «لا في زمان نور الدين ولا صلاح الدين»[٢]. ويدلل بعض المؤرخين الأوروبيين على فداحتها بالنسبة للصليبيين، بأنه اشترك فيها من فرسان الداوية ثلثمائة فارس ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة وثلاثين، في حين اشترك مائتيّ فارس من الاسبتارية ولم ينج منهم إلاّ ستة وعشرون فارساً فقط، وأسر رئيس الاسبتارية بينما قتل زعيم الداوية[٣].

وإذا كان بعض المؤرخين الأوروبيين يعتبرون هذه المعركة من أسوأ المعارك في تاريخ الصليبيين[٤]، فإننا نعدها بمثابة مسامير النعش الذي حملوا عليه إلى هوة السقوط والاندثار على يد المماليك حين سقوط آخر معاقلهم في بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م.

وعلى الرغم من قيام الخوارزمية بعد معركة غزة بشن الغارات على القرى الخاضعة للصليبيين حتى أطراف مدينة عكا[٥]. فإن الصالح أيوب لم يشأ ملاحقة الصليبيين وترك عدوه الصالح إسماعيل وغيره من ملوك الشام يدبرون المؤامرات ضده، ولذلك وجه الصالح أيوب همه بعد معركة غزة إلى الاستيلاء على دمشق وتقليم أظافر خصومه[٦]. غير أنه لم يهمل أمر الصليبيين ففي سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٦م أمر قائده ركن الدين بيبرس والأمير حسام الدين الهذباني

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص٧٤٦ ـ ٧٤٧؛ وانظر أيضاً النويري: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٨٠أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ (Selections: op. cit. p. 7).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٤٦.

(٣) (Stevenson: op. cit. p. 323).

(٤) (Campbell: op. cit. p. 417, Stevenson: op. cit. p. 323)

(٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٩٩.

(٦) انظر ما سبق الفصل الثاني، ص ١٧٥ ـ ١٧٧.

بمنازلة عسقلان وانتزاعها من أيدي الصليبيين، وكان الصليبيون قد بنوا أسوارها وحصنوها عقب تسلمهم لها من الصالح إسماعيل، وحاصرها المسلمون وضايقوها، وجُرح الأمير حسام الدين خلال الحصار، ورغم ذلك فقد واتروا الرمي عليها بالجروخ[1] والزنبورك[2]، ولكنها صمدت بسبب مناعة تحصيناتها. ثم ورد أمر الصالح أيوب إلى حسام الدين الهذباني بالمضي إلى نابلس على أن يبقى ركن الدين بيبرس يحاصر عسقلان[3].

ومما ساعد على صمود عسقلان ما قام به هنري ملك قبرس حين أرسل ثمان شواني تحمل مئة فارس، وانضم إليها سبع شواني أخرى وخمسين سفينة من عكا تحمل المؤن والمساعدات لحامية عسقلان. وأرسل الصالح أيوب أسطولاً من إحدى وعشرين شانية ليحاصر عسقلان من جهة البحر ويمنع المؤن من الوصول إليها، وقد أبحر الأسطول المصري سائراً نحو عسقلان ولكن عاصفة بحرية أعاقته عن الاشتباك مع السفن الصليبية وقذفت بأكثر من عشرين سفينة إلى الشاطىء بعد أن حطمتها وأبحرت السفن الأخرى عائدة إلى مصر وتمكّن الأسطول الصليبي بعد ذلك من مد حامية عسقلان بالمؤن، ثم عاد إلى عكا بسبب سوء الأحوال الجوية، واستطاع الجيش المصري المحاصر لعسقلان الإفادة من حطام السفن المتناثرة على الشاطىء عندما صنعوا منها كبشاً ضخماً[4] وشق به المقاتلون طريقهم إلى تحت الأسوار لنقبها[5].

---

(١) الجروخ آلات حربية تستخدم لرمي السهام والنفوط والحجارة، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٦٥ حاشية رقم (٨).

(٢) الزنبورك: الجمع زنبوركات وهي نوع من القسي ترمى بها السهام وربما تعني بعض أنواع السهام، انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٠ حاشية رقم (٢).

(٣) (Selection From Tarikh Ibn al - Furat vol. 2. p. 10).

(٤) الكبش وجمعها كبوش وكباش وأكبش: وهي آلة تتصل بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان تدفع نحو الأسوار لهدمها، انظر المقريزي: إتعاظ الحنفاظ جـ ٣ ص ٤٨ حاشية رقم (٤) أما الدبابة التي يركب عليها الكبش فهي عبارة عن آلة ساترة من الخشب الثخين وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل حتى لا تؤثر فيها النيران وتركب على عجلة مستديرة وتحرك فتنجر وتندفع على البكر. انظر الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب ص ١٨.

(٥) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

وفي تلك الأثناء تمكّن فخر الدين بن الشيخ من فتح طبرية في صفر ٦٤٥هـ / يونيه ١٢٤٧م ودمر تحصيناتها وذهب إلى دمشق(١). ثم سار منجداً القوات المحاصرة لعسقلان، وتمكّن الجيش المصري أخيراً من اقتحام عسقلان في جمادى الثاني ٦٤٥ هـ/ أكتوبر ١٢٤٧ م، وقتل معظم المدافعين عن عسقلان من الصليبيين، ومن نجا منهم وقع في الأسر، ثم أمر الصالح أيوب بتدمير عسقلان مرة أخرى حتى لا يباغتها الصليبيون عن طريق البحر(٢).

---

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٥٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٠، ٣٧٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٢٧؛ (Selections. op. cit. pp. 10 - 12)، أبو الفدا: ٣ ص ١٧٦؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٠؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ١٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٥٨؛ اليافعي: مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٢؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٠٠.

الموقف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام

عشية الغزو المغولي ٦٤٦ - ٦٥٦هـ

كان من الطبيعي أن تؤدي معركة غزة واسترداد بيت المقدس إلى ردة فعل عنيفة لدى البابوية التي دأبت على الدعوة إلى شن حرب صليبية عقب كل كارثة تحل بالصليبيين في بلاد الشام، وقد استجاب لتلك الدعوة لويس التاسع (Louis IX) ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٧٠م) الذي اشتهر بتعصبه للنصرانية وشغفه بها وحرصه الشديد على مصالح الصليبيين[١].

تزعم لويس التاسع آخر حملة صليبية كبيرة إلى الشرق وذلك تنفيذاً لوعده الذي قطعه على نفسه، وحشد جموعاً ضخمة للقيام بحملته وكانت خطته تقضي بقصد مصر باعتبارها مركز القوة الإسلامية الرئيس[٢]. وقد وصل لويس التاسع إلى قبرس سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ومكث فيها عدة أشهر، حيث استقبل رسل القسطنطينية ومملكة أرمينية ومبعوث المغول وغيرهم، وتزودت قواته خلال تلك المدة بالمؤن ثم أبحر قاصداً مصر للاستيلاء عليها[٣]. وكان الصالح أيوب في

(١) انظر سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) Painter: op. cit. p. 218، - جدير أن نشير هنا إلى أنه قد قام العديد من الباحثين العرب المصريين بتأليف أبحاث عن حملة لويس التاسع على مصر، ولن نتعرّض هنا لشرح الحملة بالتفصيل فالذي يهمنا موقف بلاد الشام وجهود لويس التاسع بعد ذلك في توطيد نفوذ الصليبيين بها - وعن حملة لويس التاسع على مصر انظر - محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، حسن حبشي حملة القديس لويس على مصر والشام، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية.

(٣) جوانفيل: القديس لويس ص ٨١ - ٩٢؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٦٤. ٨٤؛ الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى «الأيوبيون» ص ١٤٤ - ١٤٥.

بلاد الشام حينما احتشدت الحملة في قبرس ، وحينما بلغه اعتزامها التوجه إلى مصر غادر بلاد الشام متوجهاً إلى مصر للدفاع عنها رغم مرضه الشديد[١].

والحق أن قصة هذه الحملة شبيهة بسابقتها ـ الحملة الخامسة ـ التي هاجمت مصر[٢]، فقد أرست في المكان الـذي نزلت فيـه من قبل الحملة الخامسة، وتمكّن الصليبيون بقيادة لويس التاسع من الاستيلاء على دمياط في صفر ٦٤٧هـ / يونيه ١٢٤٩م بعد انسحاب القوات المكلفة بحمايتها[٣].

وجدير بالملاحظة هنا الموقف الذي وقفته بلاد الشام من سقوط دمياط، حيث حاولت الضغط على الصليبيين المحتشدين في دمياط لإجبارهم على تشتيت قواتهم وإرسال قسم منها إلى مدن الشام الخاضعة لهم. فحينما وصل نبأ سقوط دمياط إلى مدينة دمشق، خرجت قوات الصالح أيوب المرابطة بها إلى ساحل الشام وهاجمت صيدا واستولت عليها في ربيع الآخـر ٦٤٧هـ / أغسطس ١٢٤٩م، وحينما بلغ ذلك الخبر القاهرة، عمت موجة من الفرح صفوف المسلمين في مصر واستبشروا به خيراً، كما وصل إلى القاهرة في جمادى الأولى ٦٤٧هـ / سبتمبر ١٢٤٩م خمسون أسيـراً من الصليبيين الـذين أسروا في صيدا[٤].

غير أن مما يسترعي الانتباه هنا السهولة التي تم بها اقتحام صيدا وهي المدينة التي استولى عليها الصليبيون عند قدوم الامبراطـور فردريـك الثاني وحصنوها تحصيناً جيداً[٥] وليس من تفسير لذلك سوى ما ذكره ابن الفرات من

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥ب ؛ ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ١٥ ورقة ١٠ ب؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، القسم الأول ص ٨٩.

(٢) Painter: op. cit. p. 218.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٣؛ الحريري: الاعلام والتبيين ص ٩٦؛ جوانفيل: القديس لويس ص ٩٥ ـ ٩٦، Selection From Tarikh Ibn al - Furat vol. 2 pp. 17 - 18. جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ١٠١ ـ ١٠٩، Painter: op. cit p. 218.

(٤) (Selections. op. cit. p. 22).

(٥) انظر ما سبق ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

أن لويس التاسع عندما أبحر مع جموع الصليبيين من قبرس قاصدين مصر «انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعه»[١] وهذا يعني أنه لم يبق في صيدا سوى حامية قليلة العدد بعد انضمام الصليبيين في بلاد الشام لحملة لويس التاسع، الأمر الذي يفسّر السهولة التي سقطت بها صيدا في أيدي قوات دمشق. على أن تلك القوات لم تقم بأي عمل آخر ضد بلدان الساحل الخاضعة للصليبيين ويعود سبب ذلك إلى خوف الحامية على دمشق إذا ما ذهبت في غاراتها بعيداً ولا سيما وأن حلب ما زالت حتى ذلك الحين معادية للصالح أيوب[٢]. ويبدو أن قوات الصالح أيوب لم تحتفظ بصيدا فعادت وانسحبت عنها، إذ يشير ابن شداد إلى أنها ظلت بأيدي الصليبيين حتى سنة ٦٥١هـ عندما أغار عليها الناصر يوسف[٣].

ومهما يكن من أمر، فبعد إقامة لويس التاسع في دمياط زهاء خمسة أشهر تلقى خلالها الإمدادات من فرنسا بقيادات أخيه كونت بواتييه، قرر الزحف جنوباً صوب القاهرة[٤]. وكان السلطان الصالح أيوب قد اشتد به المرض وتوفي في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ / ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م. ورغم التكتم الشديد الذي اتبعته أرملته شجر الدر وقائد الجيش فخر الدين بن الشيخ لإخفاء خبر موته ريثما يصل ابنه المعظم تورانشاه من إقليم الجزيرة، فقد تسرّب نبأ وفاته إلى الصليبيين، الأمر الذي جعلهم يمضون قدماً في سيرهم تحاذيهم سفنهم في النيل - فرع دمياط - لمهاجمة معسكر المسلمين بالمنصورة ثم الزحف على القاهرة[٥].

وقد تمكّن الصليبيون من العبور إلى المنصورة ودخلوها في ذي القعدة

---

(١) (Selection: op. cit. p. 15).

(٢) عن علاقة حلب بالصالح أيوب، انظر ما سبق، الفصل الثاني ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٣) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، جـ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ١٠٠.

(٤) جوانفيل: القديس لويس ص ١٠١ - ١٠٣؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ١٣١ - ١٣٢؛ سعيد عاشور: مصر والشام ص ١١٠.

(٥) (Selections : op. cit. p. 23.)؛ سعيد عاشور: مصر والشام ص ١١١.

٦٤٧هـ / فبراير ١٢٥٠م وجاء دخولهم إليها «أول ابتداء النصر على الفرنج»[(١)] فبالرغم من استشهاد قائد الجيش فخر الدين بن الشيخ، فإن فرسان المسلمين ومقاتليهم ثبتوا «ثم تناخوا على الفرنج فطحنوهم طحناً»[(٢)] ولقد بلغ عدد ضحايا الصليبيين في المنصورة بضعة آلاف مما جعلها بحق مقبرة الجيش الصليبي[(٣)].

ولقد أجبرت هذه الهزيمة لويس التاسع على الإحجام عن التقدم، وبعد وصول تورانشاه شدّد المسلمون ضرباتهم للجيش الصليبي، ونشبت معارك عديدة بين السفن الإسلامية والصليبية في نهر النيل، وشلّت حركة الصليبيين، وانقطع المدد عنهم، وتفشّت بينهم الأمراض، ثم شن المسلمون عليهم هجوماً كبيراً عند فارسكور ـ قرب دمياط ـ في محرم ٦٤٨هـ / مارس ١٢٥٠م وحلت الهزيمة الماحقة بالصليبيين، ووقع لويس التاسع في الأسر، كما وقع الجيش الصليبي بكامله بين قتيل وأسير، وسيق الملك لويس التاسع إلى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان[(٤)].

وقد حاول المسلمون خلال المفاوضات التي جرت مع أسيرهم لويس التاسع استرداد ما بأيدي الصليبيين من بلاد الشام، ولكن لويس رفض بحجة أن لا سلطان له على الصليبيين في بلاد الشام، وأخيراً تم توقيع الصلح بين الطرفين وتضمن إعادة مدينة دمياط مقابل إطلاق سراح لويس التاسع نفسه،

---

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٥١.
(٢) الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٥٢.
(٣) سعيد عاشور: مصر والشام ص ١١٢.
(٤) ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ١٥ ص ٢٤؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٤؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٥٤ ـ ١٥٥؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٥٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٧؛ سعيد عاشور: مصر والشام ص ١١٥، (Selections: op. cit. pp. 34 - 37).

مع دفع مبلغ ضخم من المال لفداء بقية الأسرى الصليبيين، وإطلاق سراح أسرى المسلمين، وأن تستمر الهدنة بين الجانبين لمدة عشر سنوات[1].

أبحر لويس التاسع من دمياط متوجهاً إلى عكا في ربيع الأول ٦٤٨ هـ/ مايو ١٢٥٠ م [2]. في محاولة يبدو أنه قصد منها استعادة جزء من هيبته وكرامته التي مرغها المسلمون في الوحل على شواطىء النيل، وترميم ما أصاب الوجود الصليبي في بلاد الشام من انهيار. وكان الصليبيون في بلاد الشام قد بلغوا أقصى درجات الضعف والتدهور، إذ إن هزيمة لويس التاسع الساحقة في مصر لم تؤد إلى تدمير الجيش الفرنسي فحسب بل قضت على معظم الفرسان المحاربين من الشرق الصليبي بما فيهم فرسان الداوية والاسبتارية [3]. ولم يعد للصليبيين في بلاد الشام من الطاقة والقدرة ما يستطيعون به الدفاع عن كيانهم وأخذ مصيرهم معلقاً بما سوف يؤول إليه المخاض الذي أخذ يعتور بلاد الشرق الأدنى الإسلامي خلال هذه الحقبة والمتمثل في انهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك وازدياد خطر المغول.

وعلى الرغم من أن الظروف في فرنسا كانت تستدعي عودة لويس التاسع إلى بلاده، فإنه قرر بعد مشاورة كبار أتباعه أن يبقى هو في بلاد الشام، بينما ترك الحرية لباقي الأمراء في البقاء معه أو المغادرة إلى فرنسا، وقد غادر العديد من الأمراء إلى بلادهم وضمنهم إخوة لويس التاسع الذي فضل البقاء في بلاد الشام حفاظاً على كيان الصليبيين بها [4].

---

(١) جوانفيل: القديس لويس ص ١٥٦ ـ ١٦٣؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

(٢) جوانفيل: القديس لويس ص ١٨٣ ـ ١٨٤؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٣٤.

(٤) جوانفيل: القديس لويس ص ١٨٩ ـ ١٩٧؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣.

وقد حاول لويس التاسع خلال وجوده في بلاد الشام الإفادة من النزاع الذي نشب بين بقايا الأيوبيين في بلاد الشام ودولة المماليك الناشئة في مصر، بغية تعويض الفشل الذي أصاب حملته على مصر [١]. فبعد وصوله إلى عكا استقبل رسلاً أنفذهم إليه الناصر يوسف صاحب دمشق شاكياً إليه أمراء مصر الذين قتلوا ابن عمه تورانشاه، وطلب مساعدته ضد المماليك في مصر وتعهد له بتسليم بيت المقدس له إذا ساعده في تحقيق أهدافه [٢]. ويبدو أن الناصر يوسف أراد أن يبرهن للملك لويس التاسع على قوته ومقدرته على تهديد الصليبيين في بلاد الشام إذا لم يوافق على عرضه، فحين استولى الناصر يوسف على دمشق في ربيع الأول ٦٤٨ هـ/ مايو ١٢٥٠ م أرسل عسكرا بقيادة رجل يدعى سعد الدين بن نزار فنزل على حصن شقيف تيزون [٣] وانتزعه من أيدي الفرنج [٤]. ورغم ذلك فقد ذكر جوانفيل أن لويس التاسع أرسل بالجواب للناصر يوسف، معتذراً عن إجابة طلبه بالتحالف معه، إلى أن يحصل على تعويض من المماليك الذين زعم أنهم خرقوا الاتفاقية بينهم وبينه، فإذا رفضوا نهض لمساعدته ضد المماليك في مصر [٥].

ومن الواضح أن تردد لويس التاسع في قبول عرض الناصر يوسف يرجع إلى أنه ما زال في مصر اثنا عشر ألف أسير صليبي، لم يشأ لويس التضحية بهم إذا ما تحالف مع الناصر يوسف ضد المماليك [٦].

والعجيب في تفكير الناصر يوسف هذا، أنه لم يعتبر بالدروس القاسية

---

(١) (Stevenson : op. cit.p.329)

(٢) جوانفيل: القديس لويس ص ٢٠٠.

(٣) شقيف تيزون: أورده ابن شداد بالزاي، بينما ضبطه ياقوت وأبو الفدا بالراء، وهو حصن منيع قرب صور ويقع شمال صفد على مسافة يوم سيراً على الأقدام، انظر ياقوت، معجم البلدان؛ أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ١٥٩.

(٤) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ١٥٩.

(٥) جوانفيل: القديس لويس ص ٢٠٨.

(٦) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٤٠.

التي حلت بكل حاكم مسلم حاول التحالف مع الصليبيين لتحقيق طموحاته وأطماعه على حساب الحكام المسلمين الآخرين، وكان أقرب الشواهد الماثلة أمام الناصر يوسف تلك الكارثة التي حاقت بحكام بلاد الشام في معركة غزة وكان ضمن القوات التي نزلت بها الهزيمة فرقة من عسكر حلب التابعة للناصر يوسف حينما تحالف ملوك الشام مع الصليبيين ضد الصالح أيوب (١).

غير أن المماليك في مصر تمكنوا من شل مشروع الناصر يوسف الموجه ضدهم عندما أفرجوا عن بعض أسرى الصليبيين، وأرسلوا الهدايا للملك الفرنسي، واشترطوا عليه مقابل ذلك عدم التحالف مع الناصر يوسف ضدهم، فاهتبل لويس التاسع تلك الفرصة وأرسل إلى المماليك، يطالبهم بإطلاق جميع أسرى الصليبيين وإرسال رؤوس الفرنج المعلقة على أسوار القاهرة وإعفاءه من بقية الفدية المستحقة عليه (٢). ويفهم مما ذكره جوانفيل وابن كثير أن المماليك عرضوا على لويس التاسع تسليمه بيت المقدس سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م إذا ما ساعدهم ضد الناصر يوسف (٣).

ولما علم الناصر يوسف بنبأ الاتفاق بين لويس التاسع والمماليك أرسل أربعة آلاف رجل إلى غزة للحيلولة دون اجتماع الصليبيين بالمماليك، وخرج لويس التاسع إلى يافا في انتظار قدوم جيش المماليك، وأقام بها عاماً كاملاً من صفر ٦٥٠ إلى ربيع الأول ٦٥١ هـ/ مايو ١٢٥٢ م - يونيه ١٢٥٣ م قام خلالها بتحصين يافا، دون أن يتحقق أمله في اجتماع قواته بالمماليك لمحاربة الناصر يوسف (٤)، لأن المفاوضات نجحت أخيراً بمساعدة مندوب الخلافة العباسية في

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٨٢ - ٢٨٧.

(٢) جوانفيل: القديس لويس ص ٢٠٨ - ٢١٠؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٤٠ - ١٠٤١.

(٣) جوانفيل: القديس لويس ص ٢٢٨؛ ابن كثير جـ ١٣ ص ١٨٤.

(٤) جوانفيل: القديس لويس ص ٢٢٨ - ٢٣٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٨١؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ١٨٠ - ١٨١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٤١؛ (Stevenson: op. cit. p.330).

توقيع الصلح بين الناصر يوسف والمماليك واعترف الناصر بقيام دولة المماليك وتنازل لهم عن أجزاء هامة من بلاد الشام [١]. وبذلك فشلت خطط لويس التاسع، ولم يحقق أية مكاسب ذات شأن من النزاع الذي نشب بين الناصر يوسف ودولة المماليك في مصر.

ومن الجوانب الأخرى لنشاط لويس التاسع خلال إقامته في بلاد الشام، قيامه بتحصينات البلدان الخاضعة للصليبيين وبخاصة عكا التي شرع في العناية بتحصينها غداة وصوله إليها في ربيع الأول ٦٤٨ هـ/ مايو ١٢٥٠ م [٢]. ثم عمر قلعة قيسارية وشيدها وحصنها، كما اهتم بأرسوف وحصنها [٣]، وعمل أيضاً على تقوية يافا وتحصينها وأنشأ بها الأبراج والخنادق وأنفق على ذلك أموالاً ضخمة [٤].

أما عن الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين، فقد وقعت بعض الاشتباكات المحدودة بين الجانبين، غير أنها لم تؤد إلى تغيير الموقف لصالح أي من الطرفين [٥]. على أن أخطر تلك الاشتباكات وأقواها مهاجمة قوات الناصر يوسف لمدينة صيدا سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م وتمكن المسلمون خلال ذلك الهجوم من اقتحام المدينة وقتلوا بها أكثر من ألف رجل من الصليبيين واضطرت حامية المدينة إلى الاحتماء بقلعة صيدا الحصينة [٦]. الأمر الذي أوقع الحزن والأسى في نفس لويس التاسع وجعله يهرع إلى صيدا لتحصينها وتقويتها [٧]. ويذكر ابن

---

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٤٢.

(٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٢٥٢ - ٢٥٤؛ جوانفيل: القديس لويس ص ٢١٠ - ٢١١: وارسوف: مدينة على الساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٤ هـ انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٤) جوانفيل: القديس لويس ص ٢٤٦؛ وانظر أيضاً ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٢٥٧.

(٥) عن هذه الاشتباكات انظر جوانفيل: الصفحات ٢٣٠، ٢٣٨ - ٢٤٠، ٢٥٠ - ٢٥٢.

(٦) جوانفيل: القديس لويس ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٧) المصدر نفسه ص ٢٤٣.

شداد أن الناصر يوسف صالح الصليبيين بعد هجومه على صيدا على أن تصبح المدينة مناصفة بين المسلمين والصليبيين وظلت كذلك حتى دخول التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م فانتهز الفرنج الفرصة واستولوا عليها (١). ومن المدن الأخرى التي عمل لويس التاسع على تحصينها وتقويتها مدينة صور الساحلية (٢).

واهتم لويس التاسع خلال إقامته بالشام برفع الروح المعنوية للصليبيين وفض ما وقع بينهم من خلافات (٣). وبعد أن أقام في بلاد الشام زهاء أربع سنوات غادرها متوجهاً إلى بلاده سنة ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤ م (٤) بعد أن تم توقيع هدنة بين الصليبيين والناصر يوسف صاحب الشام لمدة «عشر سنين وستة أشهر وأربعين يوماً. وحلف الفريقان على ذلك» (٥).

وفي رأينا أنَّ إقامة لويس التاسع في بلاد الشام تلك المدة الطويلة لم تؤد إلى أية مكاسب للصليبيين، فلم يستطع الاستيلاء على بيت المقدس الذي قامت حملته أساساً على مصر من أجل ضمان الاستيلاء عليها. كما أن إجراءات لويس التاسع الدفاعية وتحصيناته للمدن والحصون الخاضعة للصليبيين، لم تكن السبب في إطالة عمر الوجود الصليبي في بلاد الشام، وإنما السبب الحقيقي يعود إلى المنازعات التي نشبت بين المماليك وبين الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب، ثم الاضطراب الذي نجم عن فرار المماليك البحرية بزعامة بيبرس إلى الشام ودخولهم في علاقات متشابكة مع الناصر يوسف والمغيث صاحب الكرك، وما ترتب على ذلك من انشغال الزعماء المسلمين في بلاد الشام ومصر بمشاكلهم ومنازعاتهم عن توحيد صفوفهم ضد بقايا الوجود الصليبي. إضافة إلى

---

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ١٠٠.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٤٣.

(٣) المرجع نفسه جـ ٢ ص ١٠٤٤.

(٤) جوانفيل: القديس لويس ص ٣٦٥ - ٣٦٧.

(٥) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٩٣.

الاضطراب الذي عم بلاد الشام وغيرها من بلاد المشرق الإسلامي بسبب الزحف الكاسح لجحافل المغول على بلاد المشرق الإسلامي. فهذه هي الأسباب الحقيقية التي أمدَّت في عمر الوجود الصليبي بدليل أنه بعد توحيد مصر والشام على يد الظاهر بيبرس وصد خطر المغول بدأت المدن الصليبية تتساقط تباعاً في أيدي المسلمين.

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب
وأثرها في تاريخ بلاد الشام

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب وأثرها في تاريخ بلاد الشام

أولاً : مع القوى الإسلامية :

* مع الخلافة العباسية .
* مع سلاجقة الروم .
* ظهور خطر الخوارزمية .

ثانياً : مع القوى غير الإسلامية :

* مع مملكة أرمينية الصغرى .
* مع الامبراطورية الغربية المقدسة .
* ظهور خطر التتار .

العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب

وأثرها في تاريخ بلاد الشام

لم يكن الصراع مع الصليبيين هو الحدث التاريخي المهم الوحيد الذي شهدته بلاد الشام قبيل الغزو المغولي. فقد دخلت في علاقات متشابكة مع العديد من القوى الخارجية ـ إسلامية وغير إسلامية ـ كان لها آثار بعيدة على أحوال بلاد الشام قبيل الغزو المغولي.

أولاً ـ مع القوى الإسلامية:

مع الخلافة العباسية:

قامت العلاقات بين الدولة الأيوبية والخلافة العباسية على أسس قوية منذ وقت مبكر حين أقدم صلاح الدين سنة **٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م** على إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وإعلان الخطبة للخليفة العباسي. الأمر الذي دفع الخلافة العباسية إلى إرسال الخلع والتشريفات لصلاح الدين، وأقيمت الاحتفالات في بغداد ابتهاجاً بعودة الوحدة للعالم الإسلامي بعد أن انقسم زهاء قرنين من الزمان منذ قيام الخلافة الفاطمية في مصر سنة **٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م** [(١)].

وقد ازدادت العلاقات قوة ورسوخاً بين صلاح الدين والخلافة العباسية بعد قيامه باستئصال جذور التشيع من مصر. وكان صلاح الدين يحرص دوماً

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ٣٦٨ ـ ٣٧١؛ البنداري: سنا البرق الشامي جـ ١ ص ١١٥ ـ ١١٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٧؛ عبد الله الغامدي استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين ص ٤٨ ـ ٤٩.

طوال مرحلة حكمه على إضفاء صبغة الشرعية على كل الأعمال التي يقوم بها عن طريق تأكيد ولائه الدائم للخلافة العباسية وإكرام رسل الخليفة العباسي [1].

وعلى الرغم مما حدث بعد وفاة صلاح الدين من نزاع بين خلفائه من بعده، وما نشب بينهم من حروب، ودخولهم في تحالفات عديدة مع قوى خارج البيت الأيوبي، فإنهم حرصوا جميعاً على إعلان تبعيتهم الإسمية والروحية للخلافة العباسية والتمسك بالولاء لها، رغم أنها قد دخلت منذ زمن بعيد في طور الضعف والاضمحلال، وذلك لكي يكسبوا حكمهم صفة الشرعية بل وتنافسوا في إظهار الولاء لها. فحين توفي السلطان صلاح الدين ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م وآلت السلطنة إلى ابنه الأكبر الأفضل صاحب دمشق سارع بإرسال رسالتين من إنشاء العماد الكاتب يشرح فيهما ارتباط البيت الأيوبي بالولاء للخلافة العباسية، وقيام صلاح الدين بفريضة الجهاد باسمها. وأكد الأفضل في رسالتيه الانتماء لها معلناً فخره واعتزازه بذلك الولاء [2]. كما أرسل من قِبَله مبعوثاً بهدية قيمة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م) وتضمنت تلك الهدية صليب الصلبوت الذي غنمه والده صلاح الدين في حطين وكان مصنوعاً من «ذهب يزيد على العشرين رطلاً مرصعاً بالجواهر» كما أرسل فرس والده وخوذته وسيفه وأربعة دروع كلها كانت «تركته وبها يقاتل» إضافة إلى تحف جميلة وهدايا قيمة من الطيب والثياب وغير ذلك [3].

أما الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب فقد جهَّز هو الآخر القاضي

---

(١) سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٦٩ ـ ٧٤.

(٢) انظر نص الرسالتين في ابن واصل، مفرج الكروب جـ٣ ص ٥ ـ ٨.

(٣) أبو شامة: الروضتين جـ٢ ص ٢٢٥؛ وانظر أيضاً الأصفهاني: الفتح القدسي ص ٦٥٠؛ واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٨، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٤٣٥.

بهاء الدين بن شداد بهدايا تبلغ «إضعاف ما سيّره أخوه الأفضل» وأرسله في أبهة جميلة وفرقة من الجند. فسار القاضي بهدايا الظاهر إلى بغداد وبلغ رسالته للخليفة العباسي وعاد إلى حلب مكرماً (١).

وتوطدت العلاقات بين الخلافة العباسية وبين السلطان العادل، ولا سيما بعد سيطرة الأخير على مصر والشام حتى أن الخليفة الناصر لدين الله بعث سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م بالخلع وسراويلات الفتوة (٢) إلى العادل وأولاده فلبسوها في شهر رمضان من السنة نفسها (٣). وحين طلب الخليفة الناصر لدين الله من الظاهر غازي صاحب حلب سنة ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥ م أن يشتري لحسابه أسلحة وذخائر ليشحن بها بعض القلاع في شرقي العراق، أرسل الظاهر الأسلحة المطلوبة للخليفة ورفض أن يتقاضى ثمنها (٤).

وحين وطد العادل نفوذه على بلاد الشام ومصر والجزيرة، وبعد أن وقف

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٩.

(٢) الفتوة نظام اجتماعي إسلامي قديم يعود إلى ما تعتمد عليه الفروسية من آداب وصفات أهمها الشجاعة والقوة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الكذب والرحمة باليتيم وإكرام الضيف ومساعدة الضعيف والإيثار، ومن الواضح أنها تعتمد أساساً على مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام، وللفتوة ذكر في الأحاديث النبوية، ثم نسبت إلى علي بن أبي طالب الذي اعتبره الفتيان منبع الفتوة وأصلها. وظلت الفتوة قائمة في المجتمع الإسلامي خلال العصور الإسلامية تتطور بتطورها فتقوى حيناً وتضعف أحياناً إلى أن عمل الخليفة الناصر لدين الله على إحياء هذا النظام. وكان للفتوة مراسم وقوانين خاصة، فلا يقبل طلب الشاب بالانتساب إليها إلا إذا شهد له فتيان آخرون بتمسكه بأهدابها وقيمها. ثم يحتفل بانضمامه على نسق خاص فيشد وسطه بحزام معين ثم يلي ذلك شرب كأس الفتوة المكون من الماء والملح ثم يلبس سراويل الفتوة. وللمزيد من التفاصيل انظر، ابن عمار البغدادي: الفتوة نشر فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٩ م؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٠٦ حاشية رقم (٢)؛ كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ١٤٢ ـ ١٤٥؛ مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، رسالة دكتوراه لم تطبع ص ١٠٤ ـ ١١١.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٣.

(٤) سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٨٠.

بحزم في وجه الصليبيين وكبح جماحهم عن التوسع في بلاد الشام؛ أرسل في أوائل سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م مملوكه الدكز العادلي وقاضي عسكره نجم الدين خليل بن المصمودي رسولين إلى الخليفة الناصر لدين الله طالباً التشريف والتقليد على مصر والشام والبلاد الجزرية وخلاط فأكرمهما الخليفة وقرر إجابته إلى طلبه [١].

وأرسل الشيخ شهاب الدين السهروردي حاملاً الخلع والتقليد للسلطان العادل، ومر الشيخ السهروردي بحلب فخرج الظاهر في عساكره وأرباب دولته إلى لقائه، ثم سار من حلب نحو دمشق وأرسل الظاهر في صحبته قاضي مملكة حلب ابن شداد وأعطاه ثلاثة آلاف دينار لنثرها على السلطان العادل عندما يلبس خلعة الخليفة، كما بعث المنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص مبالغ من المال لنثرها أيضاً [٢]. وعند اقتراب مبعوث الخليفة من دمشق خرج العادل وأولاده لاستقباله كما أغلقت الأسواق وخرج الناس جميعاً لمشاهدة مبعوث الخليفة. وجلس العادل في قلعة دمشق وقدَّم له الشيخ السهروردي خلع الخلافة، وكانت مكونة من جبة أطلس أسود بطراز مذهب، وعمامة سوداء بطراز مذهب أيضاً، وطوَّقه بطوق مصنوع من الذهب المرصع بالجواهر، وقلَّده بسيف محلى بالذهب، وقدَّم له حصاناً أشهب بسرج مطلي بالذهب ونشر على رأسه علم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة وألقابه [٣]. وعندما لبس العادل خلع الخليفة نثر رسل الملوك عليه دنانير الذهب ابتهاجاً بهذه المناسبة،

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٣٤، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٨٠؛ ابن نظيف التاريخ المنصوري ص ٥٦؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٦٠؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٦٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٨٠ - ١٨١؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٦٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٨١؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٦٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٦٣ - ٦٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٠٨ - ١٠٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٦٦؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٥٦؛ ابن نصر الله؛ شفاء القلوب ص ٢١٨.

ثم خلع رسول الخليفة على ابني العادل الأشرف والمعظم وعلى وزيره ابن شكر. وركب العادل وولداه بالخلع والتشريفات وتجولا بها في شوارع دمشق ليراها الناس، ثم وضع كرسي في أحد الميادين وأعلن من عليه بالتقليد للسلطان العادل، وخوطِب فيه «بشاهان شاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين» ثم توجه الشيخ السهروردي إلى مصر لإضفاء الخلع بنفسه أيضاً على الملك الكامل بن السلطان العادل ثم عاد إلى بغداد معززاً مكرماً (١).

ويتضح من كل هذا مدى حرص بني أيوب في بلاد الشام على إضفاء طابع الشرعية على حكمهم كما يتضح مدى الأهمية والمكانة في نفوس عامة المسلمين في بلاد الشام للخلافة العباسية ومدى تقديرهم للخليفة باعتباره إمام المسلمين ورمز وحدتهم، وليس أدل على ذلك من قيام العادل مع أولاده بالركوب بخلع الخليفة والتجول بها في شوارع دمشق ليرى الناس مدى رضى الخليفة عن السلطان وأبنائه.

وفي سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م وصل إلى بلاد الشام رسول الخليفة العباسي الناصر لدين الله ومعه كتاب صنفه الخليفة وسماه (روح العارفين) ويشتمل على أحاديث نبوية يرويها الخليفة بأسانيد عالية، وقد سمع كتاب الخليفة في كل بلاد الشام ومصر. وفي حلب جلس رسول الخليفة في الجامع الكبير وحضر القاضي ابن شداد وكبار رجال الدولة وأعيانها للاستماع إلى كتاب الخليفة (٢) . وحمل الرسول الشيخ السهروردي إلى الظاهر تشريف الخلافة وكان عبارة عن فرو سمور مغشاة بثوب أطلس أسود. وسيف محلى، وجلس الملك الظاهر بين يدي الشيخ وهو يقرأ كتاب روح العارفين للخليفة، وكان الظاهر يقف على رجليه كلما ورد ذكر اسم الخليفة أثناء القراءة احتراماً وإجلالاً لمكانته (٣).

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨١ ـ ١٨٢؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٦٤ ـ ٦٥؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

على أنه تجدر الإشارة هنا، أنه إذا كان ملوك بني أيوب في بلاد الشام ومصر يتنافسون على كسب رضا الخليفة والتمسّك الدائم بإظهار الولاء للخلافة وإعلان الانتهاء لها فإنها لم تكن قادرة على أن تؤثر فعلاً في سير الحوادث، بل ولم يكن للخليفة دور يتناسب ومكانته في جهاد الصليبيين في ذلك الدور، في وقت حشدت فيه البابوية والغرب الأوربي كل جهودهم للاستيلاء على مصر والمتمثل في الحملة الصليبية الخامسة. فقد ذكر المؤرخ المعاصر ابن نظيف الحموي أنه حين كان الصليبيون يحدقون بدمياط سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، وصل إلى مصر سفير الخليفة إلى الملك الكامل ولما أدى مهمته تبين أنه جاء يحث الملك الكامل على أن يكون الخليفة الناصر لدين الله قدوته وقبلته في نظام الفتوة ورمي البندق[١]. ويعلّق ابن نظيف الحموي على هدف هذه السفارة بأسلوب لاذع ساخر قائلاً: «فتعجب الناس من إمام العصر وهمته»[٢].

ولما اشتدت الضائقة بالمسلمين بعد سقوط دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م بعث الخليفة الناصر لدين الله إلى سائر الممالك الإسلامية في الجزيرة والشام وغيرها يحثّ ملوكها على نجدة السلطان الكامل بدمياط[٣]. ولم تقم الخلافة نفسها بدور ملموس في جهاد الصليبيين أثناء تلك الحملة.

---

(١) البندق: هو الذي يرمى به، والواحد بندقة والجمع بنادق. وهي كرات صغيرة تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص ويبدو أنها فارسية الأصل ويسمونها «الجلاهقات جمع جلاهق» وكان الفرس يرمون البندق عن الأقواس كما يرمون السهام. واقتبس العرب هذه اللعبة منذ وقت مبكر وشكلوا فرقاً من الجند يرمون بها، وكان رماة البندق في العصر العباسي جماعة كثيرة، وكانوا يخرجون إلى سواد المدن وضواحيها يتسابقون في رمي البندق على الطير وغيره ويعدون ذلك من قبيل الفتوة، وكانوا يلبسون لذلك سراويل الفتوة، وانتشرت هذه اللعبة في بلاد العراق والشام ومصر وفارس ثم استخدموا الأنابيب حيث يضغط الهواء من مؤخرة الأنبوب بما يشبه أنابيب البنادق. فلما ظهر البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب، وسموا هذه الآلة بندقية نسبة إليه، وقد عني الخليفة العباسي الناصر لدين الله بالبندق حتى جعل رميه فناً لا يتعاطاه إلّا الذين يشربون كأس الفترة ويلبسون سراويلها منه مباشرة أو من أحد رسله بالوكالة. انظر، جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي جـ ٥ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ٧٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٨٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٠٤.

وبعدما توفي الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م سار ابنه الخليفة الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) على نهجه في إضفاء الخلع والتشريفات على ملوك بني أيوب، فأرسل الشيخ محي الدين محمد بن الجوزي سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م إلى الشام فوصل إلى حلب وألبس خلع الخليفة الجديد للملك العزيز بن الظاهر ثم سار إلى المعظم صاحب دمشق وبقية بني أيوب بخلع مماثلة[١].

وليس أدل على تمسك بني أيوب في بلاد الشام بالعلاقات الطيبة مع الخليفة العباسية من موقف المعظم الذي وقفه إزاء حليفه جلال الدين الخوارزمي حين تحالف المعظم معه لمواجهة أخويه الكامل والأشرف[٢]، فهاجم الخوارزمي أطراف العراق سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وأزمع على مهاجمة بغداد فأرسل إلى حليفه المعظم متهماً الخليفة بأنه الذي حرّض المغول على مهاجمة الدولة الخوارزمية، وطالب جلال الدين المعظم بالقدوم إليه لمهاجمة خليفة بغداد، فرفض المعظم في حزم قائلاً: «أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين»[٣].

على أن موقف المعظم هذا لا يعني أنه تخلى عن التحالف مع الخوارزمي ففي سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م طالب الشيخ محي الدين بن الجوزي المعظم بترك محالفة الخوارزمي باعتباره خارجاً عن الطاعة بتهديده الخلافة العباسية في بغداد، وأوضح له إستعداد الخلافة للإصلاح بينه وبين أخوته غير أن المعظم اعتذر عن التخلي عن محالفة الخوارزمي خوفاً من إطباق أخويه الكامل والأشرف على مملكته في الوقت الذي لا تستطيع فيه الخلافة تقديم المساعدة الفعالة لحمايته[٤].

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص١٩٧؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٧٥ - ١٧٦؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١١٨.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٣٤؛ وانظر أيضاً ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص١٤٧ - ١٤٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١١٢؛ ابن

وعندما ذهب الكامل إلى إقليم الجزيرة سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م ظلت الرسل متبادلة بينه وبين الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣هـ - ٦٤٠هـ / ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م) مما يشير إلى حرص الجانبين على استمرار العلاقات الطيبة بينهما (١). وفي السنة التالية ٦٢٨هـ / ١٢٣١م وصل إلى مصر مبعوث الخليفة بالخلع والتقليد للسلطان الكامل ولأخيه الأشرف صاحب دمشق ولابنه الصالح أيوب وغيرهم من ملوك وأمراء بني أيوب(٢). وفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م ذهب مبعوث الخليفة مرة أخرى إلى مصر وعند عودته من مصر استقبله المجاهد صاحب حمص وأهل دمشق وفقهائها وأعيانها استقبالاً حافلاً(٣).

وكان ملوك بني أيوب في بلاد الشام يرون الخلافة العباسية بمثابة الملاذ الأخير الذي يتحتم اللجوء إليه وقت الأزمات، ومما يبرهن على صحة هذا القول أن الناصر داود صاحب الكرك حين تدهورت العلاقات بينه وبين عمه الكامل سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م وبات يشعر أن عمه قد ينقض على ما تبقى من أملاكه، فكَّر في الذهاب إلى بغداد، وشرع في إعداد نفسه وحاشيته للرحيل «ثم سافر ملتجئاً إلى الخليفة ومستجيراً به ومتمسكاً بذيله»(٤)واصطحب معه بعض كبار العلماء، وحين وصوله إلى بغداد أمر الخليفة المستنصر بالله باستقباله في احتفال مهيب وأمر بإكرامه وإنزاله بدار الوزارة(٥). وحمل الناصر داود للخليفة هدايا قيمة من الجواهر والتحف النفيسة، غير أن الناصر داود لم يحظ في بادىء الأمر بمقابلة الخليفة شخصياً، لأن الأخير آثر عدم إغضاب السلطان الكامل وإثارة

أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(١) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ١٩٥، ١٩٧، ١٩٧ - ٢٠٠.

(٢) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥١، ٢٥٦.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٣٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٠٠.

(٥) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥ ص ١٠٠ - ١٠١؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٧٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٥٧؛ المقريزي: السلوك، جـ١ ص ٢٥١.

عتبه وووحشته، لعلمه أن الناصر داود لم يصل إلى بغداد إلا وهو غاضب على عمه، الأمر الذي جعل الناصر داود يتألم لموقف الخليفة، فعمد إلى إنشاء قصيدة رائعة مكونة من تسعة وأربعين بيتاً يمدح فيها الخليفة ويعتب عليه رفضه مقابلته في الوقت الذي قابل فيه صاحب اربل وهو أقل منه عراقة ومكانة[1]. وقد أثارت القصيدة إعجاب الخليفة المستنصر فأمر باستقباله سراً تطييباً لخاطره، وحتى لا يُغضب في الوقت نفسه عمه السلطان الكامل، وتمت المقابلة ليلاً بين الخليفة والناصر داود، ودارت بينهما المناقشات العلمية والأدبية إلى آخر الليل[2].

وحضر الناصر داود أثناء إقامته في بغداد المناظرات التي كانت تدور في المدرسة المستنصرية، فناظر العلماء والفقهاء وأثار إعجاب الجميع[3]. ثم خلع الخليفة على الناصر داود وعلى أصحابه وأكرمهم، وجهزه للسفر، وبعث في

---

(١) مما جاء في القصيدة قوله:

فأنت إمام العدل والمعرق الذي ... به شرفت أنسابه ومناصبه
ويأتيك غيري من بلاد قريبة ... له الأمن فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنواً منك لم ألق مثله ... ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه

انظر نص القصيدة في تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٣٣ ـ ٣٣٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٠٢ ـ ١٠٦.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٣٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣) ذكر المؤرخ ابن واصل أن الناصر داود حكى له أنباء تلك الرحلة وأخبره أنه حضر إلى المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة المستنصر، واجتمع بالعلماء، وكان الخليفة يطل على إيوان المدرسة من روشن في قصره الملاصق للمدرسة ويستمع لمناظرات العلماء. فقام أحد الفقهاء ويدعى وجيه الدين القيرواني وألقى قصيدة يمدح الخليفة فجاء فيها قوله مخاطباً الخليفة:

لو كنت في يوم السقيفة حاضراً ... كنت المقدم والإمام الأروعا

فغضب الناصر داود لأن ذلك الفقيه الشاعر أساء الأدب مع أبي بكر وعمر بن الخطاب وغيرهما من كبار المهاجرين والأنصار فجعل الخليفة المستنصر متقدماً عليهم جميعاً. وقال لذلك الفقيه بمرأى ومسمع من الخليفة «أخطأت فيما قلت، كان ذلك اليوم جد سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ حاضراً ولم يكن المقدم والإمام الأروع إلاّ أبا بكر الصديق» فأعجب الخليفة برد الناصر داود وصدر أمره بنفي ذلك الفقيه من بغداد، انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٠٧ ـ ١٠٩.

خدمته رسولاً من كبار خواصه ليشفع له لدى عمه الكامل. وحين بلغ الأخير قدومه مع رسول الخليفة خرج من دمشق مع أخيه الأشرف واستقبله بحفاوة «وقبل شفاعة الخلافة فيه»[1].

وبعد أن أقام الناصر داود أياماً في دمشق غادرها إلى الكرك في صحبة صديقه المؤرخ ابن واصل الذي أقام في كنفه بقية سنة ٦٣٣هـ[2]. ويشير ابن واصل إلى مدى إعتزاز الناصر داود بعلاقته الوطيدة مع الخليفة العباسي فيذكر أنه بعدما رجع إلى دمشق من رحلته ومعه الأعلام السود جعل رنكه[3] كله أسود تعبيراً عن انتمائه إلى الخلافة. وكان الخليفة المستنصر قد لقّبه «الولي المهاجر» فلما عاد الناصر إلى بلاده أمر الخطباء أن يذكروا في الدعاء له اللقب الذي شرفه الخليفة به ، ولما سافر إلى الكرك سافر رسول الخليفة معه ليلبسه الخلعة ويتأكد بذلك أمره وتنحسم مادة الطمع فيه، ولما وصلا إلى الكرك أقيمت الاحتفالات ابتهاجاً بعودة الناصر داود مع مبعوث الخلافة الذي رجع بعد فترة وجيزة إلى بغداد بعد أداء مهمته «وأقام الناصر بالكرك مطمئناً آمناً لانتسابه إلى الخليفة»[4].

وهكذا أصبحت الخلافة العباسية تلعب دوراً مؤثراً في محاولات رأب الصدع وتسوية النزاع بين ملوك بني أيوب في وقت تفاقم فيه خطر التتار من جهة الشرق ففي سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م وأثناء حصار السلطان الكامل لأخيه الصالح اسماعيل بدمشق أقنع محي الدين بن الجوزي ـ مبعوث الخليفة ـ

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١١٠ ـ ١١١.

(٢) المصدر نفسه جـ ٥ ص ١١١.

(٣) الرنك ـ جمعه رنوك ـ لفظ فارسي معرب معناه اللون، وقد استعمل بمعنى الشعار أو العلامة التي يتخذها الشخص لنفسه وينفرد بها دون غيره وينقشها على أبواب بيوته وممتلكاته كما يضعها على سروج خيوله وسيوفه وآلاته وذخائره، انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١١٢. حاشية رقم (٧).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١١٢ ـ ١١٣.

اسماعيل بتسليم دمشق لأخيه الكامل مقابل تعويضـات مناسبـة[1]. وبعد إستيلاء الكامل على دمشق وصل إليه رسول آخر في السنة نفسها ومعه مئة ألف دينار للسلطان الكامل وطلب منه إنفاقها على العساكر لصد خط التتار الذين شرعوا يهددون بغداد، وحينها تسلّم الكامل كتاب الخليفة وضعه على رأسه تعبيراً عن تقديره وأعلن على الفور إجابة طلب الخليفة وأمر بصرف مائتيّ الف دينار على أعداد العساكر وأن لا يصرف شيء من المال الذي بعث به الخليفة وأن يعاد بكماله إلى بغداد[2].

وذكر المقريزي أن الكامل أمر بتجهيز عشرة آلاف فارس بقيادة الناصر داود، غـير أن العـدد لم يلبث أن انخفض إلى ثـلاثـة آلاف دون سبب معروف[3]. ومن الواضح أن وفاة الكامل في السنة نفسها واضطراب أحوال الأيوبيين بعده حال دون إرسال قوات كبيرة لنجدة الخلافة.

وقد بذلت الخلافة مساعيها لتطويق النزاع الـذي أخذ يتفاقـم بين الأيوبيين في بلاد الشام ومصر، ففي سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م واثناء إقامة الصالح أيوب بنابلس وهو في طريقه إلى مصر بقصد انتزاعها من أخيه العادل، وصل محي الدين بن الجوزي رسول الخليفة المستنصر في محاولة للإصلاح بين الأخوين، واستطاع ابن الجوزي ـ بمساعدة ابنه الذي أخذ يتنقل بالرسائل بين مصر والشام ـ الوصول إلى اتفاق بين الصالح أيوب وأخيه العادل على أن يكون للصالح أيوب دمشق وما يتبعها من البلاد التي كانت تابعة لها زمن الأشرف، وتُعاد بلاد الناصر داود إليه، على أن يحتفظ العادل الثاني بمصر، غير أن تلك الجهود سرعان ما انهارت فجأة عندما انقض الصالح اسماعيل على دمشق

---

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ أ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع، ورقة ٢٠٧ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٥٢، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤٨.

(٢) ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٧ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٧ ب؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٥٧.

(٣) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

واستولى عليها من ابن الصالح أيوب وما تبع ذلك من تطورات وحوادث[1]. كما فشلت جهود محي الدين بن الجوزي أيضاً في محاولة الصلح الأخرى التي حاول إجراءها بين الصالح اسماعيل وابن أخيه الناصر داود بسبب إصرار الأخير على إعادة دمشق إليه[2].

وبعد أن نجح الصالح أيوب في الاستيلاء على مصر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م حصل فوراً على التقليد والخلع من الخلافة العباسية[3]. وأخفقت جهود الخلافة مرة أخرى في تسوية النزاع بين الصالح أيوب وعمه اسماعيل صاحب دمشق بسبب تعنت الأخير[4]. وبعد أن حلت الهزيمة بقوات الصالح اسماعيل في معركة غزة سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م أرسل وزيره إلى بغداد طالباً شفاعة الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨م) ليتوسط في الصلح بينه وبين ابن أخيه الصالح أيوب، غير أن وزير الصالح اسماعيل لم يلق أذناً صاغية من الخليفة فعاد إلى صاحبه «ولم يتحصل من رسالته على طائل»[5].

وبعد أن استولت قوات الصالح أيوب على دمشق سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م بعث برسول من لدنه إلى بغداد «يلتمس التقليد بالديار المصرية والشام والشرق والتشريف الإمامي» فاستجاب الخليفة المستعصم لطلب الصالح أيوب وبعث له بالتشريف والتقليد ويقول في ذلك المؤرخ ابن واصل: «وكنت يومئذ حاضراً فقرىء التقليد على الناس ثم لبس السلطان التشريف الأسود المذهب، والعمامة والجبة، والطوق الذهب وركب المركوب الذي قدم له بالحلية الذهب وكان يوماً مشهوداً»[6].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢١٦، ٢١٨ - ٢١٩؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٤، وانظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١٦٠ - ١٦٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٤٨، ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٣) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٨.

(٤) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٢.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤١؛ وانظر أيضاً أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٤.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥١ - ٣٥٢؛ وانظر أيضاً سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان

ونجحت وساطة الخلافة العباسية في سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م عندما تمكن مبعوث الخليفة من تسوية النزاع الذي نشب بين مملكة حلب والصالح أيوب حول حمص، فأصدر الصالح أيوب أمره لعسكره بترك حصار حمص بعد أن كاد يستولي عليها[١].

والحق أن الخلافة العباسية في بغداد كانت أكثر إحساساً بخطر المغول الوثنيين الذين هددوا قلب العراق وصاروا قاب قوسين أو أدنى من بغداد، في الوقت الذي قامت فيه دولة المماليك في مصر وبدأ النزاع يشتد بينها وبين بقايا الأيوبيين في بلاد الشام الأمر الذي جعل الخليفة المستعصم يسعى جاهداً لتوحيد صفوف المسلمين في الشرق الأدنى محاولاً صد خطر المغول، لذلك لا نعجب إذا أرسل الخليفة المستعصم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب يأمره بمصالحة المعز أيبك التركماني زعيم المماليك في مصر وأن يتفقا على حرب التتار[٢]. ففي سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م تفاقم النزاع بين المماليك في مصر والناصر يوسف صاحب الشام واستطاع الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي مبعوث الخليفة التوفيق بين الجانبين قاطعاً الطريق على الصليبيين في بلاد الشام للإفادة من النزاع القائم[٣]. وإذا كان الخلاف قد اندلع من جديد بين الطرفين بسبب خروج المماليك البحرية إلى الشام فإن الشيخ البادرائي استطاع مرة أخرى تسوية الخلاف سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م[٤].

جـ ٨ ص ٧٥٥؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٤٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٦.

(١) أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٧؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٣١؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٥.

(٢) سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٨١ - ٨٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٤؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٤ - ٤١٥.

(٤) بيبرس: التحفة الملوكية ورقة ٧ أ؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ٥٥ - ٥٦؛ المقريزي: السلوك، جـ ١ ص ٣٩٨، ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٥.

وفي سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م أرسل الناصر يوسف المؤرخ كمال الدين بن العديم بهدايا إلى الخليفة المستعصم طالباً منه الخلع ، ووصل في الوقت نفسه مبعوث المعز أيبك سلطان المماليك في مصر طالباً الخلعة أيضاً ، فتحرج الخليفة، أي الزعيمين يلبي طلبه، واستقر رأيه أخيراً على إجابة طلب المعز أيبك، ثم أحضر الخليفة سكيناً كبيرة وقال لوزيره: «أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في أن له خلعة عندي في وقت آخر أما في هذا الوقت فلا يمكني فأخذها كمال الدين بن العديم وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة»[1] وهذا الموقف إن دل على شيء فإنما يدل على إحساس الخلافة ببزوغ قوة ونجم دولة المماليك وأفول نجم الدولة الأيوبية، على الرغم من أن الخليفة المستعصم أوفى بوعده وأرسل في السنة التالية ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م الخلعة والطوق والتقليد إلى الناصر يوسف بدمشق، فركب «بالخلعة الإمامية وكان يوماً مشهوداً»[2].

وأرسل الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م إلى المغيث صاحب الكرك طالباً إنفاذ الناصر داود إليه لكي يقدمه على بعض العساكر لمواجهة التتار، فسار الناصر داود مع رسول الخليفة من الكرك نحو بغداد وما أن وصلا إلى دمشق حتى بلغهما سقوط بغداد بأيدي قوات المغول[3].

وهكذا ظلت الخلافة حتى آخر لحظة من عمرها تنهض بمسؤولياتها وتعمل قدر طاقتها على توحيد جهود المسلمين لمواجهة الأخطار الخارجية ولاسيما من جانب الصليبيين والمغول[4].

---

(١) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٩١، وانظر أيضاً : اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ١٢ـ ١٣ ؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٥ ؛ الغزي: نهر الذهب جـ٣ ص ١٥٧ ؛ الطباخ: إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٧٤.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥٢، وانظر أيضاً : أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٩٣.

(٣) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٩٥.

(٤) سعيد عاشور: ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٨٢.

مع سلاجقة الروم:

تعود جذور العلاقات بين الأيوبيين في بلاد الشام وسلاجقة الروم إلى زمن صلاح الدين حيث لجأ إليه معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب ملطية بسبب طمع أخيه قطب الدين في مملكته، فأكرمه صلاح الدين وزوجه من إبنة أخيه الملك العادل الأمر الذي جعل أخاه قطب الدين يحجم عن مهاجمة ممتلكاته في ملطية وما يتبعها[1]. وفي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠١م فقد معز الدين قيصر شاه ملطية لحساب أخيه الآخر ركن الدين، فهرب إلى الشام مستنجداً بحميه السلطان العادل غير أنه لم يقدم له مساعدة تذكر[2]. ويبدو أن العادل لم يشأ في تلك الفترة الإنغماس في مشكلات دولة سلاجقة الروم في وقت كان يعمل فيه جاهداً على إعادة توحيد الدولة الأيوبية وبسط نفوذه عليها.

والحق أن تجاور الدولة الأيوبية مع دولة سلاجقة الروم واشتراكهما معاً في حدود طويلة متداخلة في شمال الشام وأعالي الجزيرة، أدى إلى قيام علاقات متشابكة بين الدولتين. وهي علاقات تميزت بالشد والجذب حسب ما تمليه مصالح كلا الدولتين. فسادتها صفة الود والمصاهرة والمصالح المشتركة حيناً، وشابتها سمة العداء والمنافسة أحياناً. فلما استولى السلطان العادل على مملكة ابن أخيه الأفضل وجرده من أكثر ممتلكاته في أعالي الجزيرة، ولم يبق بيده غير سميساط، أعلن الأفضل سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٣م إنحيازه لسلطان سلاجقة الروم، وبذل له الطاعة وخطب له ببلاده نكاية في عمه العادل، فأرسل سلطان سلاجقة الروم الخلع للأفضل فلبسها وضرب السكة باسمه[3].

وكانت أكثر الممالك الأيوبية الشامية تأثراً بمجاورة دولة سلاجقة الروم هي مملكة حلب نظراً لوقوعها في شمال الشام ومجاورتها لدولة سلاجقة الروم،

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه جـ١٢ ص ٢٠١.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ١٨٢ - ١٨٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٠ - ١٥٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٤١.

إضافة إلى تداخل الثغور الشامية والجزرية بين المملكتين، حيث كان بعضها يتبع مملكة حلب وبعضها الآخر يتبع دولة سلاجقة الروم. وقد حرصت مملكة حلب في عهد الملك الظاهر على الاحتفاظ بعلاقات حسن الجوار مع دولة سلاجقة الروم لإدراك الظاهر بعدم قدرته بمفرده على الدخول في مجابهة معها[1].

ولكن أطماع سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو (٦٠٦ - ٦١٦ هـ/ ١٢١٠ ١٢١٩ م) في حلب وجميع بلاد الشام لم تلبث أن ظهرت بعد وفاة الظاهر بن صلاح الدين سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م[2]. وكان أول إجراء اتخذه كيكاوس أن أرسل إلى زعماء حلب معزياً بوفاة الظاهر، ومقترحاً في الوقت نفسه تعيين الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط أتابكاً للعسكر لأنه عم الملك الصغير العزيز «وهو أولى بتربيته وحفظ ملكه» وبدا هدف كيكاوس من هذا الاقتراح واضحاً، إذ كان يرمي إلى السيطرة على حلب عن طريق الأفضل الخاضع لنفوذه غير أن هذا الاقتراح لم يلق قبولاً لدى أغلب الحلبيين، واستقر الرأي أخيراً على رفضه[3].

وعند ذلك قرر كيكاوس غزو حلب، فحشد جموعاً ضخمة من المقاتلين كما استعد بالمنجنيقات[4]، ولكي لا يواجه مقاومة فعالة لجأ إلى الاستعانة بالأفضل صاحب سميساط لعلمه أن طائفة كبيرة من عسكر حلب يميلون إليه، فضلاً عن تعاطف السكان معه، فاستدعاه من سميساط؛ وحين قدومه إليه أمر باستقباله بحفاوة بالغة وقدَّم إليه هدايا كثيرة من الخيل والخيام والسلاح، واتفق معه على أن يسير في صحبته لغزو حلب، وتضمن الاتفاق أنَّ جميع ما يستولون عليه من مملكة حلب، تُسَلَّم للملك الأفضل على أن يقيم الخطبة والسكة بها

---

(١) انظر، أحمد المولوي: صحائف الأخبار، ورقة ٥٧٦ أ.

(٢) المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٧٦ أ.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٧٦ - ١٧٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٤) المولوي: المصدر نفسه، ورقة ٥٧٦ أ، ابن العديم: المصدر نفسه جـ٣ ص ١٨١.

للسلطان كيكاوس، ثم يسيرون بعد ذلك إلى الشرق للاستيلاء، على أملاك الأشرف مثل الرها وحران وغيرها [1]. وعمد كيكاوس إلى مراسلة بعض أمراء حلب الذين يميلون إلى الملك الأفضل ووعدهم بالإقطاعات المغرية في جنوب آسيا الصغرى، ومنهم على سبيل المثال علم الدين قيصر الذي راسله وكتب له توقيعاً بابلستين [2]، فأعلن عصيانه على الحلبيين وسار باتباعه إلى السلطان كيكاوس وانضم إليه، كما سانده في حملته بعض حكام الجزيرة وعلى رأسهم صاحب آمد [3].

وسار كيكاوس وصحبته الأفضل في ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ/ يونيه ١٢١٨ م نحو مملكة حلب، فاستولى على قلعة رعبان وسلمها للأفضل، مما جعل سكان مملكة حلب يرحبون بحملته لميله للملك الأفضل [4]. ثم سار إلى قلعة تل باشر وحاصرها حصاراً شديداً حتى استولى عليها فأخذها لنفسه وولّى فيها من قبله ولم يسلمها للأفضل حسب الاتفاق، مما كان له أسوأ الأثر في نفس الأخير واستوحش واعتبر تصرف كيكاوس أول الغدر، وبات يشعر أنه يرتكب عملاً خطيراً بمساعدة كيكاوس على انتزاع مملكة ابن أخيه وإزالة الملك من بيته لحساب سلاجقة الروم، فشرع يعمل على إفشال حملة كيكاوس، فبعد أن كان يشير عليه عقب الاستيلاء على رعبان بمعاجلة حلب قبل وصول النجدات إليها، أصبح يشير عليه بعد الاستيلا على تل باشر بتجريد حلب من جميع القلاع التابعة لها، وهو يهدف بذلك إلى إطالة زمن الحرب ريثما تتمكن حلب من تدبير

---

(١) الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ورقة ١٥٠ ب، العيني: عقد الجمان جـ١٣ لوحة ٣٨٥؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٥ أ؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٤٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١١٩؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) ابلستين: مدينة مشهورة ببلاد الروم انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨١ - ١٨٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٣٤٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٦٤؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢٤٣؛ تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٤٠١.

أمور الدفاع عن نفسها. كما أن الأهالي نفروا من كيكاوس حينما أخذ تل باشر لنفسه ولم يسلمها للأفضل [١]. وسار كيكاوس إلى منبج فاستولى عليها وشرع في تحصينها [٢].

ولم يكن بمقدور مملكة حلب الصمود في وجه سلطان سلاجقة الروم بجيوشه الكثيفة وامكاناته الضخمة، لذلك أرسل الحلبيون يطلبون نجدة الملك الأشرف بن العادل الذي كان يهاجم ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف الضغط على دمياط حيث شرعت الحملة الصليبية الخامسة تهاجم مصر، فسار الأشرف لنجدة حلب وأرسل يستدعي بقية عساكره، كما استدعى أيضاً قبائل العرب الشامية من طي وغيرهم ونزل بجيوشه خارج حلب [٣].

ويذكر صاحب صحائف الأخبار أن الأشرف اجتمع بأخته ضيفة خاتون والدة الملك العزيز وتشاور معها في كيفية التصدي لخطر سلاجقة الروم، فأخبرته أن الجواسيس أفادوا بأن مع السلطان كيكاوس عساكر كثيرة، ومن الصعب مواجهته عسكرياً في ميدان مكشوف، ولا بد من استخدام الخدعة والحيلة للتغلب عليه، فأحضرت رومياً كان له علاقات وطيدة مع بعض خواص كيكاوس وقادة عسكره، وأغرته بالمال والهدايا مقابل أن يذهب إلى معسكر سلطان الروم ليخبر أحد خواص السلطان بأنه علم أن الأشرف وأخته يراسلان بعض قادة السلطان، وقد اتفقا معهم على الغدر به عند وقوع المعركة، وأنهما أرسلا رسائل لأولئك الأمراء وهي في انتظارهم في مكان معين خارج حلب،

---

(١) العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٨٥؛ المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٧٦ ب؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٤٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٨٢؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٠١.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ لوحة ٣٦٢؛ (نسخة آياصوفيا)؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٨٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١١٩.

(٣) المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٧٦ ب؛ العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٨٥؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٤٨.

وأراد كيكاوس أن يتأكد من صدق الرومي فأرسل إلى المكان الذي عينه مكاناً للهدايا والأموال فوجدها جاهزة فعلاً ، فاستوحش من قادته ودبت الريبة والشك إلى نفسه، وظن أن هناك اتفاقاً سرياً بين قادته وزعماء حلب [1]. فأرسل مقدمة عسكره نحو حلب فالتقت بها العرب من طي، وبعض عسكر الأشرف في وادي بزاعا [2] في ربيع الآخر ٦١٥ هـ/ يوليه ١٢١٨ م وأنزلوا بها الهزيمة وأسروا جماعة منها وقتلوا آخرين، وغنموا أسلحتهم وخيولهم، ووصل الأشرف إلى ميدان المعركة وقد انتهت، فأرسل الأسرى إلى حلب [3].

وعندما بلغ النبأ كيكاوس وهو بمنبج على رأس جيشه الرئيسي أيقن بأن قادته قد غدروا به فعلاً [4]، وملأ الرعب قلبه ورحل مسرعاً إلى بلاده خائفاً يترقب. ويعلق ابن الأثير على فراره هذا قائلاً: «وإنما فعل هذا لأنه صبي غر لا معرفة له بالحرب وإلا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض» [5]. وسار الأشرف يطارد فلول عساكر كيكاوس، واستعاد تل باشر ورعبان ومنبج وغيرها، وأعادها جميعاً إلى ابن أخته العزيز صاحب حلب وذلك في جمادي الأولى ٦١٥ هـ/ أغسطس ١٢١٨ م [6].

والواقع أنه على الرغم من هزيمة كيكاوس وفشل حملته على حلب فإن

---

(١) المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٧٦ ب.

(٢) بزاعا: بلدة من أعمال حلب بين منبج وحلب، كان فيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) المولوي: المصدر نفسه ورقة ٥٧٦ ب؛ العيني: عقد الجمان جـ ١٣ لوحة ٣٨٥ ـ ٣٨٦؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٢٥ ـ ٣٢٦؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٤٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٨٢ ـ ١٨٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦٧؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٩٦.

(٤) المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٧٦ ب.

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٤٩.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٨٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦٨؛ ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٥؛ الغزي: نهر الذهب جـ ٣ ص ١١٢؛ (The Cambridge History of Islam P. 246).

تصرفه هذا يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن على وعي بطبيعة الحركة الصليبية وأهدافها. وهكذا لم يتعاون مع الأيوبيين في بلاد الشام على جهاد الصليبيين وصد الحملة الخامسة بل كان عامل تهديد للنفوذ الأيوبي في شمال الشام الأمر الذي أشغل جزءاً كبيراً من القوات الأيوبية في التصدي لخطر سلاجقة الروم. فلو قدر لسلاجقة الروم خلال هذه الفترة التعاون مع الأيوبيين وتم حشد قوات الجانبين معاً ضد الصليبيين لأمكن سحق الحملة الخامسة في وقت مبكر وإحراز قدر كبير من النجاح ضد بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

وكيفما كان الأمر، فقد توفي السلطان كيكاوس سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م وخلفه على عرش دولة سلاجقة الروم أخوه علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو (٦١٦ - ٦٣٤ هـ/ ١٢١٩ - ١٢٣٦ م) «فراسل الأشرف واتفق معه» (١). وساد العلاقات حسن الجوار بين الأيوبيين في بلاد الشام، وبين سلاجقة الروم أكثر من عشر سنوات وتبادل الطرفان الرسائل والهدايا والمجاملات (٢). كما زوج المعظم ملك دمشق شقيقته ابنة السلطان العادل من السلطان علاء الدين كيقباذ وتوطدت العلاقات بين الجانبين (٣). ولم يعكر صفوها سوى ما حدث من التنافس بين الأشرف وسلطان الروم على بسط نفوذهما على منطقة الجزيرة وديار بكر (٤).

ولم تلبث تلك العلاقات أن تحولت إلى تحالف كامل وتنسيق شامل بين الأيوبيين في بلاد الشام بزعامة الأشرف وبين سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بسبب الخطر المشترك الذي هدد كلا الجانبين من قبل جلال الدين

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٠.

(٢) انظر على سبيل المثال، ابن نظيف: التاريخ المنصوري الصفحات ١١٢، ١٢١، ١٣٤، ١٤١، ١٤٣ - ١٤٤، ١٤٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢١.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٣٤ - ٤٣٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٦.

(٤) انظر أيضاً، ابن نظيف: التاريخ المنصوري، الصفحات ١٣١، ١٦٥ - ١٦٦، ١٨٠ - ١٨١، ١٨٨؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٣.

منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية الذي استولى في سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م على مدينة خلاط عاصمة الأشرف بمنطقة الجزيرة وأصبح النفوذ الأيوبي بالجزيرة مهدداً لأن سقوط خلاط الحصينة يعني تهاوي بقية ممتلكات الأيوبيين بسهولة في يد جلال الدين (١). كما شمل التهديد دولة سلاجقة الروم، ذلك أن صاحب أرزن الروم (٢) ركن الدين جيهانشاه، وهو ابن عم السلطان علاء الدين كيقباذ، انضم إلى جلال الدين منكبرتي وساعده على حصار خلاط، فخشي كيقباذ أن يؤدي التحالف بين ابن عمه والخوارزمي إلى تهديد دولته، فأرسل يستنجد بالسلطان الكامل وأخيه الأشرف ويطلب التحالف معهما لصد خطر الخوارزمي (٣). ويظهر من مضمون رسالة كيقباذ إلى الأشرف حرصه الشديد على التحالف مع بني أيوب لدرء الخطر الذي هدد الدولتين معاً، فقد جاء فيها قوله: «والآن فبلادي وأموالي بحكمك فتصل. . . بالعساكر إلى قرشهر - مدينة في آسيا الصغرى - وتنجرد وحدك وتصل إلى عندي بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك ونصل أنا وأنت إلى العسكر بالعساكر، فوالله لأقنعت لك بخلاط بل بجميع البلاد» (٤). وذكر ابن الأثير أن علاء الدين بلغ من حرصه على الاتفاق مع الأشرف أن أرسل إليه في يوم واحد خمسة رسل يطلب قدومه إليه ولو بمفرده (٥).

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٩؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٨٧ - ٤٨٨؛ ابن العديم، زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٠٨؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٨٣ - ١٨٦؛ النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٢٠ - ٣٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٩٤ - ٢٩٧؛ تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٠٨؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٣٤؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ١ ص ٣٤١؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٦.

(٢) ارزن الروم: مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط وغالبية أهلها أرمن ولها ولاية واسعة كثيرة الخيرات. انظر: القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٩٤؛ ياقوت: معجم البلدان.

(٣) المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٨٠ أ؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٨٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٩٨.

(٤) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٨٩.

وشرع الأشرف في إعداد عساكر الشام للمضي إلى سلطان الروم للاتحاد معه ضد الخوارزمي، فطلب الأشرف من أتابك حلب نجدة فأجابه إلى طلبه وجرد معه عسكر حلب بقيادة عز الدين بـن علي [1]. كما انضم إليه عسكر حمص بقيادة المنصور إبراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه، ونجدة من عسكر حماة إضافة إلى عساكر دمشق وغيرها. وبلغ مجموع عساكر الشام التي سارت تحت قيادة الأشرف زهاء خمسة آلاف فارس، وكانت من خيرة العساكر الأيوبية في ذلك الحين لخبرتها الطويلة في حروب الصليبيين إضافة إلى أن خيولهم عربية أصيلة وأسلحتهم في غاية الكثرة والجودة [2].

وفي شعبان ٦٢٧ هـ/ يوليه ١٢٣٠ م توجه الأشرف بفرقة عسكرية لمقابلة السلطان كيقباذ. وسارت في أثره العساكر الشامية، فوصل إليه بسيواس [3]، واستقبله بحفاوة كبيرة وقدَّم له ولعساكره الشامية الإقامات والنفقة، فبلغ مجموع ما قدَّمه له أربعمائة ألف درهم سلطانية، وعشرين ألف مكوك غلة وعشرة آلاف رأس غنم، وقدَّم لكل واحد من إخوته مئة ألف درهم وعدداً من الخيول والسروج وغيرها، وأقاموا في سيواس سبعة أيام، فأحضر كيقباذ خلالها زوجته ابنة العادل لمشاهدة إخوتها «وقدَّموا لها وقدَّمت لهم أشياء» [4] وكان في صحبة الأشرف من إخوته العزيز عثمان بن العادل وشهاب الدين غازي، وابن أخيه الجواد يونس ابن مودود بن العادل وغيرهم من أمراء بني أيوب [5].

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٠٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٩٨ ـ ويقول ابن الأثير عن عز الدين هذا أن اسمه عمر بن علي وهو من الأكراد الهكارية، ومن الشجاعة في الدرجة العليا وله الأوصاف الجميلة، والأخلاق الكريمة، انظر ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٩٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٤٩٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٩٨.

(٣) سيواس: مدينة بأرض الروم مشهورة، تتميز بحصانتها وهي كثيرة الخيرات والثمرات وأهلها مسلمون ونصارى، والمسلمون من التركمان وعوام طلاب الدنيا ويشتغل جزء كبير من سكانها بالتجارة، انظر القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٣٧.

(٤) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦٠.

وفي رمضان ٦٢٧ هـ/ أغسطس ١٢٣٠ م شرع الأشرف في تنظيم عساكره، وإعدادها لملاقاة جلال الدين الخوارزمي، وأرسل كيقباذ يستدعي عساكر أرزنجان [١] لمساعدته فساروا إليه، وفي الطريق نزلوا لأخذ قسط من الراحة في أحد المروج، فباغتهم جلال الدين على غفلة وقتل منهم زهاء ثلاثة آلاف رجل ولم ينج منهم إلا أعداد قليلة [٢].

ولقد فتت تلك الكارثة التي حلت بجيش أرزنجان في معنويات عساكر الروم والشام والجزيرة، ورغم ذلك فقد تقرر خوض المعركة، وجرى ترتيب الجيوش المتحالفة بحيث تكون عساكر الشام في المقدمة وخلفها عساكر سلاجقة الروم، والتقى الجانبان في يوم السبت ٢٨ رمضان ٦٢٧ هـ/ ١٠ أغسطس ١٢٣٠ م قريباً من أرزنجان في منطقة وعرة تسمى ياسي جمن [٣]، ولما شاهد جلال الدين كثرة العساكر ولا سيما «عسكر الشام، فإنه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ما ملأ صدره رعباً، فأنشب عز الدين بن علي القتال ومعه عسكر حلب، فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر ومضى منهزماً هو وعسكره وتمزقوا لا يلوي الأخ على أخيه» [٤] ومما ساعد أيضاً على انتصار عساكر الشام وسلاجقة الروم أنه حين وقوع المعركة «أرسل الله ضباباً فلم ير أحد كفه» [٥] كما هبت رياح شديدة في وجوه عساكر الخوارزمية [٦]. ومن الطبيعي أن يساعد ذلك عساكر سلطان الروم لمعرفتهم بطبيعة المنطقة وطرقها بعكس عساكر

---

(١) أرزنجان: من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط وأكثر سكانها أرمن وفيها مسلمون هم أعيان أهلها، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه جـ ٨ ص ٦٦٠؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٠٥ - ٢٠٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦٠، ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٠٧ - ٢٠٨؛ (The Cambridge History of Islam p.247). وياسي جمن: موضع بين خلاط وأرزن الروم، انظر القزويني: آثار البلاد ص ٥٦٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٩٠.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦١.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٣٠٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٠٠.

الخوارزمي الذين يجهلونها تماماً. وقد ظهر أثر ذلك واضحاً حين اشتدت وطأة هجمات سلاجقة الروم وعساكر الشام وفر الخوارزمية بأثقالهم، وتردى أكثرهم من رؤوس الجبال، وصادفوا في طريقهم منخفضاً سحيقاً فتهافت فيه أكثرهم [1]، بحيث بلغ عدد من قتل في ذلك المنخفض زهاء ألف وخمسمائة إضافة إلى أموال الخوارزمي وخزائنه وأمتعته التي غدت غنيمة سائغة لسلاجقة الروم وعساكر الشام [2].

وبعد تحقيق النصر قدَّم علاء الدين كيقباذ للأشرف وإخوته وأصحابه من ملوك الشام عطايا ضخمة من الأموال والخلع والثياب والتحف وعاد كيقباذ إلى بلاده [3]. أما الأشرف فقد سار إلى خلاط فاستردها بعد أن أصبحت «خاوية على عروشها خالية من الأهل والسكان» [4].

ثم جرت المراسلات بين جلال الدين الخوارزمي وبين الأشرف وكيقباذ وتم الاتفاق بينهم على أن يحتفظ كل واحد بما تحت يده من البلاد، مع إطلاق سراح الأسرى من الجانبين، وعاد الأشرف إلى دمشق سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م [5].

ولم تلبث العلاقات بين سلاجقة الروم والأيوبيين في بلاد الشام أن

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦١؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٠٩ ـ ٢١٠؛ النسوي: سيرة جلال الدين ص ٢٣١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٩٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٠٩؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٦؛ (The Cambridge History of Islam p.247).

(٢) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢١٠؛ وانظر أيضاً: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦١.

(٣) ابن نظيف الحموي: المصدر نفسه ص ٢١١؛ سبط ابن الجوزي، المصدر نفسه ص ٦٦١؛ وقد قدر سبط ابن الجوزي قيمة الهدايا بمبلغ مليوني دينار وهو مبلغ مبالغ فيه دون شك.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٩٠.

(٥) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٤٩١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٦.

تدهورت سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣٢ م حين استولى الكامل على آمد وخضع له جميع حكام الجزيرة ودخلوا في طاعته «واستشعر منه علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان» (١). وانتهز سلطان الروم رجوع الكامل إلى مصر سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م فاستولى على خلاط وبعض القلاع المحيطة بها، وشرع في عمارتها ونقل إليها الفلاحين والغلال وزرعها، وبدأ يتطلع إلى بسط نفوذه على بقية بلدان الجزيرة (٢). وتطورت الأمور بإقليم الجزيرة إلى وقوع الغارات المتبادلة والاشتباكات المسلحة بين عساكر الكامل بقيادة ابنه الصالح أيوب وبين سلاجقة الروم (٣).

واستقر رأي الأخوين السلطان الكامل والملك الأشرف على المسير إلى بلاد سلاجقة الروم والاستيلاء عليها. فكتب السلطان الكامل إلى ملوك بني أيوب في بلاد الشام يأمرهم بتجهيز عساكرهم للمسير معه إلى بلاد الروم، وخرج من مصر على رأس عساكره في شعبان ٦٣١هـ/ يونيه ١٢٣٤ م، وانضم إليه ابن أخيه الناصر داود صاحب الكرك، ثم سار إلى دمشق ومنها إلى سلمية حيث انضم إليه المجاهد صاحب حمص والمظفر صاحب حماه، فضلاً عن عسكر حلب بقيادة تورانشاه بن صلاح الدين وغيرهم من ملوك بلاد الشام والجزيرة من بني أيوب حتى أن المؤرخين ذكروا أنه اجتمع تحت قيادته في هذه الحملة ستة عشر ملكاً من بني أيوب بعساكرهم الكثيفة (٤).

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤.

(٢) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠١ أ، اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٤ أ، تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٥٧ ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٣٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٣١٦؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٤٧.

(٣) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ٢٥٩.

(٤) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٤ أ، تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٥٧ ـ ٢٥٨؛ ابن العديم، زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١٦ ـ ٢١٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٤ ـ ٧٥، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٨٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨؛ ـ وعن أسماء الملوك الذين ساروا تحت قيادة الكامل، انظر مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٥ ـ ٧٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

والملاحظ أنه على الرغم من مشاركة عسكر حلب في هذه الحملة فإنها احتفظت بعلاقات طيبة مع سلاجقة الروم، إذ يذكر المؤرخون أن كيقباذ أرسل إلى العزيز ـ ملك حلب ـ يخبره بعدم اعتراضه على مساعدة عسكر حلب للسلطان الكامل شريطة أن لا يشارك العزيز بنفسه ومما جاء في رسالة سلطان الروم إلى ملك حلب قوله: «أنا راضٍ منك بأن تمده بالأجناد والأموال على أن لا تنزل إليه أبداً» وفي الوقت نفسه أعفى السلطان الكامل العزيز «من النزول إليه ورضي كل من السلطانين بفعله» (١).

وتقدم السلطان الكامل بعساكره من منبج جهة بلاد الروم. فوجد السلطان كيقباذ قد حفظ جميع الدروب التي تربط بين آسيا الصغرى، وبلاد الشام بالرجال والعتاد، وهي طرق يصعب سلوكها على الجيوش، فنزل السلطان الكامل على النهر الأزرق (٢) جنوب آسيا الصغرى واستطاعت عساكر سلاجقة الروم منع جيوشه من التوغل في بلادها حيث كانت تقاتل من مناطق مرتفعة لم تستطع الجيوش الشامية الطلوع إليها (٣)، إذ من المعروف جغرافياً أن جنوب هضبة الأناضول عبارة عن مرتفعات وعرة صعبة المسالك، وهكذا كانت الجغرافيا أحد العوامل الرئيسة التي ساعدت على فشل حملة الكامل في تحقيق أهدافها.

ومن الصعوبات الأخرى التي برزت أمام الحملة الأيوبية النقص الخطير في المؤن والغلال لدى جيش الكامل (٤) ، فقد رأينا أنه حشد معه معظم عساكر الدولة الأيوبية وإذا كان الأمر بدا وكأنه يستطيع بتلك العساكر الوصول إلى

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٦٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٦.

(٢) النهر الأزرق: نهر بالثغور بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية، ورقة ٥٤ أب، تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٦٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٧.

(٤) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٤ ب؛ تاريخ ابن الفرات: جـ ٦ لوحة ٢٦٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٧.

أهدافه فإن الحقيقة أن تموين تلك الأعداد الضخمة مهمة بالغة الصعوبة، ويبدو أن السلطان الكامل لم يعمل حسابها.

ومن أسباب فشل الحملة أيضاً، إن ملوك الشام علموا أن الكامل أخبر بعض خواصه أنه إذا نجح في الاستيلاء على ممتلكات سلاجقة الروم فسيقوم بتوزيعها على ملوك الشام والجزيرة من بني أيوب لينفرد هو بملك مصر والشام والجزيرة [1]، فاجتمعوا سراً بزعامة الأشرف والمجاهد وقرروا التخاذل والعمل على إفشال حملته، وكتبوا إلى سلطان الروم كيقباذ يخبرونه بموقفهم، فعثرت عيون الكامل على الرسل ومعهم الرسائل فاعتقلوهم وسلموها إليه فاحتفظ بها [2].

وعندما أدرك الكامل صعوبة موقفه بقلة الأقوات وتخاذل ملوك الشام وامتناع الطرق إلى بلاد الروم بالرجال والعتاد، لم يشأ التراجع وإنما قرر المضي قدماً في حملته عبر مناطق أخرى، فرحل بالعساكر إلى أطراف بهسنا في أعالي الفرات «وجهز بعض الأمراء إلى حصن منصرور فهدموه» [3]. وجاء صاحب خرتبرت [4] إلى الكامل ودخل في طاعته وأشار عليه بغزو بلاد الروم من جهة خرتبرت لسهولة الطريق منها إلى بلاد سلاجقة الروم [5]، فاقتنع الكامل

---

(١) اليافعي: جامع التواريخ ورقة ٥٥ أ، تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٤٨؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) اليافعي: المصدر نفسه ورقة ٥٥ أ، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٣) تاريخ ابن الفرات، جـ ٦ لوحة ٢٦١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٨ ـ وحصن منصور من أعمال ديار مضر يقع غربي الفرات قرب سميساط، ياقوت: معجم البلدان.

(٤) خرتبرت: اسم أرمني والمقصود به حصن زياد الذي اشتهر زمن الدولة الحمدانية ويقع في أقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية مسيرة يومين على الأقدام، وبينهما الفرات، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٥) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٦١؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٨، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٨٣.

بمشورته، ورحل بالعساكر شرقاً، وعبر الفرات على جسر كان قد أقامه والده العادل، وظلت العساكر تتدفق عليه عدة أيام لكثرتهم، ثم سار إلى السويداء قرب آمد وعسكر بها، وأمر المظفر ـ صاحب حماه ـ بقيادة ميمنة العسكر للمضي بهم إلى خرتبرت وبعث معه أحد أمرائه ويدعى شمس الدين صواب العادلي وقرر الكامل أن يسير في أثرهم ببقية العساكر لدخول بلاد الروم، ولكن المظفر وصواب العادلي ومن معهما التقوا بعساكر سلاجقة الروم بقيادة كيقباذ الذي كان يقود جيشه المكون من اثني عشر ألف فارس، فدارت معركة كبيرة بين عساكر الروم ومقدمة عساكر الكامل بقيادة المظفر، فحلت به الهزيمة ولجأ المظفر إلى قلعة خرتبرت وتحصن بها مع شمس الدين صواب العادلي، فزحف سلطان الروم على القلعة ونصب عليها تسعة عشر منجنيقاً وشدد عليها الحصار حتى نفدت الأقوات بها فطلب المظفر من سلطان الروم الأمان له ولمن معه فأجابه إلى طلبه وسلمه القلعة في ذي القعدة ٦٣١ هـ / أغسطس ١٢٣٤م واستقبله علاء الدين وقدّم له هدايا قيمة ليحافظ على علاقته الطيبة مع ممالك الشام الصغيرة لكي لا تؤيد سياسة الكامل وأطماعه في ممتلكات سلاجقة الروم. ثم عاد المظفر إلى الكامل الذي كان يعسكر بالسويداء، وبدأت العلاقات تتدهور بينه وبين ملوك الشام الآخرين[1].

وهكذا أدت تلك الهزيمة التي حلت بمقدمة عساكر الكامل إلى تثبيط همته إضافة إلى ظروف الطقس السيئة فقد «دخل فصل الشتاء وحال بين الفريقين، وعاد كل إلى بلاده»[2].

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠١ أ؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٢٣ ب ـ ٢٣٤ أ؛ اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٥ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ ابن أيبك: درر التيجان، مخطوط حوادث ٦٣١هـ؛ المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٨١ أ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون، ورقة ١٢٥ ب؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢١٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٧٨ ـ ٨٢؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٨٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٥٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٤٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٨٣؛ اليافعي: مرآة الجنان جـ ٤ ص ٧٣.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٢٠.

وانتهز السلطان كيقباذ بن كيخسرو فرصة عودة السلطان الكامل إلى مصر وانقشاع فصل الشتاء فسار بجيوشه إلى الجزيرة سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥م ونازل مدينة الرها جاداً في حصارها، فنصب عليها المجانيق واستولى عليها وعلى قلعتها، ثم سار إلى حران واستولى عليها أيضاً، وولى عليها وعلى حران الولاة من قبله، كما سقطت في يده بعض البلدان التابعة لهما مثل سروج والرقة والسويداء وغيرها[١]. ولقد شكل إستيلاء سلطان الروم على الرها وحران تهديداً خطيراً للنفوذ الأيوبي في بلاد الجزيرة والشام بلأهمية العسكرية للرها وحران اللتين تقعان على أطراف الفرات الشمالية حيث تلتقي طرق المواصلات التي تربط بلاد الشام بالجزيرة والعراق وآسيا الصغرى.

وإذا كان السلطان الكامل سلم فعلاً بفشل حملته على دولة سلاجقة الروم فإنه لم يكن في مقدوره التسليم بضياع الرها وحران بسبب أهميتها العسكرية. ولذلك بادر بتجهيز جيوشه من جديد وسار بصحبة أخيه الأشرف صاحب دمشق والمجاهد صاحب حمص والمظفر صاحب حماه، وقطع الفرات وحاصر الرها حتى استردها في جمادي الأولى ٦٣٣هـ / يناير ١٢٣٦م ثم نازل حران واستعادها أيضاً وأسر عساكر سلاجقة الروم الذين كانوا بها وأرسلهم مقيدين إلى مصر، كما استرد عدداً من الحصون والقلاع التي أخذها كيقباذ ثم عاد بجيوشه إلى الشام ومنها إلى مصر[٢].

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع، ورقة ٢٠١ أ ب؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٤ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٢٩٢؛ ابن أيبك: درر التيجان، مخطوط، حوادث ٦٣٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٩٨ ـ ٩٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٢٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٩٤؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٣ القسم الأول ص ٨١ ـ ٨٢، ١٠٨؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩؛ خطط المقريزي: جـ٢ ص ٣٧٧.

(٢) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠١ ب ـ ٢٠٢ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٣٣٨ ـ ٣٣٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٠٩ ـ ١١٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٩٥ ـ ٦٩٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٥٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ٣١٥ ـ ٣١٦؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول

أما مملكة حلب فقد حرصت دائماً على أن تظل علاقتها وطيدة مع دولة سلاجقة الروم، التي رغبت بدورها أن تبقى مملكة حلب قائمة لتكون حاجزة بينها وبين الدولة الأيوبية في مصر وبقية بلاد الشام، ويدل على ذلك ما قام به السلطان علاء الدين كيقباذ سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م عندما كف غارات التركمان في أعمال حلب وأرسل إلى زعماء مملكة حلب يتعهد بحماية الملك الصغير الناصر يوسف ويعرض عليهم مساعدته ونصرته، فرد الحلبيون بإرسال الهدايا للسلطان السلجوقي فأكرم الأخير رسولهم إكراماً كثيراً وحلف الإيمان للملك الناصر يوسف بن العزيز بمساعدته «والذب عن بلاده ودفع من يقصدها» على حد قول ابن العديم[1].

وفي شوال سنة ٦٣٤هـ / يونيه ١٢٣٧م توفي السلطان كيقباذ وخلفه ابنه غياث الدين كيخسرو (٦٣٤ - ٦٤٣هـ / ١٢٣٧ - ١٢٤٥م) فحرص الحلبيون على استمرار العلاقات الطيبة معه، فأرسلوا المؤرخ ابن العديم لتجديد الإيمان التي قطعها والده لمملكة حلب بالمحافظة عليها ومناصرتها، وفي هذا الصدد يقول ابن العديم: «فحلّفته على ذلك في ذي القعدة»[2].

وفي سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م تحالف ملوك الشام بزعامة الأشرف ضد أطماع السلطان الكامل صاحب مصر في ممالكهم، وراسلوا سلطان سلاجقة الروم واتفقوا معه على مناصرتهم[3]. ولما حاصر السلطان الكامل دمشق سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م أرسل صاحبها الصالح اسماعيل يستنجد بسلطان الروم غير

ص ٢٤٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٣؛ خطط المقريزي جـ ٢ ص ٢٧٧.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٠؛ وانظر أيضاً: اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ ب؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٧ - ٣٦٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٣٢.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٦٠ - ٣٦٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٢١ - ١٢٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٥٩؛ اليافعي: مرآة الجنان جـ ٤ ص ٨٨.

أن الأخير لم يقدم له أية مساعدة[1]. وحين سقطت دمشق بيد الكامل خشي الحلبيون أن يزحف على بلادهم فتابعوا إرسال الرسل إلى سلطان سلاجقة الروم طالبين مساعدته، فأرسل لهم «نجدة من أجود عساكره وعرض عليهم أن يسيّر غيرها، فاكتفوا بمن سيره» كما أرسل إلى الكامل يحذّره من مغبة مهاجمة حلب فتوفي الكامل في رجب ٦٣٥هـ / مارس ١٢٣٧م وحالت وفاته دون اصطدامه بجيش سلاجقة الروم المرابط في حلب[2].

وأزدادت العلاقات قوة ورسوخاً بين مملكة حلب وبين سلاجقة الروم بعد وفاة السلطان الكامل، ففي سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م قدم إلى حلب رسول السلطان غياث الدين كيخسرو خاطباً غازية خاتون شقيقة الناصر يوسف صاحب حلب على أن يتزوج الملك الناصر بدوره من أخت السلطان كيخسرو، وقد أجاب الحلبيون ذلك الطلب وتولى المؤرخ ابن العديم عقد النكاح بين كيخسرو والأميرة الحلبية على مذهب الإمام أبي حنيفة لصغر سن الزوجة، وقبل النكاح عن السلطان كيخسرو رسوله عز الدين قاضي دوقات[3] على صداق قدره خمسون ألف دينار. ونثر الذهب عند الفراغ من العقد بدار السلطنة بقلعة حلب، ثم سافر ابن العديم إلى بلاد الروم وكيلاً عن الناصر يوسف ليعقد له العقد على أخت كيخسرو، فاجتمع به قرب قيسارية وتم عقد نكاح الناصر يوسف على ملكة خاتون ابنة كيقباذ على صداق قدره خمسون ألف دينار، ثم عاد ابن العديم إلى حلب بعد أن توطدت العلاقات بين سلاجقة الروم ومملكة حلب بهذه المصاهرة، وضربت البشائر في البلدين إبتهاجاً بهذه المناسبة[4].

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٤ ب؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٦ أ.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٦؛ وانظر أيضاً ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٠ ـ ١٨١؛ المقريزي: السلوك، جـ١ ص ٢٦٩.

(٣) دوقات أو توقات: بلدة في أرض الروم بين قونية وسيواس ذات قلعة حصينة، وأبنية مكينة بينها وبين سيواس مسيرة يومان سيراً على الأقدام، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٤) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٤ أ؛ تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٤٣٤ ـ ٤٣٥؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٢٧ ب ـ ١٢٨ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٣ ـ ١٨٥؛ أبو الفدا: المختصر

وعلى أثر تلك المصاهرة أرسل السلطان كيخسرو إلى حلب توقيعاً بإقطاع الناصر يوسف الرها وسروج، وإقطاع المجاهد صاحب حمص عانة والخابور، وجميع هذه البلاد من أملاك الصالح أيوب بن الكامل، وحين وصل مبعوث كيخسرو إلى حلب، قبلت الملكة ضيفة خاتون ـ الوصية على ابن أبنها الناصر يوسف ـ تلك التواقيع ولكنها آثرت عدم التعرض لتلك البلاد وتركتها بيد ابن أخيها الصالح أيوب[1].

وحينما اندلعت الحرب الأهلية في بلاد الشام بين الأيوبيين لم تجد مملكة حلب حرجاً في الاستجابة لطلب السلطان كيخسرو بإقامة الخطبة له بحلب مع الناصر يوسف، ونقش اسمه على السكة، وفي ذلك إشارة واضحة إلى قبولها بالتبعية الإسمية لسلطنة سلاجقة الروم، بعد أن غدا منصب السلطنة في الدولة الأيوبية مثار نزاع بين الصالح أيوب وأخيه العادل، وقد احتفل الحلبيون بإقامة الخطبة للسلطان السلجوقي، وجرى نثر الدنانير وإظهار السرور وذلك في أواخر سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م[2].

ولقد دلل الحلبيون على إخلاصهم لسلطان سلاجقة الروم عندما رفضوا سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤٢م دعوة المظفر غازي بن العادل الذي طلب منهم الدفاع عنه في ميافارقين إذا ما قصده سلطان سلاجقة الروم، وذلك حتى لا تتأثر علاقاتهم الطيبة مع السلطان غياث الدين كيخسرو[3].

ولقد تنافس ملوك الشام خلال الحرب الأهلية على كسب ود سلطان

جـ٣ ص١٦٢، ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص٢٧٢؛ الغزي: نهر الذهب جـ٣ ص١١٦؛ الطباخ: إعلام النبلاء جـ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤١ ـ ٢٤٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٤٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٠ ـ ١٩١؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ٣٣١.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠٥.

سلاجقة الروم لشد أزرهم في نزاعهم مع بعضهم وبعض(١). وفي سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م أمر الصالح اسماعيل بن العادل صاحب دمشق بإقامة الخطبة لسلطان الروم على منبر دمشق، وظلت قائمة بضع سنوات نكاية في عدوه الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر(٢).

وعندما بسط الناصر يوسف بن العزيز نفوذه على دمشق وكثير من بلدان الشام، قدمت إليه بدمشق زوجته ملكة خاتون سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م وزفت إليه بدمشق وأقيمت لها الاحتفالات الباهرة، وأقام لها النواب والقضاة استقبالات فخمة بالهدايا والإقامات على طول الطريق من بلاد آسيا الصغرى إلى دمشق، واستمرت العلاقات وطيدة بين الجانبين حتى سقوط بلاد الشام بأيدي المغول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م(٣).

خطر الخوارزمية:

سبق شرح الدور الذي لعبه الملك المعظم حينما تحالف مع جلال الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية لمواجهة تحالف أخويه الملك الأشرف والملك الكامل ضده. وبعد موت المعظم حاصر الأشرف والكامل ابنه الناصر داود بدمشق سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢١م فاستنجد الناصر داود بحليف والده جلال الدين(٤). غير أنه من الواضح أن بُعد المسافة بين دمشق والدولة الخوارزمية وما يلزم رُسل الناصر من وقت طويل للوصول إلى بلاط جلال الدين، حال دون نجدة الأخير للناصر داود في الوقت المناسب، فسقطت دمشق بيد الأشرف والكامل في شعبان ٦٢٦هـ / يونيه ١٢٢٩م، بينما جاءت نجدة جلال الدين

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٥٠؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٠٢.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٣٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٥٤؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٠٨.

(٣) بيبرس: التحفة الملوكية، ورقة ٦ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٩١؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٩٠؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية جـ١ القسم الأول ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٤) انظر ما سبق الفصل الثاني، ص ١٣٣.

متأخرة، فتقدم في شوال ٦٢٦هـ / أغسطس ١٢٢٩م إلى الجزيرة وضرب الحصار على مدينة خلاط عاصمة الأشرف بالجزيرة، وظل جلال الدين يحاصرها مدة طويلة صمدت خلالها حاميتها التابعة للأشرف، كما أبدى سكان خلاط مقاومة عنيدة للدفاع عن مدينتهم لمعرفتهم بالمصير المظلم الذي ينتظرهم إذا ما استسلموا للخوارزمي، ورغم حلول فصل الشتاء وشدة البرد وهطول الثلج، فقد أظهر جلال الدين الخوارزمي عزماً منقطع النظير في حصار خلاط حتى سقطت بيده قهراً في أواخر جمادي الأولى ٦٢٧هـ / أبريل ١٢٣٠م، ووضع جلال الدين السيف في رقاب سكان خلاط، وقتل كل من ظفر به منهم، ولم ينج منهم إلاّ أعداد قليلة، ودمّر الخوارزميون خلاط بكاملها وسبوا النساء واسترقوا الأطفال[١].

ولقد أدى سقوط خلاط ـ كما سبق أن أوضحنا ـ إلى تكوين تحالف قوي بين الأيوبيين وسلاجقة الروم وتمكّنوا من إنزال الهزيمة الساحقة بالخوارزمي عند ياسي جمن وما ترتب على ذلك من مراسلات بين جلال الدين والأشرف حتى توصل الجانبان إلى عقد الصلح بينهما[٢].

والحق أن الأشرف لم يكن يسعى إلى تحطيم قوة جلال الدين وإنما كان هدفه فقط أبعاد خطره عن أملاك الأيوبيين، فقد جاء في رسالة بعث بها الأشرف لجلال الدين قوله: «فما اشتهينا نتمم أذيتك لأن خلفك أعداء كثيرين»[٣]، كما جاء في رسالة أخرى بعث بها الأشرف إلى وزير جلال الدين قوله «إن سلطانك سلطان الإسلام والمسلمين وسندهم والحجاب دونهم ودون التتار وسدهم»[٤] وهذا يعني أن الأشرف أدرك أهمية بقاء الدولة الخوارزمية سداً

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨؛ النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥؛ The Cambridge Medieval History Vol. IV P. 748.

(٢) انظر ما سبق ص: ٣٢٣ ـ ٣٢٧.

(٣) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ٢١٦.

(٤) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٣٤.

منيعاً أمام التتار، ولذلك سعى لعقد الصلح مع جلال الدين. غير أن الأمر لم يتطور إلى إقامة جبهة إسلامية متحدة تقف في وجه المغول، وترك جلال الدين وحده ليقف أمام خطر المغول الذين قضوا على دولته قضاء مبرماً وهددوا بقية الدول الإسلامية الأخرى في بلاد الشرق الأدنى.

وعلى أية حال، فقد هُزم جلال الدين أمام المغول ودخل إلى إقليم الجزيرة حيث اغتاله أحد الأكراد قرب ميافارقين سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م وسقطت بموته الدولة الخوارزمية[١]. وجاءت نهايته كارثة مزدوجة مُنيت بها منطقة الشرق الأدنى فمن ناحية، خلت المنطقة من الدولة الخوارزمية التي وقفت ردحاً من الزمن تحت قيادة جلال الدين في وجه التتار، ومن ناحية أخرى دخل أتباعه منطقة الجزيرة وآسيا الصغرى وشنوا غارات مدمرة على بلاد الشام والجزيرة، كان لها آثار سيئة على هذه البلاد قبيل الغزو المغولي.

تمزّقت عساكر جلال الدين بعد هزيمته، ولكنهم عادوا فتجمعوا، ودخلوا آسيا الصغرى، فاستخدمهم السلطان علاء الدين كيقباذ وكانوا يزيدون على اثني عشر ألف فارس، وكان لهم جماعة من المقدمين على رأسهم حسام الدين بركة خان، وكشلوخان وبردى خان، وساروخان، وقد ظلوا في خدمة السلطان السلجوقي كيقباذ إلى أن توفي سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م وخلفه ابنه كيخسرو فقبض على زعيمهم بركة خان، فخرجوا عن خدمته، ونهبوا بلاده وعبروا الفرات إلى الجزيرة، فاستمالهم الصالح أيوب، وأرسل إلى أبيه الكامل يستأذنه في تجنيدهم، وأقطعهم مواضع بالجزيرة وتوسط في إطلاق سراح زعيمهم بركة خان من أسر كيخسرو[٢].

(١) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٣٨٢ - ٣٨٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٢٠ - ٣٢٢ ؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٩٧ - ٥٠٤ ؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤٧.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٧١ - ٣٧٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٣٢ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٣٣ - ١٣٥ ؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٥٩ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٧ ؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٠.

ولم يلبث الخوارزمية أن خرجوا على الصالح أيوب حين بلغهم نبأ وفاة والده ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م، فخشي منهم على نفسه وذهب إلى سنجار واختفى بها «وتحكمت الخوارزمية في البلاد الجزرية»[١] الأمر الذي أطمع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في سنجار، فسار إليها وحاصرها حصاراً شديداً، وتمكن الصالح أيوب أثناء الحصار من استمالة الخوارزمية من جديد، فقدموا إليه وأنزلوا الهزيمة بصاحب الموصل ونهبوا معسكره، واشتد بهم عضد الصالح أيوب[٢]. وقرر المضي في استخدامهم والتقرب إليهم فزوج زعيمهم بركة خان من أخته لأمه، وأقطعه الرها وحران سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م[٣].

ومن الملاحظ أن الخوارزمية لم يكونوا يعرفون الإخلاص في الولاء والطاعة بل كان ولأؤهم لمن يدفع لهم أكثر، فحالما اندلعت الحرب الأهلية في بلاد الشام استدعاهم المظفر صاحب حماه وحاصر بهم حمص، غير أن صاحبها المجاهد راسلهم بدوره وبذل لهم الأموال والعطايا فأخذوها منه مما أفزع المظفر وخشي أن ينقلبوا ضده فعاد إلى بلاده بينما ترك الخوارزمية حصار حمص وعادوا إلى إقطاعاتهم بالجزيرة[٤].

وبعدما أُعْتُقِلَ الصالح أيوب بالكرك سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م[٥]، رحل أحد أتباعه ويدعى جمال الدين بن مطروح إلى الجزيرة واجتمع بزعيم الخوارزمية بركة خان وطلب منه النهوض لنصرة الصالح أيوب، والإغارة على مملكتي حلب وحمص بسبب تحالفهما مع الصالح اسماعيل ضد الصالح أيوب ومهاجمتهما

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٧٨ - ١٧٩؛ وانظر أيضاً سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٢، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٦٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٨٦ - ١٨٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٤.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٧.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠٥ - ٢٠٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٣، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨٠.

(٥) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٦٤ - ١٦٥.

للمظفر صاحب حماه الحليف المخلص للصالح أيوب[١]. فشرع الخوارزمية في الضغط على الحافظ أرسلان بن العادل صاحب قلعة جعبر، حتى اضطر لتسليمها إلى أخته ضيفة خاتون ـ الوصية على مملكة حلب ـ، وامتدت غارات الخوارزمية إلى بالس[٢] ونهبوها ففر سكانها إلى منبج وحلب[٣].

ولما عبر الخوارزمية الفرات، ووصلوا بغاراتهم إلى بلاد الشام وهددوا مملكة حلب، أصبح لا مناص من التصدي لخطرهم سيما وأنهم دأبوا على محاكاة المغول في غاراتهم على البلاد، إذ مارسوا أعمال التخريب والقتل والنهب والهتك دون هوادة أو رحمة. فخرج إليهم عسكر حلب بقيادة المعظم تورانشاه بن صلاح الدين في زهاء ألف وخمسمائة فارس فقط لأن بقية عسكر حلب كانوا موزعين على القلاع مثل شيزر، وحارم وقلعة جعبر وغيرها لحمايتها، إضافة إلى إرسال نجدة من حلب إلى سلاجقة الروم لمساعدتهم في صد غارات المغول، في الوقت الذي كان فيه عدد الخوارزمية يزيد على اثني عشر ألف فارس، فضلاً عن إنضمام الأمير علي بن حديثة الطائي بجموعه من العرب إلى الخوارزمية نكاية في الحلبيين الذين تحالفوا مع بعض القبائل الأخرى المنافسة له[٤].

والتقى الفريقان بوادي بزاعا بين حلب ومنبج إلى الشمال الشرقي من حلب في ربيع الآخر ٦٣٨هـ / نوفمبر ١٢٤٠م وصدم عسكر حلب الخوارزمية صدمة قوية تزحزحوا لها، إلا أن الخوارزمية تكاثروا عليهم، كما أن العرب بقيادة علي بن حديثة خرجوا من بين البساتين، التي كمنوا بها، وأطبقوا جميعاً

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة على ضفة الفرات الغربية انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٦٦ ـ ٥٦٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٥ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٨ ص ٣٤٢.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٦٧ ـ ٥٦٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨١ ـ ٢٨٣.

على عسكر حلب، وأنزلوا بهم هزيمة شديدة وقتلوا أكثرهم وأسروا اخرين، وكان ضمن الأسرى قائد العسكر الحلبي المعظم تورانشاه بن صلاح الدين بعد أن أصيب بجروح بالغة كما أُسر أخوه نصرة الدين، وقُتل ابن أخيه الصالح بن الأفضل، وابن الملك الزاهر، وجماعة أخرى من كبار القادة، وحالما وقعت الهزيمة بعسكر حلب قام حلفاؤهم من العرب بنهبهم، فكانوا أشد عليهم من أعدائهم [١].

وبعد المعركة مباشرة نزل الخوارزمية حول حيلان [٢] وانتشروا على نهرها إلى قرية فافين [٣]، وفرضوا أتاوة حربية على الأسرى، وقتلوا طائفة منهم مما دفع الباقين إلى تقديم الأموال مقابل خلاصهم، وبعد أن أخذوا منهم الأموال أطلقوا بعضهم، وغدروا بالباقين فلم يطلقوا سراحهم [٤].

وترتب على المعركة انتشار الاضطراب والذعر في داخل مدينة حلب، فأمرت ضيفة خاتون ـ الوصية على عرش حلب ـ بحفظ الأسوار والأبواب، وجفل سكان القرى إلى حلب فدخلوها بأموالهم وأمتعتهم، ولم يكن بالمدينة غير مائتي فارس قاموا بحراسة أسوارها [٥]. وأرسل الخوارزمية سراياهم إلى أعمال

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٦٨ ـ ٥٧٠ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٤١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٣.

(٢) حيلان: من قرى حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء ثم تسيل كالنهر إلى حلب وتدخل إليها في قناة وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع أحياء مدينة حلب، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) فافين: قرية معروفة قرب حلب انظر ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٥١ حاشية رقم (٤).

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٧٠؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٥١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨٤.

(٥) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٧٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٥٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

حلب لشن الغارة على قراها، وبلغوا عزاز وتل باشر وجبل سمعان وبرج الرصاص [١]، وبلد الحوار [٢]، وطرف العمق [٣].

وقد باغتوا سكان هذه البلاد وهم غافلون فنهبوا كل ما وجدوه من المواشي والأموال والأمتعة وسبوا الحريم والصبيان وقتلوا الأطفال، وارتكبوا من الفواحش مع نساء المسلمين ما لم يفعله إلا الكفار والمغول، ثم رحلوا إلى الباب [٤] وبزاعا فعذبوا سكانها حتى أخذوا جميع أموالهم، ثم رحلوا إلى منبج ودخلوها في ٢١ ربيع الأول ٦٣٨ هـ/ اكتوبر ١٢٤٠ م وقتلوا أكثر أهلها ونبشوا القبور بحثاً عن الأموال وسبوا النساء والأطفال، ووصلت الوحشية بهم درجة موغلة من الهمجية والبربرية، حتى أن طائفة من نساء منبج دخلن المسجد الجامع للامتناع به. فاقتحم الخوارزمية عليهن الجامع وفعلوا ببعضهن الفاحشة داخله «وكان الواحد منهم يأخذ المرأة وعلى صدرها ولدها الرضيع فيأخذه منها ويضرب به الأرض ويأخذها ويمضي». ثم عاد الخوارزمية إلى إقطاعاتهم شرقي الفرات بعد أن دمروا وخربوا العمران حول مدينة حلب [٥].

ووصل خبر هزيمة الحلبيين وغارات الخوارزمية المدمرة إلى حمص حيث كان المنصور إبراهيم بن المجاهد يتأهب لشن الغارة على معاقل الصليبيين ومعه زهاء ألف فارس من عساكر حمص ودمشق، فقرر صرف النظر عن قتال الصليبيين وسار بقواته على عجل لنجدة حلب، وعندما وصلها اتفق معه

---

(١) برج الرصاص، قلعة لهارساتيق من أعمال حلب قرب إنطاكية، انظر ياقوت: معجم البلدان.
(٢) الحوار: كورة بين عزاز والجومة من نواحي حلب، انظر ياقوت: معجم البلدان.
(٣) العمق، كورة بنواحي حلب، قبالة إنطاكية ومنها تصدر أكثر الميرة التي تستهلكها إنطاكية، انظر ياقوت: معجم البلدان.
(٤) الباب: بليدة في طرف وادي بطنان من أعمال حلب بينها وبين منبج ميلين وتبعد عن حلب عشرة أميال، انظر ياقوت، معجم البلدان.
(٥) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٧٠ ـ ٥٧١؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦؛ انظر أيضاً أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٧ ـ ١٦٨؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٣.

الحلبيون على توحيد الجهود وتجنيد العساكر لمواجهة خطر الخوارزمية «ووقع التوثق منه وله بالإيمان والعهود»[١].

وأرسل الحلبيون المؤرخ كمال الدين بن العديم إلى دمشق لأخذ يمين الصالح إسماعيل للملك الصغير الناصر يوسف صاحب حلب ولجدته ضيفة خاتون ابنة العادل، وطلب ابن العديم منه إرسال نجدة أخرى إلى حلب لمساعدتها على الصمود في وجه الخوارزمية فأجابه إلى طلبه، كما أطلق الحلبيون أسرى الداوية لكي يكتفوا شرهم ويتفرغون لمواجهة الخوارزمية[٢].

أما الخوارزمية فحالما سمعوا باجتماع العساكر في حلب احتشدوا في حران وقرروا العبور مرة أخرى إلى حلب قبل اكتمال العساكر بها، وكانت السيدة ضيفة خاتون قد استمالت زعماء العرب بالعطايا والإقطاعات، فانفصلوا عن الخوارزمية، وانضموا إلى خدمة الحلبيين، وسار الخوارزمية من حران في رجب ٦٣٨ هـ/ فبراير ١٢٤١ م وعبروا الفرات، فبرز إليهم المنصور إبراهيم وعسكر شرقي حلب في انتظارهم[٣].

ووصلت الخوارزمية إلى الفايا[٤] ثم إلى دير حافر[٥] وإلى الجبول[٦] وظل المنصور معسكراً في مكانه دون الاشتباك معهم، ثم ساروا إلى تل

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤؛ وانظر أيضاً: تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ص ٥٧١ ـ ٥٧٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨٨.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٣: ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٥٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٤) فايا: كورة كبيرة بين منبج وحلب وهي تابعة لمنبج وتقع في قبلتها عند وادي بطنان ولها قرى عامرة وبساتين وعيون جارية انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٥) دير حافر: قرية بين حلب وبالس، ياقوت: معجم البلدان.

(٦) الجبول قرية كبيرة إلى جانب ملاحة حلب وفي الجبول يصب نهر بطنان ويسمى نهر الذهب ثم يجمد ملحاً فيمتاز منه كثير من بلدان الشام والجزيرة ويبلغ مقدار ما يباع منه مئة وعشرون ألف درهم سنوياً، انظر ياقوت: معجم البلدان.

أعرن [١] وحدثت بعض المناوشات بينهم وبين العرب، وعاثت الخوارزمية في القرى التي مروا بها فأحرقوا الأقوات وأخذوا ما قدروا عليه، وكان السكان قد فروا خلال جولاتهم السابقة عن قراهم. ثم تقدمت الخوارزمية إلى سرمين [٢] واقتحموا بها دار الدعوة التابعة للاسماعيلية، وكان السكان قد وضعوا فيها أمتعتهم وأموالهم ظناً منهم أن الخوارزمية لا يجسرون على التعرض لها خوفاً من الاسماعيلية، ثم أوغلوا في غاراتهم إلى معرة النعمان جنوب حلب، فساروا إلى بلدة كفرطاب وأحرقوها، وتقدموا إلى شيزر ونهبوا ربضها، وقذفهم المدافعون عن قلعة شيزر الحصينة بالجروخ والحجارة وقتلوا منهم جماعة. وحين بلغ الخوارزمية استعداد عسكر حلب للقائهم وأنه سيقطع عليهم خط الرجعة إلى إقطاعاتهم، ساروا إلى جهة حماة وتجاوزوها جنوباً، ولم يتعرضوا لقرى مملكة حماة بالأذى لأن ملكها المظفر كان من أشد المناصرين للصالح أيوب، وهم يظهرون أن كل ما يفعلونه من نهب وتخريب إنما هو خدمة له وتنكيل بأعدائه. ودخل بعضهم حماة فباعوا جزءاً من الغنائم التي نهبوها وتزودوا بما يحتاجونه [٣].

وخشيت الخوارزمية من اعتراض عسكر حلب بقيادة المنصور لهم إذا ما عادوا من الطريق التي سلكوها عبر مملكة حلب، فساروا إلى سلمية، ثم انطلقوا شرقاً عبر الصحراء طالبين الفرات لعبوره عند الرقة، وحين سمع الحلبيون بوجهتهم الجديدة ساروا لاعتراض طريقهم واصطدمت الخوارزمية بجموع العرب المحالفين لحلب قرب الرصافة [٤]، وقد تعبت خيول الخوارزمية وضعفت من شدة السير وطول المسافة وقلة العلف في الصحراء ، فلم تستطع الخوارزمية

---

(١) تل أعْرن: قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب ذات كروم وبساتين ومزارع، ياقوت: معجم البلدان.

(٢) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب أكثر أهلها اسماعيلية، ياقوت معجم البلدان.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ٦ لوحة ٥٧٣ ـ ٥٧٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠؛ وانظر أيضاً أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٦٨؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٠٣.

(٤) الرصافة: مواضع كثيرة ، والمقصود هنا رصافة الشام وتقع غربي الرقة على البر وتبعد عنها أربعة فراسخ انظر ياقوت: معجم البلدان.

مواجهة العرب، فألقوا بأثقالهم وكل ما معهم من غنائم، فاشتغلت العرب بنهبها مما أتاح الفرصة للخوارزمية للمسير إلى الفرات فوصلوه قبالة الرقة في الخامس من شعبان ٦٣٨ هـ/ أواخر فبراير ١٢٤١ م غير أن عسكر حلب بقيادة المنصور وصل إلى صفين[١] بعد وصول الخوارزمية إليها بساعة واحدة، فتحصن الخوارزمية في بعض البساتين وتمكنوا من عبور الفرات ليلاً إلى حران[٢]. وعبر المنصور بعساكره الفرات وتعقبهم إلى قرب سروج والرها، فعمدت الخوارزمية إلى تجنيد عامة السكان من أهل حران لشد أزرهم وتكثير عددهم، غير أن عسكر المنصور لم يعبأ بذلك، والتقى الخوارزمية قرب الرها في ٢١ رمضان ٦٣٨ هـ/ مارس ١٢٤١ م ونشبت المعركة بين الجانبين فانهزم الخوارزمية ونهب الحلبيون وحلفاؤهم معسكرهم، ففر الخوارزمية إلى حران وأخذوا نساءهم وهربوا، والمنصور بعساكره في أثرهم حتى لجأوا إلى عانة[٣] التابعة للخليفة العباسي، فتوقف الحلبيون عن مطاردتهم[٤].

وقطف الحلبيون، وصاحب الموصل، وسلاجقة الروم ثمار هزيمة الخوارزمية، فعم الفرح مدينة حلب، وضربت البشائر بها، ووصلت أعلامهم وأسراهم إلى حلب، واستولى العسكر الحلبي بعد المعركة على حران وقلعتها، وأطلق سراح الأسرى الذين بها. كما جاء صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ

---

(١) صفين: موضع مشهور على شاطىء الفرات الغربي بين الرقة وبالس، ياقوت، معجم البلدان.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة٥٧٤ ـ٥٧٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢.

(٣) عانة: بلدة مشهورة على الفرات قرب الحديثة وهيت، تعد في أعمال الجزيرة، ياقوت: معجم البلدان.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٥٧٦؛ ابن العديم زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٦٨؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٤٤؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٣؛ ابن نصر الله، شفاء القلوب ص ٤١٠ ـ ٤١١؛ الغزي: نهر الذهب جـ ٣ ص ١٥٢ ـ ١٥٣

واستولى على نصيبين[1] ودارا[2]، وأطلق سراح المعظم تورانشاه بن صلاح الدين من أسره بدارا؛ وأحسن إليه وقدم له الهدايا وأرسله مكرماً إلى عسكر حلب، كما استولى الحلبيون أيضاً على سروج والرها، ورأس عين[3]، وجملين والموزر[4] والرقة وضموها جميعاً إلى مملكتهم. أما المنصور إبراهيم ابن صاحب حمص فقد أخذ لنفسه بلاد الخابور[5] وقرقيسياء[6]. بينما استولى سلاجقة الروم على السويداء. وكان سلطان الروم قد بعث بنجدة لمساعدة المنصور وعسكر حلب على قتال الخوارزمية ولكنها وصلت بعد انتهاء المعركة، فأرسل الحلبيون لأفرادها الخلع والنفقات ثم ساروا جميعاً إلى آمد وانتزعوها من يد تورانشاه بن الصالح أيوب[7].

على أن تلك الهزيمة التي حلت بالخوارزمية لا تعني زوال خطرهم فقد عاودوا الحركة في سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤٢ م وخرجوا إلى الموصل مما اضطر صاحبها إلى مسالمتهم وأعطاهم نصيبين ثم اتفقوا مع المظفر غازي بن العادل صاحب ميافارقين، وقصدوا آمد، فخرجت إليهم قوات حلب بقيادة تورانشاه

---

(١) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام وقيل إن فيها وفي قراها قرابة أربعين ألف بستان مما يشير إلى غناها، وبينها وبين الموصل مسيرة ستة أيام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) دارا: في لحف جبل بين نصيبين وماردين من بلاد الجزيرة، هي ذات بساتين ومياه جارية، ياقوت، معجم البلدان.

(٣) رأس عين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، وتبعد عن كل من نصيبين وحران زهاء خمسة عشر فرسخاً وعن دنيسر عشرة فراسخ وفي رأس عين عيون كثيرة تجتمع فتصب في نهر الخابور، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) جملين والموزر: قلعتان لهما عملان متسعان من بلاد مضر وديار بكر على مسيرة يوم من حران، انظر ابن شداد، الأعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٦٨.

(٥) الخابور: اسم لنهر من روافد الفرات وهو ولاية واسعة تتبعه عدة بلدان مثل قرقيسياء وماكسين والمجدل وعربان وغيرها، ياقوت معجم البلدان.

(٦) قرقيسياء بلد على نهر الخابور عند مصبه في نهر الفرات، انظر: ياقوت معجم البلدان.

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٦٨.

بن صلاح الدين ودفعتهم عنها، ودارت معارك عديدة بين الجانبين وتهادن الطرفان على تسوية محددة وأطلق الحلبيون سراح الأسرى من الخوارزمية وعادت قوات حلب إلى بلادها، ولكن التسوية لم تستمر فشرع الخوارزمية مع حليفهم المظفر غازي بن العادل في الإغارة من جديد على بعض بلدان الجزيرة وامتدت غاراتهم من الموصل إلى رأس عين [1].

واستقر الرأي في حلب على استدعاء المنصور إبراهيم صاحب حمص، وهو المتمرس في قتالهم، فعبر بعسكر حلب الفرات إلى حران، فانسحب الخوارزمية مع المظفر غازي بن العادل إلى ميافارقين، وانضم إليهم جموع كبيرة من التركمان بزعامة أمير يقال له ابن دودي، ورغم ذلك فقد التقت بهم قوات حلب بقيادة المنصور في صفر ٦٤٠ هـ/ أغسطس ١٢٤٢ م وأنزلت بهم الهزيمة وولت الخوارزمية والتركمان الأدبار، فوقع عسكر حلب على معسكرهم واستولى عليه بأكمله وبه جميع نسائهم، واستولى المنصور على أموال المظفر غازي وخزائنه وحصل الشاميون على غنائم وفيرة من الماشية والأغنام والأمتعة، ووصلت الأغنام المنهوبة إلى مدن الشام، وبيعت بأبخس الأثمان، ورجع المنصور بعساكره إلى حلب فوصلها في مستهل جمادي الأولى ٦٤٠ هـ/ أواخر أكتوبر ١٢٤٢ م [2].

ودرج الخوارزمية على الحركة بعد كل مرة ينسحب فيها عسكر حلب، فما أن غادر الجزيرة إلى بلاد الشام حتى عاثت الخوارزمية والتركمان في الجزيرة من جديد، مما جعل عسكر حلب يعود مرة أخرى لقتالهم في جمادي الآخرة ٦٤٠ هـ/ نوفمبر ١٢٤٢ م فانضوت الخوارزمية إلى صاحب ماردين الملك

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٠ - ٢٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٤ - ٣٠٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٠٩ - ٣١٠.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ٢٦٢ - ٢٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٩ - ٣١١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧١.

السعيد نجم الدين غازي، وجرت بين الفريقين بعض المناوشات التي لم تسفر عن نتيجة حاسمة لأي من الجانبين، وفشلت محاولة قام بها سلطان سلاجقة الروم للإصلاح بينهما «وتضرر عسكر حلب بالمقام لقلة العلوفة» فعاد إلى حلب [1].

وللخوارزمية دور آخر أبعد أثراً وأكثر حسماً لعبوه في تاريخ بلاد الشام حين قدموا إليها سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م استجابة لدعوة الصالح أيوب فاستردوا بيت المقدس وناصروه ضد أعدائه من ملوك الشام والصليبيين وأنزلوا بهم الهزيمة الساحقة في معركة غزة [2]، والتي ترتب عليها، قيام جيوش الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية من استعادة دمشق سنة ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م من الصالح إسماعيل، وإعادة الوحدة بين مصر والشام. غير أن الخوارزمية ما لبثوا أن خرجوا على الصالح أيوب وعاثوا في أعمال دمشق وهددوا نفوذه في بلاد الشام حتى تمكنت قواته بقيادة المنصور صاحب حمص من إنزال الهزيمة الساحقة بهم عند حمص سنة ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م وتمزقت جموعهم وتفرقوا أيدي سبأ [3].

وهكذا لعب الخوارزمية في تاريخ بلاد الشام دوراً مزدوجاً ومتناقضاً في الوقت نفسه، فمن ناحية نشروا الخراب والدمار في بلاد الشام والجزيرة وكانوا مِعْوَل هدم على الحياة الاقتصادية ومظاهر العمران في تلك البلاد قبيل الغزو المغولي، ومن ناحية أخرى ساعدوا الصالح أيوب على توحيد الدولة الأيوبية من جديد فاستردوا بيت المقدس نهائياً من أيدي الصليبيين وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة في معركة غزة كان لها آثار بعيدة المدى في تحطيم قوة الصليبيين وتمهيد السبيل للمماليك فيما بعد لاقتلاع جذور الوجود الصليبي من أساسه في بلاد الشام.

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٦٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣١٣ - ٣١٤.
(٢) انظر تفصيل هذه الحوادث فيما سبق الفصل الثالث ص ٢٨٢ - ٢٨٧.
(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الثاني، ص ١٧٥ - ١٨٠.

ثانياً: مع القوى غير الإسلامية:

مع مملكة أرمينية الصغرى:

تمخضت فتوحات السلاجقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في هضبة أرمينية عن هجرة أعداد كبيرة من الأرمن عن مواطنهم الأصلية إلى الأقاليم الواقعة غربي الفرات وشماليه. وقد اشتدت هجرة الأرمن عقب انتصار السلاجقة في معركة ملازكرد سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م، فهاجر كثير منهم إلى جبال طوروس الواقعة جنوب آسيا الصغرى والمعروفة عند المؤرخين والجغرافيين العرب باسم جبال اللكام (١). وقد اختار الأرمن هذه المناطق لوعورتها وحصانتها الطبيعية وبُعْدها عن الطرق الرئيسة التي سلكها السلاجقة في غزواتهم وأصبحت هذه المناطق التي نزح إليها الأرمن تعرف باسم أرمينية الصغرى، وأنشأ الأرمن في هذه المناطق بعض الإمارات، غير أن أقواها لم تلبث أن سقطت بيد الأتراك السلاجقة (٢)، ولما بدأ الضعف والانقسام يعتري دولة السلاجقة في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عمد الأرمن في هذه المناطق التي نزحوا إليها إلى الاستقلال عن القوى الإسلامية الأخرى (٣). وحين قدم الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٧ م شقوا طريقهم بسهولة كبيرة عبر هذه المناطق بسبب المساعدات التي قدمها الأرمن للصليبيين (٤). كما تمكن بعض قادة الصليبيين

---

(١) ذكر ياقوت أن جبل اللكام هو امتداد لسلسلة جبال لبنان فيطلق عليها اللكام عند إنطاكية والمصيصة وملطية وسميساط وقاليقلا وطرسوس وغيرها من المناطق في جنوب آسيا الصغرى المحاذية لشمال بلاد الشام: انظر ياقوت معجم البلدان، مادة «لبنان» ومادة: «اللكام.».

(٢) سعيد عاشور، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ١ ص ١١٢ ـ ١١٣؛ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٠٢؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥؛ عليه الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص ١٢٢؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة أرمينية، Cahen: La Syrie du Nord. p.190; The Cambridge Medieval History. Vol IV pp. 628 - 629.

(٣) The Cambridge Medieval History Vol.IV p.628; Cahen. op. cit. p.190.

(٤) William of Tyre. A History of deeds done Beyond the Sea Vol. I. p.187

بمساعدة الأرمن من تأسيس أول إمارة صليبية قامت في الشرق وهي إمارة الرها سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م [١].

وقد استطاع حكام الأرمن الحفاظ على كيانهم في هذه المناطق طوال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي رغم ما أحاط بهم من صعوبات جمة، وصراعات عميقة بين القوى الكبرى المحيطة والمتمثلة في الدولة البيزنطية وسلاجقة الروم، والقوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر، والإمارات الصليبية [٢].

ولقد أسهم ليو الثاني حاكم أرمينية الصغرى (٥٨٣ ـ ٦١٦ هـ/ ١١٨٧ ـ ١٢١٩ م) في الحملة الصليبية الثالثة على بلاد الشام زمن السلطان صلاح الدين، وقد تلقى ليو الثاني المكافأة على جهوده الصليبية من قِبَل هنري السادس امبراطور ألمانيا الذي بعث له بالتاج حيث تُوِّج ليو الثاني ملكاً على أرمينية الصغرى سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م في كنيسة طرسوس في حضور حشد كبير من رجال الدين الصليبيين والأرمن وكبار الأمراء، وقد رأى الأرمن في هذا التتويج أحياء لملكيتهم القديمة في أرمينية الكبرى وبعثاً لمجدهم السالف [٣].

ولقد ترتب على ظهور مملكة أرمينية الصغرى على مسرح الحوادث في الشرق الأدنى أن قامت بنصيبها في ممارسة السياسة الصليبية ضد المسلمين، ولا سيما وقد تلقت التاج عن طريق الغرب الأوروبي الذي ما انفك يرسل الحملات الصليبية ضد المسلمين في بلاد الشام. ورداً على تلك السياسة الصليبية التي انتهجتها مملكة أرمينية الصغرى، فقد شرع المسلمون في التصدي لها إذ يذكر أبو شامة أن الأسطول المصري قام في سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م بغارة بحرية على

---

(١) Ibid. p. 197.

(٢) انظر سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية في كتاب، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

(٣) سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٣٧.

شواطىء أرمينية الصغرى وعاد إلى مصر ومعه أربع مئة وخمسين أسيراً (١).

ولما كانت مملكة حلب هي أقرب الممالك الأيوبية في بلاد الشام إلى مملكة أرمينية الصغرى، فقد كان من الطبيعي أن تكون أكثر الممالك الشامية تأثراً بتلك السياسة الصليبية التي سارت عليها أرمينية الصغرى. ولقد بدأ الاحتكاك بين مملكة حلب ومملكة أرمينية الصغرى بسبب تطلع ليو الثاني الأرمني لبسط نفوذه على إنطاكية (٢)؛ في الوقت الذي كانت تحرص فيه مملكة حلب بزعامة الظاهر على بقاء إنطاكية بعيدة عن نفوذ أي قوة كبرى معادية، ذلك أن مملكة حلب وإمارة أنطاكية الصليبية جمعت بينهما مصالح اقتصادية مشتركة، فقد كانت منطقة العمق الزراعية التابعة لمملكة حلب. تزود إنطاكية بحاجتها من القمح (٣).

كما أن مملكة حلب كانت بدورها تعتمد على ميناء إنطاكية في التزود ببعض السلع الأخرى التي تحتاجها (٤). وكان سقوط إنطاكية بيد ملك أرمينية الصغرى يعني تهديداً مباشراً لمملكة حلب، لذلك لا نعجب إذا مدت مملكة حلب يد المساعدة لإنطاكية أزاء أطماع ملك أرمينية الصغرى.

---

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣.

(٢) تطلع ليو الثاني إلى السيطرة على إنطاكية بعد موت صاحبها بوهيمند الثالث سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م وكان لبوهيمند الثالث ابن يسمى ريموند روبان. ووفقاً لأحكام القانون الإقطاعي الاوروبي في العصور الوسطى كان من المفروض أن يحكم ريموند روبان باعتباره ابن الوريث الشرعي، ولكن الصليبيين في إنطاكية عز عليهم أن يتولى حكمهم أمير أمه أرمنية فاستدعوا بوهيمند الرابع حاكم طرابلس وعم ريموند وسلموه حكم إنطاكية، فقام ليو الثاني الأرمني يدافع عن حقوق ريموند روبان واتخذ من ذلك ذريعة لبسط نفوذه عليها: انظر سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٤٥؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٨١ - ١٨٤. (The Cambridge Medieval History Vol. IV. p.631, Stevenson: The Crusaders in the East, p.299)

وعن مشكلة الوراثة تلك وما دار من نزاع بسببها انظر المراجع السابقة فما يهمنا هنا هو ما يتصل بعلاقة الأرمن بالمسلمين في بلاد الشام. وانظر أيضاً الملحق الرابع.

(٣) ياقوت: معجم البلدان مادة العمق.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٣ ص ١٤٠؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٤ قسم ٢ ص ٢٤٨

وبدأت غارات ليو الأرمني سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م حين قدم ونزل قرب جسر الحديد بين حلب وإنطاكية وأتلف بعض المزارع التابعة لبوهيمند الرابع ولفرسان الصليبيين «وقطع مادة الميرة المتواصلة من إنطاكية إلى حلب»[١].

وفي ربيع الأول سنة ٦٠٠هـ / ديسمبر ١٢٠٣م هاجم ليو الثاني ملك الأرمن إنطاكية «وجدّ في حصارها والتضييق عليها» فلما علم الظاهر صاحب حلب خرج مسرعاً وعسكر عند حارم قبالة إنطاكية، فاضطر ملك الأرمن إلى الإنسحاب إلى بلاده فرجع الظاهر إلى حلب[٢]. غير أن ليو الثاني عاد فجأة إلى إنطاكية في ربيع الآخر سنة ٦٠٠هـ / يناير ١٢٠٤م بعد أن راسله أهلها وضمنوا له تمليكها فسار إليها بغتة ويفهم من إشارة ابن واصل هذه أنه كان يسكن إنطاكية طائفة كبيرة من الأرمن ومن الطبيعي أن يتعاطفوا بدافع من عصبيتهم ونعرتهم مع ليو الأرمني، وفوجىء بوهيمند الرابع بمباغتة ملك الأرمن له ففزع ولم يستطع الصمود أمامه فاعتصم بقلعة إنطاكية «ونادى بشعار الملك الظاهر ووصل الخبر بذلك على جناح طائر فخرج من حلب بالعساكر وقصد إنطاكية» ولم يكن بمقدور ملك الأرمن مواجهة الظاهر من الخارج وحامية القلعة حيث يعتصم بوهيمند الرابع فضلاً عن موقف الأهالي من البيزنطيين والصليبيين والداوية المعادي للأرمن، والذين قاوموا فعلاً ليو الثاني وساندوا بوهيمند الرابع فاضطر ملك الأرمن إلى الإنسحاب إلى بلاده مرة أخرى، وعاد الظاهر بدوره إلى حلب[٣].

ولم يتخل ليو الثاني عن أطماعه في إنطاكية، وسعى جاهداً لإجبار

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٠؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٤ قسم ٢ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨؛ وانظر أيضاً: المقريزي: السلوج جـ١ ص ١٦٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٣؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٥؛ وانظر أيضاً الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١٠ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٥ ـ ١٥٦؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٢ ـ ٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٥؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٦٢ ـ ١٦٣؛ الغزي: نهر الذهب جـ٣ ص ١١٠؛ الطباخ: إعلام النبلاء جـ٣ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ص ٩٤٦.

الظاهر على التخلي عن مساعدتها ولو عن طريق القوة فأغار ملك الأرمن سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٥م على بلاد العمق التابعة لحلب واستاق ماشيتها وشرع في عمارة حصن في أحد الجبال القريبة من دربساك ـ «ليضيق به عليها» وأرسل إلى الظاهر يساومه على التخلي عن إنطاكية مقابل أن يعيد جميع ما نهبه من بلاد العمق، فأجابه الظاهر إلى طلبه لكي يستعيد أموال سكان العمق. وبعد أن ضمن ملك الأرمن عدم تدخل الظاهر بادر بحصار إنطاكية وخرب بساتينها ومزارعها الـواقعة خارج أسوار المدينة «ووقع فيها غلاء عظيم فكان الملك الظاهر يمد أهل انطاكية بالغلال حتى قويت»[١].

ولما شعر ليو الثاني ملك أرمينية أن الظاهر قد خدعه وأنه لم يتخل عن إنطاكية إلاّ مؤقتاً لكي يستعيد أموال رعاياه، عاود الكرة فشن الغارات على أعمال مملكة حلب، وباغت ربض دربساك ليلة عيد الميلاد ٦٠٢هـ / ١٢٠٥ ـ ١٢٠٦م غير أن أهل الربض صمدوا في وجهه، وفي الصباح انتشر الأرمن في بلاد العمق، ونهبوا من كان فيه من التركمان، ثم انسحبوا بما معهم من غنائم إلى جبال اللكام الحصينة[٢]. ولم تقتصر غارة ملك الأرمن على بلاد العمق وإنما أيضاً على التركمان النازلين على النهر الأسود[٣] فأخذ منهم «عالماً لا يحصى واستاق نعمهم ومواشيهم، وسار إلى دربساك فحرق ربضها وعاد إلى بلاده»[٤].

وإزاء ذلك العدوان المتواصل والغارات المتكررة جمع الظاهر عساكره وأرسل إلى عمه العادل وغيره من ملوك الشام طالباً المساعدة لكبح جماح ملك الأرمن، وعهد الظاهر إلى قائديه فـارس الدين ميمـون القصري، وسيف الدين بن علم الدين بن جندر بالمسير إلى حارم لصد عدوان ليو الثاني ملك

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٥٦.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٥٧.
(٣) النهر الأسود نهر بالثغور في أطراف بلاد المصيصة وطرسوس، انظر ياقوت: معجم البلدان.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٧٠؛ تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٤١ ـ ٤٢.

أرمينية، وسار الظاهر بنفسه إلى مرج دابق(١)، فعسكر به، غير أن ملك الأرمن خالف العساكر الحلبية وسلك طرقاً أخرى وباغت ميمون القصري وأصحابه، ودارت بينهم معركة حامية في شوال ٦٠٢هـ / مايو ١٢٠٦م وحلت الهزيمة بعسكر حلب ووقع أكثرهم بين قتيل وأسير وعاد الأرمن واعتصموا بجبالهم وحصونهم(٢).

وحين بلغ الظاهر ما حل بعسكره، رحل من مرج دابق فوصل إلى مكان المعركة، «فشاهد حالة قبيحة من كثرة القتلى» فسار وخيّم على جسر الحديد وراسل الصليبيين بإنطاكية واتفق معهم على أن يجندوا عشرة آلاف راجل، ويقصدون بلاد ليو الثاني الأرمني من جهتهم، ويسير هو من جهة حلب «ويجتمعون على إستئصال شأفته وقلع أثره»(٣). ولكن هذا المشروع لم ينفذ، ويبدو أن سبب ذلك صعوبة التوغل في بلاد ليو الثاني الأرمني للحصانة الطبيعية التي تتمتع بها بلاده، وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ ابن الأثير، فقال عن بلاد ليو الأرمني: «فليس إليه طريق لأن جميع بلاده لا طريق إليها إلا من جبال وعرة ومضايق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول إليها ولاسيما من ناحية حلب، فإن الطريق منها متعذر جداً»(٤). ولذلك قبل الظاهر عرض ملك الأرمن الصلح وترددت الرسل بين الجانبين، واتفقا على أن يهدم ليو الثاني الحصن الذي بناه قرب دربساك وأن يعيد جميع ما أخذه في غاراته على بلاد الشام ولاسيما مملكة حلب، وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين وأن لا يتعرض لإنطاكية وتم الصلح

---

(١) دابق: قرية قرب حلب من أعمال عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ وعندها مرج معشب نزه، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص١٥٧ ـ ١٥٨؛ ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص٢٣٨ ـ ٢٣٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص١٧٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص٥٢٦؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم١ ص٤٣، ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص١٥٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص١٩٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص١٧٠ ـ ١٧١؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص٢٣٩.

في أواخر سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م على أن تكون مدة الهدنة ثمان سنوات(١).

ولقد كان الظاهر صاحب حلب يتوق على الدوام إلى الخلاص من خطر مملكة أرمينية الصغرى، ولذلك فحين طلب منه سلطان سلاجقة الروم كيخسرو الأول إرسال نجدة إليه للإشتراك معه في مهاجمة بلاد ملك الأرمن ليو الثاني. أجابه إلى طلبه وأرسل إليه عسكراً بقيادة سيف الدين بن علم الدين بن جندر، وأيبك فطيس، فاجتمعوا بسلاجقة الروم عند مرعش(٢) سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٩م. وهاجموا بلاد الأرمن وافتتحوا عدة حصون فراسل ليو الثاني السلطان العادل طالباً حمايته، فأرسل الأخير إلى كيخسرو وإلى الظاهر طالباً وقف هجومهم على أرمينية الصغرى، وفي الوقت نفسه بدأ موسم البرد وتساقط الثلوج، فبادر كيخسرو وصالح ملك الأرمن على أن يعيد حصن بغراس إلى الداوية، وأن لا يتعرض لإنطاكية وأن يطلق سراح الأسرى من المسلمين وعدم الهجوم على مملكة حلب أو مضايقتها، وانسحب كيخسرو إلى بلاده وعادت النجدة الحلبية إلى بلادها(٣).

وظل الصراع محتدماً داخل إنطاكية بين ريموند روبان يؤيده ملك الأرمن ليو الثاني وبين عمه بوهيمند الرابع، وبعد صراع مرير تمكن ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى من تدبير مؤامرة سنة ٦١٢هـ / ١٢١٦م فأطاح بحكم بوهيمند الرابع ودخل إنطاكية ونصّب ريموند روبان أميراً على إنطاكية. وحتى لا يقع ليو الثاني في عداء مع الظاهر أطلق سراح الأسرى المسلمين في المدينة، وأعاد بغراس إلى الداوية، وطلب الصلح من الظاهر واضطر ليو الثاني إلى الانسحاب

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٧١؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ٤٣.

(٢) مرعش: مدينة في الثغور تقع بين بلاد الشام وبلاد الروم، انظر ياقوت معجم البلدان.

(٣) العيني: عقد الجمان، جـ١٣ لوحة ٣١٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣ ص ١٥٩ ـ ١٦٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١١١؛ تاريخ ابن الفرات: جـ٥ قسم ١ ص ٨٢.

عائداً إلى بلاده تاركاً ريموند روبان حاكماً على إنطاكية بسبب هجوم سلطان سلاجقة الروم كيكاوس على بلاده[1].

وضاق الظاهر ذرعاً بمجاورة ليو الثاني الأرمني له في إنطاكية عن طريق ريموندروبان وأخذ يتحين الفرص للخلاص من ذلك الخطر الجديد، فجاءته في المحرم سنة ٦١٣هـ / ابريل ١٢١٦م رسالة من سلطان سلاجقة الروم كيكاوس، يطلب منه الاجتماع به عند مرعش للهجوم على ملك الأرمن ليو الثاني وانتزاع إنطاكية منه، على أن يشن كيكاوس الهجوم من جهة مرعش بينما يتقدم الظاهر بعسكره من ناحية دربساك، في الوقت الذي يشن فيه بوهيمند الرابع صاحب طرابلس الهجوم على بلاد الأرمن من جهة إنطاكية، وبعث كيكاوس برسالته إلى الظاهر مع رجل يدعى عبد الرحمن المنبجي، فأدى الرجل الرسالة بعد أن زاد فيها شروطاً تضر الظاهر وتفيد كيكاوس ولم يشأ الظاهر أن يبت فيها فأرسلها إلى عمه السلطان العادل يستشيره في ذلك «فهجّن عليه العادل رأيه وأشار عليه بأن لا يجتمع إليه أصلاً وعرفه ما في ذلك من المفاسد»[2] ولم يوضح ابن واصل سبب رفض العادل لرأي ابن أخيه الظاهر في الإجتماع بسلطان سلاجقة الروم لمحاربة أرمينية الصغرى، وما هي المفاسد التي سوف تترتب على ذلك، غير أنه يبدو أن العادل رأى أن استيلاء سلطان سلاجقة الروم على مملكة أرمينية الصغرى وإنطاكية سوف يؤدي إلى ازدياد وتعاظم نفوذه، الأمر الذي سوف يغريه بالطمع في ممتلكات الأيوبيين في بلاد الشام. ومما

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٣٣؛ تاريخ ابن الفرات، جـ ٥ قسم ١ ص ١٦٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١٨٢؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٤٨، رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٤٨.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٣٤؛ وانظر تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ١٩٠ ـ ١٩١ ـ وقد اختلط الأمر على ابن العديم في فهم الدوافع التي حملت الظاهر على الاتفاق مع سلطان سلاجقة الروم، فظن أنه فعل ذلك خوفاً من عمه العادل، انظر ابن العديم زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٦٨، ورواية ابن واصل الواردة في المتن هي الأرجح لأن العلاقات بين الظاهر وعمه كانت قد استقرت منذ سنة ٦١٠هـ انظر ما سبق الفصل الأول ص: ٧٥ - ٧٦.

يبرهن على صحة هذا الرأي الحملة الفاشلة التي قام بها كيكاوس بعد موت الظاهر سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م بغية الاستيلاء على مملكة حلب[١] وقبل أن يحقق أي نجاح ضد مملكة أرمينية الصغرى.

وكيفما كان الأمر فقد وقع الظاهر في موقع حرج مع سلطان سلاجقة الروم بعد أن وعده بالمساعدة، وظلت رسل كيكاوس تصل تباعاً إلى حلب تحث الظاهر على الحركة، كما عمد ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى إلى إفشال مشروع كيكاوس، فأرسل إلى الظاهر بحلب رسالة تدل على دهائه وحنكته أعلن فيها أنه مملوك الظاهر «وغرس دولته» واستشار فيها نخوة الظاهر قائلاً: «وقد دخلت عليه دخول العرب أطلب منه إنقاذي من هذه الورطة، وأكون مملوكه ما عشت» وذكر للظاهر في رسالته أنه قدم له عدة خدمات حين حاصر دمشق زمن حرب الوراثة «وبقيت البلاد شاغرة ما شغلت قلبه ولا آذيت بلده بل ساعدته بمالي ورجالي وكذلك لما حاصر دمشق المرة الثانية، وقد بُذلت لي الأموال كلها لأشغل قلبه ويفتر عن الحصار فلم أفعل. وإن كان الأبرنس ـ بوهيمند الرابع ـ قد خدم السلطان ـ الملك الظاهر ـ فخدمتي أكثر من خدمته وسوف يبصر السلطان خدمتي وملازمتي بابه الشريف، وقد أوصيت ابن أختي ـ ريموند روبان ـ الذي نصّبته بإنطاكية بملازمة خدمته»[٢]. والواقع أن هذه الرسالة التي بعث بها ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى إلى الظاهر وأبدى فيها الكثير من ضروب التذلل والتملق والخضوع للظاهر، تشير بوضوح إلى مدى الخطر الذي شعر به إذا ما نجح كيكاوس في مشروعه ضد مملكة أرمينية الصغرى، إذ لن يستطيع ليو الثاني التصدي في وقت واحد لقوات السلاجقة والظاهر صاحب حلب، والصليبيين بزعامة بوهيمند الرابع في طرابلس، وبالتالي لم يجد ملك الأرمن حرجاً في إعلان خضوعه للظاهر كيما يحمي مملكته من السقوط، وبعث مع الرسالة هدية عظيمة فاخرة، وقد نجح في مسعاه، فمال

---

(١) انظر ما سبق ص: ٣١٩ - ٣٢٢.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٣٥.

الظاهر إلى قوله وأخذ يفتش عن ذريعة لإلغاء الحلف مع كيكاوس الذي بعث إليه بقاضي عسكره يحثه على الحركة، وبينما هو عنده إذ ورد عليه من أخبره أن بعض عسكر كيكاوس بمرعش أغاروا على أطراف مملكة حلب وقتلوا جماعة من سكانها الأرمن وأسروا جماعة، فاتخذ الظاهر من ذلك ذريعة لرفض الاتفاق مع سلاجقة الروم وقال لقاضي كيكاوس «العجب أنكم تطلبون منا المعاونة وتخربون بلادنا» ولم تنفع حجج القاضي في إقناع الظاهر بالعدول عن موقفه «فأعرض الظاهر عن الحركة لنصرة عز الدين - كيكاوس - ورجع عن عزمه الأول»[1].

وحرصت مملكة حلب دائماً على منع قيام وحدة بين مملكة أرمينية الصغرى وإنطاكية. أو بعبارة أخرى، منع أي من القوتين من السيطرة على الأخرى لأن ذلك يعني تطويق مملكة حلب من الشمال والغرب وتهديدها تهديداً خطيراً. ولذلك فحين توفي ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م امتدت أطماع بوهيمند الرابع صاحب طرابلس وإنطاكية إلى السيطرة على مملكة أرمينية الصغرى، وبدأ في حشد قواته لتحقيق أهدافه، فأرسل الأرمن إلى الأتابك شهاب الدين طغريل بحلب يستنجدونه ويخوفونه من سيطرة بوهيمند الرابع على بلادهم المجاورة لمملكة حلب من الشمال، وعندئذ أمدّهم الأتابك بالنجدات والسلاح، وشرع في تهديد إنطاكية من جهته الأمر الذي جعل بوهيمند الرابع يحجم عن الإيغال في بلاد الأرمن خوفاً على إنطاكية من أتابك حلب طغريل وأدى ذلك إلى فشل حملته سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م ولم يتحقق له أي غرض تجاه أرمينية الصغرى[2]، ونجحت بذلك مملكة حلب في إبعاد الخطر والحيلولة دون سيطرة أرمينية الصغرى على إنطاكية أو العكس.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢٣٥ - ٢٣٦؛ تاريخ ابن الفرات جـ٥ قسم ١ ص ١٩١ - ١٩٣؛ وانظر أيضاً ابن العديم، زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٨ - ١٦٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧ ص ١٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٦؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ٣ ص ٣٠٧ - ٣٠٩؛ The Cambridge Medieval History, Vol. IV p. 633.

وإذا كانت مملكة أرمينية الصغرى قد شُغلت خلال حكم ليو الثاني بمشكلات الوراثة على إمارة إنطاكية فإن ذلك لا يعني تخليها عن العداء للمسلمين أو ممارسة دورها الصليبي. فحين أصبح هيثوم الأول ملكاً على أرمينية (٦٢٣ - ٦٦٧هـ / ١٢٢٦م - ١٢٦٩م) وضع دعائم سياسة خارجية جديدة كانت أكثر خطراً على المسلمين في بلاد الشام وتتمثل تلك السياسة في إحلال التعاون مع المغول محل التحالف مع الغرب الأوربي بعد فتور تيار الحركة الصليبية[1].

فعلى الرغم من إعتراف هيثوم بالتبعية الإسمية مؤقتاً لسلاجقة الروم درءاً لخطرهم فإنه حين اجتاح المغول آسيا الصغرى سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م رفض هيثوم مساعدة سلاجقة الروم بل عمد بعد هزيمتهم إلى التعبير عن حقده ضدهم فنهب معسكرهم وأغار على بلادهم وقتل الكثير من رعاياهم المسلمين[2]. وحين لجأت زوجة سلطان سلاجقة الروم كيخسرو الثاني وابنته إلى هيثوم هرباً من قائد المغول بايجونويان الذي اجتاح آسيا الصغرى كانت الشهامة تقتضي من هيثوم حماية امرأتين لجأتا إلى بلاطه وقت الشدة، ولكنه ضرب بقواعد العرف والأخلاق عرض الحائط واختار ان يتقرب إلى المغول على حساب المثل والفضائل، فسلّم زوجة الحاكم المسلم وابنته إلى بايجونويان[3].

وتطلع هيثوم إلى الحصول على مساعدة مباشرة من المغول ضد المسلمين في بلاد الشام وآسيا الصغرى، فبعث سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م بأخيه سمباد إلى خان المغول الأكبر كيوك خان (٦٤٤ - ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٦ - ١٢٤٩م) بعاصمته قراقورم في جوف منغوليا، فعاد سمباد بوعد من المغول ببقاء مملكة أرمينية

(١) سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٤٣.

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة جـ ١ القسم الثاني مخطوط لوحة ٣٠٩ نسخة آيا صوفيا؛ المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٨٣أ.

(٣) سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٤٣.

الصغرى وإعادة ما انتزعه السلاجقة من بلادها[1]. ولم يكتف هيثوم ببعثة أخيه، فعاد وخرج بنفسه سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م متنكراً إلى بلاط الخان الجديد منكوقاآن (٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ / ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧م) في قراقورم، وحصل هيثوم على تأكيد جديد بضمان أمنه وأمن مملكته وكان هيثوم يتوخى أن يتحالف المغول مع المسيحيين لطرد المسلمين من بلاد الشام[2].

غير أنه من الواضح أن المغول لم يكونوا ينظرون إلى هيثوم وغيره من ملوك الدول المعاصرة لهم نظرة الند للند، وإنما نظرتهم إلى الأتباع الذين يجب أن يبذلوا لهم على الدوام فروض الطاعة والولاء، وما حصل عليه هيثوم كان يعتبره قادة المغول من مظاهر عطفهم على أتباعهم. ولكن هيثوم حاول الإفادة من ذلك الاتجاه لدى المغول، فاتصل بالصليبيين في بلاد الشام ودعاهم إلى المشاركة في مشروعه ضد المسلمين ولكنه لم يلق الاستجابة إلا من بوهيمند السادس حاكم إنطاكية (٦٤٩ ـ ٦٨٦هـ / ١٢٥١ ـ ١٢٨٧م) بسبب الجمود الذي أصاب الحركة الصليبية، وذبول حماسة الغرب الأوربي تجاه مساعدة الإمارات الصليبية في بلاد الشام. ورغم ذلك فقد ظل هيثوم على وفائه للمغول ومتطلعاً إلى مساعدتهم ضد المسلمين، فلما بدأ زحف المغول بقيادة هولاكو على العراق والجزيرة والشام انخرطت أعداد كبيرة من الأرمن بقيادة هيثوم في صفوف قوات المغول، ولعبوا دوراً حاسماً في التنكيل بالمسلمين، وفاقوا المغول في وحشيتهم وهمجيتهم ضد المسلمين، فدمروا مساجدهم بقيادة هيثوم وحولوها إلى كنائس، ومن ذلك جامع حلب الذي أحرقه هيثوم بنفسه. وظل الأرمن بقيادته على تحالفهم مع مغول فارس طوال فترة حكمه[3].

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠؛ سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٤٣؛ The Cambridge History of Islam, p. 211 .

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠؛ سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى؛ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥؛ The Cambridge History of Islam p. 211 .

(٣) سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، بحوث ودراسات في تارخ العصور الوسطى ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦؛ The Cambridge History of Islam pp. 211 - 212 .

.مع الامبراطورية الرومانية المقدسة:

إذا كان الامبراطور فردريك الثاني قد نجح بحملته الصغيرة في أخذ بيت المقدس عن طريق الصلح من السلطان الكامل سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م فإن ذلك يرجع إلى ظروف الأخير وشخصيته(١). على أن علاقة فردريك الثاني امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة بالمسلمين اتسمت بالود والصداقة بصورة عامة ويعود ذلك إلى ما اتصف به الامبراطور فردريك الثاني من الثقافة الواسعة وإجادته للغات عديدة من بينها اللغة العربية إضافة إلى نشأته بجزيرة صقلية حيث المؤثرات العربية الإسلامية(٢). وقد أدرك المؤرخون المسلمون أثر بيئته الثقافية التي نشأ بها على شخصيته وعلاقته بالمسلمين فابن واصل يقول: «وكان الامبراطور من بين ملوك الفرنج فاضلاً محباً للحكمة والمنطق والطب مائلاً إلى المسلمين، لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية وهو وأبوه وجده كانوا ملوكها وأهل تلك الجزيرة غالبهم المسلمون»(٣) أما المقريزي فيصفه بأنه كان «عالماً متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات»(٤). وبعد وصوله إلى الشام سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م بعث إلى السلطان الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها الأخير على بعض علماء المسلمين البارزين في هذه العلوم فكتبوا الإجابة عليها، فبعث بها الكامل إلى الامبراطور(٥).

وحين تم توقيع صلح يافا بين الجانبين استأذن الامبراطور السلطان

(١) انظر ما سبق الفصل الثالث ص ٢٥٩ - ٢٦٩.

(٢) سعيد عاشور: الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي؛ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١١٢؛ فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٣٤؛ وانظر أيضاً أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٤١؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ١ ص ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ٢٣٢.

(٥) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٧؛ اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ أ؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٢؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٢.

الكامل في زيارة القدس فأذن له وأمر القاضي شمس الدين قاضي نابلس «وكان جليلاً في الدولة متقدماً عند ملوك بني أيوب» أمره أن يرافق الامبراطور فردريك الثاني في زيارته لبيت المقدس وروى القاضي قصة دخوله للمؤرخ ابن واصل فقال: «ودخلت معه إلى الحرم فرأى ما فيه من المزارات ثم دخلت معه إلى المسجد الأقصى فأعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة»[1] وحين وصوله إلى محرابِ المسجد الأقصى أعجبته نقوشه وزخارفه ورأى من جمال المنبر ودقة صنعته ما أثار دهشته ثم صعد فيه إلى أعلاه ثم نزل وأخذ بيد قاضي نابلس وخرجا من المسجد الأقصى ، وأثناء خروجه رأى قسيساً وبيده الإنجيل وهو يهمُ بدخول المسجد فزجره فردريك وعنّفه وقال: «ما الذي أتى بك إلى ها هنا والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى ها هنا بغير إذني لآخذن ما في عينيه، نحن مماليك هذا السلطان الكامل وعبيده، وإنما تصدّق عليّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا يتعدى أحد منكم طوره» فعاد القسيس أدراجه وهو يرتعد خوفاً، وسار الامبراطور إلى الدار التي عينت له فنزل بها[2].

وكان السلطان الكامل قد أمر القاضي بمنع المؤذنين أن يرفعوا الآذان من على المآذن ما دام الامبراطور في بيت المقدس، فنسي القاضي أن يبلِّغ مؤذن الحرم ويدعى عبد الكريم بالأمر السلطاني، فصعد المؤذن عبد الكريم في وقت

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٤ ؛ وانظر أيضاً ابن الفرات: جـ ٦ لوحة ٤٥ ؛ المقرزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٢ ـ وقد ذكر سبط ابن الجوزي عن خادم الصخرة المقدسة أنه أخبره عن زيارة الامبراطور لها فقال «نظر إلى الكتابة التي في القبة وهي: وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين. فقال الأمبراطور متعجباً ومن هم المشركون ؟» ثم سأل القوام عن سر وجود الشباك على نوافذ قبة الصخرة فأخبره قائلاً: «لئلا تدخلها العصافير» فقال الأمبراطور: «قد بعث الله إليكم بالخنازير» ويقصد الصليبين.

انظر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ص ٦٥٥ ـ ٦٥٦ ؛ وانظر أيضاً ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ؛ وانظر أيضاً: تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٥ ـ ٤٦ ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٥ ـ ٦٥٦ ؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣١ .

السحر إلى المئذنة وشرع يتلو الآيات التي تختص بالنصارى، ثم أذّن للفجر، وفي الصباح استدعى القاضي المؤذن عبد الكريم وأخبره بأمر الكامل، وفي الليلة الأخرى لم يؤذن حسب الأوامر، ثم سأل الامبراطور فردريك الثاني قاضي نابلس عن سبب عدم سماعه الآذان، فأخبره بأمر السلطان فقال فردريك «أخطأتم يا قاضي تغيّرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم الله الله لا تفعلوا أول ما تنقصون عندنا»[1] ثم قال الامبراطور فردريك الثاني لقاضي نابلس: «والله إنّ أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل» ثم رحل فردريك الثاني إلى عكا[2].

دلّت تصرفات الأمبراطور فردريك الثاني على احتقاره للبابوية واستخفافه بها، فقد ذكر ابن واصل أن الامبراطور سأل الأمير فخر الدين بن الشيخ بعكا قائلاً «اخبرني عن الخليفة الذي لكم ما أصله؟» فأخبره فخر الدين أنه ينتسب إلى عم النبي ﷺ فقال الأمبراطور «ما أحسن هذا لكن هؤلاء القليلو العقول ـ يعنيّ الفرنج ـ يأخذون رجلاً من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسب ولا سبب، جاهلاً، فدماً يجعلونه خليفة عليهم قائماً مقام المسيح فيهم وأنتم خليفتكم ابن عم نبيكم فهو أحق الناس بمرتبته»[3].

ولقد أثارت أفعال وأقوال الامبراطور فردريك ازاء البابوية والمسلمين دهشة المؤرخين المسلمين حتى ان سبط ابن الجوزي يقول: «والظاهر من كلامه أنه كان دهرياً وإنما كان يتلاعب بالنصرانية»[4]. أما المؤرخ ابن الفرات حين

(١) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ ب؛ سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٦ـ ٦٥٧.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٥؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٥١؛ وانظر أيضاً تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٧.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٦.

ترجمته للامبراطور فردريك في حوادث سنة ٦٤٨ هـ فيرجح أنه كان مسلماً سراً مستدلاً بأفعاله وأقواله فيقول في ذلك «ويقال أن الامبراطور كان مسلماً في الباطن وما قدمنا شرحه يدل على ذلك، والله أعلم بحاله وما كان عليه»(١). غير أنه ليس لدينا من الأدلة ما يقطع بصحة أي من هذه الأقوال.

وكيفما كان الأمر فإن الامبراطور فردريك الثاني لم يكن يقيم أي اعتبار للبابوية ولا للمصالح الصليبية في بلاد الشام. حتى بيت المقدس لم يكن يهدف من استعادته إلا لحفظ مكانته في الغرب الأوروبي وإبطال أية حجج تتذرع بها البابوية ضده، ويدل على ذلك اعتذاره للأمير فخر الدين بن الشيخ سفير الكامل ـ بعد تسلمه بيت المقدس حيث أخبره «بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك فما له من غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج»(٢). أما ما عدا ذلك فلم يكن يهمه مصير بيت المقدس بعد تحقيق أهدافه وانتصاره على البابوية، ويشير ابن الفرات إلى أنه بعد أن تأكدت المودة بينه وبين السلطان الكامل وتوطدت الصداقة بينهما بعد عودته إلى بلاده «عرض على السلطان الكامل إعادة بيت المقدس وكل شيء بعد تأكيد مودة وصداقة بينهما»(٣). ولكن يبدو أن إنصراف الكامل إلى المنازعات داخل الدولة الأيوبية، ومع جيرانها كسلاجقة الروم والخوارزمية حال دون اهتمام الكامل بعرض الامبراطور حتى لا يفتح على نفسه جبهة جديدة مع الصليبيين في بلاد الشام ومع البابوية والغرب الأوربي.

وظلت المراسلات والاتصالات مستمرة بين السلطان الكامل وبين الامبراطور فردريك الثاني بعد عودة الأخير إلى بلاده ففي سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م وجينما كان السلطان الكامل في حران بمنطقة الجزيرة وصل إليه رسول الأمبراطور فردريك الثاني وحمل معه رسالتين إلى صديقه فخر الدين

(١) Selections From the Tarikh Ibn al — Furat Vol. 2 P. 48.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٠.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٨،

ابن الشيخ، وقد أورد ابن نظيف الحموي وابن الفرات نص الرسالتين ويظهر من نصهما أن ابن الشيخ ـ وزير السلطان الكامل ـ كان قد طلب من صديقه الامبراطور موافاته بأخباره على الدوام، فأخبره في الرسالتين بأن البابا استغل وجوده في بلاد الشام وغدر به وزعم أنه توفي وهاجم أملاكه في لمبارديا بإيطاليا وأوضح فردريك في رسالتيه أنه تمكن من الانتصار على أعدائه وأعاد إلى طاعته جميع من أغراهم البابا بالعصيان عليه أثناء غيبته ببلاد الشام (١).

وورد إلى السلطان الكامل وهو بحران رجل يدعى أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرمان من جزيرة صقلية وينتمي إلى طائفة من المسلمين يسكنون في جبال صقلية الوعرة، وقد دأبوا على الخروج على الأمبراطور فردريك الثاني الذي رد على ذلك بمهاجمة معاقلهم وإخراجهم من أوطانهم إلى السهول حتى لا يعودوا إلى العصيان مرة أخرى، وطلب أحمد بن أبي القاسم هذا من السلطان الكامل أن يتوسط لهم لدى الامبراطور للسماح لهم بالعودة إلى جبالهم، أو الإذن لهم بالهجرة إلى مصر، ، فكتب السلطان الكامل رسالة إلى صديقه الامبراطور يشفع فيهم وعاد أحمد بن أبي القاسم إلى بلاده(٢). غير أن ابن نظيف الحموي وابن الفرات تركا الموضوع غامضاً ولم يذكرا شيئاً عن موقف الامبراطور فردريك من شفاعة السلطان الكامل في هؤلاء المسلمين، ولم يرد خبر هذه الحادثة عند غيرهما من المؤرخين. ولكننا نرجح أن تلك الشفاعة لقيت أذناً صاغية من الامبراطور فردريك الثاني، الذي كان يعتز دائماً بصداقة السلطان الكامل ولا يفتأ يردد أمام أصدقائه قائلاً: «إن صديقي السلطان المسلم أثمن لدي من أي شخص آخر ما عدا ولدي الملك كونراد» (٣).

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٠٤ ـ ١٠٨؛ ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ١٨٩ ـ ١٩٤ ـ وانظر نص الرسالتين في الملاحق: الملحق الخامس.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ١٠٨؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٣) سعيد عاشور: الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١٢٧.

ويفهم من نص رسالة بعث بها الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل إلى الامبراطور فردريك الثاني سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م استمرار العلاقات الودية بين الدولة الأيوبية، والامبراطورية الرومانية المقدسة إذ جاء فيها قوله: «فأما ما ذكره المقام العالي السلطاني الملكي. . . من أنه لا فرق بين المملكتين فهذا هو المعتقد في صدق عهده وخالص وده ولا زال ملكه عالياً وشرفه نامياً» (١).

وفي سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م بعث الامبراطور فردريك الثاني إلى السلطان الكامل بهدية قيمة ضمنها دب أبيض كثيف الشعر، أثار إعجاب المؤرخين فذكروا أنه كان ينزل إلى البحر فيصيد السمك ويأكله، إضافة إلى طاووس أبيض جميل(٢). وديك رومي ضخم «قدر الجدي الكبير أخضر كأنه درة» (٣).

وقد استمرت العلاقات الوطيدة بين الدولة الأيوبية وبين الامبراطورية الرومانية المقدسة حتى بعد وفاة السلطان الكامل ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م فسار العادل الثاني على نهج أبيه في مراسلة الامبراطور فردريك الثاني وملاطفته وتبادل الهدايا معه(٤).

وحين استولى الصالح أيوب على مصر والشام، احتفظ الجانبان بعلاقات الود والصداقة بينهما، وفي سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م أرسل الامبراطور فردريك الثاني سفارة من رجلين إلى الصالح أيوب، وجرى استقبال سفيريه في القاهرة بكل مظاهر التشريف والفخامة ومكث السفيران بالقاهرة حتى أوائل فصل الربيع(٥). ويبدو أن الصالح أيوب رد على تلك السفارة، فأرسل إلى الامبراطور

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى جـ . ص ١١٧ - ١١٨.

(٢) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٦ أ؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣١٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٨٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٣.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣١٢.

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٤٨؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٦،

(٥) رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٨٢.

فردريك الثاني، الشيخ العلامة سراج الدين الأرموي قاضي قونية - كبرى مدن سلاجقة الروم - فأقام الشيخ سراج الدين في بلاط الامبراطور مدة مكرماً، وصنف له كتاباً في المنطق «وأحسن إليه الامبراطور إحساناً كبيراً وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح مكرماً»[1].

وقد التزم الامبراطور فردريك الثاني بالتعهد الذي قطعه على نفسه للسلطان الكامل في اتفاقية يافا سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م بعدم المشاركة أو المساعدة في أية حملة صليبية وعرقلة أي جهد صليبي ضد أراضي الدولة الأيوبية[2]. فحين قرر لويس التاسع ملك فرنسا القيام بحملته الصليبية على مصر سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م حاول فردريك الثاني إثناء لويس عن عزمه فأرسل إليه ينهاه عن المضي قدماً في حملته، وحذره من مغبة الأمر ولكن الملك الفرنسي لم يذعن لقوله، وعندئذٍ أرسل الامبراطور أحد أعوانه إلى السلطان الصالح أيوب في زي تاجر ليخبره بعزم لويس التاسع غزو مصر ويحذره منه ويشير عليه بالاستعداد له. وقد توخى الامبراطور فردريك السرية التامة في رسالته إلى الصالح أيوب خوفاً من الفرنج حتى لا يعلموا بـ «ممالأة الامبراطور للمسلمين عليهم» على حد قول المؤرخ ابن واصل[3]. وقد أورد ابن أيبك فقرة من نص الرسالة التي بعث بها فردريك الثاني إلى الصالح أيوب يحذره من لويس التاسع جاء فيها قوله: «إنه قد وصل في خلق كثير وقد اجتهدت غاية الاجتهاد في رده عن مقصده، وخوفته فلم يرجع لقولي فكن منه على حذر» وحين وصلت رسالة الامبراطور فردريك الثاني إلى الصالح أيوب «احترز وجهز الآلات برسم القتال وتحصين دمياط»[4]. وعندما فشلت حملة لويس التاسع وعاد إلى بلاده يجر

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٧.

(٢) انظر ما سبق، الفصل الثالث، ص ٢٦٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٧؛ وانظر أيضاً ابن أيبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٦٥ - ٣٦٦؛ المقريزي: الخطط جـ ١ ص ٢١٩؛ حامد زيان: العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية ص ١٥١ - ١٥٢.

(٤) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٦٦.

أذيال الخيبة أرسل إليه فردريك الثاني «يذكره نصحه له وما جر عليه لجاجه ومخالفته، ويعنفه على ذلك»[1].

وقد ذكر المؤرخ ابن واصل أنه ذهب في سفارة من قبل السلطان الظاهر بيبرس إلى الملك مانفريد ابن فردريك سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م وحين اجتمع به وجده متميزاً محباً للعلوم مثل أبيه، وذكر أنه بالقرب من البلد الذي نزل فيه مدينة تسمى لوجاره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية وتقام فيها الجمعة وجميع الشعائر الإسلامية «وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الامبراطور، ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة»[2].

ظهور خطر التتار:

في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام ومصر تتعرض لهجوم الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤ ـ ٦١٨ هـ / ١٢١٧ ـ ١٢٢١ م والتي هدفت إلى احتلال مصر باعتبارها مركز المقاومة الاسلامية التي يجب إخضاعها لضمان السيطرة الدائمة على بيت المقدس وبقية سواحل الشام[3]. في ذلك الوقت بالذات كانت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان [4]. قد بدأت تدك وتدمر بقوة مروعة الجزء الشرقي من العالم الإسلامي، وكأن تلك الجحافل المغولية كانت على موعد مع الغرب الأوروبي الصليبي في الأطباق على العالم الإسلامي، وقد استشف المؤرخ الفذ ابن الأثير بفكره الناقد ونظرته الفاحصة هذه الحقيقة في معرض حديثه عن غزوات المغول فقال: «ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر.... أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٤٨.
(٣) انظر ما سبق الفصل الثالث ص ٢٢٩ ـ ٢٥٥.
(٤) عن ظهور جنكيز خان وتوحيده للقبائل المغولية انظر فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ١٩ ـ ٥٧؛ الباز العريني: المغول ص ٣٧ ـ ٦٨.

التي يستعظمها كل من سمع بها. . ومنها خروج الفرنج. . من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها. .[1].

والحق أن غزو المغول للأمم الأخرى ليس حدثاً عادياً ولا هجرة طبيعية من الهجرات التي عرفها تاريخ الإنسان، بل كان إعصاراً مدمراً ابتليت به البشرية عامة والمسلمون والحضارة الإسلامية بصورة خاصة[1].

ولن نشرح هنا غزوات المغول على بلاد المسلمين فيما وراء النهر وخوارزم وإيران، وإنما الذي يهمنا شرح غاراتهم التي وصلت إلى مشارف بلاد الشام وموقف حكام المسلمين في مصر والشام والجزيرة من غزوات المغول. فلقد استطاع المغول خلال عامي ٦١٦ - ٦١٧ هـ / ١٢١٩ - ١٢٢٠ م الاستيلاء على بلاد ما وراء النهار وإقليم خوارزم وأزالوا من الوجود معظم مدنها الكبيرة مثل بخارى وسمرقند وجرجانية وجند ونيسابور، وقتلوا الملايين من سكان تلك البلاد المسلمين في وحشية رهيبة لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلاً ودمروا الحضارة الإسلامية الزاهرة بتلك المناطق والتي ظل المسلمون يشيدون بناءها زهاء ستة قرون[2].

وفي سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢١ م انطلق جيش مغولي آخر أنفذه جنكيز خان إلى الأجزاء الغربية من الدولة الخوارزميةلمطاردة ملكها محمد خوارزمشاه في محاولة جادة للقبض عليه ففر إلى بحر الخزر (قزوين) ولقد نجم عن تلك

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) وضع المؤرخ ابن الأثير تقييماً تاريخياً لحركة الغزو المغولي باعتبارها حادثة فريدة قل أن نجد لها نظيراً في التاريخ الإنساني. انظر ابن الأثير: الكامل جـ ٣٥٨ - ٣٦١.

(٣) عن غزوات المغول لبلاد ما وراء النهر وخوارزم وتدمير المدن الإسلامية في تلك الأقاليم، انظر تفاصيل الموضوع في: النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٤٧ - ٢٣١؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٣٥٨ - ٣٩٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٤ - ٦٤؛ الصياد: المغول في التاريخ ص ٩٥ - ١٣٨؛ السيد الباز العريني: المغول ص ١٢٢ - ١٤٤، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٦٧ - ٢٠٠.

المطاردة استيلاء المغول على مدن هامة مثل الري وقم وهمدان وإقليم أذربيجان، وظل أولئك المغول يتوغلون في غاراتهم المدمرة فاجتاحوا بلاد الكرج غرب بحر الخزر، حتى وصلوا شبه جزيرة القرم وأنزلوا الهزيمة بالروس والقفجاق وغيرهم، ثم عاد الجيش المغولي إلى منغوليا بعد أن دمر كل الأقاليم التي مر بها. واكتشف المغول خلال غاراتهم هذه أنه لا يوجد بجميع البلاد التي مروا بها جيش قوي يستطيع الصمود في وجههم[1]. ولقد أثارت تلك الغارة التي اقتربت من حدود الخلافة العباسية الاضطراب في بغداد «وانزعج الخليفة وأمر الناس بالقنوت في الصلاة وحصَّن بغداد واستخدم العساكر»[2].

وفي سنة ٦٢٠ هـ /١٢٢٣ م انسحب جنكيز خان إلى منغوليا حيث توفي وشغل المغول لفترة محدودة بانتخاب ابنه أوكتاي خاناً أكبر على المغول (٦٢٦ - ٦٣٩هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤١ م). ولقد تمكن جلال الدين منكبرتي خلال تلك الفترة من استعادة أجزاء واسعة من بلاد الدولة الخوارزمية التي سقطت بيد المغول زمن جنكيز خان، ثم دخل جلال الدين في منازعات عميقة مع خصومه في إيران حتى انتصر عليهم جميعاً[3]. وقد رأينا كيف دخل إلى الجزيرة وحارب الأيوبيين وانتزع من الملك الأشرف صاحب دمشق مدينة خلاط حتى هُزم أخيراً أمام تحالف سلاجقة الروم مع الأيوبيين في بلاد الشام[4].

والحق أن هجوم جلال الدين على بلاد الجزيرة وما نجم عن ذلك من حرب شديدة مع الأيوبيين وسلاجقة الروم يعتبر خطأ كبيراً وقع فيه جلال الدين منكبرتي إذ استنزفت تلك الحرب قواه وقوى خصومه معاً في وقت كان يجب فيه عليهم جميعاً توحيد قواهم لدرء خطر المغول المنتظر، فقد أرسل خان المغول

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص٣٧٢ - ٣٨٩؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤٢٥ - ٤٢٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦١٩.

(٣) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٤) انظر ما سبق ص٣٢٣ - ٣٢٧، ٣٣٦ - ٢٣٧.

الجديد أوكتاي بن جنكيز خان حملة ضخمة فسارت إلى إيران سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م ولم يستطع جلال الدين مواجهة المغول في ميدان مكشوف وظل يتقهقر أمامهم وهم يجدون في أثره[١]. وحاول طلب النجدة من ملوك الشام لصد خطر التتار، فقد كان في أسره مجير الدين بن العادل أخو الملك الأشرف منذ استيلاؤه على خلاط، وحمّله رسالة إلى أخيه الأشرف وقال له: «نفسك لك فتعرف أخاك الأشرف بالتتر، فما هم قليل وهم أعداء الدين»[٢].

وظل جلال الدين يرسل الرسل تباعاً إلى الأشرف وغيره من ملوك الشام والجزيرة وبقية بلدان الشرق الأدنى طالباً نجدته ومساعدته وشد أزره والوقوف إلى جانبه، وقد شرح في رسائله التي بعث بها مدى الخطر الداهم الكامن وراء زحف المغول في أعداد لا حصر لها، وبين أن التجارب برهنت على أن المدن والقلاع والحصون لا تستطيع الصمود أمامهم، غير أن استغاثة جلال الدين ونداءاته ذهبت أدراج الرياح، فحكام الشرق الأدنى كانوا مشغولين بمنافساتهم ونزاعاتهم الشخصية وظلوا على ذلك حتى دهمهم الخطر جميعاً[٣].

وفر جلال الدين هارباً حتى كبسه المغول قرب آمد وتفرقت عساكره فوصل إلى إحدى قرى ميافارقين حيث قتله أحد الأكراد في شوال ٦٢٨ هـ / أغسطس ١٢٣١ م[٤] وبموته أصبحت بلاد الشام والجزيرة والعراق وآسيا الصغرى مفتوحة على مصراعيها أمام المغول، فقد كان جلال الدين سداً بين المسلمين «وبين التتار»[٥].

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٩٥ - ٤٩٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣١٤ - ٣٢٠؛ سبط الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦٦؛ الصياد: المغول في التاريخ ص ١٧١.

(٢) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٤١ ب - ٤٢ أ؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٩٨؛ الصياد: المغول في التاريخ ص ١٧٢.

(٤) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٨٤؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٣٤؛ الصياد: المغول في التاريخ ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٥) الذهبي: دول الاسلام جـ ٢ ص ١٣٤.

وقد أدرك الملك الأشرف بن العادل بعد فوات الأوان أهمية بقاء الدولة الخوارزمية قوية في مواجهة المغول، فبعد مقتل جلال الدين دخل بعض أصحاب الأشرف عليه يهنئونه بهزيمته ومقتله فرد الأشرف قائلاً «تهنوني وتفرحون. . . . والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج» (١).
ولقد صدق الأشرف في قوله فمنذ مقتل جلال الدين سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م حتى قبيل معركة عين جالوت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م لم يجد المغول من يستطيع الصمود في وجههم ودرء خطرهم.

ومهما يكن من أمر فقد شرعت طائفة من المغول بعد مقتل جلال الدين في نهب سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد بديار بكر فقاوم أهلها ثم بذل لهم المغول الأمان حتى استسلموا فقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من فر بنفسه وبلغ عدد القتلى أكثر من خمسة عشر ألف نسمة، وظلوا يعيثون نهباً وتخريباً في ديار بكر بالجزيرة، ثم وصلوا إلى نصيبين ونهبوا سوادها وقتلوا من عثروا عليه من سكانها وامتدت غاراتهم المدمرة إلى سنجار والموصل وغيرها (٢).
وقد ذكر المؤرخ المعاصر ابن نظيف الحموي أن عدد المغول الذين أغاروا على الجزيرة لم يبلغوا ألف فارس ومع ذلك فما «وجدوا من رد لهم نشاباً» وهرب معظم سكان الجزيرة إلى الشام بينما كان الأشرف مقيماً عند أخيه الكامل بمصر (٣). وكل ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الضعف والخور الذي انتاب المسلمين، وقد أورد ابن الأثير حوادث تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك على الانهيار التام للروح المعنوية لدى المسلمين بحيث لم يعد لجماعة من المسلمين الصمود في وجه جندي مغولي واحد (٤).

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٧٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٦٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٨.
(٣) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ٢٣٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٥٠٠ ـ ٥٠١؛ وانظر أيضاً ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

وذكر ابن نظيف الحموي في حوادث سنة ٤٢٨ هـ وصول رسل التتر إلى الشام «واجتمع بهم الملك المجاهد بحمص» [1] غير أنه لم يذكر فحوى الرسالة التي حملوها وماذا كان رد المجاهد عليها كما لم يرد في المصادر الأخرى أي إشارة إلى تلك السفارة إلى صاحب حمص.

ومن الواضح أن تلك الفرقة المغولية التي اجتاحت إقليم الجزيرة سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م لم تكن تهدف إلى الاستيلاء على البلاد وإنما كان هدفها معرفة بلاد الشام والجزيرة ومدى قدرة حكامها على الصمود في وجه المغول، ويدل على ذلك رسالة أوردها ابن الأثير بعث بها تاجر من الري إلى أصحابه بالموصل جاء فيها قوله: «لا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور والطائفة الأخرى التي وصلت إلى أربل ودقوقا كان قصدهم النهب وإنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا، فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وأن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم» [2].

وقد اتخذت تلك الطلائع المغولية السابقة من موغان [3] باذربيجان مشتى لها لتعود بعد انقضاء فصل الشتاء للإغارة على الجزيرة وشمال العراق، ففي

---

(١) التاريخ المنصوري ص ٢٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٥٠٣؛ لم يكن المغول يواجهون أية مشكلات تموينية وهي التي تعاني منها الجيوش المنظمة عادة فقد أثرت طبيعة بلادهم الجغرافية القاسية في منغوليا في تكوينهم الجسماني وفي تكوين دوابهم وجعلت لهم قدرة عجيبة على الصبر وقوة التحمل. وقد أدرك ابن الأثير هذه الحقيقة فقال: «إنهم لا يحتاجون إلى ميرة أو مدد يأتيهم فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير فإذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج «انظر ابن الأثير، الكامل جـ ٢ ص ١٦٠، ولذلك لا نعجب لسرعة غزواتهم المدمرة، التي امتدت إلى أواسط أوروبا.

(٣) موغان: ولاية واسعة بها قرى ومروج باذربيجان على يمين القاصد من أردبيل إلى تبريز وكانت منازل التركمان لسعة رقعتها وكثرة عشبها ثم اتخذها التتر مشتاة وجلا عنها تركمانها انظر القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٦٤.

سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣٢ م عادوا للغارة من جديد لجس نبض القوى الإسلامية بالعراق والجزيرة والشام، وقد اهتم الخليفة العباسي المستنصر بالله اهتماماً عظيماً فبعث بالرسل تباعاً إلى السلطان الكامل وأخيه الملك الأشرف يحثهم على الخروج إلى الشام والمضي لقتال التتار. كما استخدم الخليفة العرب وغيرهم من الأجناد، وبذل الأموال بسخاء لصد التتر الذين أغاروا مرة أخرى على الجزيرة وقتلوا وسبوا وجفل الناس من بين أيديهم، وتقدم الكامل والأشرف بعساكر الشام والجزيرة إلى الشام وعبرا الفرات؛ وحين سمع التتار بقدومهما ـ وكانوا قد ضربوا الحصار حول خلاط ـ انسحبوا عنها وتركوا حصارها [١] . وسار الكامل فاستولى على آمد كما مر معنا [٢]، ولكنه بدلاً من توحيد قواه مع سلاجقة الروم وأمراء الشام والجزيرة قام بحملته المشهورة على آسيا الصغرى بغية الاستيلاء على بلاد السلاجقة، والتي أفضت إلى الفشل وما ترتب على ذلك من إذكاء نار الخلافات بينه وبين سلاجقة الروم من ناحية ، وبينه وبين ملوك الشام من ناحية أخرى [٣]، في وقت كان المسلمون في أشد الحاجة إلى تجميع الصفوف وتوحيد القوى وتنقية النفوس لصد الخطر المغولي الداهم.

ومن الواضح أن المغول اتخذوا من موغان في أذربيجان قاعدة متقدمة لهم، لوضع بلاد العراق والجزيرة والشام وآسيا الصغرى تحت المراقبة الدائمة لرصد حركات القوى الإسلامية بها ومعرفة مدى قوتها واختبارها على الدوام عن طريق الغارات المتلاحقة لأن حكام المغول لم يقرروا في ذلك الحين اجتياح هذه البلاد بعد. ومما يبرهن على صحة هذا الرأي، تلك الغارات التي كان يقوم بها المغول على الجزيرة والعراق وتحاشيهم في بعض الأحيان الاصطدام بالجيوش القوية، مثلما حدث سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م عندما قطع المغول أعالي دجلة

---

(١) ابن نظيف: التاريخ المنصور ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٧٣؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧٨.

(٢) انظر ما سبق ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) انظر ما سبق ص ٣٢٧ ـ ٣٣١.

وكان السلطان الكامل قد فرغ لتوه من استعادة الرها وحران من سلاجقة الروم، وحين بلغ المغول نبأ وجوده بالجزيرة عادوا أدراجهم [١]. وفي سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧ م حاصروا أربل في شمال العراق، فأرسلت الخلافة العباسية العساكر لنجدتها وأمرت بتحصين بغداد، وعاث المغول في أربل وحاصروا قلعتها وحين بلغهم اقتراب عساكر الخليفة انسحبوا إلى الشرق [٢].

وداوم المغول الغارات على العراق سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٨ م ففي صفر من السنة نفسها هاجموا أربل مرة أخرى وامتدت غاراتهم إلى قرب بغداد ونهبوا السكان فأعلن الخليفة الجهاد، واستطاع المسلمون إنزال الهزيمة بالمغول قرب تكريت وأطلقوا سراح الأسرى المسلمين غير أنه لم يمض وقت طويل حتى عاود المغول شن الغارة على أعمال بغداد في رجب من سنة ٦٣٥ هـ/ مارس ١٢٣٨ م، وكان الخليفة في ذلك الوقت قد تلقى النجدات من بلاد الشام، ومع ذلك فقد أنزل المغول الهزيمة بجيش المسلمين في الخانقين شمال شرق بغداد وقتلوا منهم أعداداً كبيرة وفر الباقون إلى بغداد [٣].

وفي سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤١ م وصل إلى ملوك الجزيرة والشام رسول تولي ابن جنكيز خان ـ شقيق أوكتاي خان المغول الأكبر ـ يأمرهم بالدخول في طاعته وهدم أسوار مدنهم ويحذرهم من مغبة العصيان عليه [٤]، ورغم ذلك فقد ظل ملوك الشام والجزيرة وسلاجقة الروم منغمسين بدون وعي في منازعات لا تنتهي وكأنهم يمهدون بذلك لسقوط بلادهم بأيدي التتار [٥].

وفي سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٣ م أقدم المغول على خطوة بالغة الخطورة عندما

---

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٥١؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٣.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٩٨ ـ ٩٩؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٨٩٩.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ١٠٩ ـ ١١٣؛ ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩؛ الصياد: المغول في التاريخ ص ١٨١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٥ ـ ١٥٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٤٢.

(٥) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٤٦؛ وانظر أيضاً: ابن العديم زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣١٠.

قرروا الاستيلاء على آسيا الصغرى، إذ إن ذلك يشير بوضوح إلى تصميمهم على الإطباق على بلاد الشام والجزيرة والعراق ومصر من جهتي الشرق والشمال. فقد زحف جيش مغولي كبير بقيادة بايجونويان إلى مدينة ارزن الروم في جنوب شرق آسيا الصغرى وحاصرها حصاراً شديداً، ولكن واليها من قبل السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو الثاني ويدعى سنان الدين ياقوت صمد في وجوههم ودافع عنها ببسالة فائقة حتى اقترب فصل الشتاء وأوشك المغول على الانسحاب فاتصل بهم أحد القادة الخونة داخل المدينة وكان يتولى حراسة أحد الأبراج، وبذل لهم تسليم البرج مقابل حصوله على الأمان مع أهله وأمواله، فوافق المغول على عرضه وتسلموا البرج منه واقتحموا مدينة ارزن الروم فقتلوا الرجال والأطفال وسبوا النساء ونهبوا الأموال «وجعلوا البلد قاعاً صفصفاً» (١).

وشعر السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني بالخطر المحدق بدولته فأرسل نائبه شمس الدين إلى الجزيرة، وسعى في الصلح بين مملكة حلب والخوارزمية والمظفر غازي بن العادل في محاولة لتوحيد جهودهم جميعاً ضد المغول ثم سار النائب شمس الدين مع عسكر حلب إلى بلاد الشام طالباً النجدة من الحلبيين، فجردوا معه فرقة كبيرة بقيادة أحد الأمراء ويدعى أبو المعالي ناصح الدين الفارسي، وحين وصل عسكر حلب إلى آسيا الصغرى استقبله السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني وخلع على أفراده وأكرمهم وضمهم إلى عسكره، وشرع في التأهب لمواجهة المغول (٢).

وسار السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني بقواته والتقى بقائد المغول بايجونويان في مكان يسمى كوسه طاغ (أي الجبل الأقرع) قرب توقات سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م ودارت المعركة، فحلت الهزيمة بالسلطان غياث الدين

---

(١) المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٨٢ب؛ وانظر أيضاً: The Cambridge Medieval History, Vol. IV.p.748; The Cambridge History of Islam p.249 .

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣١٤، ٣٢٦ ـ ٣٢٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧١.

وقتل أكثر عسكره وأمرائه، وغنم المغول ما معهم من الأموال والأثقال (١).

أما السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني فقد هرب عقب المعركة إلى توقات ومنها إلى قونية، ثم سار إلى سيواس ولجأ إلى قاضيها نجم الدين القيرشهري الذي كان قد تقرب إلى جنكيز خان حين استولى على خوارزم وحصل منه على توقيع بالأمان فسلم التوقيع للقائد بايجونويان، فقبله ووضعه على رأسه إجلالاً واحتراماً لمؤسس امبراطورية المغول، وأجاب القاضي ببذل الأمان لأهل البلد على أرواحهم على شرط أن ينهب المدينة ثلاثة أيام، ثم تقدم المغول إلى قيسارية فنهبوها وأبادوا سكانها. أما السلطان كيخسرو الثاني فقد فر إلى غرب آسيا الصغرى، ثم أذعن سلاجقة الروم للمغول وقدموا لهم الأتاوة السنوية رمزاً للخضوع والتبعية (٢).

وكان لهزيمة سلاجقة الروم على أيدي المغول آثار بعيدة المدى على تاريخ بلاد الشام، فقد عادت فلول النجدة الحلبية بقيادة ناصح الدين الفارسي إلى حلب «في أسوأ حال» وثار التركمان في أطراف بلاد الشام وآسيا الصغرى يعيثون نهباً وفساداً، كما استولت المغول «على آمد وخلاط وبلادهما» (٣). كما هاجر إلى بلاد الشام أعداد كبيرة من سكان آسيا الصغرى «فاضطرب الشام لذلك اضطراباً كثيرا» (٤).

---

(١) المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٨٣ أ؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١٣١ أ؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٦٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٢٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٥٢ - ٣٥٣؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) المولوي: صحائف الأخبار ورقة ٥٨٣ ب - ٥٨٤ أب؛ وانظر أيضاً الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٤٧؛ الباز العريني: المغول ص ١٧٨ - ١٧٩؛ الصياد: المغول في التاريخ ص ١٨٣؛ The Cambridge Medieval History Vol.IV. pp.748 - 749; The Cambridge History of Islam p.211.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٢٣؛ وانظر أيضاً، ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ٢٦٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٢٥.

وذكر بعض المؤرخين أن أحد قادة المغول ويدعى يسارنوين غزا بلاد الشام عن طريق آسيا الصغرى سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م ووصل إلى حيلان قرب حلب ثم عاد منها «لحفي أصاب خيول المغول» كما نجم عن غارات المغول هذه آثار سيئة على الحياة الاقتصادية بشمال بلاد الشام وآسيا الصغرى «وأقحطت البلاد بعد ترحال التتار» وانتشرت الأوبئة وهلك الكثير من الخلق «وباع الناس أولادهم بأقراص الخبز» [١].

والحق أن سيطرة المغول على آسيا الصغرى المتاخمة لحدود بلاد الشام الشمالية جعل تلك البلاد في متناول المغول متى ما اتخذوا القرار بغزوها.

وإذا كانت بعض فرق المغول قد أغارت على أطراف بغداد سنة ٦٤٣ هـ/ ١٤٢٥ م [٢] وعلى بعض مناطق الجزيرة سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م [٣]، فإنه من الواضح أن هدف تلك الغارات اختبار قدرات القوى الإسلامية في هذه المناطق تمهيداً للغزوة الكبرى التي قادها هولاكو. وفي سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٣ م جهز خان المغول منكو قآن جيشاً مغولياً ضخماً وأسند قيادته إلى أخيه هولاكو خان وأمره بالمسير غرباً للاستيلاء على منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، وتمكن هولاكو في سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م، من الاستيلاء على قلاع الإسماعيلية في غرب إيران وقضى على تلك الطائفة قضاءً مبرماً [٤].

ثم تقدم هولاكو بجحافل المغول إلى بغداد وهزم جيش الخليفة العباسي

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٦؛ وانظر أيضاً ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٣ القسم الثاني ص ٤٧٢.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ١٩٩ ـ ٢٠٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٨.

(٣) ابن حبيب: درة الأسلاك ورقة ٥ أ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٧؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٤٧٦؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٥٦؛ عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ، المجلد الثاني جـ ١ ص ٢٣٤ ـ ٢٥٨؛ العريني: المغول ص ٢٠٧ ـ ٢١٢.

الضعيف، وحاصر بغداد فاستسلم الخليفة المستعصم لهولاكو واقتحم المغول بغداد في المحرم ٦٥٦ هـ/ فبراير ١٢٥٨ م وقام المغول بارتكاب مذبحة رهيبة دامت أربعين يوماً وراح ضحيتها أكثر من ثمان مئة ألف نسمة من المسلمين، أما الخليفة فقد قتله المغول ونهبوا بغداد نهباً شنيعاً ودمروا كنوز الحضارة الإسلامية في مختلف الآداب والفنون، لتدخل بلاد الشرق الأدنى بسقوط الخلافة العباسية حقبة جديدة في تاريخها (١).

أما عن موقف بلاد الشام من غزو المغول للعراق والقضاء على الخلافة العباسية، وتدمير مدينة بغداد، فقد أصبحت بلاد الشام منذ زمن بعيد نهباً للفوضى والانقسام، وكان ملكها الناصر يوسف منغمساً في نزاع لا ينتهي مع المماليك في مصر، ومع المغيث عمر صاحب الكرك، ومع طائفة المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس والذين كانوا قد فروا إلى الشام منذ سنة ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤ م (٢).

وقد اتضح من موقف الناصر يوسف ـ صاحب دمشق وحلب ـ إزاء المغول أنه لم يكن مدركاً لأبعاد الخطر المغولي وطبيعة المرحلة القادمة ولذلك جاءت مواقفه متناقضة، وقد ظهر تناقضه هذا لهولاكو حتى قبيل غزو الأخير للعراق (٣). وذكر المؤرخون أنه بعث ابنه العزيز محمد إلى هولاكو بهدايا سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م (٤)، ويضيف المقريزي أن العزيز طلب على لسان أبيه

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٣٢٣ ـ ٣٣١؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٩٨؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٩٣ ـ ١٩٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤٧ ـ ٥٣؛ الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس جـ ٢ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧؛ الصياد: المغول في التاريخ ص ٢٤٩ ـ ٢٧٠؛ العريني: المغول ص ٢١٣ ـ ٢٢٠.

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني، ص ١٨٩ ـ ٢٠٣.

(٣) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ المجلد الثاني جـ ١ ص ٣٠٥.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٤٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٦ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٤١٦.

من هولاكو أن يبعث معه نجدة لينتزع مصر من أيدي المماليك [١]. وبعد سقوط بغداد وبداية زحف المغول إلى الجزيرة قاصدين بلاد الشام، وبعد أن تلقى الناصر يوسف رسالة هولاكو يهدده [٢]، بعث بالمؤرخ ابن العديم إلى المماليك في مصر طلباً للمساعدة ضد المغول [٣].

والحق أن تخاذل ملوك وحكام بلاد الشرق الأدنى وتفرق كلمتهم قبيل الغزو المغولي هو الذي مهد الأرض الخصبة لنجاح غزو المغول، وقد عبر عن ذلك أحدهم عندما قال: «والله ما خرجت البلاد عن أيدينا إلا بتخاذل بعضنا عن بعض فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى» [٤].

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى وعي ركن الدين بيبرس قائد طائفة المماليك البحرية الذي كان مدركاً تمام الإدراك لأبعاد الغزو المغولي ومخاطره، يدل على ذلك موقفه حين طلب من الناصر يوسف سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م أن يُقدِّمه على رأس أربعة آلاف فارس «أو يقدم عليهم غيره» ويمضي بهم إلى شط الفرات الغربي لحراسته ومنع المغول من إقامة الجسور والعبور إلى بلاد الشام، ولما رفض الناصر يوسف طلبه عمد بيبرس إلى مراسلة سيف الدين قطز. وقرر الانضمام إليه، وتناسي الخلافات مع زملائه مماليك مصر، وسار إليها وانضم إلى قطز ولعب دوراً حاسماً وهاماً كما هو معروف في صد خطر المغول في معركة عين جالوت [٥].

وجدير بالذكر هنا أن نشير إلى مشاركة النصارى من الأرمن والكرج

---

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤١٠ - ٤١١.

(٢) انظر نص رسالة هولاكو إلى الناصر يوسف في؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٤٨٤ - ٤٨٥؛ المقريزي: السلوك، جـ ١ ص ٤١٥ - ٤١٦؛ السيوطي: تاريخ الخلفا ص ٧٥٠ - ٧٥٢.

(٣) أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٩٩؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤١٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٥.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٤٤.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠٠ - ١٠١.

للمغول في غزو بغداد، كما تمتع النصارى من سكان بغداد بعطف المغول وذلك بإيعاز من دوقوزخاتون زوجة هولاكو النصرانية [1].

والحق أنه لا يمكننا الحديث عن خطر المغول دون الإشارة إلى محاولات زعماء الصليبيين في غرب أوروبا لإقامة تحالف صليبي مغولي للقضاء نهائياً على المسلمين في بلاد الشام. فقد أشرنا إلى الدور الذي لعبه هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى ومحاولته التحالف مع المغول. أما الغرب الأوروبي فقد أدرك منذ النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مدى قوة المغول وخطرهم وجبروتهم حين وصلوا بجحافلهم حدود ألمانيا، وهددوا أوروبا بقوة، ورأت البابوية الإفادة من حركة المغول الذين لم يعارضوا بعثات التبشير بينهم، فسعت البابوية جاهدة لإقامة تحالف مغولي صليبي ضد المسلمين في بلاد الشام ومصر [2].

فقد أوفد البابا انوسنت الرابع (٦٤٠ - ٦٥٢هـ/ ١٢٤٢ - ١٢٥٤م) سفارتين إلى بلاط خان المغول يدعوهم إلى إعتناق المسيحية، غير أن خان المغول طلب من البابا وجميع زعماء الغرب الأوربي إعلان خضوعهم له ودخولهم في طاعته واعترافهم بسيادة المغول[3].

وحين كان لويس التاسع في قبرس ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م وهو في طريقه لغزو مصر تلقى سفارة من نائب خان المغول على فارس، وعرضت تلك السفارة إستعداد المغول لعقد تحالف مع لويس التاسع وغزو الأراضي المقدسة وانتزاع بيت المقدس من المسلمين. فبادر لويس التاسع إلى إرسال سفارة من قبله إلى خان المغول وحمّلها بالهدايا القيّمة للخان المغولي، وهدف منها إلى إجتذاب خان

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٦٧.

(٢) جوانفيل: القديس لويس، مقدمة المترجم ص ١٧ ـ ١٨.

(٣) جوانفيل: القديس لويس، مقدمة المترجم ص ١٨؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٤٧؛ رنسيمان: الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٦.

المغول إلى المسيحية[1]. ويبدو أن تلك السفارة لم تحقق هدفها بسبب رغبة خان المغول في إخضاع جميع الملوك المعاصرين له مما جعل لويس التاسع يتطلع إلى محالفة مغول روسيا فأرسل سفارة أخرى إليهم، ولكنهم بعثوا برسالته إلى خان المغول في قراقورم والذي اشترط إعتراف لويس التاسع بالتبعية للمغول[2].

وهكذا فشلت جهود الغرب الأوربي في إقامة تحالف صليبي مغولي كامل ضد المسلمين باستثناء الدور الذي لعبه هيثوم ملك أرمينية الصغرى الذي شارك في هجوم المغول على بلاد الشام ولم ينجح سوى في إجتذاب بوهيمند السادس صاحب انطاكية، أما بقية الصليبيين في بلاد الشام فقد تقاعسوا عن إجابة هيثوم إلى طلبه[3]. وكان ذلك من حسن حظ المسلمين إذ لو تحالف الصليبيون جميعاً في بلاد الشام مع المغول لهددوا مؤخرة جيش المماليك ولما تحقق للمسلمين النصر في عين جالوت .

---

(١) جوانفيل: القديس لويس ص ٨٤ ـ ٨٧؛ حسن حبشي: الشرق العربي بين شقيّ الرحى ص ٣٦ ـ ٣٧؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٤٨.

(٢) سعيد عاشور، المرجع السابق جـ٢ ص ١٠٤٨ ـ ١٤٠٩.

(٣) The Cambridge History of Islam pp. 211 - 212 وانظر ما سبق ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

الفصل الخامس

أهم مظاهر التطور الحضاري في بلاد الشام

الفصل الخامس

أهم مظاهر التطور الحضاري في بلاد الشام

الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي:

- دور ملوك بني أيوب في إزدهار الحركة الفكرية .
- أهم المدارس في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي .
- علوم الشريعة .
- علوم العربية (النحو واللغة، والشعر والأدب) .
- الفلسفة .
- الدراسات الطبيعية (الطب والصيدلة، والرياضيات، والفلك) .

أهم ملامح الحالة الإقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي :

- (الزراعة، الصناعة، التجارة) .
- (أهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة) .

«الحياة العلمية في بلاد الشام»
«قبيل الغزو المغولي»

على الرغم مما شهدته بلاد الشام من حوادث سياسية متشابكة تناولها البحث مفصلة في الفصول السابقة، فإن مما يسترعي الإنتباه التطور العلمي والإنتاج الفكري الكبير الذي شهدته بلاد الشام خلال هذه الحقبة.

والحق أنه لا يمكن تتبع الحركة العلمية في بلاد الشام بصورة مفصلة خلال هذه الفترة، نظراً لما شهدته بلاد الشام من مئات المدارس في مختلف بلدان الشام ولما ظهر فيها من علماء كثيرين. كما أن الإيغال في شرح هذا الموضوع يحتاج إلى مجلدات الأمر الذي يطغى على موضوع الكتاب الذي نقوم بدراسته وبالتالي فسوف يقتصر البحث على رصد أهم السمات العامة للحركة العلمية والتأريخ لها ولأهم مظاهرها وفي ذلك دلالة كافية على المدى الذي بلغته الحركة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي.

دور ملوك بني أيوب في إزدهار الحركة الفكرية:

من الحقائق المسلّم بها في تاريخ الحضارة الإسلامية، أنه كان للملوك والحكام والخلفاء ورجال الدولة أكبر الأثر في إزدهار الجانب الحضاري، ولاسيما الحياة العلمية، وذلك لما أبدوه من تشجيع دائم للعلماء وطلاب العلم، فأنشأوا لهم المدارس وزوّدوها بالمكتبات وأجروا على كل ذلك الجرايات والأوقاف.

وكان لملوك بني أيوب ورجال دولتهم دور بارز في إزدهار الحياة العلمية في بلاد الشام، فالملك الأفضل بن صلاح الدين الذي خلف والده في حكم دمشق

كان قد تلقى العلم على كثير من العلماء بالإسكندرية وبلاد الشام ومنحه بعضهم الإجازة[١]، كما اشتهر بحسن الخط وجماله، وكان له شعر جيد ينمّ عن سعة علمه وكثرة إطلاعه، وهذا ما دفعه إلى تعظيم العلماء وتقريبهم[٢].

وأنشأ الأفضل مدرسة بالقدس هي الأفضلية وجعلها خاصة بتدريس المذهب المالكي وأوقف عليها الأوقاف، وظلت قائمة طوال العصرين الأيوبي والمملوكي[٣].

ولا يقل عنه أخوه الظاهر صاحب حلب في العناية بالعلم والعلماء، فقد تلقى هو الآخر علومه بالاسكندرية ودمشق وحصل على الإجازة من كبار العلماء المصريين والشاميين[٤]. وحين أصبح ملكاً على حلب جعل دولته معمورة بالعلماء، فقرّب إليه قادة الفكر، مثل القاضي بهاء الدين بن شداد وغيره من الفقهاء، وأجاز الشعراء والأدباء بالهدايا والصلات كما ارتفعت مكانة بيوت العلم في دولته مثل بني القيسراني وبني العجمي وبني الخشاب وغيرهم من الأسر العريقة ذات الباع الطويل في ميدان العلم والمعرفة[٥].

---

(١) الإجازة لغة: مصدر أجاز بمعنى أذن، وفي الإصطلاح أذن وتسويغ اتخذه علماء الحديث بأن يأذن الثقة منهم أو المحدث لغيره بأن يروى عنه حديثاً أو كتاباً ونحوه، انظر الفيروز أبادي: القاموس المحيط جـ ٢ ص ١٧٠؛ دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ ص ٤٣٣.

(٢) سبط ابن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب لوحة ٢٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٣٧ - ٣٨؛ ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠١ - ٢٠٢؛ الزبيدي: ترويج القلوب ص ٦٩.

(٣) مجير الدين العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ٤٦؛ محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٦ ص ١٢٢؛ عبد الجليل حسن: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي جـ ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٩.

(٤) المنذري: التكملة لوفيات النقلة جـ ٢ ص ٣٦٨.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٧٩؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٩٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٦ - ٩؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ١٣٠؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢١٧ - ٢١٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٥٥ - ٥٦.

أما المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ) ملك حماه فقد كان عالماً جليلاً، يحب العلم والعلماء وأهل الأدب والشعر، وكان يتوق على الدوام إلى أن يكون في مملكته طائفة كبيرة من العلماء في شتى فروع الأدب، الأمر الذي أغرى الكثير من العلماء بالقدوم عليه والعيش في كنفه لما وجدوه عنده من تشجيع بالغ لهم وعناية فائقة بصحبتهم. وذكر المؤرخون أنه كان يعيش في بلاطه زهاء مائتيّ عالم من الفقهاء والنحاة واللغويين والفلاسفة والمهندسين وعلماء الفلك والشعراء وغيرهم، وقد فرض لهم جميعاً الجرايات والرواتب[1].

ومن الذين وفدوا على الملك المنصور من العلماء الشيخ الإمام سيف الدين أبو الحسن الأمدي، وحين وصوله إلى حماه استقبله وبنى له المدرسة المنصورية وأجرى له الراتب المجزي وواظب على حضور مجلسه والإشتغال عليه في جميع الفنون[2].

وكان المنصور نفسه «عالماً بالسير والتواريخ وعلم الكلام»[3] وقد انعكس ذلك على إنتاجه العلمي فصنّف كتاباً ضخماً في التاريخ العام سماه «مضمار الحقائق وسر الخلائق» في نحو عشرين مجلداً[4]، كما صنّف كتاباً آخر في طبقات الشعراء، وكان المنصور شاعراً متمكناً[5]. وكان له أيضاً عناية فائقة بالكتب فجمع في خزانته الكثير منها في شتى أنواع العلوم «وكان يكثر مطالعة الكتب ومراجعتها واستحضار العلماء والبحث معهم»[6].

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٧٧ ـ ٧٩؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٢٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٢٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٦٣؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات جـ ٤ ص ١٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٥٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٧٨؛ ابن أيبك كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٦٣.

(٣) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ٩٠.

(٤) كتاب المضمار مفقود أكثره ولم يبق منه إلاّ جزء واحد نشره حسن حبشي بالقاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٧٨ ـ ٨٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٦٤.

(٦) ابن واصل: نفسه جـ ٤ ص ٨٠.

أما رجل بني أيوب في ميدان الحياة العلمية «وعالمهم بلا مدافعة» فهو الملك المعظم عيسى بن العادل ملك دمشق[1]. وكان قد تلقى علومه منذ الصغر بمصر والشام على أيدي كبار العلماء والفقهاء[2]، حتى أصبح عالماً ضليعاً في عدة علوم، يأتي في مقدمتها الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة إذ داوم الإشتغال بمذهبه حتى أصبح متميزاً فيه[3]. ومن الطريف أنه التزم بالمذهب الحنفي في الوقت الذي كان فيه ملوك بني أيوب على المذهب الشافعي حتى أن والده السلطان العادل سأله ذات مرة قائلاً: «كيف اخترت مذهب أبي حنيفة وأهلك شافعية؟» فأجابه على سبيل المداعبة: «يا خوند أما ترضون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم؟»[4] وبلغ إهتمامه بمذهبه حداً جعله يأمر الفقهاء أن يجرّدوا له مذهب أبي حنيفة في كتاب واحد، فجرّدوه له في عشر مجلدات، فسماه التذكرة وصار «لا يفارقه سفراً ولا حضراً» وأخذ في مطالعته ودراسته حتى استوعبه وكتب على ظهر كل مجلده «أنهاه حفظاً عيسى بن أبي بكر بن أيوب» فقال له صديقه المؤرخ سبط ابن الجوزي: «ربما يؤخذ هذا عليك... وانت مشغول بتدبير الممالك وتكتب خطك على عشر مجلدات أنك حفظتها» فقال له المعظم «ليس الإعتبار بالألفاظ وإنما الإعتبار بالمعاني... فاسألوني عن جميع مسائلها فإن قصّرت كان الصحيح معكم وإلاّ فسلموا لي ما قلت»[5].

وحينما وقف المعظم على تاريخ بغداد لمؤلفه أبي بكر أحمد بن ثابت البغدادي وجد فيه مطاعن على أبي حنيفة رواها الخطيب عن جماعة من

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٦٨.

(٢) المنذري؛ التكملة لوفيات النقلة جـ ٣ ص ٢١٢.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧ ب؛ الجنابي: البحر الزاخر جـ ٢ ورقة ١٩ ب؛ العليمي: المعتبر في أنباء من غبر ورقة ٧٥ أ؛ ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٧١؛ اليافعي: مرآة الجنان جـ ٤ ص ٥٧ - ٥٨؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢١١؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٢٤.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٤٧؛ وانظر أيضاً: الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥١ ب؛ القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية جـ ١ ص ٤٠٢؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية جـ ١ ص ١٤٣.

المحدثين، فقام المعظم بتحقيقها وبيّن بطلانها وصنف في ذلك كتاباً سماه (السهم المصيب في الرد على الخطيب) وردّ فيه على جميع المطاعن التي أوردها الخطيب عن أبي حنيفة وضمن كتابه هذا مباحث قيمة في الفقه والنحو، وتتبع سيرة الخطيب حتى روى له أشعاراً جرحه بها. وقد ذكر المؤرخ ابن واصل أنه رأى هذا الكتاب بالقدس، فطالعه فوجده في «غاية الحسن»[1].

ولم يقتصر تفوق المعظم بالفقه فحسب، بل برز أيضاً في علوم النحو والأدب واللغة، وكان أستاذه فيها الشيخ تاج الدين أبو اليمن بن الحسن الكندي عالم النحو المشهور، وقد قرأ المعظم على يديه كتابه سيبويه، وكتب عليه خطه في عدة مواضع يقول في بعضها: «أتممت هذا الكتاب مطالعة ومراجعة، وأنا بمدينة أرسوف» ويقول في موضع آخر: «أتممته مطالعة ومراجعة وأنا بنابلس»[2] مما يشير إلى إهتمامه الفائق بطلب العلم حتى أثناء تنقله بين بلدان مملكته وجهاده للصليبيين.

كما اهتم المعظم أيضاً باللغة وأمر أن يُجمع له كتاب جامع في اللغة يتضمن كتاب «الصحاح للجوهري» ويضاف إليه ما فات الصحاح من التهذيب للأرموي والجمهرة لابن دريد على أن يبوب الكتاب بحيث يصبح كل قول وحديث في الباب الذي يقتضي معناه مثل باب الطهارة، وباب الغزوات، والتفسير، وغير ذلك ليصبح كتاباً جامعاً[3].

واعتنى المعظم بالعلوم الأخرى فدرس القراءات والأحاديث وانكب على قراءة أمهات الكتب المختصة بها، كما اهتم بالعروض وكان له ديوان شعر[4].

وكان من الطبيعي لحاكم هذه ثقافته وسعة إطلاعه أن يصبح بلاطه مرتعاً

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢١٢؛ وانظر أيضاً: ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٧٦.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢١٠ - ٢١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٧١؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٢١.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٦٧.

خصباً للعلم والعلماء «ونفق العلم في سوقه» كما يقول ابن الأثير، فقصده العلماء من سائر الآفاق فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم[1]. وبلغ من حرصه على إجتذاب العلماء إلى بلاطه أن كان يراسلهم ويطلب منهم القدوم إليه، ومن ذلك على سبيل المثال أنه أرسل في سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م رسالة إلى سالم بن واصل ـ والد المؤرخ المشهور ـ يطلب حضوره من حماه إلى دمشق، فسافر صحبة ابنه جمال الدين محمد إلى دمشق فأكرمهما المعظم غاية الإكرام، وشاهد المؤرخ ابن واصل من إهتمام المعظم بالعلم ما أثار دهشته فكان «يحاضر الفقهاء والعلماء ويباحثهم في دقائق العلوم»[2].

وكان المعظم يحث طلاب العلم على الإشتغال بجد ونشاط فخصص لهم المكافآت وأعلن أن من حفظ الجامع الكبير في الفقه الحنفي لأبي الحسن بن عبيد الله الكرخي فله مئة دينار ومن حفظ الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي فله جائزة أخرى قدرها مائتا دينار، وقد حفظ الكتابين جماعة من طلبة العلم فأعطاهم المكافآت التي وعدهم بها[3].

وقد عاش في بلاط المعظم طائفة كبيرة من العلماء والأدباء وكانوا لا يفارقونه حتى في أسفاره، ومنهم ـ على سبيل المثال ـ فخر القضاة نصر الله بن براقة المصري الأديب البارع وصاحب النظم والرسائل. وشرف الدين بن عنين الشاعر المشهور، وجمال الدين بن شيث كاتب الإنشاء وكان أديباً جيد الترسل له معرفة قوية بعلم الكيمياء وغيرهم من العلماء الأفاضل[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٢ ص ٤٧١.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٤١.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧ ب ـ ١٨ أ؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٢ أ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٤٧؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية: القسم الأول ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢١٤ ـ ٢١٧.

كما أسهم المعظم بقسط وافر في إزدهار الحياة العلمية عن طريق إنشاء المدارس ومنها المدرسة المعظمية بعاصمته دمشق، والتي أنشأها سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م حيث تولى التدريس بها عدد من العلماء المشهورين[١]. وأكمل بناء مدرسة والده بدمشق وأوقف عليها الأوقاف ودفن والده بها ونسبها إليه[٢]. وبنى بالقدس مدرسة الحنفية عند باب المسجد الأقصى، وبنى على آخر صحن الصخرة من جهة القبلة مدرسة أخرى تسمى النحوية والمعظمية، وخصصها لتدريس علوم العربية وأوقف عليها الأوقاف الحسنة[٣].

ومن ملوك بني أيوب الذين لعبوا دوراً بارزاً في إزدهار الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، وكان قد نشأ في دمشق وتلقى العلم على كبار علماء عصره، وأفاد من العلماء الذين كانوا يدرسون في مدرسة والده المعروفة باسم المدرسة الفروخ شاهية مثل الشيخ تاج الدين الكندي عالم النحو الشهير[٤]. وبعد أن آلت إلى الأمجد مملكة بعلبك أظهر عناية فائقة بعلوم عصره، وصار يحب العلماء والشعراء وأهل الأدب ويمنحهم الجوائز الكثيرة. وغدا الأمجد شاعراً فحلاً، ويعتبر من أشعر ملوك بني أيوب على الإطلاق وله ديوان شعر مطبوع، ويتميز شعره بالجودة والإبداع ويقف على قدم المساواة مع شعراء عصره المجيدين[٥].

وقد مدح الشعراء الملك الأمجد وقصدوه من بلاد الشام لينالوا جوائزه، ولازموا خدمته، وممن وفد إليه ومدحه الشاعر شرف الدين بن عنين ومن الذين

---

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم تاريخ مدينة دمشق ض ٢٢٠؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٥٧٩.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم دمشق ص ٢٤٠، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٥٩.

(٣) العليمي: الأنس الجليل جـ ١ ص ٤٠٣؛ العمري: مسالك الأبصار جـ ١ ص ٣٥٩؛ عبد الجليل حسن: المدارس في بيت المقدس جـ ١ ص ٣٥١.

(٤) ديوان الأمجد: مقدمة المحقق ص ٢٦.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦؛ الكتبي: فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٢٦. ٢٢٨.

لازموا خدمته والعيش في كنفه الشيخ الأديب شرف الدين عبد العـزيز بن محمد بن عبد المحسن، كما رافقه مهذب الدين أبو أسعد النحوي الضرير وكان عالماً بالعربية وله فيها مؤلفات مشهورة[1].

كما قرب الأمجد إليه كبار الأطباء، بل وأسند منصب الوزارة إلى الطبيب المشهور مهذب الدين بن أبي سعيد بن خلف السامري، وولى منصب الوزارة بعده إلى أمين الدولة أبي الحسن بن غزال بن أبي سعيد وكان عالماً بالطب أيضاً[2]. وكل ذلك يشير بوضوح إلى إهتمام الأمجد بالعلماء وتقديـره لهم وتفضيلهم بالمناصب حتى على المحترفين في ميدان السياسة والإدارة .

أما الناصر داود بن المعظم عيسى فقد كان من الطبيعي أن يتأثر بحكم نشأته بوالده المعظم العالم القدير، فنشأ في حياة والده ملازماً للإشتغال بالعلوم في شتى فروعها «ومشاركاً في كثير منها وحصل منها طرفاً جيداً» وسمع بالشام والعراق على أيدي كبار العلماء وحصل على الإجازة العلمية من بعضهم[3]. وقد حرص على إجتذاب كبار علماء عصره إذ يذكر ابن واصل أنه أرسل في سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م رسالة إلى والده بحماه يستدعيه إلى الكرك، فسافر ابن واصل مع والده ووصلا إلى الكرك في أوائل سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م فأحسن الناصر داود إليهما «وشاهدنا ملكاً ذا فضل باهر وعلم زاخر»[4]. واستدعى الناصر علماء آخرين ليعيشوا في كنفه ومنهم شمس الدين الخسرو شاهي وغيره لأنه «أحب أن يكون عنده جماعة من أهل العلم يستأنس بهم»[5].

ولقد كان تقديره للعلماء عظيماً حتى أنه كان يتردد إلى شمس الدين الخسرو

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٩١ ـ ٢٩٣.
(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٧٢١ ـ ٧٢٣؛ ديوان الملك الأمجد ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٢٧؛ وانظر أيضاً، ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٥.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣٣٠.
(٥) المصدر السابق جـ ٥ ص ٤٠.

شاهي ليقرأ عليه عيون الحكمة للشيخ ابن سينا، وكان إذا وصل إلى قرب منزل الشيخ الخسرو شاهي يأمر أتباعه ومماليكه بالوقوف مكانهم ثم يترجل بنفسه حاملاً كتابه تحت إبطه ويتقدم إلى باب الشيخ ويدخل عليه ويسأل عما خطر له ثم يعود أدراجه «ولم يُمكِّن الشيخ من القيام له»(١).

وكان الناصر داود شغوفاً بالمناقشات العلمية وعقد المناظرات مثل ذلك المجلس الذي عقده بالكرك سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م عندما وفد عليه عمه السلطان الكامل ودارت المناقشات وانضم علماء الناصر داود إلى الكامل لأنهم شافعية مثله وبقي الناصر بمفرده وتصدّى لهم جميعاً خلال النقاش لأنه ينتمي إلى المذهب الحنفي الذي كان عليه والده(٢).

ويعتبر الناصر داود شاعراً مشهوراً، وقد وضعه ابن واصل في المرتبة الثانية بعد الملك الأمجد، في ترتيبه لشعراء بني أيوب(٣). وما ورد من نماذج لشعره يدل على أنه كان شاعراً متمكناً ويتميّز شعره بجزالة اللفظ وجمال المعنى وقوة السبك وجمال الصورة(٤).

ولن يتعرض البحث لدور جميع ملوك بني أيوب الذين حكموا بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ويكتفى بما ورد من أمثلة على دورهم في ازدهار الحياة العلمية. غير أنه جدير بالذكر هنا دور بعض العلماء الأفاضل الذين خدموا الدولة الأيوبية في بلاد الشام وتقلدوا مناصب هامة وكان لهم دور بارز لا يمحى في تطور الحياة العلمية وازدهارها.

وأشهر هؤلاء العلماء وأعمقهم أثراً في الحياة العلمية، القاضي بهاء الدين

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٤.

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٠٢، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٤.

(٣) ابن واصل: المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٤) انظر نماذج من شعره في ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٠٢ - ١٠٦، ٣١٨ - ٣٢١، ٣٥٥ - ٣٥٧، ٣٦٤ - ٣٦٨؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٤٨ - ١٧١؛ وانظر ما يلي ص ٤٣٠ - ٤٣١.

يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد، وكان قد تلقى علومه الأولى في مسقط رأسه الموصل، فحفظ القرآن الكريم، وتلقى علوم الحديث والتفسير والقراءات والأدب على أيدي كبار شيوخها، ثم رحل في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م إلى بغداد مركز الحضارة الإسلامية في ذلك الحين، وتعيّن معيداً بالمدرسة النظامية لمدة أربع سنوات ثم عاد إلى بلاده، وأصبح مدرساً بالمدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري ولازم الاشتغال معه والإنتفاع بعلمه مع غيره من العلماء[١].

وفي سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٨ م حج ابن شداد، وفي طريق عودته قرر زيارة بيت المقدس، وحين سمع صلاح الدين بقدومه طلب مقابلته وأكرم وفادته وسمع منه الحديث وطلب منه البقاء معه وأسند إليه قضاء عسكره وقضاء بيت المقدس. وظل ملازماً لصلاح الدين حتى وفاة الأخير سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م[٢].

وقد صنف ابن شداد العديد من المؤلفات القيمة وهي (دلائل الحكام عند التباس الأحكام)، ويتعلق بالأقضية في مجلدين[٣]. و (دروس في الحديث)، ألقاها بالقاهرة عندما قدم إليها مبعوثاً سنة ٦٢٩ هـ[٤]/ ١٢٣١ م؛ و (الموجز

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٨٤ ـ ٨٧ ؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٦٠؛ ابن شداد: النوادر السلطانية مقدمة المحقق ص ٣، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ٦ ص ١١ ـ ١٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٨٧ ـ ٨٨؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٦٠؛ ابن شداد: النوادر السلطانية: مقدمة المحقق ص ٣ ـ ٤.

(٣) ابن خلكان: المصدر نفسه جـ ٧ ص ٩٩؛ السبكي: المصدر نفسه جـ ٨ ص ٣٦١؛ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية (الفهرس القديم لدار الكتب جـ ٣ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨)؛ ابن شداد: النوادر السلطانية: مقدمة المحقق ص ٨.

(٤) وهو مخطوط: بالمكتبة البودليانية في اكسفورد ١١٧/١؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ٦ ص ١٣؛ ابن شداد: النوادر السلطانية: مقدمة المحقق ص ٨.

الباهر في الفقه) [١]، وله كتاب (العصا) وهي قصة موسى عليه السلام مع فرعون [٢]. و (فضائل الجهاد) وألفه خصيصاً لصلاح الدين [٣]. و (دلائل الأحكام) وأفرده للأحاديث النبوية المستنبط منها الأحكام [٤]. و (أسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي) [٥] وأخيراً (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وهو المعروف بسيرة صلاح الدين [٦].

غير أن دور بهاء الدين بن شداد في ازدهار الحياة العلمية ظهر بعد موت صلاح الدين فاعتمد عليه الأفضل واحترمه غاية الاحترام «وكان يشاوره في جليل الأمور ودقيقها» وقد أدرك الظاهر صاحب حلب أهمية القاضي بهاء الدين فقرر اجتذابه إليه وأرسل إلى أخيه الأفضل يطلب منه أن «يتحفه بالقاضي بهاء الدين ليكون عنده ويتيمن برأيه، فأجابه الملك الأفضل إلى ذلك وسيَّره إليه» [٧].

ولما وصل ابن شداد إلى حلب سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م فوض إليه الظاهر قضاء مملكته وجعله أقرب الناس إليه وأقطعه الإقطاعات الوافرة، وصار له مكانة عظيمة «لم يصل إليها أحد من المعممين» [٨]. وظل على تلك المكانة الرفيعة بعد موت الظاهر سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٧ م وأصبح المرجع لأهل حلب في

---

(١) ابن خلكان: المصدر السابق جـ ٧ ص ١٠٠ ولم يذكره بروكلمان ولا محقق النوادر السلطانية.

(٢) مخطوط بمكتبة باتنه ٢/٥١٦؛ ٢٧٧٢؛ بروكلمان جـ ٦ ص ١٤.

(٣) مخطوط بمكتبة كوبرلي بتركيا برقم ٧٦٤ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي جـ ٦ ص ١٤؛ ابن شداد: النوادر السلطانية مقدمة المحقق ص ٩.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٩٩ - ١٠٠ - وتوجد نسخة منه بالمكتبة الأهلية في باريس برقم ٧٣٦، بروكلمان المرجع السابق جـ ٦ ص١٣؛ ابن شداد: النوادر السلطانية: مقدمة المحقق ص ٨.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية: مقدمة المحقق ص ٩.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٠٠ وقد حققه جمال الدين الشيال وطبع بالقاهرة سنة ١٩٦٤ م.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٨؛ وانظر أيضاً: تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٩١.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٨.

الرأي والمشورة «ولم يكن لأحد معه في الدولة كلام» [1] كما يقول ابن خلكان.

ولم يجعل القاضي بهاء الدين بن شداد تلك المكانة التي بلغها تذهب هدراً بل استثمرها لصالح الحياة العلمية، وصب جهوده على جَعْلِ حلب مركزاً من مراكز الحياة الفكرية، وكانت حلب حين وصوله إليها «قليلة المدارس فاعتنى... بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة» [2].

وكان الظاهر قد قرر لابن شداد إقطاعاً جيداً يدر عليه أكثر من مئة ألف درهم في السنة، فاجتمعت لديه ثروة كبيرة وأنفقها على بناء مدرسته التي خصصها لتدريس المذهب الشافعي بالقرب من باب العراق ـ أحد أبواب حلب ـ وهي المعروفة بالصاحبية، وبنى إلى جانبها مدرسة أخرى لتدريس الحديث، وأوقف على المدرستين أوقافاً جليلة لضمان استمرارها في أداء دورهما العلمي بعد وفاته [3].

وبعد اكتمال بناء المدرستين وقيام ابن شداد بنفسه بالتدريس فيهما أضحت حلب قبلةً لطلبة العلم، ومقصداً للعلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ويقرر هذه الحقيقة المؤرخ ابن خلكان الذي كان واحداً ممن سافروا إلى حلب خصيصاً للاستماع إلى ابن شداد والتتلمذ على يديه فيقول: «ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد، وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها» [4] ويقول عن وصوله إلى حلب في موضع آخر: «ولما وصلت إلى حلب لأجل الاشتغال بالعلم الشريف وكان دخولي إليها

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٩١.

(2) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٨٩.

(3) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٢٨٧ ـ ٢٨٨، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٨٩ ـ ٩١؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ ١ ص ١٠٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٨٩ ـ ٩٠؛ ابن شداد: النوادر السلطانية: مقدمة المحقق ص ٤.

ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٩ ص ٩٠.

يوم الثلاثاء مستهل ذي القعدة سنة ست وعشرين وستمائة وهي إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين» [1]. كما يذكر ابن واصل أنه سافر إلى حلب سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م بقصد الاستفادة من ابن شداد، فانتظم في مدرسته أكثر من سنة للتزود بعلمه والاشتغال على يديه [2].

وظل ابن شداد طوال حياته «محسناً إلى كل من يرد إلى حلب من الفقهاء وأهل العلم» [3]. ولم تقتصر جهوده على الإحسان إلى طلاب العلم ورعايتهم فحسبُ، بل عمل جاهداً على رفع مكانتهم لدى سلطان حلب وأعيان دولته بحيث صار «للفقهاء حرمة تامة ورعاية كبيرة وخصوصاً جماعة مدرسته، فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه» [4]، وزادت أفضاله على طلبة العلم وأمسى موئلاً لطلبة العلم الذين كانوا يأتون إليه من البلاد «لثلاث اجتمعـن فيه، العلم، والمال، والجاه، وهو لا يبخل بشيء منها» [5].

وهكذا ازدهرت الحياة العلمية في حلب زمن القاضي بهاء الدين بن شداد وأصبحت تنافس أشهر مراكز الحضارة الإسلامية كبغداد والقاهرة حتى وفد إليها العلماء من سائر الأقطار.

أما وزير حلب القاضي الأكرم جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد القفطي، فقد تولى وزارة حلب زمن الملك العزيز بن الظاهر منذ سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٨ م وظل يلي منصب الوزارة حتى عزله سنة ٦٢٨ هـ [6]/ ١٢٣١ م غير أن العزيز ما لبث أن عاد وأسند إليه منصب الوزارة مرة أخرى

---

(١) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٤٨.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٩.
(٣) المصدر نفسه جـ ٥ ص ٩١.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٩١.
(٥) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٦١ - ٣٦٢.
(٦) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٣١٢؛ الأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٣٧؛ الزركلي: الأعلام جـ ٥ ص ٣٣.

سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧ م وظل القفطي في منصبه حتى وفاته سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م [١].

وقد ولد علي بن يوسف القفطي بمدينة قفط إحدى مدن صعيد مصر سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م وتلقى علومه العربية والإسلامية على اختلاف فروعها بالقاهرة على أيدي كبار العلماء، ثم أتم دراسته في مدينة بيت المقدس [٢].

ولقد أقبل علي بن يوسف على طلب العلم في نشاط جم وشغف منقطع النظير، فلم يتزوج أو يُكَوِّن أسرة، وصرف حياته كلها على اقتناء الكتب ودراستها ومطالعتها، وجمع من الكتب النفيسة ما لا يوصف، حتى طبقت شهرته الآفاق، وقُصِدَ بالكتب من كل حدب وصوب، وكان لا يحب من الدنيا سواها [٣]، وشهد له معاصره ياقوت الحموي بالتفوق في جمعها واقتنائها رغم اشتغال ياقوت نفسه بالتجارة فيها حتى قال عنه: «لم أرَ مع اشتمالي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها أشد اهتماماً منه بها ولا أكثر حرصاً منه على اقتنائها، وحصل له منها ما لم يحصل لأحد» [٤]. وقدَّر ابن شاكر قيمة كتبه بخمسين ألف دينار؛ وأورد حادثة تبرهن على عشقه للكتب وتقديره للعلم، فذكر أنه حصل على نسخة جميلة من كتاب الأنساب للسمعاني بخط المؤلف نفسه، ولكن كان ينقصها مجلد واحد من أصل خمسة ، وظل الوزير علي بن يوسف يبحث عن المجلد الناقص ويطلبه من مظانه فلم يتمكن من الحصول عليه، وذات مرة كان أحد أصدقائه في السوق، فوجد أوراقاً من المجلد المفقود لدى بعض صُناع القلانس فأحضرها إلى الوزير علي بن يوسف، فاستدعى الأخير صانع القلانس

---

(١) ابن واصل: المصدر السابق جـ ٥ ص ١١٥؛ أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٧٣ - ٢٧٤؛

(٢) الأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٣٦ - ٤٣٧؛ أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٧٤.

(٣) ابن شاكر: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٤؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١٥ ص ١٨٧ - ١٨٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٦.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء جـ ١٥ ص ١٨٨.

وسأله عن مصدر الأوراق فأخبره أنه اشتراه في جملة ورق وعمله قواليب للقلانس فحزن الوزير القفطي حزناً شديداً «حتى أنه بقي أياماً لا يركب إلى القلعة وقطع جلوسه، وأحْضَرَ من ندب على الكتاب كما يُندب الميت المفقود . . . وحضر عنده الأعيان يسلونه كما يُسلى من فقد له عزيز»[(١)].

ولم تذهب جهود الوزير القفطي في سبيل جمع الكتب ودراستها هدراً فقد أصبح عالماً موسوعياً لا يُشق له غبار في شتى فروع العلوم كالنحو، واللغة والأدب، والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والفلك والهندسة، والتاريخ، والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الإطلاق[(٢)].

ولقد أسهم الوزير علي بن يوسف القفطي في ازدهار الحياة العلمية في بلاد الشام إذ صنف الكثير من الكتب التي تدل على طول باعه وسعة ثقافته، ومؤلفاته هي: كتاب (الضاد والظاء) وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في الخط. وكتاب (الدر الثمين في أخبار المتيمين)، وكتاب (من ألوت الأيام إليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته)، وكتاب (أخبار المصنفين وما صنفوه)، وكتاب (أخبار النحويين)، وكتاب (تاريخ مصر)، منذ أقدم العصور حتى زمن صلاح الدين في ستة مجلدات، وكتاب (تاريخ المغرب ومن تولاها من بني تومرت)، وكتاب (تاريخ اليمن منذ اختطت إلى الآن)، وكتاب (المجلى في استيعاب وجوه كلا)، وكتاب (الإصلاح لما وقع من الخلل في كتاب الصحاح للجوهري)، وكتاب (الكلام على الموطأ) وكتاب (الكلام على الصحيح للبخاري)، وكتاب (تاريخ محمود بن سبكتكين وبنيه إلى حين انفصال الأمر عنهم)، وكتاب (أخبار السلجوقية)، وكتاب (الرد على النصارى وذكر مجامعهم)، وكتاب (مشيخة زيد بن الحسن الكندي)، وكتاب (نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحسن ما نقل من على ظهور الكتب)، وكتاب (أخبار العلما بأخبار الحكما)، وكتاب (المحمدون

---

(١) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٤ ـ ١٥.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١٥ ص ١١٩؛ ابن العماد شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٦

من الشعراء)، وكتاب (أشعار اليزيديين)، وكتاب (تاريخ بني بويه)، وكتاب (الإيناس في أخبار آل مرداس) [1].

ومما يؤسف له أن معظم مؤلفات وزير حلب علي بن يوسف القفطي مفقودة [2]. والمعروف أنه أوصى بمكتبته بعد موته سنة ٦٤٦ هـ/ للناصر يوسف صاحب حلب [3]، ويبدو أن تلك المكتبة القيمة بقيت بقلعة حلب، ومن المرجح أنها دُمِّرت أثناء اجتياح المغول لحلب سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م إذ إن الفترة بين وفاة الوزير القفطي سنة ٦٤٦ هـ وسقوط حلب بيد المغول لم تكن تكفي ليتناقل العلماء كتبه وينسخونها وبالتالي تتوزع على بقية بلدان العالم الإسلامي مما يكفل لها البقاء ولا سيما وأن بلاد الشام شهدت فترة حرجة عشية الغزو المغولي.

ومن الملاحظ على أسماء الكتب التي صنفها القفطي، أنه كتب في التاريخ أكثر من نصف مؤلفاته وبخاصة كتابه في تاريخ مصر الذي كان في ستة مجلدات، ولا شك أن ضياع تلك المؤلفات التاريخية القيمة أفقدنا ذخيرة ضخمة ومعلومات لا تقدر بثمن سيما وأن مكتبته لم يكن لها نظير، وربما لو قُدر لمؤلفاته التاريخيّة البقاء لوضعته في الدرجة الأولى بين المؤرخين العرب المسلمين أمثال ابن الأثير، وابن خلدون، والمقريزي وغيرهم.

---

(١) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٥؛ ياقوت: معجم الأدباء جـ ١٥ ص ١٨٦ ـ ١٨٧؛ الأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٣٧؛ أحمد بدوي الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥؛ محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٤ ص ٣٨.

(٢) لم يبق من كتبه سوى ثلاثة هي: كتاب (أخبار العلما بأخبار الحكما) ويحتوي على أربع عشرة وأربعمائة ترجمة للأطباء والحكماء من أقدم العصور إلى أيام المؤلف، وهو على جانب كبير من الأهمية لأنه معين لا ينضب من المعلومات الخاصة بمعارف العرب عن مؤلفات الإغريق، ويدلنا الكتاب على آثار قيمة من كتب الإغريق المفقودة، وهو مطبوع في ليبزج ١٩٠٣ م أما الكتاب الثاني فهو (إنباه الرواة على أنباء النحاة) ٤ أجزاء حققها محمد أبو الفضل إبراهيم وطبع في القاهرة ١٩٥٠، ١٩٥٢، ١٩٥٥، ١٩٧٣ م والكتاب الثالث هو (المحمدون من الشعراء) تحقيق حسن معمري ومراجعة حمد الجاسر وهو من منشورات دار اليمامة بالرياض، انظر أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ٢٧٥؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ٦ ص ٤٥ وحاشية رقم ١ ـ ٢.

(٣) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٤.

ولقد شهد له ياقوت الحموي ـ وهو الجغرافي والأديب والمؤرخ الضليع ـ بالتفوق فقال عنه: «وكنت ألازم منزله ويحضر أهل الفضل وأرباب العلم فما رأيت أحداً فاتحه في فن من فنون العلم . . . إلا قام به أحسن قيام وانتظم في وسط عقدهم أحسن انتظام»[1]، مع ملاحظة أن هذه الشهادة قيلت في ابن القفطي قبل وفاته بأكثر من عشرين سنة إذ إن ياقوت توفي سنة ٦٢٦ هـ بينما توفي ابن القفطي سنة ٦٤٦ هـ ولا شك أن ابن القفطي حقق خلال تلك الحقبة التي لم يدركها ياقوت الكثير من المنجزات العلمية.

وهكذا أصبح مجلس ابن القفطي قبلة للأدباء ومنتدى للعلماء ومن الطبيعي أن يُسهم ذلك في ازدهار وتطور الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي.

أهم المدارس في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي:

كان المسجد كما هو معروف المدرسة الأولى للمسلمين، أما إنشاء المدارس المتخصصة في بلاد الشام فلم تبدأ إلا في أواخر القرن الخامس الهجري، وعندما جاء نور الدين زنكي (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ/ ١١٤٨ ـ ١١٧٣ م) توسع في إنشاء المدارس، وسار على نهجه بعد ذلك صلاح الدين وتوسع الحكام والأمراء ورجال الدولة الأيوبية في إنشاء المدارس في بلاد الشام[2].

والحق أنه لا يمكن في هذا المجال استعراض جميع المدارس التي شهدتها بلاد الشام خلال الحقبة موضع الدراسة ويُكْتَفَى بذكر أهمها كدليل على تطور وازدهار الحركة العلمية. غير أنه جدير بالذكر هنا أن عدد مدارس حلب التي شرحها المؤرخ المعاصر عز الدين ابن شداد بلغ عددها ٤٦ مدرسة[3]، وبلغ عدد مدارس عاصمة بلاد الشام دمشق ٩٢ مدرسة[4]، بينما بلغت المدارس

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١٥ ص ١٧٩.

(٢) انظر محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٦ ص ٦٨ ـ ٧٠.

(٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ٩٦ ـ ١٢١.

(٤) المصدر نفسه جـ ٢ قسم مدينة دمشق ص ٢٠٠ ـ ٢٦٦.

خلال الفترة نفسها في مدينة بيت المقدس زهاء ١٢ مدرسة [١]، ناهيك عن المدارس الأخرى في بقية مدن الشام الهامة مثل حماه وحمص والخليل وغيرها.
ومن أهم المدارس في بلاد الشام:

المدرسة العادلية بدمشق:

تعتبر من أكبر المدارس الشافعية بدمشق وتقع داخل المدينة إلى الشمال الغربي من الجامع الأموي. وقد بدأ بناءها نور الدين محمود سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م ولكنه توفي بعد أن وضع محرابها فقط ولم تتم، وظلت على حالها إلى زمن السلطان العادل، فشرع في إكمال بنائها وتوفي أيضاً قبل إتمامه فتولى ابنه المعظم بناءها سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م، وجعله متميزاً لا نظير له في بناء المدارس، وأوقف عليها الأوقاف ودفن والده فيها ونسبها إليه وأصبحت مدرسة عظيمة [٢].

وافتتح المعظم عيسى المدرسة رسمياً سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م وألقى قاضي القضاة بالشام جمال الدين يونس بن بدران المصري أول درس بها، وحضر أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء، كما حضر الملك المعظم بنفسه، ودارت المناقشات حول الدرس مع العلماء بإيوان المدرسة، وقد رُتِّبَتْ الجلسة في انتظام مهيب، فجلس المعظم وعن يمينه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري، ويليه شيخ الشافعية فخر الدين بن عساكر، ثم القاضي محي الدين بن الشيرازي، ثم القاضي محي الدين بن الزكي، وجلس عن يسار المعظم مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري وإلى جانبه العالم والفيلسوف الكبير سيف الدين الآمدي، ثم القاضي شمس الدين بن سنى الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءها متصلون ملء

(١) مجير الدين العليمي: الأنس الجليل جـ٢ ص ٣٣ - ٤٣؛ عبد الجليل حسن: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي جـ١ ص ١٨١ - ٣٩٩.
(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٤٠؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٦٨؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ٣٥٩ - ٣٦١.

الإيوان، وقد اجتمع في تلك الحلقة الافتتاحية كبار الفقهاء وأعيان المدرسين مثل تقي الدين بن الصلاح وغيره [١].

والحق أن هذا الافتتاح المهيب يشير إلى العناية الفائقة والاهتمام الكبير الذي حظيت به المدرسة العادلية وما كان للعلم من تقدير في هذا العصر والحرص الشديد على نشره بين عامة الشعب.

وقد ذكر أبو شامة ـ الذي كان طالباً بالمدرسة ـ أن أول مدرسيها الفقيه جمال الدين بن بدران المصري كان يدرس بها الفقه، ولكنه قبل بدء درس الفقه كان يمهد له ببعض الآيات من القرآن الكريم ويقوم بتفسيرها ومناقشتها مع طلبته وظل يسير على ذلك المنوال حتى فرغ بتلك الطريقة من تفسير القرآن بكامله سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م وهي السنة التي توفي فيها [٢]. وتولى التدريس بعده في العادلية كبار العلماء والفقهاء، وظلت هذه المدرسة قائمة طوال العصرين الأيوبي والمملوكي [٣].

ويبدو أنه ألحقت بالمدرسة مكتبة ضخمة كما أن بعض الفقهاء أوقفوا كتبهم على طلبة العلم [٤]. ومما يدل على قيمة المكتبة التي ألحقت بها أن أبا شامة صنف بها كتابه تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين، وكذلك ابن خلكان صنف بها كتابه المشهور، وفيات الأعيان [٥]، كما أن النعيمي بعد ذلك ألف كتابه (الدارس في تاريخ المدارس بها) إذ يقول: «وفيها قدر الله سبحانه وتعالى جمع هذا الكتاب» [٦]. وكل ذلك يدل على أن مكتبة المدرسة العادلية كانت

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٢ ـ ١٣٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ٣ ص ٩٧ ـ ٩٨؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٤٨.

(٣) انظر أسماء العلماء الذين تعاقبوا على التدريس في المدرسة العادلية في ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ٢٤٠؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٦٣.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٥) أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ٦٥.

(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٦٢.

تضم بين جنباتها مجموعة ضخمة من الكتب في شتى فروع المعرفة بحيث أصبحت تكفي كمراجع لتأليف الموسوعات الكبيرة الآنفة الذكر.

وقد أورد أبو شامة ـ وهو أحد مدرسي العادلية ـ إشارة طريفة لها مغزى كبير فقال في حوادث سنة ٦٥٥ هـ: «توفي الأمير بدر الدين بن الحسن المعزي الميروقي، وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية» (١). وهذه الإشارة تدل دلالة واضحة على أن التعليم في بلاد الشام لم يكن قاصراً على البنين بل كان يشمل البنات أيضاً.

وقد سميت العادلية بالكبيرة تمييزاً لها عن المدرسة العادلية الصغيرة والتي أنشأتها زهرة خاتون ابنة السلطان العادل سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م (٢). وتقع العادلية الصغرى داخل باب الفرج ـ أحد أبواب دمشق ـ شرقي باب القلعة؛ وقد أوقفت زهرة خاتون عدداً من القرى الزراعية وأحد الحمامات الكبيرة التابعة لها للصرف على المدرسة، وقررت لها مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً وبواباً وخادماً وقيماً وعشرين فقيهاً؛ وينفق على الجميع من الأوقاف المذكورة، وقد تولى التدريس في هذه المدرسة عدد من العلماء (٣).

المدرسة الشامية البرانية:

وقد أنشأتها ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين (٤) «وهي من أكبر

---

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٩٥.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ٢٤٣؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٦٨.

(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٦٨.

(٤) يصف المؤرخون ست الشام بنت أيوب بأنها كانت فاضلة عاقلة كثيرة البر والصلات والإحسان والصدقات، وكان يُعمل في دارها كل سنة من المأكولات والأشربة والعقاقير بألوف الدنانير، وتفرقها على الناس والمحتاجين. وكان بابها ملجأ للقاصدين ومفزعاً للمكروبين، وقد أسست مدرستين، وكانت الأخرى داخل دمشق وتسمى أحياناً الحسامية نسبة لابنها حسام الدين لاجين، وقد توفيت ست الشام بدمشق سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م انظر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١١٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٨٥ ـ ٨٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٠٤، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٢٧٨.

المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأكثرها أوقافاً «كما يقول ابن شداد [١]. وقد تولى التدريس بها جماعة من القضاة العلماء وظلت قائمة حتى عصر المماليك [٢].

المدرسة الدخوارية:

وهي من المدارس الهامة في دمشق لأنها اختصت بتدريس الطب. وقد أنشأها الطبيب المشهور مهذب الدين عبد الرحيم بن حامد الملقب بالدخوار، ونسبت إليه، وكان أوحد زمانه في مجال الطب، والمدرسة هي أصلاً داره فتبرع بها سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م وجعلها خاصة بدراسة الطب وأوقف عليها عدداً من الضياع وأماكن أخرى تدر دخلاً وفيراً للصرف منه على الأطباء والطلبة وكل المشتغلين بدراسة الطب، ويبدو أنها كانت أشبه بكلية للطب، وقد درَّس بها مهذب الدين نفسه وفي سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٢٩ م حضر إليها الطبيب سعد الدين إبراهيم بن الحكيم موفق الدين بن عبد العزيز وبعض كبار القضاة والعلماء والفقهاء للاستماع إلى شرح الطبيب شرف الدين الرحبي الذي شرع يدرس بها، واستمر على ذلك عدة سنين، وتولى التدريس بها بعده عدد من الأطباء المشهورين، وظلت تقوم بدورها في تدريس الطب زمناً طويلاً [٣].

واشتهرت حلب أيضاً بكثرة مدارسها ونبوغ العلماء الذين عملوا بالتدريس فيها ومن المدارس المشهورة التي أنشئت خلال هذه الفترة على سبيل المثال [٤].

---

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ٢٤٩ ؛ وانظر أيضاً؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٢٧٧.

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٧٣٣ ـ ٧٣٤ ؛ انظر أيضاً ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ٢٦٥ ؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ٢ ص ١٢٧.

(٤) تجدر الإشارة هنا إلى أن أشهر مدارس حلب وأكثرها أوقافاً وعلماء هي تلك التي أُنشئت زمن نور الدين زنكي مثل المدرسة النورية، والمدرسة الحلاوية، وما يهم هنا سوى الإشارة إلى أهم .

المدرسة الظاهرية:

وقد أنشأها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وانتهت عمارتها في عهده سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م وفوض نظارة المدرسة وإدارتها إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد وأشرك معه في أمر المدرسة شرف الدين أبا طالب ابن العجمي، وشرط أن يكون مشاركاً للقاضي بهاء الدين بن شداد طوال حياته، على أن يتولاها بعد موته ثم لعقبه من بعده. وأول من افتتح التدريس بها ضياء الدين أبو المعالي محمد بن الحسن بن أسعد ابن عبد الرحمن العجمي، وعمل الظاهر دعوة عظيمة لفقهاء وأعيان حلب وحضر بنفسه أول درس بها، وظلت المدرسة الظاهرية في رعاية العلماء من أسرة بني العجمي حتى سقوط حلب بيد المغول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م[١].

المدرسة الشرقية:

أنشأها الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن بن عبد الرحيم، المعروف بابن العجمي، وأنفق على بنائها وتجهيزها أكثر من أربعمائة ألف درهم، وأوقف عليها أوقافاً جليلة، ودرس فيها ابنه محي الدين محمد، واشتغل معه عشرة معيدون «لم يكن في عصرهم في سائر البلاد مثلهم» على حد قول ابن شداد. وظل محي الدين يدرس بها حتى قتل بأيدي المغول حينما اجتاحوا حلب سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م[٢].

المدرسة الفردوس:

أنشأتها الصاحبة ضيفة خاتون ابنة الملك العادل، وزوجة الملك الظاهر، وألحقت بها رباطاً، وجعلت فيها مجموعة من الفقهاء والطلبة وأوقفت عليها أوقافاً كثيرة شملت قرية قرب حلب تسمى كفرزنيبا وطاحونتها وغير ذلك وتعتبر

المدارس التي أنشئت في حلب قبيل الغزو المغولي، وعن النورية والحلاوية وغيرها انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ٩٦ - ١٠٤، ١١٠ - ١١٣.

(١) سبط ابن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب لوحة ١٠٥؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١٠٧ - ١٠٨.

ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ ١ ص ١٠٦

هذه المدرسة من أكبر مدارس حلب من حيث البناء، حتى أن أعمدتها من الرخام الأصفر «ومحرابها من أعاجيب الدنيا يرى الناظر إليه وجهه فيه من صفاء معدنه» وقد تعاقب التدريس عليها جماعة من العلماء والفقهاء»[1].

المدرسة الأتابكية:

أنشأ الأتابك شهاب الدين طغريل بحلب مدرستين عرفتا باسم الأتابكية، وانتهت عمارة الأولى سنة ٦١٨هـ /١٢٢١م، وأول من درس بها الشيخ جمال الدين بن خليفة بن سليمان القرشي، الحوراني الأصل، وظل يلي منصبه بها حتى توفي سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م وكان فقيهاً عالماً، ووليها بعده مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين بن العديم فخرج حين اجتاح المغول حلب الذين أحرقوها ضمن ما دمروه من مراكز الحضارة الإسلامية[2].

أما المدرسة الأتابكية الثانية فقد أسسها أيضاً الأتابك طغريل واكتمل بناؤها سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م، وأول من درس بها صفي الدين بن عمر الحموي ثم خلفه نظام الدين محمد بن محمد بن عثمان البلخي الأصل البغدادي المولد والمنشأ، وظل يدرس بها حتى توفي سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م، وخلفه ابنه تقي الدين أحمد الذي قتل بأيدي المغول، ومن الطريف أن هذه المدرسة نجت من التدمير زمن المغول وظلت تقوم بدورها طوال عصر المماليك[3].

وفي ضوء ذلك التشجيع العلمي العظيم من قبل ملوك الشام ورجال الدولة، وقيام مئات المدارس في جميع بلاد الشام، من الطبيعي أن تزدهر الحياة الفكرية وتتطور تطوراً كبيراً في شتى ميادين العلم والمعرفة وسوف نعرض لأهم ميادين العلوم التي ازدهرت خلال هذا العصر وتطورت من خلال التأريخ لأهم العلماء الذين أسهموا بقسط وافر في ميادين الفكر، والذين أضحت مؤلفاتهم

---

(١) سبط ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، مخطوط، لوحة ١٠٨.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١١٤.

(٣) ابن شداد: المصدر نفسه جـ ١ ص١٢١، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ١٢٩.

مراجع هامة للعلماء من بعدهم ومعيناً لا ينضب للدارسين، وكان ظهورهم وبروزهم واشتغالهم بالتدريس والتصنيف مظهراً من مظاهر إزدهار الحركة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي.

أولاً ـ علوم الشريعة:

وهي العلوم التي انصبت على دراسة الشريعة الإسلامية وعلومها مثل التفسير والحديث والفقه والأصول والقراءات ونحو ذلك والتي ازدهرت في بلاد الشام خلال هذه الحقبة، وقد ظهر الكثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسّرين والأصوليين مما يشير إلى مدى الإزدهار الذي أصابته العلوم الشرعية خلال هذه الفترة. غير أنه جدير بالملاحظة هنا إلى أن الحضارة الإسلامية تميّزت في ناحيتها الفكرية بالشمول، إذ غالباً ما اشتهر العلماء بالعلم الموسوعي الواسع ـ كما سنرى ـ بمعنى أن يكون الفرد منهم عالماً متضلعاً في كل علوم الشريعة إضافة إلى علوم العربية والتاريخ وأحياناً بالطب والعلوم الأخرى وسوف نقوم بتقسيمهم تبعاً للفرع الذي اشتهروا فيه أكثر والذي أسهموا فيه بنصيب أوفر وكان لهم فيه أكثر المؤلفات. ومن أشهر العلماء الذين برزوا في ميدان العلوم الشرعية:

ابن قدامة:

هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين ولد بجماعيل[1] سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م في أسرة عرفت بالتقوى والصلاح، وقدِم إلى الشام مع أسرته سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م وشرع في الإقبال على طلب العلم فحفظ القرآن وسمع الحديث وارتحل مرتين إلى العراق مع ابن عمه الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد وذلك سنتي ٥٦١ هـ و٥٦٧ هـ/ ١١٦٦ م و١١٧٢م ودرس الفقه ببغداد على مذهب الإمام أحمد بن حنبل على أيدي كبار

---

(١) جماعيل: قرية على جبل نابلس من أرض فلسطين ظهر فيها عدد من العلماء الأجلاء، مثل الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي وابن قدامة وغيرهما، انظر ياقوت: معجم البلدان مادة جماعيل.

العلماء والفقهاء كما رحل إلى مكة للغرض نفسه سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٨م وبرع في الحديث والتفسير والأصول والقراءات وسائر علوم الشريعة[١]. «وأصبح إماماً من أئمة المسلمين وعلماً من أعلام الدين في العلم والعمل»[٢]. وتعمّق ابن قدامة في علوم الفقه والأصول حتى بلغ درجة الاجتهاد وهي مكانة صعبة المنال لم يبلغها أحد في زمنه[٣].

وحين استقر بدمشق توفر على الاشتغال بالفقه وتدريسه، وحدث بشيء من مسموعاته، وعلى الرغم من كونه حنبلياً فإنه لم يكن يعرف التعصب المذهبي بدليل تدريسه بعض مؤلفات الشافعي، إذ يذكر أبو شامة أنه درس على يديه مسند الإمام الشافعي[٤].

وتولى ابن قدامة إمامة الحنابلة بجامع دمشق «وبرع وأفتى وناظر وتبحر في فنون كثيرة»[٥]. ولم تشهد بلاد الشام إماماً في منزلته منذ زمن الإمام الأوزاعي. وشهد له معاصروه من العلماء بالتفوق في شتى مجالات العلوم التي اشتغل بها فقد كان «إماماً في القرآن، إماماً في التفسير، إماماً في علم الحديث ومشكلاته، إماماً في الفقه بل أوحد زمانه فيه، إماماً في علم الخلاف، أوحد زمانه في الفرائض، إماماً في أصول الفقه، إماماً في النحو، إماماً في الحساب، إماماً في النجوم السيارة والمنازل»[٦].

ولم تقتصر جهود ابن قدامة على التدريس والفتيا بل امتدت إلى التأليف فصنّف كتباً في الفقه وأصوله، وعلوم الحديث، ولقد كان لتلك الكتب أبعد

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٩ ـ ١٤١؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٩٩ ـ ١٠٠؛ الكتبي: فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٥٨ ـ ١٥٩؛ ابن العماد: شذرات الذهبي جـ ٥ ص ٨٨.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٩.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٨٨.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٠٠.

(٦) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٨٩ ـ ٩٠.

الأثر في الحياة العلمية في عصره وفي الفكر الإسلامي بعده. ومن مؤلفاته في الفقه (المغني) شرح به مختصر الخرقي ووضعه في عشرة مجلدات، وصرف فيه جهداً مضنياً حتى أكمله[1]. وكتاب الكافي في أربع مجلدات، وكتاب العمدة في مجلد صغير، وألّف كتاباً في مناسك الحج وآخر في ذم الوسواس، وصنف كتاب (المقنع) الذي شرحه ابن أخيه عبد الرحمن بن محمد، ومن مؤلفاته في أصول الفقه (روضة الناظر) وفي أصول الدين كتاب (الاعتقاد) وكتاب (البرهان في مسألة القرآن)، وكتاب (القدر) وفضائل الصحابة وكتاب (ذم التأويل) كما ألّف في التأريخ معجماً لشيوخه، وآخر اسمه (التبيين في نسب القرشيين) وكتاباً سماه (الاستبصار في نسب الأنصار) وألّف في اللغة (قنعة الأريب في الغريب) وغير ذلك من الرسائل والفتاوى وفي شتى فروع العلوم الشرعية واللغوية[2].

وكان ابن قدامة ـ مع تبحره في العلوم وحيازته قصب السبق على أقرانه وخصوصاً في مذهب أحمد بن حنبل ـ ورعا زاهداً تقياً ليناً متواضعاً فيه حلم وتؤدة. قصر أوقاته للعلم والعمل، وحين كان يناظر خصومه يسوق الحجج المفحمة والبراهين الساطعة على آرائه ولا يتحرّج ولا ينزعج من هجوم خصومه عليه[3].

ولقد أطنب المؤرخون ـ ولا سيما المعاصرون ـ في وصف زهده وتقواه وتعبّده وشهدوا له بالكرامات الدالة على إيمانه وصلاحه، وظل يقوم بدوره في نشر علوم الشريعة ومحاربة البدعة حتى توفي بدمشق في رمضان ٦٢٠هـ / اكتوبر ١٢٢٣م[4].

---

(١) وهو مطبوع عدة طبعات، وآخر طبعاته عن دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٦٧ ـ ٦٢٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان مادة جماعيل؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٠٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٩٠ ـ ٩١؛ أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٨٨.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٢٧ ـ ٦٢٩؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٤٠ ـ ١٤١.

فخر الدين بن عساكر:

هو شيخ الشافعية ببلاد الشام، واسمه عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي المعروف بابن عساكر ولا يوجد في أجداده من إسمه عساكر ويبدو أنه أتى عن طريق إحدى أمهاتهم(١).

وينتمي فخر الدين إلى أسرة عريقة تعتبر من أشهر الأسر التي تميّزت بالعلم والفضل زمن الحروب الصليبية وأسهمت بقسط وافر في إزدهار العلوم الشرعية خلال قرنين من الزمان، فقد اشتهر منهم قبل فخر الدين هذا عماه هبة الله، وأبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله صاحب الموسوعة الضخمة في علوم الحديث والرواية والتاريخ والمعروفة باسم (تاريخ مدينة دمشق) ومن الذين اشتهروا من هذه الأسرة أيضاً عم فخر الدين الحافظ أبو محمد بن أبي القاسم وابنه العماد، إضافة إلى شقيق فخر الدين تاج الأمناء أحمد وغيرهم من العلماء الأفاضل(٢).

ولقد كان من الطبيعي أن يتأثر فخر الدين بن عساكر بحكم نشأته في بيت اشتهر بالعلم والفضل، فأقبل منذ صغره على تلقي العلم على أيدي كبار علماء أسرته واشتغل بالفقه الشافعي على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري حتى برع في ذلك وانفرد بعلم الفتوى على مذهب الشافعي، وصارت الفتاوى ترسل إليه من سائر الأقطار(٣).

واشتغل فخر الدين بالتدريس مكان أستاذه وحميه قطب الدين النيسابوري بالمدرسة الجاروخية(٤) بدمشق، ثم تولى التدريس بالمدرسة الناصرية بالقدس

---

(١) أبو شامة: المصدر نفسه ص ١٣٦.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص١٣٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٣٠ - ٦٣١؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص ١٠٠ - ١٠٦.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٦.

(٤) أسس المدرسة الجاروخية الأمير سيف الدين جاروخ التركماني أحد قادة الدولة الأيوبية داخل مدينة دمشق قرب باب الفراديس وتولى التدريس بها عدد من العلماء ومن ضمنهم فخر الدين بن عساكر، وظلت هذه المدرسة قائمة طوال العصرين الأيوبي والمملوكي. انظر ابن شداد: الأعلاق

التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي، وقد جمع فخر الدين بين الوظيفتين فكان يقيم بدمشق أشهراً وبالقدس أشهراً للتدريس للطلبة بالمدرستين[1]. ويبدو أنه كان ينيب نائباً عنه حينما يغيب عن إحدى المدرستين، ثم أسند إليه السلطان العادل التدريس بالمدرسة التقوية[2]، حيث اجتمع بها حشد من الفقهاء والعلماء للاستماع إليه حتى صارت تلك المدرسة تسمى نظامية الشام تشبيهاً لها بالمدرسة النظامية المشهورة في بغداد[3]. كما درّس فخر الدين ابن عساكر ببعض المدارس الأخرى بدمشق[4].

وقد انتفع به كثير من طلبة العلم واعتكفوا بمجلسه لينهلوا من علمه الواسع وقد اشتهر بالتواضع والتقوى، كما كان يقوم بعد عصر كل يوم بقراءة الحديث على مستمعيه بدار الحديث النورية حتى أن أبا شامة ذكر أنه سمع على يديه معظم كتاب دلائل النبوة[5].

وقد عرض عليه السلطان العادل منصب القضاء فرفض خوفاً وروعاً، وأخفق العادل في إجباره على قبول منصب القضاء رغم ضغطه الشديد عليه[6].

ولفخر الدين بن عساكر مصنفات في الفقه والحديث وغيرهما من علوم الشريعة، غير أن المؤرخين لم يذكروا لنا أسماء تلك المؤلفات المفقودة. وقد تفقه على يديه كثير من العلماء يأتي على رأسهم تلميذه الفذ عز الدين بن عبد السلام.

الخطيرة جـ ٢ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٢٢٥.

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٧؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١٧٩؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ١٠٣.

(٢) المدرسة التقوية نسبة إلى واقفها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ملك حماه. انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٧.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١٧٩.

(٥) أبو شامة: المصدر السابق ص ١٣٧.

(٦) المصدر نفسه ص ١٣٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٠١؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ١٧٨.

وظل فخر الدين بن عساكر يمارس دوره العلمي في نشاط جم حتى وفاته سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م[١].

الناصح بن الحنبلي:

وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم الدين بن عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج السعدي العبادي الشيرازي الأصل الدمشقي المولد والمنشأ الفقيه الحنبلي ولد بدمشق سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م وفيها تلقى علومه الأولى على أيدي كبار العلماء ثم رحل في طلب العلم إلى بغداد وأصبهان والموصل وغيرها من مراكز الفكر الإسلامي، وبعد أن أصبح عالماً متمكناً رحل إلى كثير من البلاد ونصح ووعظ بها وأصبح له حرمة ومكانة عند الملوك، وحضر فتح بيت المقدس مع السلطان صلاح الدين ثم استقر أخيراً بدمشق[٢].

وفي دمشق اشتغل الناصح بالتدريس في عدد من مدارسها كما أنشأت له الصاحبة ربيعة خاتون بنت أيوب مدرسة بجبل الصالحية بدمشق عرفت باسم الصاحبية وعهدت إليه بالتدريس بها سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م وحضرت بنفسها من وراء الستر للإستماع إلى أول درس ألقاه بها[٣].

وقد انتهت إلى الناصح رئاسة المذهب الحنبلي في بلاد الشام حتى أنه حين استقر به المقام بدمشق استقبله ابن قدامة وقال له: «سررت بقدومك مخافة أن أموت وأنت غائب فيقع وهن في المذهب وخلف بين أصحابنا»[٤].

---

(١) المنذري: التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ٤٢٩؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ٨ ص ١٧٧؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ٨٠ - ٨١؛ الكتبي: فوات الوفيات جـ٢ ص ٢٨٩ - ٢٩٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٥٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٩٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٢٥٧؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ٢ ص ٧٩؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية ص ١٥٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ٥ ص ١٦٥.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٦٥.

وقد برز الناصح الحنبلي في علوم الحديث والفقه الحنبلي، وله عدة مؤلفات منها كتاب (أسباب الحديث) في عدة مجلدات، وكتاب (الاستشهاد بمن لقيت من صالحي العباد في البلاد) وكتاب (الأنجاد في الجهاد) وكتاب (تاريخ الوعاظ) وكتاب (المقامة الدمشقية) وكتاب (الإجماع والنص)، و(المروق في التفسير) وكتاب (الحدائق في الوعظ والجدل)، و(شرح أسماء الله تعالى)، و(مختارات من المسند والبخاري ومسلم والأقيسة والخطب) وغير ذلك من المؤلفات القيّمة، وظل يقوم بمهام الوعظ والتدريس بدمشق حتى توفي سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م[١].

تقي الدين بن الصلاح:

هو أبو بكر عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الأصل، الموصلي المنشأ الدمشقي الدار المعروف بابن الصلاح، الفقيه الشافعي ومفتي بلاد الشام ومحدثها، كان أحد فضلاء عصره وعلماء زمنه في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وكل ما يتعلّق بعلوم الحديث واللغة، وكانت له مساهمات في علوم عديدة، وفتاويه مشهورة صائبة[٢].

تلقى ابن الصلاح علومه الأولى بالموصل على مشاهير العلماء ثم سافر إلى خراسان في طلب العلم وجاء إلى بلاد الشام، وتولى التدريس بالمدرسة الناصرية بالقدس وأقام بها فترة من الزمن حتى شرع المعظم في هدم أسوار بيت المقدس سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م زمن الحملة الصليبية الخامسة، فانتقل ابن الصلاح إلى دمشق وتولى التدريس في عدد من مدارسها مثل المدرسة الرواحية التي أنشأها الزكي أبو القاسم هبة الله بن عبد الواحد بن رواحة الحموي، وحين بنى الأشرف بن العادل دار الحديث بدمشق فوض إلى ابن الصلاح تدريس علوم الحديث بها، وتولى التدريس أيضاً في مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٠٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٦٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٤٣؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٢٦ - ٣٢٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٦٨؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ١٠٤.

داخل دمشق، وظل يلي التدريس بهذه المدارس الثلاث طوال حياته [(١)].

وقد صنّف تقي الدين بن الصلاح عدداً من المؤلفات في علوم الحديث والفقه، منها كتاب في علوم الحديث، وآخر في مناسك الحج وكتاب (مشكل الوسيط) في الفقه، وكتاب في الفتاوى وهو كثير الفائدة وكتاب (أدب المفتي والمستفتي) ونكت على المهذب، وكتاب فوائد الرحلة وهو أجزاء كثيرة مشتملة على فوائد غريبة من أنواع العلوم نقلها في رحلته إلى خراسان وكتاب (طبقات الفقهاء الشافعية) وله مصنفات أخرى على بعض المسائل، وظل يمارس دوره في التدريس والتأليف حتى توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م[(٢)].

عز الدين بن عبد السلام:

هو أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي الدمشقي، شيخ الإسلام والمسلمين وأحد الأئمة البارزين الملقب بسلطان العلماء، كان إمام عصره بلا نزاع، ولم يكن يخشى في الله لومة لائم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون خوف أو وجل من سلطان أو غيره له شجاعة في الحق فريدة[(٣)].

ولد العز بدمشق سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م وفيها تلقّى علومه على أيدي كبار العلماء فدرس الفقه على يد فخر الدين بن عساكر شيخ الشافعية ببلاد الشام في زمنه، وعلى يد القاضي جمال الدين بن الحرستاني، وقرأ الأصول على

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٥٧ ـ ٧٥٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ١٠٤؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٢٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٨؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٥٦؛ الذهبي: العبر جـ ٥ ص ١٧٧ ـ ١٧٨؛ ابن قنفذ: الوفيات ص ٣١٦ وحاشية رقم (١)؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ٢ ص ٢٠ ـ ٢١؛ عبد الجليل حسن: المدارس في بيت المقدس جـ ١ ص ٢١٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٤٤؛ العليمي: الأنس الجليل جـ ٢ ص ١٠٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٨؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٢٠ ـ ٢١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٢؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢٠٩؛ ابن أياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

سيف الدين الآمدي وغيره، ودرس الحديث على كبار علماء آل عساكر، ودرس جميع علوم الشريعة والعربية على كبار شيوخها في بلاد الشام، وفاق أقرانه، وبرز في التفسير والحديث والفقه، وبلغ مرتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي، وقصده الطلبة من جميع الأقطار للتفقه على يديه، وتخرّج عليه عدد كبير من العلماء مثل شيخ الإسلام ابن دقيق العيد، وهو الذي لقبه بسلطان العلماء، والإمام علاء الدين أبو الحسن الباجي، والحافظ أبو محمد الدمياطي والعلامة أبو محمد هبة الله القفطي وغيرهم [1].

تولّى عز الدين بن عبد السلام الخطابة والإمامة بالجامع الأموي بدمشق[2]، غير أنه لم يلبث أن اصطدم بملكها اسماعيل الذي تنازل للصليبيين عن بعض بلاد المسلمين سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م فرفض العز الدعاء له في الخطبة، وندد بتصرفه وأكثر من التشنيع عليه فعزله عن الإمامة والخطابة، وظل العز ثابتاً على موقفه ثم غادر بلاد الشام إلى مصر[3]، حيث استقبله الصالح أيوب بحفاوة بالغة وعينه خطيباً لجامع عمرو بن العاص وأسند إليه منصب القضاء بمصر ثم تولى تدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة، وقضى بقية حياته بمصر محارباً للبدع، ولعب دوراً حاسماً في رفع الروح المعنوية لدى المسلمين زمن الحملة الصليبية السابعة، وحثّ المماليك على الخروج إلى بلاد الشام لصد المغول، وقد كان لتوجيهاته وفتاويه في الجهاد أبعد الأثر في انتصار المسلمين في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م[4].

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ ـ وللمزيد عن تاريخ العز بن عبد السلام ودوره في محاربة البدع والوقوف ضد تجاوزات وأخطاء الحكام وجهاد الصليبيين والمغول. انظر السبكي: المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢٠٩ ـ ٢٥٥ فهي من أطول التراجم التي وردت للعز في المصادر.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٣٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢١٠ وانظر ما سبق الفصل الثالث ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢١٠ ـ ٢١٢، ٢١٥ ـ ٢١٧، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

ولعز الدين بن عبد السلام مؤلفات قيّمة مشهورة في التفسير والفقه والحديث والأصول أهمها (القواعد الكبرى) وكتاب (مجاز القرآن) و«هذان الكتابان شاهدان بإمامته وعظيم منزلته في علوم الشريعة» على حد قول السبكي[1]. وقد اختصر القواعد الكبرى في قواعد صغرى، والمجاز في آخر، وله كتاب (شجرة المعارف) وكتاب (الدلائل المتعلقة بالملائكة والنبيين عليهم السلام والخلق أجمعين) وله في التفسير كتاب مختصر، وكتاب (الغاية في إختصار النهاية) و(مختصر صحيح مسلم) و(الإمام في أدلة الأحكام)، و(بيان أحوال الناس يوم القيامة) و(بداية السول في تفضيل الرسول) وله أيضاً كتاب (الفرق بين الإيمان والإسلام) و(فوائد البلوى والمحن) وله كتابان آخران في الفتاوى وغير ذلك من الكتب[2].

وتوفي عز الدين بن عبد السلام بعد عشرين عاماً أقامها في مصر يحيط به الإكبار والإجلال وذلك سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م وشهد السلطان الظاهر بيبرس جنازته وحضر الصلاة عليه ودفنه، كما شيّعه كبار رجال الدولة وعساكرها وطبقات الشعب[3].

ثانياً ـ علوم العربية: النحو واللغة والشعر والأدب:

النحو واللغة:

من الحقائق الثابتة المعروفة إرتباط إزدهار علوم الشريعة بعلوم النحو واللغة، ذلك أن معرفة النحو واللغة لا غنى عنها لفهم معاني ومقاصد القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. ولذلك لا نجد خلال العصور الإسلامية عالماً بالشريعة إلّا ويكون في الوقت نفسه متضلعاً في النحو وعلوم العربية.

---

(١) السبكي: المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٤٧.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨؛ أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٢؛ أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ١٦٤.

وفي خلال الحقبة موضع الدراسة ازدهرت علوم العربية ولا سيما النحو واللغة وظهر الكثير من العلماء، وسوف نعرض لأهمهم وأشهرهم للدلالة على مدى الازدهار الذي شهدته علوم اللغة في هذا العصر.

الكندي [١]: تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي. ولد سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م وكان من أشهر علماء عصره وأوثقهم رواية ودراية. متضلعاً في علوم العربية وآدابها، وقد عاش عمراً مديداً صرفه في طلب العلم والإفادة منه، وتلقى علوم العربية على أيدي كبار العلماء، ودرس عليهم أمهات الكتب في علم النحو واللغة كما سمع الأحاديث من كبار المحدثين، وسكن دمشق وأقام بها، وازدحم عليه شيوخ العلم وطلبته من أبناء الملوك وغيرهم، وأضحى إمام العربية في بلاد الشام، ونبغ في النحو والعروض والأدب والشعر وله خبرة فائقة بالنقد والتحقيق، وليس أدل على مكانته من العدد الكبير والمكانة المرموقة التي بلغها تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه مثل أبي الحسن السخاوي والبوني وابن معطي، والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهم [٢]. كما أن الوزير علي بن يوسف القفطي أفرد أحد كتبه للحديث عن الكندي وسماه (مشيخة زيد بن الحسن الكندي) ولكنه مفقود مع الأسف [٣].

وقد اشتغل الكندي بالتدريس أكثر من اشتغاله بتأليف الكتب ولذلك تخرج على يديه ـ كما مر آنفاً ـ كبار علماء العربية، ومؤلفاته لا تتناسب مع ما حازه من شهرة وبُعْدَ صيت، فله حواشي على شرح الواو لديوان المتنبي، وله

---

(١) عاش الكندي أكثر حياته قبيل الحقبة موضع الدراسة، ونشير إليه هنا بسبب الأثر الذي تركه في علوم العربية ببلاد الشام.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٧٥؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٧١ ـ ١٧٥؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٩٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠؛ القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة جـ ٢ ص ١٠ ـ ١١؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٧١ ـ ٧٢؛ السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة جـ ١ ص ٥٧٠ ـ ٥٧٣.

(٣) انظر ما سبق ص ٤٠١.

تعليقات على خطب ابن نباته المصري، وكتاب آخر سماه (نتف اللحية من ابن دحية) رد فيه على ابن دحية الكلبي الذي ألف كتاباً سماه (الصارم الهندي في الرد على الكندي) بعد أن انتقده الكندي في مجلس وزير السلطان العادل ابن شكر [١].

وتوفي الكندي بدمشق سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م بعد أن ساهم في ازدهار العربية وعلومها [٢].

ابن الحاجب: هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر، كان والده جندياً حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي، أحد قادة صلاح الدين، ولذلك عرف باسم ابن الحاجب، وهو كردي الأصل عربي المولد والمنشأ والثقافة، ولد بأسنا من صعيد مصر سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٥ م وأخذه والده معه إلى القاهرة، فدرس القراءات على الغزنوي والشاطبي، وسمع الحديث من البوصيري، وتفقه على مذهب الإمام مالك على أيدي كبار الفقهاء مثل أبي منصور الأبياري وابن البناء وغيرهما، ثم سافر واستقر بدمشق سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م ولازم القاسم بن عساكر مشتغلاً على يديه، وقد تميز ابن الحاجب بالذكاء الخارق والفهم العميق، فأتقن علوم العربية غاية الإتقان [٣]. وقد وصفه أبو شامة بأنه: «كان ركناً من أركان الدين في العلم والعمل بارعاً في العلوم الأصولية وتحقيق علم العربية، متقناً لمذهب مالك بن أنس رحمه الله، وكان من أذكى الأمة قريحة، وكان ثقة حجة متواضعاً عفيفاً، كثير الحياء منصفاً محباً للعلم وأهله ناشراً له، محتملاً للأذى صبوراً على البلوى» [٤].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٧٥؛ أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٧٧؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٩٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٧١ ـ ٧٢؛ السيوطي: بغية الوعاة جـ ١ ص ٥٧٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩؛ الأدفوي: الطالع السعيد ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٨؛ السيوطي: بغية الوعاة جـ ٢ ص ١٣٤؛ ابن فرحون: الديباج المذهب جـ ٢ ص ٨٦، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ٢ ص ٣ ـ ٤؛ طاش كبري زاده: مفتاح السعادة جـ ١ ص ١١٧ ـ ١١٨..

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٢.

اشتغل ابن الحاجب خلال إقامته بدمشق بالتدريس فاتخذ من زاوية المالكية بالجامع الأموي حلقة للتدريس «وأكب الخلق على الاشتغال عليه والتزم لهم الدروس وتبحر في الفنون وكان الأغلب عليه علم العربية»(١).

ولابن الحاجب مؤلفات قيمة في علوم العربية والفقه وأصوله وعلم العروض، ففي علم النحو ألف الكافية للناصر داود صاحب الكرك، وهي عبارة عن أرجوزة قام بشرحها، كما شرح المفصل في النحو للزمخشري، وصنف في الصرف الشافية وقد اعتنى العلماء بالشافية والكافية وشرحوهما (٢). وله كتاب الأمالي في النحو أيضاً وغير ذلك من المؤلفات في علوم العربية وآدابها، وبصفة عامة تميزت مؤلفاته في النحو بسلامة التحقيق وجودة الآراء، «ومصنفاته في غاية الحسن وقد خالف النحاة في مواضع وأورد عليهم إشكالات وإلزامات مفحمة يعسر الجواب عنها» (٣): وصنف في العروض (المقصد الجليل في علم الخليل) وهو عبارة عن أرجوزة في العروض، غير أن مؤلفاته لم تكن كبيرة الحجم حيث ركز على تحرير اللفظ والدقة في التحقيق (٤).

وفي مجال الفقه المالكي الذي كان يتولى زعامته في بلاد الشام ألف العديد من الكتب وعلى رأسها كتاب (الجامع بين الأمهات) وقد حاز هذا الكتاب على شهرة عريضة حتى إن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وهو أحد أئمة الشافعية أشاد بهذا الكتاب وأطنب في مدحه (٥). وفي أصول الفقه اختصر كتاب الأحكام للآمدي وانتشرت كتبه في سائر البلاد ولا سيما بلاد العجم، وظل الطلبة بعده يتدارسون كتبه ويفيدون منها (٦).

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص ٢٤٩.

(٢) الأدفوي: الطالع السعيد ص ٣٥٤؛ السيوطي: بغية الوعاة جـ٢ ص ١٣٥؛ حاجي خليفة: كشف الظنون جـ٢ ص ١٣٧٠؛ طاش كبري زاده: مفتاح السعادة جـ١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨؛ ابن فرحون: الديباج المذهب جـ٢ ص ٨٨، أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٣) السيوطي: بغية الوعاة جـ٢ ص ١٣٥.

(٤) أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ٢٠٨.

(٥) ابن فرحون: الديباج المذهب جـ٢ ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٦) أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٧٨.

واشتهر ابن الحاجب بالحزم والقوة في الحق، فساند زعيم الشافعية بدمشق عز الدين بن عبد السلام في موقفه من الصالح إسماعيل الذي فرط في بعض بلدان المسلمين في بلاد الشام لحساب الصليبيين، مما أغضب إسماعيل علي ابن الحاجب وابن عبد السلام، فغادرا بلاد الشام إلى مصر سنة٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠م. واشتغل ابن الحاجب بالتدريس في القاهرة ثم غادرها إلى الاسكندرية وتوفي بها سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م بعد أن أسهم بقسط وافر في تطور علوم العربّية بمصر والشام [١].

علم الدين السخاوي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري السخاوي ولد سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م ودرس في بداية حياته الفقه على مذهب مالك ثم انتقل إلى مذهب الشافعي [٢]. وشرع في دراسة علوم العربية فأخذ عن الشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي علم القراءات والنحو واللغة وعلى أبي الجود غياث بن فارس بن مكي المقرىء وسمع بالإسكندرية من السلفي وابن عوف، وبمصر من البوصيري وابن ياسين [٣]، واشتغل في مصر معلماً لأبناء الأمير عماد الدين بن موسك أحد قادة الدولة الأيوبية وانتقل معه إلى دمشق وفيها لازم الكندي وقرأ عليه علوم العربية والأدب [٤].

وبعد وفاة الكندي صار علم الدين السخاوي «فقيهاً يفتي الناس وإماماً في النحو والقراءات والتفسير، قصده الخلق من البلاد لأخذ القراءات عنه» [٥].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٦؛ السيوطي: بغية الوعاة جـ ٢ ص ١٣٥؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٥٠؛ أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٦٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٤٠؛ القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة جـ ٥ ص ٣١١.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٦٦.

(٥) السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٢٩٧.

واتخذ حلقة بجامع دمشق للتدريس وأقبلت عليه أعداد غفيرة من طلبة العلم ليأخذوا عليه القراءات وعلوم العربية [1].

وله مصنفات منها، التفسير حتى سورة الكهف في أربع مجلدات وشرح الشاطبية في مجلدين، وشرح المفصل للزمخشري في أربع مجلدات وله كتاب اسمه سفر السعادة وسفير الإفادة، وله في القراءات كتاب، جمال القراء وتاج الإقراء، وغير ذلك من المؤلفات المفيدة [2].

وظل علم الدين السخاوي مواظباً على وظيفته وعنايته بطلبته حتى توفي بدمشق سنة ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م. وقد وصفه تلميذه أبو شامة بقوله «وختم بموته موت مشايخ الشام يومئذٍ وفقد الناس علماً كبيراً، ومنه استفدت علوماً جمة كالقراءات والتفسير وعلوم فنون العربية» [3].

الشعر والأدب:

رأينا كيف ازدهرت الحياة الفكرية في هذا العصر ومن الطبيعي أن يشمل ذلك الازدهار ميدان الشعر والأدب ولا سيما وأن معظم حكام بني أيوب في هذا العصر كانوا أدباء وشعراء. قرضوا الشعر، ولبعضهم دواوين مثل الملك الأمجد ملك بعلبك صاحب الديوان الكبير الذي يضعه بين فحول الشعراء في عصر الحروب الصليبية [4].

وقد غزر الشعر وكثر قائلوه وتركت حوادث العصر والظروف التي سادته بصماتها على الشعراء فلم يتركوا غرضاً من أغراض الشعر إلا وأسهموا فيه

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٦٦؛ ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٤٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٢٢.

(٢) ياقوت الحموي: المصدر السابق جـ ١٥ ص ٦٦؛ ابن خلكان المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٤٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٠؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٢٢.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٧.

(٤) انظر ما سبق ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

بنصيب، فنجد في ذلك العصر شعر المدح والهجاء والفخر والغزل والرثاء وغيرها من أغراض الشعر، وجدَّ في هذا العصر اتجاه جديد في أغراض الشعر، فتحدث الشعراء عن وصف المعارك مع الصليبيين ومدحوا الملوك والحكام الذين خاضوا تلك المعارك [1]. وسنرى فيما يلي بعض الأمثلة التي توضح ازدهار الشعر ومجالسه في هذا العصر كدليل على قوته وازدهاره.

ففي سنة ٥٩٩ هـ/ ١١٠٣ م على سبيل المثال أنزل الملك المنصور صاحب حماه الهزيمة بالصليبيين وأسر منهم جماعة من فرسانهم فبعث بهم إلى حماه ودخلها مظفراً فمدحه بهاء الدين أسعد السنجاري بقصيدة يهنيه بهذا النصر ومما جاء فيها قوله [2]:

المجد يدرك بالعسالة الذبل	والمشرفية لا بالوعد والأمل
ما لذة العيش إلا صوت معمعة	ينال فيها المنى بالبيض والأسل
وأبرز إلى الموت يوم الروع مدرعاً	قلباً إذا زالت الأفلاك لم يزل
يا أوحد العصر يا خير الملوك ومن	فاق البرية من حاف ومنتعل
جاهدت في الله طوعاً والملوك غدوا	يستهترون بذات الحلى والحلل
يداك باطنها للجود مذ خلقت	وظاهرها للثم والقبل
وأنت شرفت أيوباً على شرف	فيه وفقت كرام السادة الأول
أغمدت بيض المواضي في الرقاب وقد	حليت عاطلها ضرباً من القلل
عاجلتهم بالمنايا والحتوف فلا تترك	هم أجلاً يبقى إلى أجل

ويتضح من هذه الأبيات مدى قوة الشعر في هذا العصر واحتفاظه بكثير

---

(١) تناول عدد من الباحثين الأدب في عصر الحروب الصليبية في دراسات شاملة ومفصلة، ومنهم الدكتور عبد اللطيف حمزة الذي ألف كتاباً باسم أدب الحروب الصليبية وطبع بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م، والدكتور أحمد بدوي وله دراسة قيمة بعنوان الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، وطبع بالقاهرة (بدون تاريخ) وللدكتور ناظم رشيد بحث بعنوان الأدب عند بني أيوب بمجلة المورد العراقية العدد الثالث ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م ص ٣٥ - ٤٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤٤ - ١٤٥.

من مظاهر البلاغة والجزالة التي عرف بها الشعر العربي ولا سيما زمن الشعراء الفحول أمثال المتنبي والمعري وابن أبي حصينة وابن حيوس وغيرهم.

وبعد أن حقق المسلمون النصر على الصليبيين سنة ٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م وفشلت الحملة الصليبية الخامسة فشلاً ذريعاً في تحقيق أهدافها. أقيم احتفال بهذه المناسبة وهنَّتْ الشعراء أبناء العادل الثلاثة الكامل محمداً والأشرف موسى والمعظم عيسى الذين كان لتعاونهم ووحدتهم أبعد الأثر في إحراز النصر على الصليبيين ومما قاله ابن عنين مادحاً المعظم:

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلاً ... من الروم لا يحصى يقيناً ولا ظنا
قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمة ... وديناً وإن كانوا قد اختلفوا لسنا [1]
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا ... إلينا سراعاً بالجياد وأرقلنا
فما برحت شمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأساً نفت عنهم الكرى ... وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا ... طويلاً فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا ... فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية ... توارثها عن صيد آبائنا الابنا
يسير بنا من آل أيوب ماجد ... أبى عزمه أن يستقر به مغنى
سرى نحو دمياط بكل سميذع ... نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم ... مواقعها فيها فإن عادوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة ... فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ... ولوغاً ولكنا ملكنا فأسجحنا [2]

---

(١) يشير الشاعر هنا إلى اختلاف أَلْسِنَة الصليبيين لكون الحملة مكونة من عناصر مختلفة من الهنغاريين والإيطاليين والألمان والفرنسيين وغيرهم من العناصر الأوروبية.

(٢) ديوان ابن عنين ص ٣٠ ـ ٣١؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٠٠ ـ ١٠١.

كما ألقى ابن عنين قصيدة أخرى مدح بها الملك الأشرف موسى مطلعها:

جـل العتاب إلى الصـدود توصـلا   ريم رمى فـأصاب مني المقتـلا [١]

أما الشاعر بهاء الدين بن زهير بن محمد بن علي القوصي فقد مدح السلطان الكامل بقصيدة قوية السبك جميلة المعاني مثل قوله فيها:

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر   وردت عـلى أعقابهـا ملة الكفـر
وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها   لقد فرحت بغداد أكثر من مصـر
ولـو لم يقم في الله حق قيـامـه   لما سلمت دار السلام من الـذعر
وأقسم لـولا عـزمـة كـامليـة   لخافت رجال بالمقام وبالحجر [٢]

وقد أبدع أحد الشعراء في وصف نجدة الأخوين المعظم عيسى والأشرف موسى لأخيهما السلطان الكامل محمد في قوله من قصيدة:

أعبـاد عيسى إنَّ عيسى أتـاكم   ومـوسى جميعاً ينصـران محمـدا [٣]

ومما قالته جارية الأشرف موسى ست الفخر بنت التاجر تمدح سيدها قولها من قصيدة بديعة المعنى:

ولما طغى فرعون عكا وقـومـه   وجـاء إلى مصر ليفسـد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا   فغرقهم في اليم بعضاً على بعض [٤]

ويتضح من هذا المجلس الذي عقد مدى تشرب بني أيوب للثقافة العربية رغم أصولهم الكردية، حتى ليخيل للقارىء أنهم عرب يعيشون في القرون

---

(١) ديوان ابن عنين ص ١١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٠١.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٠٣.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ١٠٥.
(٤) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١٠٥ ـ والمقصود بفرعون عكا ـ ملك عكا حنا دي برين قائد الحملة الصليبية الخامسة، والمقصود بموسى الملك الأشرف موسى بن العادل، وتشير الشاعرة إلى غرق الصليبيين في مياه النيل حين فجر المسلمون السدود والقناطر فاجتاحت المياه المعسكر الصليبي.

الأولى زمن ازدهار الشعر العربي، حين كان ذلك الشعر يمثل سلاحاً إعلامياً حاسماً في ميدان المقارعة والحجة.

ولم يقل شعر الرثاء في هذا العصر في قوته وجزالته وبعد أثره في النفس عن بقية أغراض الشعر الأخرى، ففي سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م على سبيل المثال توفيت ملكة خاتون ابنة السلطان العادل وزوجة المنصور صاحب حماه، فحزن عليها المنصور حزناً شديداً وجلس للعزاء بقلعة حماه، وحضر العلماء والأدباء مجلس العزاء ومنهم المؤرخ ابن واصل وكان عمره حينئذٍ نحو اثنتي عشرة سنة، حضر مع والده. وبعد أن قرأ القراء بين يديه وتكلم الوعاظ، جاء دور الشعر فأنشدوا المراثي بعد أن اقترح عليهم المنصور أن ينظموا المراثي على وزن قصيدة أبي العلاء المعري التي مطلعها:

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعواناً على السهر

فعمل جماعة من الشعراء قصائد على هذا الوزن والروي، وأجود قصيدة قيلت نظمها الشاعر حسام الدين خشترين بن تليل، وهو أحد الجنود الأكراد ولكنه كان شاعراً مجيداً، وقد أبدع في قصيدته التي ألقاها ووصف لبس الملك المنصور السواد ومما جاء في القصيدة قوله [1]:

لو كان من مات يفدى قبلها لفدى أم المظفر آلاف من البشر
وراح من دونها للطعن أسد شرى على خيول لديها نزوة النمر
صيد إذا شهروا أسيافهم كتبوا بها حروفاً على الهامات في سطر

وللملك المنصور قصائد رثاء رائعة قالها بعد موت زوجته تدل على أنه كان شاعراً مطبوعاً قوي الأسلوب جزل الألفاظ صادق المشاعر ومما قاله في إحدى تلك القصائد البديعة:

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٦٥ - ٦٨ - وهي قصيدة جميلة أورد منها ابن واصل ثلاثين بيتاً.

دموع كالغيوث الهاطلات ... لماض من كآباتي وآتي
على من في الضريح لها أنيس ... صلاة واصلتها بالصلات
أياً من وجهها عندي عزيز ... ويا من موتها أوهى حياتي
سلام الله كل صباح يوم ... على تلك العظام الباليات
أساكنة اللحود عليك مني ... دموع دونها ماء الفرات
وفقدك صير الأيام عندي ... لبعدك كالليالي الحالكات
ولم أك للحداد أخا لباس ... يعين على صروف النائبات
ولكني أذبت سواد عيني ... فسال مع الدموع السائلات
وها أنا منك في أصفاد حزن ... لغير سماع نوح لا أواتي
وأبكي كلما غنى حمام ... وأندب في العشية والغداة
وتبكي الصالحات عليك حزناً ... بكاء الأمهات على البنات (١)

وللمنصور صاحب حماه ديوان شعر ولكنه مفقود ـ مع الأسف ـ وقد أورد ابن واصل نماذج من شعره، وتدل القصائد على أنه كان شاعراً متمكناً ويتميز شعره بالعذوبة وجزالة الألفاظ وجمال الصورة (٢). ومما قاله في الغزل:

يا ظبية البان هل وصل يسر به ... لينجلي بلذيذ الوصل أشجان
لا تبعثوا في نسيم الريح نشركم ... فإنني من نسيم الريح غيران
كيف السلو ولي قلب يخالفني ... وفي الهوادج أقمار وغزلان (٣)

ومما قاله من قصيدة يفتخر بها هذه الأبيات:

الفخر بالفضل ليس الفخر بالنسب ... والناس في ذاك من در ومن خشب
أنا الذي لم ينل من ذا الورى أحد ... ما نلته قط من عجم ومن عرب
سموت فيهم بأصل لا يقاومه ... أصل ومن بعده بالعلم والأدب

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٢) انظر تلك النماذج في ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٧٨ ـ ٨٦.
(٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٨١ ـ ٨٢.

أيوب جدي حقيقاً حين ينسبني ... يا حسنها رتبة تعلو على الرتب
كم قد أبدت بسيفي كل مفتخر ... حامي الحقيقة يوم الجحفل اللجب
وكم تركت بني الإفرنج في رعب ... فصرت أدعي لديهم جالب الرعب

وقد ازدهر الشعر والأدب في بلاط المنصور ازدهاراً كبيراً بسبب تشجيعه وحبه للشعر وإغداقه الجوائز والأموال على الشعراء ، فقد ذكر ابن واصل أن الملك المنصور كان «يحب العلماء والفضلاء وأهل الأدب والشعر ويحب سماع المديح ويجيز عليه الجائزة الكثيرة» [١].

وقد تسامى شعر الرثاء في هذا العصر بحيث نستطيع أن نقرر أنه يتساوى في قوته وأثره مع غرر شعر الرثاء العربي على مر العصور، ومما يبرهن على هذا القول تلك القصيدة الرائعة التي رثا بها الناصر داود صاحب الكرك الخليفة العباسي المستنصر بالله حين بلغه نبأ وفاته سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م؛ وقد جاء فيها قوله : [٢]

أيا رنة الناعي عبثت بمسمعي ... فأججت نار الحزن ما بين أضلعي
نعيت إليَّ البأس والجود والحجى ... فأوقفت آمالي وأجريت أدمعي
رويداً فقد فاجأتني بفظيعة ... يضيق بها صدر الفضاء الموسع
أبا جعفر ياباني المجد بعدما ... تهدم ركن المجد من كل موضع
ويا كافل الإسلام في كل موطن ... وراعي رعاة الدين في كل مجمع
أحقاً طوتك الحادثات كما طوت ... قروناً مضت من عهد كسرى وتبع
ولو كان خطب الموت يقبل فدية ... ويدفعه سعي الكمى المدرع
فديتك بالنفس النفيسة طائعاً ... ودافعت بالجيش اللهام الممنع
لقد كنت لي حصناً حصيناً من العدى ... إليه التفاتي في الخطوب ومفزعي
سأبكيه أيام الحياة وإن أمت ... بكته عظامي في قرارة مضجعي

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) القصيدة مكونة من ٤٥ بيتاً وقد أوردها ابن واصل انظر جـ ٥ ص ٣١٨ ـ ٣٢١.

وفي سنة ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م انتزع الصالح أيوب من ابن عمه الناصر داود معظم بلدان مملكته وضايقه بالكرك حتى قل ما بيده من الأموال والذخائر، وحين اشتدت الضائقة بالناصر داود جادت قريحته بعمل قصيدة رائقة السبك حسنة المعاني جزلة الألفاظ، تعتبر من قلائد شعره، وغرر الشعر العربي في عصره، يعاتب فيها ابن عمه الصالح أيوب ويذكره ما له من اليد عنده وما أولاه من الجميل حين قام بخدمته والذب عنه ومواجهة أعدائه عندما قصدوه وأهدروا دمه، ثم إخراجه له من الكرك ومساعدته على امتلاك مصر، وإنه لم يحسن له الثواب على فعله هذا وقطع رحمه بمقاتلته ومما جاء في القصيدة قوله [1]:

قولوا لمن قاسمته ملك اليد ... ونهضت فيه نهضة المستأسد

يا قاطع الرحم التي صلتي بها ... كتبت على الفلك الأثير بعسجد

والقصيدة بالغة الجمال تدل بما لا يدع مجالاً للشك على ازدهار الشعر في هذا العصر، وعلى أن بني أيوب أصبحوا عرب الثقافة واللغة والتفكير.

وقد برز في هذا العصر ـ بالإضافة إلى ملوك بني أيوب ـ الكثير من الشعراء أشهرهم جميعاً الشاعر:

شرف الدين بن عنين: هو أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن الحسين بن عنين الأنصاري، ولد بدمشق سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م وفيها تلقى علومه على أيدي كبار علمائها، حيث أقبل على علوم عصره في همة ونشاط فدرس التفسير والمنطق والحساب والهندسة وأتقن علوم العربية وحفظ الكثير من أشعار العرب لدرجة أنه حفظ كتاب الجمهرة لابن دريد، وكان خاتمة شعراء العربية الفحول، وحين أصبح شاعراً كبيراً عمد إلى إنشاء قصيدة ناقدة مكونة من خمس مئة بيت سماها مقراض الأعراض هجا فيها صلاح الدين ورجال دولته وجمعاً كبيراً من أعيان دمشق، فنفاه صلاح الدين عن دمشق فطاف بالعراق والجزيرة وأذربيجان

---

(١) القصيدة مكونة من ٤٩ بيتاً، انظرها في ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٨.

وخراسان والهند وبلاد ما وراء النهر، ولم يطب له المقام بتلك البلاد، فقدم إلى اليمن ومدح ملكها طغتكين بن أيوب - أخو صلاح الدين - وأقام في كنفه مدة وبعد أن عفى عنه السلطان العادل سافر إلى مصر ثم غادرها إلى دمشق وظل بها حتى توفي سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م (١).

وقد هيأت الثقافة الواسعة التي حصلها ابن عنين إضافة إلى ما لديه من استعداد فطري قوي لأن يصل إلى درجة كبيرة من إتقان الشعر، وقد تميز شعره بجودة الأسلوب وقوة التعبير وجزالة النص وسلامة الجمل في الغالبية العظمى من شعره، ولا ينزل عن هذا المستوى إلا قليلاً في مواضع الهزل حين يروقه أن يستعمل اللحن أو الألفاظ والتراكيب العامية التي تشيع بدمشق في عصره واجداً في ذلك وسيلة للتأثير حين يتهكم ويسخر حتى يسير شعره على الألسنة كي يبلغ ما يريد ممن بتهكم ويسخر (٢). ومما قاله يمدح السلطان العادل وأولاده:

ملك إذا خفت حلوم ذوي النهى   في الروع زاد رزانة وتوقدا
وله البنون بكل أرض منهم   ملك يقود إلى الأعادي عسكرا

ومما قاله يصف حنينه وغربته:

حنين إلى الأوطان ليس يزول   وقلب عن الأشواق ليس يحول (٣)

وقد ظهر خلال هذا العصر شعراء آخرين لا يتسع المجال لذكرهم.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٤ - ١٥؛ ديوان ابن عنين: مقدمة المحقق، ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٤١ - ٤٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٩٦ - ٦٩٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٣٨؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٤٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٣ - ٢٩٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٤٠ - ١٤٢؛ أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٢٢.
(٢) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٢٢.
(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٩ - ٢٣١.

أما الكتابة والنثر في هذا العصر فقد تنوعت بين الكتابات السلطانية والرسائل الإخوانية والأدب التهذيبي والنثر الوصفي وغير ذلك من فروع الكتابة [١].

الفلسفة:

والمقصود بها العلم الذي يبحث فيما وراء الطبيعة وقد ازدهرت علوم الفلسفة قبل العصر الأيوبي زمن الفاطميين غير أن صلاح الدين كان يكره الفلسفة ولذلك لم تزدهر في عصره [٢].

ولكن المعظم بن العادل ملك دمشق اعتنى بالفلسفة وبعلمائها وكذلك فعل ابنه الناصر داود، والملك المنصور صاحب حماه، غير أنه بعد وفاة المعظم وتولي الأشرف حكم دمشق بعد انتزاعها من الناصر داود سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م جرى تحريم الفلسفة والمنطق وكل ما كان يعرف بعلوم الأوائل، إذ أمر الأشرف مناديه في دمشق أن ينادي بأن لا يشتغل أحد من العلماء بشيء من العلوم سوى علوم التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بالمنطق والفلسفة وعلوم الأوائل فسوف ينفى من البلاد، الأمر الذي أدى إلى قلة عدد العلماء في هذا المجال بعد أن رأوا ما آلت إليه أحوال علماء الفلسفة وما أصابهم من فقر وفاقة نتيجة اشتغالهم بها [٣].

كما انتشر تيار محاربة الفلسفة بين الفقهاء، فقد كان شيخ الشافعية بدمشق تقي الدين بن الصلاح «لا يُمَكِّنُ أحداً في دمشق من قراءة المنطق والفلسفة والملوك تطيعه في ذلك» [٤].

---

(١) انظر تفصيل الكتابة والنثر في المرجع السابق ص ٣٠٢ ـ ٤٠٠.

(٢) أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ٢٨٧.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ ب؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٢٤ ـ ١٤٨؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٩٣.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٢١.

ورغم ذلك التيار المعارض لعلم الفلسفة، إلا أنها لم تختف نهائياً، وظلت تُفصح عن نفسها بين حين وآخر من خلال بعض كبار العلماء الذين سنتناول أشهرهم وهو سيف الدين الآمدي لكي نتبين من خلال دراسة تاريخه وضع الفلسفة في هذا العصر والتيار المؤيد لها والتيار المعارض.

سيف الدين الآمدي: هو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي، ولد بآمد بعد سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م، وتلقى علومه الأولى بها ثم رحل إلى بغداد وعمره خمس عشرة سنة ودرس على يد كبار فقهائها المذهب الشافعي، والأصول وعلم الجدل والمناظرة [١]. وقد ذكر الوزير القفطي أن سيف الدين الآمدي أخذ علوم الأوائل - الفلسفة والمنطق - عن بعض علماء النصارى واليهود ببغداد مما أثار حفيظة الفقهاء فاتهموه في عقيدته فغادر العراق إلى مصر سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٧ م[٢].

وفي مصر اشتغل سيف الدين الآمدي بالتدريس بالجامع الظافري بالقاهرة ولمع نجمه فأقبل عليه الطلبة واشتهر لدى عامة الناس بفضله وعلمه. فحسده بعض فقهاء البلاد وتعصبوا عليه واتهموه بفساد العقيدة واتخاذ مذهب الفلاسفة والحكماء وكتبوا محضراً بذلك الاتهام حتى يستباح دمه فاضطر إلى مغادرة مصر إلى بلاد الشام [٣].

واستقر سيف الدين الآمدي بحماه حيث استقبله ملكها المنصور وعهد إليه بالتدريس في مدرسته التي بناها بحماه. وقد وصف ابن واصل سيف الدين الآمدي بأنه كان «إماماً عظيماً متقدماً في علمي الكلام وأصول الفقه وعلم المنطق

---

(١) القفطي: تاريخ الحكماء ص ٢٤٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٩٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) القفطي: تاريخ الحكماء ص ٢٤١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٩٣؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٠٧؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٩٣؛ ابن قنفذ: الوفيات ص ٣١٢ - ٣١٣؛ وحاشية رقم (١).

وسائر العلوم الحكمية، وكان عَلَماً في هذه العلوم عَظُمَ في الآفاق صيته واشتهر ذكره، وصنَّف التصانيف البديعة في جميع هذه الفنون ورد فيها على الإمام فخر الدين الرازي والإمام أبي حامد الغزالي وغيرهما من أكابر المتقدمين وبيَّن بطلان أقاويلهم» [١].

وحين عمَّت شهرته الآفاق كتب إليه الملك المسعود صاحب آمد يطلب قدومه إليه لكي يوليه قضاء بلاده، وحينما بلغت تلك الدعوة المنصور صاحب حماه لم يؤثر فراقه فبعث إليه بالشهود واستحلفه بالمصحف الشريف والإيمان المغلظة أن لا يفارق حماه إلا بإذنه، غير أنه في سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م كتب المعظم صاحب دمشق إلى سيف الدين يستدعيه إلى دمشق ويعده الوعود الجميلة، فتسلل من حماه دون علم المنصور ودخل دمشق فعهد إليه المعظم بالتدريس في المدرسة العزيزية «وأحسن إليه إلا أنه كان يظن أن المعظم يفعل في حقه من الإحسان أضعاف ما وقع منه» [٢]. ويذكر ابن واصل أن الشاعر شرف الدين بن عنين هو الذي حمل المعظم على التقصير في حق سيف الدين الآمدي، بسبب نقد الأخير لفخر الدين الرازي، وكان ابن عنين من أشد المتعصبين لآراء الرازي، ورغم ذلك فقد ظل المعظم يداوم على حضور مجالسه ويسمع مناظراته ومجادلته، وكان بارعاً في الاحتجاج والمناظرة، ولا يقدر أحد على مجاراته أو دحض حججه، حتى أن ابن واصل طلب من صديقه الناصر داود بن المعظم أن يقارن بين سيف الدين الآمدي، وبين بقية علماء الفلسفة الذين يجادلونه مثل شمس الدين الخسروشاهي وغيره فقال الناصر داود: «سبحان الله، كيف تقول هذا؟ كل هؤلاء عند سيف الدين كالفراريج للذبح، سيف الدين كان يرى أنه أفضل من أستاذهم فخر الدين فهو لا يعتد بهم» [٣].

ولما توفي المعظم سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م ازدادت مكانة سيف الدين لدى

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٧٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٥ ص ٣٧ - ٣٨.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٨ - ٣٩.

ابنه الناصر داود فأقبل عليه وأعطاه ثمانية آلاف درهم اشترى بها جوسقاً [1] وبستاناً، ولازم حضور مجلس الناصر داود مع بقية العلماء الذين كانوا يقفون ضده في المناظرات «وصنف سيف الدين بدمشق للملك الناصر كتاباً في العلوم العقلية سماه فرائد القلائد، طلبه الناصر منه فصنفه حسب اقتراحه» [2].

وبعد استيلاء الأشرف والكامل على دمشق من ابن أخيهما الناصر داود سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م بقي سيف الدين الآمدي في دمشق، وأعرض عنه الملك الأشرف ولا سيما وأن سياسته تقضي برفض الاشتغال بعلوم الفلسفة فعزله عن التدريس بالمدرسة العزيزية فأقام سيف الدين في جوسقة وبستانه مضطهداً حتى وفاته سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م [3].

وقد صنَّف الآمدي مصنفات كثيرة منها كتاب (الباهر في علم الأوائل) في خمس مجلدات وكتاب (أبكار الأفكار في أصول الدين) في أربع مجلدات، وكتاب (المآخذ على فخر الدين بن خطيب الري في شرح الإشارات) وكتاب (دقائق الحقائق)، وكتاب (رموز الكنوز) وكتاب (غاية المرام في علم الكلام) وكتاب (كشف التمويهات في شرح التنبيهات) ألفه للملك المنصور صاحب حماه، وكتاب (غاية الأمل في علم الجدل) وكتاب (منتهى السالك في رتب المسالك) وكتاب (منتهى السول في علم الأصول) وكتاب (الترجيحات في الخلاف) وكتاب (المؤاخذات في الخلاف) وكتاب (المبين في معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين) وغير ذلك من الكتب [4].

---

(١) الجوسق: هو الحصن وقيل شبيه بالحصن، وهو معرب وأصله كوشك بالفارسية، والجوسق يطلق أيضاً على القصر، انظر ابن منظور: لسان العرب مادة «جسق».

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٤٠.

(٣) المصدر نفسه جـ ٥ ص ٤٠ - ٤١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٩٤، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤١؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٣٩٣.

(٤) ابن أبي أصيبعة؛ عيون الأنباء ص ٦٥١؛ القفطي: تاريخ الحكماء ص ٢٤١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٩٤؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٣٠٧؛ ابن قنفذ: الوفيات ص ٣١٢ وحاشية رقم (١).

ومن المؤسف أن تلك الثروة الفكرية القيمة لم يصلنا منها شيء، وربما لو قدر لها البقاء لوضعت صاحبها الآمدي جنباً إلى جنب مع الطبقة الأولى من كبار الفلاسفة المسلمين كابن سينا وابن رشد، والرازي، والغزالي، والفارابي وغيرهم. ويبدو أن معاداة ملوك دمشق له وكثرة معارضيه وأعدائه والتيار العام المعادي للفلسفة في تلك الحقبة حالت دون وصول مؤلفاته، ومن المرجح أن أيدي العبث امتدت إليها بعد موته فدمرتها.

على أنه جدير بالذكر هنا إلى أن تلك الاتهامات التي قذف بها سيف الدين الآمدي في عقيدته ليس لها أساس من الصحة، وإنما بدافع الغيرة والحسد بدليل أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أبدى إعجابه به وقال: «لو ورد على الإسلام متزندق يشكك ما تعين لمناظرته غير الآمدي لاجتماع أهلية ذلك فيه» (١)، ولو لمس ابن عبد السلام شيئاً يشكك في عقيدته لما توانى عن ذكر ذلك بل والوقوف في وجهه. كما أن ابن كثير ذكر أنه «كان حسن الأخلاق سليم الصدر رقيق القلب» (٢) ورجَّح أن تلك الاتهامات باطلة.

وخلاصة القول: إنه إذا كان قد ظهر بعض الحكام أمثال المنصور صاحب حماه والناصر داود ووالده المعظم الذين شجعوا الفلسفة وما يتصل بها من علوم، فإن التيار العام في بلاد الشام ومصر والعراق في هذه الفترة كان يعارض علوم الفلسفة والمنطق والخلاف والجدل، وبالتالي انحسرت هذه العلوم بعكس ما كان معروفاً عن المسلمين حتى القرن الخامس الهجري حين بلغت هذه العلوم شأناً عظيماً وتصدى فلاسفة المسلمين لعلماء اليونان والنصارى وغيرهم من أصحاب المذاهب المنحرفة ودحضوا حججهم وبينوا بطلان عقائدهم. ولذلك لا نعجب إذا ما انحسرت هذه العلوم في هذا العصر وما تلاه من عصور وتضاءل شأنها.

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية جـ٨ ص ٣٠٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

الدراسات الطبيعية:

الطب والصيدلة: ازدهر الطب في بلاد الشام خلال هذه الفترة ازدهاراً كبيراً وأصبح سوقه نافقاً بدليل أن الطُبيب المعاصر ابن أبي أصيبعة ترجم لأكثر من خمسين طبيباً شامياً زمن الحروب الصليبية وأكثرهم عاصر الفترة موضع الدراسة [١]. ومما ساعد على ازدهار الدراسات الطبية معرفة طلبة العلم «بشرفها وكثرة احتياج الناس إليها وأن صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها يكون مبجلاً حظياً في الدنيا وله الدرجة العليا في الآخرة» [٢].

ومما يدل على المكانة الرفيعة التي بلغها الأطباء في ذلك العصر حصول عدد منهم على منصب الوزارة لدى بعض ملوك بني أيوب في بلاد الشام [٣]، فضلاً عما كانت تدره مهنة الطب من خير وفير على صاحبها، فعلى سبيل المثال كان الطبيب موفق الدين بن عبد العزيز يحصل من السلطان العادل «على الأنعام الكثير والأفضال الغزيرة والمنزلة العلية والجامكية السنية» [٤] وكانت رواتبه النقدية من السلطان العادل تزيد على مئة دينار [٥].

وكان بدمشق مدرستان لتعليم الطب اشتغل بالتدريس فيهما كبار الأطباء [٦].

كما هيأ البيمارستان النوري [٧] الفرصة لطلبة الطب بدمشق للتدرب

---

(١) انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٠٣ - ٧٦٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٦٣، ٧٢١ - ٧٢٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٧١.

(٥) المصدر نفسه ص ٧٢٩.

(٦) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ١٢٧ - ١٣٥.

(٧) البيمارستان النوري، أنشأه نور الدين زنكي بعد أن ضم دمشق إلى مملكته سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٤٤ م وقد ذكر أبو شامة أنه أنفق على بنائه مبلغاً ضخماً، وجعله عاماً لجميع مرضى المسلمين، أبو شامة: الروضتين جـ ١ ص ٩ وذكر ابن أبي أصيبعة أن نور الدين زود البيمارستان بمكتبة

عملياً على أيدي كبار الأطباء، ومشاهدة طرق فحصهم للمرضى ومعرفة الأمراض ووصف العلاج اللازم [1]. ومن المرجح أن البيمارستانين الآخرين كانا يقومان بتخفيف الضغط عن البيمارستان النوري [2].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن البيمارستان النوري شهد خلال هذه الفترة تطوراً كبيراً وتوسعة عظيمة على يد الطبيب بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك مجد الدين عبد الرحيم بن إبراهيم، فبعد أن جمع ثروة طائلة من مهنة الطب عمد سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م واشترى دوراً كثيرة مجاورة للبيمارستان النوري وأضافها إليه وأنشأ بها قاعات كبيرة للمرضى، وبناها أحسن البناء وأجرى الماء إليها وتولى بنفسه مهنة تدريس الطب بالبيمارستان النوري، حتى إن الصالح أيوب كافأه على جهوده بتعيينه رئيساً على سائر الأطباء سنة ٦٤٥ هـ/ ١٢٤٧ م [3].

كما تقدمت علوم الصيدلة وعرف الأطباء الأدوية المفردة والمركبة وكان

ضخمة تحولت إلى مركز للبحث لطلبة الطب، وعهد إلى الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم بالعناية بالمرضى ومعالجتهم، وجعل تحت إمرته جماعة من الخدم والممرضين، وكان أبو المجد حين يفرغ من علاج المرضى والكشف عليهم ينصرف إلى المكتبة لتدريس الطلبة لمدة ثلاث ساعات انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٢٨ - وقد ذكر ابن جبير في رحلته البيمارستان النوري وأوضح أنه كان كبيراً جداً وجرايته في اليوم الواحد ١٥ ديناراً وله مشرفون لهم سجلات بأسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون إليها، وكان الأطباء يمرون على المرضى كل يوم للاطلاع على أحوالهم وتقرير ما يحتاجون إليه من الأدوية والأغذية، وكل ذلك يشير إلى مدى التقدم الطبي الذي كان عليه هذا البيمارستان زمن الحروب الصليبية، انظر رحلة ابن جبير ص ٢٥٥.

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٧٣١ - ٧٣٢.

(٢) أشار ابن جبير إلى وجود بيمارستان قديم غير البيمارستان النوري يقع قرب الجامع الأموي، انظر رحلة ابن جبير ص ٢٥٥، أما البيمارستان الآخر فهو الذي أنشأه الأمير سيف الدين أبو الحسن يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمري المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م وكان من أكبر الأمراء في دمشق وأعظمهم مكانة وهو من الأكراد القيمرية. انظر: ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٧٥١.

بعضهم يقوم بصناعة الأدوية وعمل المراهم والمعاجين كما عرفوا الأقراص وغيرها [1].

والحق أن المجال لا يسمح باستعراض كل الإنجازات الطبية وجهود جميع الأطباء في هذا العصر؛ وسوف يعرض البحث لتاريخ شخصيتين هامتين أحدهما برع في مجال الطب والآخر في ميدان الصيدلة، وفي ذلك العرض براهين قاطعة على التقدم الذي شهدته الدراسات الطبية وعلم الصيدلة في هذه الفترة، فمن أشهر الأطباء:

مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار، شيخ الأطباء بدمشق كان أوحد عصره. وفريد دهره وعلامة زمانه في مجال الطب [2]، وانتهت إليه مهنة الطب ومعرفتها على الوجه الأكمل، وتحقيق كلياتها وجزئياتها، ولم يكن له مثيل في عصره ولم يبلغ تلك المكانة إلا بعد أن أتعب نفسه في الاشتغال وتحصيل علوم الطب حتى فاق أطباء عصره، وقد نشأ مهذب الدين في أسرة نبغت في صناعة الطب، فقد كان والده علي بن حامد طبيباً للعيون وكذلك أخوه، فسار على نهجهما إلا أنه واصل طلب العلم وأخذ عن أشهر حكماء عصره، حتى بلغ مرتبة عالية وأصبح مرجعاً للأطباء ، وألَّف في الطب كتباً كثيرة، ذكر ابن أبي أصيبعة أنه رأى منها «نحو مائة مجلد أو أكثر في الطب وغيره» [3].

وحين ظهرت مواهب مهذب الدين وتفوقه في المعالجة وانتشرت شهرته في البلاد وثق به الملك الكامل بن العادل غاية الثقة وخصوصاً عندما نجح سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م في معالجة والده السلطان العادل من مرض شديد أصابه، وكافأه على ذلك بمبلغ سبعة آلاف دينار، وفي سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م

(١) المصدر نفسه ص ٦٢٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢٨؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٧٢؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٩؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ١٢٧.

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨.

انتشر وباء عظيم وهلك أكثر الناس، ومرض بذلك الوباء الملك الكامل وكثير من خواصه، واستطاع مهذب الدين معالجته حتى برىء مع أصحابه، وحصل نظير ذلك على الكثير من الخلع والهدايا بما يقدر باثني عشر ألف دينار، وعينه العادل على رئاسة أطباء بلاد الشام ومصر، وصار يختبر الأطباء بنفسه ويعطيهم التواقيع بمزاولة مهنة الطب [1].

وحين استقر الملك المعظم بن العادل في ملك دمشق سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م استخدم عدداً من الأطباء منهم الحكيم رشيد بن الصوري، والقاسم بن أبي أصيبعة ـ والد موفق الدين مؤلف عيون الأنباء ـ أما مهذب الدين الدخوار فقد أطلق له المعظم «جامكية وجراية» وآثر أن يفرغه للإشراف على البيمارستان النوري وتدريس الطلبة، وممن تلقى علوم الطب على يديه في ذلك الحين موفق الدين بن أبي أصيبعة الذي يقول في ذلك «ولازمته. . . في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان، فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب وكان في ذلك أيضاً معه في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما ومما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها ومما كانا يصفانه للمرضى» [2].

ولقد أشاد ابن أبي أصيبعة كثيراً ببراعة الطبيب مهذب الدين ودقته في تشخيص الأمراض ووصف الأدوية التي تبرىء في أسرع وقت ممكن «ويحصل من تأثيرها شيء كأنه سحر» [3] كما أبدى دهشته من قدرته على فهم حالة المريض عن طريق جس نبضه وما يدل عليه ذلك [4].

ولمهذب الدين فضل بعيد الأثر في تطور الطب خلال حياته وبعد موته

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٢٩ ـ ٧٣١.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٧٣١.

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣١.

(٤) المصدر نفسه ص ٧٣٢.

أيضاً حين أسس المدرسة الدخوارية التي كانت من أعظم مدارس الطب في بلاد الشام خلال العصور الوسطى [1].

وكان مهذب الدين بارعاً في علم الأجنة وله فيه كتاب يسمى (الجنينة في الطب) واختصر كتاب الحاوي في الطب للرازي، وله أبحاث أخرى صغيرة تدل على تفوقه مثل المقالة التي صنفها في الاستفراغ بدمشق سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م [2]. ورغم أن مؤلفاته بلغت أكثر من مائة كتاب حسب ما ذكره ابن أبي أصيبعة إلا أنه من المؤسف أن تلك الثروة فُقِدَتْ ولم يصلنا منها شيء شأنها في ذلك شأن كثير من كنوز الفكر الإسلامي التي أتت عليها عوادي الزمن.

وظل مهذب الدين الدخوار يزاول العمل بالبيمارستان النوري والتدريس لطلبة الطب حتى توفي بدمشق سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م [3].

ابن البيطار: هو الحكيم العالم ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي الأصل الشهير بابن البيطار، شَغُفَ بعلوم الصيدلة منذ صغره، واجتمع بالمغرب بعدد كبير من علماء النبات وتحقيق أنواعه ومنابته، كما درس كتب علماء الإغريق في النبات وسافر من أجل ذلك إلى بلاد اليونان والروم لمشاهدة النباتات الواردة في كتب علماء تلك البلاد على الطبيعة [4]. ثم قَدِمَ إلى دمشق واستقر بها، واجتمع به ابن أبي أصيبعة ودرس على يديه علم الصيدلة، وقد وصفه بحسن الأخلاق وكمال المروة ثم قال: «ولقد شاهدت معه ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه» وقرأ عليه كتب حكماء الإغريق في الصيدلة

---

(١) انظر ما سبق ص ٤٠٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص ٧٣٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٧٢؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٣٠؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ١٢٩؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية القسم الأول ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٤) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٦؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٠١؛ التلمساني: نفح الطيب جـ ٢ ص ١٩١؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠.

وأشاد بمقدرته وتفوقه على من سبقه من علماء النبات بحيث استطاع أن يجمع بين ما وصل إليه علماء الإغريق وما أبدعه علماء المسلمين بعدهم [1].

وقد «انتهت إليه معرفة النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه» على حد قول التلمساني [2].

وخدم ابن البيطار السلطان الكامل، فجعله رئيساً على سائر العشابين والصيادلة، ثم خدم ابنه الصالح أيوب وحظي عنده بمكانة رفيعة وعناية فائقة وظل يقوم بدوره المتميز حتى وفاته بدمشق سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م [3].

ولضياء الدين ابن البيطار عدد من المؤلفات القيمة أهمها جميعاً (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) حيث استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وآثارها ومنافعها، والصحيح منها وغير ذلك، ويعتبر هذا الكتاب من أفضل كتب الأدوية، وقد صنفه للملك الصالح أيوب [4]. ومما يدل على أهمية كتاب الأدوية والأغذية أنه كان له تأثير بعيد المدى على العقاقير في أوروبا خلال عصور النهضة وأصبح مرجعاً للأوروبيين حتى القرن التاسع عشر الميلادي[5].

الرياضيات والفلك:

والمقصود بعلوم الرياضيات، الحساب والجبر والهندسة وكانت من العلوم المعروفة خلال هذه الحقبة وقد ارتبط بها علم الفلك، فلم يظهر عالم رياضي إلّا وقد عرف علم الفلك واشتغل به، كما أن بعض الأطباء اشتهروا أيضاً ببراعتهم وتفوقهم في الرياضيات والفلك، فقد كان على سبيل المثال الطبيب نجم الدين بن اللبودي عالماً بالرياضيات والفلك وله فيهما مؤلفات قيمة مثل

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٠١؛ وانظر أيضاً التلمساني: نفح الطيب جـ٢ ص ٦٩٢.

(٢) التلمساني: نفح الطيب جـ ٢ ص ٦٩٢.

(٣) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ ١٥ لوحة ١٦؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٠١ - ٦٠٢؛ التلمساني: نفح الطيب جـ ٢ ص ٦٩٢.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٠٢.

(٥) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٣٤.

اختصاره لكتاب أوقليدس وكتاب (كافية الحساب في علم الحساب) وكتاب (غاية الغايات في المحتاج إليه أوقليدس والمتوسطات) وكتاب (الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة) وله في علم الفلك كتاب (الزاهي في اختصار الزيج المقرب المبني على الرصد المجرب)(١).

كما كان رشيد الدين أبو الحسن علي بن خليفة ـ عم ابن أبي أصيبعة ـ عالماً بالفلك، فقد أخذ علم النجوم عن أبي محمد الجعدي، وكذلك بالرياضيات حتى أن ملك بعلبك الأمجد بهرام شاه استدعاه إلى بلاده ورأى من تفوقه في الحساب ما أثار دهشته فطلب منه أن يريه شيئاً من علم الحساب فصنّف له أربع مقالات (٢). ومن أشهر علماء الرياضيات والفلك الذين اشتهروا خلال هذه الفترة:

المهندس مؤيد الدين محمد بن عبد الكريم الحارثي، ولد ونشأ بدمشق واشتهر بلقب المهندس لمعرفته بالهندسة، وكان في بداية حياته نحاتاً ونجاراً حتى أنه عمل أكثر وأجمل أبواب البيمارستان النوري، ثم حفظ مؤلفات أوقليدس في الهندسة واشتغل أيضاً «بصناعة النجوم وعمل الزيجات» ومما ساعده على التفوق والإبداع قدوم الشرف الطوسي إلى دمشق وكان عالماً بالهندسة والرياضيات فأخذ عنه، ولعب دوراً هاماً في العناية بمنشآت دمشق فقام على سبيل المثال بإصلاح ساعات الجامع الأموي وظل يقوم على صيانتها طوال حياته «وكان له على مراعاتها وتفقدها جامكية مستمرة»(٣).

وللمهندس محمد بن عبد الكريم بعض المؤلفات القيمة منها رسالة في رمز التقويم، ومقالة في رؤية الهلال(٤).

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٦٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٣٧ ـ ٧٣٨.
(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٦٦٩ ـ ٦٧٠.
(٤) المصدر نفسه ص ٦٧١.

ومن أشهر علماء الرياضيات والفلك في هذا العصر.

الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر الأسفوني وينعت بالعلم، ويعرف أيضاً بتعاسيف، ولد بإسفون إحدى قرى صعيد مصر سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٩م وتلقى علومه على مشاهير علماء عصره بالديار المصرية والشامية، وكان عالماً بالرياضيات، ثم سافر إلى الموصل لتلقي علوم الموسيقى على يد الشيخ كمال الدين بن يونس، فقرأ عليه أكثر من أربعين كتاباً في الموسيقى خلال سنة[١].

ولقد برع العلم تعاسيف في علوم الحكمة والرياضيات والهندسة والفلك، وحين وردت أسئلة الامبراطور فردريك الثاني في هذه العلوم إلى السلطان الكامل سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م كلف الأخير علم الدين تعاسيف بالإجابة عنها[٢].

وخدم تعاسيف الملك الأشرف بن العادل وعمر له عمائر عظيمة بديعة منها الجوسق المسمى طيحة في مدينة رأس عين بالجزيرة، وقد بناه على شكل مثمن وبإزائه نهر يتصل ببلاد الخابور المتصلة بالفرات[٣].

وبعد وفاة الأشرف سافر علم الدين قيصر إلى حماه فاستقبله صاحبها المظفر تقي الدين محمود، وأحسن إليه وقربه وولاه تدريس المدرسة الحنفية النورية بحماه، وشرع علم الدين في تصميم المنشآت العمرانية بحماه للملك المظفر، فبنى له أبراجاً على سور حماه في غاية الحسن والجمال، كما أنشأ له طاحوناً في الجانب الأسفل من حماه على نهر العاصي، وبنى على الطاحون برجاً

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣١٥ - ٣١٦؛ الأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٦٩ - ٤٧٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٢ وحاشية رقم (٣)؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٦؛ المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٨٢.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٢؛ الأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٧٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٤ ص ٢٤٢، حاشية رقم (٣).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: جـ ٥ ص ١٤٥ - ١٤٦.

عظيماً للمراقبة، وصنع له آلات رياضية أخرى، ثم عمل له كرة من الخشب المدهون ورسم عليها جميع الكواكب السيارة المرصودة في السماء وقد كان ابن واصل يساعد علم الدين قيصر في عمل تلك الكرة الفلكية وفي ذلك يقول: «وكنت أساعد الشيخ علم الدين على تحريرها وكان السلطان الملك المظفر يحضرنا ونحن نرسمها، ويسألنا عن المواضع الدقيقة فيها، فنخبره، فيدرك ما نقول لصحة إدراكه وقوة ذهنه»[1] وقد توفي علم الدين قيصر في دمشق سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م[2].

أهم ملامح الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي:

من الصعب جداً رسم صورة واضحة للحالة الاقتصادية لبلاد الشام خلال هذه الحقبة نظراً لما شهدته من اضطرابات وتقلبات سياسية إضافة إلى أن المؤرخين ركزوا في حديثهم على الأحوال السياسية والاضطرابات بين ملوك بني أيوب وجهادهم ضد الصليبيين، وما حدث من النزاع مع القوى الإسلامية الأخرى كالخوارزمية وسلاجقة الروم وغيرهم.

غير أن مملكة حلب حظيت ببعض الأخبار الاقتصادية، أوردها عز الدين ابن شداد مؤلف كتاب (الأعلاق الخطيرة) وياقوت الحموي في معجم البلدان وفي ضوء ذلك يمكن إعطاء صورة واضحة عن اقتصاديات مملكة حلب الأمر الذي يساعد على فهم الحالة الاقتصادية لبلاد الشام بصفة عامة.

فقد ذكر ابن شداد نقلاً عن المؤرخ يحيى بن أبي طي النجار الحلبي الذي ألّف كتاباً عن حلب سماه (عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر) فذكر أن موارد مدينة حلب بمفردها زمن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين بلغ سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م ـ أي موارد سنة ـ ٦,٩٨٤,٥٠٠ درهم[3]. وهو مبلغ كبير

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤؛ وانظر أيضاً الأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٧٠؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٧٣.

(٢) الأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٨٠؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٨٦.

(٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ قسم ١ ص ١٥٠؛ انظر أيضاً محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٥ ص ٦٣ ـ ٦٤.

بلا شك يشير بوضوح إلى مدى الثراء الذي تمتعت به مملكة حلب، مع العلم أن هذا المبلغ قاصر على دخل مدينة حلب دون أن يدخل في ذلك حساب المبالغ الأخرى الواردة من البلاد التابعة لها.

وحين تحدث ياقوت عن حلب في معجمه حوالي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م أشار إلى ما تمتعت به من خيرات زمن ملكها العزيز بن الظاهر، الذي كان صغيراً وكان يقوم بتدبير دولته الأتابك طغريل، وقد أشاد ياقوت بعدله ورأفته برعيّته، وذكر أن مملكة حلب تمتد من الشرق إلى الغرب مسيرة خمسة أيام - سيراً على الأقدام - ومن الجنوب إلى الشمال مثل ذلك، وفيها أكثر من ثمانمائة وعشرين قرية كلها مملوكة لأهلها، ولا يوجد بها أراض سلطانية إلاّ مقاطعات يسيرة إضافة إلى مائتين ونيف قرية مشتركة بين الرعية والسلطان. وكان في هذا الوقت يتولى وزارة حلب علي بن يوسف القفطي صديق ياقوت الحموي وكان مسئولاً عن دواوينها وهو الذي زوّد ياقوت بهذه المعلومات عن حلب وقراها[1].

وقد ذكر الوزير القفطي لياقوت أن موارد حلب تقوم بنفقة وتجهيز خمسة آلاف فارس، حسب نظام الإقطاع الحربي الأيوبي[2]. وإنه لو لم يقع إسراف في خواص السلطان وأمرائه لأصبحت تلك الموارد كافية لإرزاق وتجهيز سبعة الاف فارس ذلك أن أتباع سلطان حلب يبلغون ألف فارس ويحصل الواحد منهم في العام من عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف درهم ويمكن توفير مما يصرف على هؤلاء بما يجهز ألف فارس آخر. وذكر القفطي لياقوت أن في أعمال حلب إحدى وعشرون قلعة مشحونة بالذخائر والجنود وتكتفي بمواردها للصرف على جنودها عن طريق ما يتبع هذه القلاع من أراض زراعية وفوق ذلك، فإن موارد حلب مما يزيد من فضلات الإقطاعات الخاصة من جميع الجبايات التي تصل إلى حلب من العنب والحبوب بما يقارب عشرة آلاف درهم يومياً وقد أورد الوزير ابن

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة حلب جـ ٢ ص ٢٨٥.

(٢) عن نظام الإقطاع الحربي، انظر ما سبق الفصل الأول ص ٦٧ - ٦٨.

القفطي مثالاً على ذلك فقال «وقد ارتفع إليها - أي ورد إلى حلب - في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ هـ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي يجبى فيها العشور من الإفرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة ألف درهم، وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهضم ولا مهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية»[١].

وقد أشار ياقوت إلى عناية سكان حلب بشئونهم الاقتصادية وحرصهم الشديد على استثمار أموالهم وتنميتها، وأكد أن بحلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة منذ القدم «ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان»[٢].

ولم تكن موارد مملكة حلب ثابتة على الدوام فمن المعروف أنه بعد انتصار الحلبيين على الخوارزمية سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م[٣] أصبحت بعض مناطق الجزيرة تابعة لمملكة حلب مثل الرها وحران، وقد أمدنا ابن شداد بقائمتين مفصلتين عن موارد حران والرها فعلى سبيل المثال أشار إلى أنه يتبع حران ثمانمائة قرية منها خمسمائة قرية عامرة يصرف مغلها في تجهيز ألف فارس والباقي يحمل إلى بيت المال[٤]. وفي سنة ٦٤٠هـ بعث الناصر يوسف ملك حلب بالمؤرخ عز الدين ابن شداد إلى حران لكشف مواردها، فذكر الأخير أن دخلها السنوي بلغ ألفيّ ألف درهم - مليوني درهم - بينما كانت زمن الملك الأشرف تدر ثلاثة ملايين درهم[٥]. ويبدو أن ارتفاع الموارد وانخفاضها يكون حسب الأحوال الاقتصادية وما يصيبها من خصب وقحط. فضلاً عن أن غارات التتار كان لها آثار سيئة على مواردها، فقد نجم عن غاراتهم على منطقة الجزيرة تراجع

---

(١) ياقوت: معجم البلدان مادة حلب جـ٢ ص ٢٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(٣) انظر ما سبق الفصل الرابع ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٤) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٦٧.

(٥) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٦٥.

موارد حران إلى أقل من مليوني درهم وقد أورد ابن شداد تفاصيل الميزانية العامة لمنطقة حران التابعة لمملكة حلب بعد مضايقة التتار لها فكانت على النحو التالي :

الأسقاء	مئة وسبعون ألف درهم
الضواحي	مئة وخمسون ألف درهم
الباب الكبير	مئة وثلاثون ألف درهم
دار الوكالة	مئة وخمسة وعشرون ألف درهم
الجهات المجموعة	مئة ألف درهم
الأقطان	ثلاثون ألف درهم
الصبغ	ثلاثون ألف درهم
العرصة	أربعون ألف درهم
الجوالي	خمسة عشر ألف درهم
فائض الأوقاف	مئة ألف درهم
العداد	خمسون ألف درهم
الحمامات	عشرة آلاف درهم
الأوثار	ثمانية آلاف درهم
السجون	خمسة آلاف درهم
الجنايات	أربعون ألف درهم
الخفارتين	مئة وستون ألف درهم
المواريث	مئة وستون ألف درهم
المفادنة	مئة ألف درهم(١)

ويبلغ إجمالي الواردات لقصبة حران مليون وأربعمائة وثلاثة وعشرون ألف درهم ١,٤٢٣,٠٠٠ درهم .

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

أما الرها وهي تابعة أيضاً لمملكة حلب فكانت مواردها تصرف في إعداد وتجهيز ونفقة خمس مئة فارس[1]. وكان يتبعها عدد كبير من القرى تبلغ سبعمائة قرية تشتمل على أربعة عشر ألف وستمائة فدان وكانت مواردها على النحو التالي:

البساتين	خمسة وثلاثون ألف درهم
ورق التوت	خمسة وعشرون ألف درهم
عناب	ثلاثون ألف درهم
الرباع	خمسة وعشرون ألف درهم
الطواحين	أربعة آلاف درهم
العشر	خمسة وعشرون ألف درهم
الختم	عشرة آلاف درهم
المقاث	أحد عشر ألف درهم
الثلج	خمسة آلاف درهم
عداد الغنم	ستون ألف درهم
الجنايات	ثلاثون ألف درهم
المواريث	ثلاثون ألف درهم
العرصة	خمسة وعشرون ألف درهم
الجوالي	خمسة وعشرون ألف درهم
الأفراح	خمسة وثلاثون ألف درهم
الدرب	خمسة وعشرون ألف درهم
السجون	خمسة وعشرون ألف درهم
المفادنة	مئة وخمسة آلاف درهم
الصبغ	خمسة آلاف درهم

(١) المصدر نفسه جـ٣ ص ٩٩.

ويبلغ مجموع بنود الميزانية بمختلف بنودها خمس مائة وستة وأربعون ألف درهم بدون الغلال العينية ٥٤٦,٠٠٠ درهم[١].

وقد أورد ابن شداد قائمة مفصلة لموارد مملكة حلب في أواخر زمن الناصر يوسف بعد سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م أي عشية الغزو المغولي، فكانت موارد الميزانية كما يلي[٢]:

دار الزكاة	ألف ألف ومائتيّ ألف
العشر	ستمائة ألف
الوكالة	مائتي ألف
سوق الخيل والجمال والبقر	ثلاثمائة ألف وثمانين ألفاً
دار كورة الجوانية	ثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً
البطيخ	مائة ألف
دار كورة برانية العنب	ثمانين ألفاً
الخضر	خمسين ألفاً
المدبغة	مائة ألف وخمسين ألفاً
دكة الرقيق	مائة ألف
صبغ الحرير	ثمانين ألفاً
سوق الغنم	أربعمائة ألف وخمسين ألفاً
سوق التركمان للغنم	ثلاثمائة ألف
عرصة الخشب	خمسين ألفاً
ضمان الأوتار	أربعين ألفاً
المسابك	خمسة آلاف

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٣ ص ٩٩ ـ ١٠٠ ـ أشار المحقق إلى أن مجموع البنود الواردة في قائمة ابن شداد مقدارها ٥٣٥٠٠٠ أي دون مجموعها العام بمقدار أحد عشر ألف درهم وربما كان ذلك بسبب سقوط بعض بنود الميزانية سهوداً حين النسخ، بما يتفق والمجموع الذي أشار إليه ابن شداد في نهاية القائمة. انظر: المصدر نفسه جـ٣ ص ١٠٠ حاشية رقم (١).

(٢) ترد القائمة هنا بألفاظ ابن شداد دون تعديل.

البيلونة	عشرين ألفاً
سمسرة الخضر	عشرين ألفاً
البساتين	خمسين ألفاً
دار الضرب	مائة ألف
الرباع	أربعمائة ألف درهم
الحكورة	مائة ألف درهم
ذخيرة الحطب والفحم	عشرين ألف درهم
المصابن	عشرة آلاف درهم
عداد العرب	مائة ألف درهم
الملح المجلوب	ثلاثمائة وخمسين ألف درهم
المسالخ	مائة ألف درهم
الاجتياز بخان السلطان	مائة ألف درهم
القلي	عشرين ألف درهم
الساسة	مائة ألف درهم
عداد التركمان بحلب	مائة ألف وخمسين ألف درهم
وغنم	ثلاثين ألف رأس قيمتها ستمائة ألف درهم
الجوالي	مائة ألف درهم
الفرح واللطف	ستمائة ألف درهم
حمام السلطان	ثمانين ألف درهم
السجون	ستين ألف درهم
نحيرة الذمة	خمسين ألف درهم
البقل	عشرين ألف درهم
القبانين	خمسين ألف درهم
القنب	خمسين ألف درهم
الحرير	ثمانين ألف درهم

الخراج	ثلاثين ألف درهم
ضمان المزابل	عشرة آلاف درهم
الموارث الحشرية تقديراً	
لا تحريراً	ثلاثمائة ألف درهم(1)

ويبلغ مجموع ميزانية مملكة حلب ٨,٢٧٠,٠٠٠ درهم ثمانية ملايين ومائتين وسبعين ألف درهم .

وفي ضوء هذه القوائم التي أوردها ابن شداد عن مملكة حلب وبعض المناطق التابعة لها يمكن استنتاج الحقائق التالية:

أولاً : قوة اقتصاد مملكة حلب وتنوّع مواردها وكثرة خراج البلاد التابعة لها ويمكن أن نقيس على ذلك بقية ممالك الشام الأخرى.

ثانياً : تنوّع النشاط الاقتصادي في حلب وممالك الشام الأخرى، وتمثّل ذلك النشاط في الزراعة والرعي والصناعات المختلفة والتجارة، وتنوّع الحرف في بلاد الشام .

ثالثاً : إن كثيراً من الجهات التي ترد عن طريقها الأموال تدل على أن العدل لم يكن سائداً في بعض الأحيان إذ تدل تلك القوائم على وجود ضرائب تعسفية غير شرعية.

وعلى أية حال فمما يؤسف له أن ابن شداد وياقوت الحموي لم يوردا أرقاماً أخرى عن بقية بلدان الشام على الرغم من أن ابن شداد خص مدينة دمشق بجزء كبير من كتابه الأعلاق الخطيرة إلاّ أنه لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى مواردها، أما ياقوت فلم يفصل في الحديث عن الأحوال الاقتصادية لبلاد الشام الأخرى فهو مثلاً حين تحدّث عن حماه قال: «وحماه مدينة كبيرة كثيرة الخيرات

---

(1) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ القسم الأول ص ١٥١ ـ ١٥٣.

رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق»[1] ولم يفصل في أحوالها الاقتصادية، وبالتالي فسيكون الحديث عن اقتصاديات بلاد الشام الأخرى بصورة مجملة دون إعطاء أرقام تفصيلية لعدم توفرها .

الزراعة:

تعتمد الزراعة في بلاد الشام على الأمطار كثيراً [2]، وذلك على الرغم من وجود بعض الأنهار مثل نهر الأردن ونهر بردى، والعاصي، ونهر الفرات، وذلك لأن طبيعة بلاد الشام الجبلية تحول دون الاستفادة الكاملة من تلك الأنهار على عكس ما هو عليه الحال في مصر والعراق حيث تستفيد تلك البلاد من مياه النيل ودجلة والفرات، إذ إن مصر والعراق تنعم بسهول فيضية لا تتوافر في بلاد الشام، ومع ذلك فتشير الآثار الموجودة على تلك الأنهار الشامية إلى أن السكان قاموا ببناء السدود والنواعير وأنشأوا القنوات وأفادوا إلى حد كبير من تلك الأنهار[3].

والمعروف أن مزارع الشام ومنتجاتها يضرب بها المثل في جودتها وكثرة مياهها وخصوبة أرضها[4]. فكانت حلب تنتج التين والزبيب والفستق والحبة الخضراء بكميات وافرة وتصدر هذه المنتجات إلى مصر والعراق[5]. وقد فصل ياقوت الحموي في المنتجات الزراعية التي تنتجها مملكة حلب في عصره معتمدة في ذلك على الأمطار فقط، فذكر أنه يزرع في أرضها القطن، والسمسم، والبطيخ، والخيار، والدخن، والكروم، والذرة، والمشمش، والتفاح «عذياً لا يسقى إلّا بماء المطر ويجيء مع ذلك روياً يفوق ما يسقى بالمياه والسيح في جميع البلاد وهذا لم أره فيما طوفت من البلاد في غير أرضها»[6]. ولما تحدث عن غور

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة حماه جـ ٢ ص ٣٠٠.
(٢) النويري: نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٥٥.
(٣) محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٤ ص ١٣٢ - ١٣٣.
(٤) المرجع نفسه جـ ٤ ص ١٣٨.
(٥) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١٥٣.
(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة حلب جـ ٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

الأردن أشار إلى أن أكثر منتجاته الزراعية قصب السكر ومنها يصدر إلى البلاد الأخرى[1]. أما مملكة دمشق فإن أخصب مناطقها الغوطة وطولها مرحلتان وعرضها مرحلة وبها ٥٣٤٥ بستاناً متنوعاً و ٥٥٠ بستاناً آخر للكروم[2].

وحين زار ابن جبير بلاد الشام أشاد بجودة إنتاج البلاد الزراعي وكثرة خيراتها فوصف منبج بأنها محاطة بالبساتين من الشرق والغرب مختلفة الثمار ملتفة الأشجار[3]، ووصف بلاد المعرة بأنها منطقة سواد لخصوبة أرضها التي تزرع «كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً»[4].

أما فلسطين فهي من المناطق الشامية الخصبة غير أن أكثر مزروعاتها تعتمد على المطر شأنها في ذلك شأن مملكة حلب، ما عدا منطقة نابلس التي اشتهرت بكثرة مياهها الجارية، وتوجد بمنطقة البلقاء بفلسطين بلدة تسمى حسبان لها واد اشتهر بأشجاره وبساتينه وكثرة مزارعه كما كان يتبع حصن عجلون المشرف على الغور منطقة زراعية مشهورة بكثرة أشجارها وخصوبة أرضها[5].

وتميّزت بلاد الشام جميعها بإنتاج الزيتون الوفير[6]. وقد أحصى صاحب خطط الشام أكثر من خمسين صنفاً من أصناف العنب تنتجها دمشق وواحد وعشرين صنفاً من المشمش تنتجها أيضاً مما يدل على وفرة الإنتاج وجودته[7].

---

(١) المصدر نفسه مادة غور جـ ٤ ص ٢١٧، محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٤ ص ١٤٧.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم دمشق ص ١٣.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢٣.

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩.

(٥) أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٢٧ - ٢٢٩.

(٦) محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٤ ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٧) المرجع نفسه جـ ٤ ص ١٥٥.

وكانت تقوم زراعة النخيل في المناطق التابعة للملك الأشرف والقريبة من نهر الفرات مثل الرحبة وقرقيسياء وعانة وغيرها ومنها يجلب التمر إلى بقية بلدان الشام[1].

وخلاصة القول: إن بلاد الشام أنتجت ما يسد حاجتها من الحبوب والخضروات والفواكه، بل وصدرت في بعض الأحيان ما يفيض عن حاجتها إلى البلاد الأخرى[2].

الصناعة:

لما كانت بلاد الشام تزرع قصب السكر في غور الأردن فمن الطبيعي أن يترتب على ذلك صناعة السكر[3]. كما عرف الشاميون صناعة الورق وعن طريق بلاد الشام انتقل إلى أوروبا زمن الحروب الصليبية وكان يعرف باسم الكاغد الشامي[4].

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج المموه بالمينا والخزف، وبلاط القاشاني، وكان الزجاج الشامي يضرب به المثل في الرقة والصفاء فيقال: «أرق من زجاج الشام» وكانت معامل الزجاج في حلب، وأرمناز المجاورة لها مشهورة بصناعته وتصدره إلى العراق حيث يتم استخدامه والتباهي بجماله في قصور الخلفاء واشتهرت الخليل بصناعة المصابيح الزجاجية الجميلة، وتنوعت المصنوعات الشامية من الزجاج، فظهرت الأواني الزجاجية الزخرفية والأكواب والأباريق وغيرها، وعن طريق بلاد الشام انتقلت صناعة الزجاج إلى أوروبا زمن الحروب الصليبية[5].

---

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥١.

(٢) عن شؤون الزراعة وما يتصل بها في بلاد الشام خلال تاريخها كله انظر، محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٤ ص ١٣١ - ١٩٨.

(٣) أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص ١٠٨.

(٤) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ٢٠٠ ؛ أحمد رمضان: المرجع السابق ص ١٠٨.

(٥) محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٤ ص ٢١٧ - ٢١٨.

أما صناعة الفخار الذي يحتاج لتربـة ملائمة فقد تركز في بلدة أرمناز المجاورة لحلب حيث «يعمل بها قدور وشربات جيدة حمر طينية»(١).

واشتهرت بلاد الشام بالصناعات الجلدية مثل السروج والأحذية والأحزمة والمطارح والمقاعد وغيرها وتصدر الفائض إلى البلدان الأخرى(٢).

وكانت صناعة الحديد والنحاس مزدهرة في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. ولا سيما الأدوات المصنوعة من النحاس الأصفر والأحمر والبرونز المكفت بالذهب والفضة والتي زخرت بها الأسواق الشامية وأقبل على شرائها الصليبيون(٣). ولا زال في مستودع الجامع الأموي بدمشق بقايا مصنوعات نحاسية من هذا العصر تدل على إتقان النحاسين والحدادين لصناعتهم في هذا العصر(٤).

وتفوقت صناعة السيوف الدمشقية على ما سواها فتفنن الصياقلة في صنعها من أجود أنواع الحديد، وقد عرفت بصفاء مائها واخضرار لونها وإرهاف حدها وشدة لمعانها، وكانت تكتب عليها آيات وأشعار بماء الذهب، وكذلك على الخناجر والرماح، وقد عرفها الصليبيون وتقلدوها وغدوا يفاخرون بلبسها واقتنائها، كما أن صناعة تنزيل الذهب على السيوف والخناجر والمدى من أهم الصناعات الشامية(٥).

أما صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية فتعتبر بلاد الشام من أعرق بلدان الدنيا في هذا الميدان، فقد اشتهرت بعلبك بهذه الصناعة منذ أقدم العصور، كما اشتهرت صفد بالثياب الصفدية واشتهرت حمص بمصنوعاتها من

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان مادة أرمناز جـ١ ص ١٥٨.

(٢) محمد كرد علي: خطط الشام جـ ٤ ص ٢٠٦؛ أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ص ١٢٣.

(٣) أحمد رمضان: المرجع السابق ص ١٢٣.

(٤) محمد كرد علي: خطط الشام ص ١٢٣.

(٥) المرجع نفسه جـ ٤ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

الثياب والفوط وغيرها، وليس أدل على تفوق صناعة المنسوجات الشامية من أن اسم الدمقس مشتق من اسم مدينة دمشق ومنها انتشر إلى سائر البلاد [١].

وخلاصة القول أن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية كانت من أشهر مناطق العالم بمنتجاتها الصناعية [٢].

التجارة:

من المعروف أن بلاد الشام تتمتع بموقع تجاري هام حيث تتوسط مع مصر قارات العالم القديم وقد منحها ذلك الموقع مكانة فريدة منذ أقدم العصور.

ولقد كان للأسباب الاقتصادية التجارية أكبر الأثر في تحريك القوى البحرية التجارية الإيطالية ـ جنوا، بيزا، البندقية ـ للإسهام في الحركة الصليبية وتقديم المساعدات للصليبيين مقابل ما حصلت عليه تلك الدول التجارية من امتيازات واسعة في موانىء الشام ومدنه التي سقطت بأيدي الصليبيين، ولم يلبث التجار الأوروبيون أن أسسوا لأنفسهم مراكز ثابتة في عكا وصور وصيدا، والسويدية واللاذقية وغيرها من الموانىء. وشرعوا في جلب المنسوجات القطنية والحريرية والأواني الزجاجية المصنوعة في بلاد الشام والعلاج والأخشاب والعقاقير، والتوابل الواردة من الشرق الأقصى، وتصديرها إلى أوروبا، وكانت تلك المواد تأتي بواسطة القوافل عن طريق الجزيرة العربية والعراق وتصل إلى دمشق ومنها إلى موانىء الشام الساحلية حيث يتم شحنها إلى الغرب [٣].

---

(١) المرجع نفسه جـ ٤ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢.
(٢) للمزيد من التفصيل عن الصناعات الشامية انظر خطط الشام جـ ٤ ص ١٩٩ ـ ٢٣٢.
(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٩٩ ـ ١٢٠٠.

وعلى الرغم مما دار بين المسلمين والصليبيين من عداء وصراع طويل أكثر من قرنين من الزمان، فإن التجارة بين الجانبين ظلت قائمة وبخاصة حين يتوقف القتال وتعقد الهدنة بين الطرفين، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن جبير في رحلته حين زار بلاد الشام ورأى التبادل التجاري القائم بين المسلمين والصليبيين فقال: «ومن أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين»[1]. كما أشار ابن جبير إلى رحيله في قافلة إلى عكا حيث نزلت القافلة بأمان في مكان معد لنزول القوافل الإسلامية[2]. ومما يبرهن أيضاً على ما أصابته التجارة من حرية وأمان في هذا العصر أن الصليبيين قدموا إلى دمشق سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م لشراء السلاح من أسواقها لمحاربة المسلمين أنفسهم وذلك بعد أن تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين ضد ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، فأفتى شيخ الشافعية حينذاك عز الدين بن عبد السلام بعدم جواز بيع الأسلحة للصليبيين طالما تستخدم لقتل المسلمين[3].

ولم تفقد بلاد الشام أهميتها التجارية إلا بعد غزو المغول للعراق وقفلهم طريق الخليج العربي الذي كان يرتبط ببغداد ودمشق وموانىء الشام، واتخذ المغول الطريق البري عبر امبراطوريتهم حتى البحر الأسود ثم أوروبا دون الحاجة للمرور ببلاد الشام[4].

أهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة:

من الطبيعي أن ينعكس الازدهار الاقتصادي والثراء المالي في أي بلد من البلدان على المنشآت العمرانية والمرافق العامة، إذ أن السيولة النقدية تتيح

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧١.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٥.

(٣) انظر ما سبق الفصل الثالث ص ٢٧٨.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٠٠

للسلطات الحاكمة القيام بالمشروعات العامة لرفع مستوى المعيشة للسكان وتوفير أسباب الراحة . ولأن بلاد الشام شهدت خلال هذه الحقبة فترات من الثراء المالي والازدهار الاقتصادي فقد أدى ذلك إلى قيام الحكام بكثير من المشروعات هدفت إلى رفع مستوى السكان في بلاد الشام.

وقد حظيت حلب بكثير من المنشآت العمرانية والمرافق العامة ففي سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ م قام ملك حلب الظاهر غازي بن صلاح الدين بإنشاء مرفق بالغ الأهمية وهو شبكة مياه لمدينة حلب، فقد كانت تقع إلى الشمال من حلب قرية تسمى حيلان بها عين فوارة كثيرة المياه تسيح إلى ناحية حلب على شكل نهر، وقد أفاد الحلبيون منها في عصور سابقة[١]. ولكن الظاهر أحضر المهندسين والصناع وخرج بنفسه معهم إلى منبع هذه العين وبعد أن درسوها أخبروه بأنه يمكن توزيعها على جميع أحياء وشوارع حلب ودورها ومدارسها وأربطتها، وتبقى كمية أخرى من المياه تكفي البساتين والأراضي الزراعية بحلب، فأمر بالشروع في العمل وساهم بنفسه فيه وأحضر جميع أمرائه للاشتراك فيه، وأمر بقياس المسافة من حيلان إلى باب مدينة حلب فكانت خمسة وثلاثين ألف ذراع، بذراع النجارين وهو ذراع ونصف، ثم قسم تلك المسافة على الأمراء وأتباعهم ومعهم الصناع والعمال، وحمل إليهم الكلس والزيت والحجارة والآجر وتم إصلاح القناة وتغطيتها، وأمر بترك مواضع بدون غطاء لتنقية المياه خلالها وتفقد المجرى، وتم إكمال المجرى إلى حلب في ثمانية وخمسين يوماً ثم شرع في إنشاء القنوات داخل مدينة حلب[٢].

وقد أفرد ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة فصلاً كاملاً عن هذه الشبكة المائية التي أنشأها الظاهر وقدم شرحاً مستفيضاً للقنوات الفرعية التي

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة حيلان جـ ٢ ص ٣٣٢؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١٤٣.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥؛ وانظر أيضاً: تاريخ ابن الفرات جـ ٥ قسم ١ ص ٧٧ ـ ٧٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٨٦ ـ ١٨٧؛ أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١١١.

توزعت على جميع أحياء حلب ودورها ومدارسها وأربطتها ومساجدها وغير ذلك، وذكر أسماء الصهاريج والأحواض التي تتجمع فيها المياه الأخرى التي تتوزع فيها وبعد أن أفاض في الشرح قال «وهذا آخر ما جدده الملك الظاهر وأنشأه من القساطل التي تجري فيها المياه وينتفع بها سوى ما هو سائح إلى برك المساجد والمدارس والربط والحمامات والدور والبساتين وغير ذلك، وصرف على هذه القساطل والطرقات أموالاً كثيرة ووقف عليها الملك الظاهر أوقافاً سنية» (1). وهكذا نعمت حلب بشبكة مائية فريدة قل أن نجد لها نظيراً في المدن خلال العصور الوسطى.

ولم تقتصر إصلاحات الظاهر ومنشآته على شبكة المياه هذه، بل قام بإصلاحات واسعة في أسوار حلب فبنى سوراً جديداً ظاهر السور القديم وبنى به أبرجة جديدة وكبيرة كأنها القلاع، وأنشأ بتلك الأبراج أبواباً ضخمة وأمر بحفر خندق خارج السور، وكان على الدوام يشرف بنفسه على سير العمل في هذه المنشآت. وقد انتهى العمل في هذه المشروعات سنة٦١٢ هـ / ١٢١٥ م (2).

وظلت التجديدات والاصلاحات قائمة في أسوار حلب وقلعتها زمن الظاهر غازي وطوال العصر الأيوبي حتى سقوط حلب بيد المغول سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م (3). مما يشير إلى توفر الأموال اللازمة لتلك المنشآت العمرانية والمرافق الواسعة.

أما في دمشق وجنوب بلاد الشام فقد شهدت هذه المنطقة منشآت ومرافق

---

(1) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١٤٥ - ١٤٩ - والقسطل في لغة أهل الشام هو الموضع الذي تفترق منه المياه، انظر: ياقوت: معجم البلدان، مادة قسطل جـ ٤ ص ٣٤٧.

(2) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١٧، ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٦٥ - ١٦٧.

(3) انظر ابن العديم: بغية الطلب مخطوط أيا صوفيا لوحة ١٢٢، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١٨ - ٢١؛ ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ١٠٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٩٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ ٣ ص ١٩٦.

وإصلاحات طوال هذه الحقبة فبالإضافة إلى عشرات المدارس التي أنشئت خلال هذه الفترة، فقد قام السلطان العادل سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م بإصلاح قلعة دمشق، فهدم أبنية قديمة بها، وأعاد بناء سورها وجعل به اثنـي عشر برجاً كل برج منها كأنه قلعة صغيرة وحفر حولها خندقاً عميقاً وأجرى الماء إليه زيادة في التحصين[١]، كما شرع العادل في السنة نفسها في بناء فصيل[٢] دائر على سور دمشق بالحجر والجير وأمر بتعميق الخندق الخارجي وإجراء الماء إليه[٣].

وفي سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م زمن السلطان العادل بدأ العمل في مصلى كبير خاص بالعيدين خارج دمشق وبني له منبر كبير عال[٤]. وفي السنة نفسها جددت أبواب الجامع الأموي من الجهة الغربية بالنحاس الأصفر[٥]. وأمر العادل بتبليط صحن الجامع وأروقته الداخلية[٦].

وأنشأ المعظم بن العادل الكثير من المرافق العامة والمنشآت العمرانية في جنوب بلاد الشام، فحين سلمه والده العادل الكرك سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م زاد في عمارته وتحصيناته ونقل إليه أرباب الصناعات المختلفة حتى أصبح مدينة متكاملة مكتفية بمواردها كما قام بزراعة الحدائق والأشجار في قرى الكرك وأجرى خلالها العيون[٧].

وفي جبال الغور الشرقية أنشأ المعظم قلعة جديدة جنوب عجلون هي

---

(١) ابن طولون: الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية لوحة ١، العيني: عقد الجمان جـ٣ لوحة ٣٠٩؛ الخطيب العمري: الدر المكنون ورقة ١١١ ب، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٣٩؛ ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ٥٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٨٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٣٤؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٩، المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٦٨،

(٢) الفصيل: حائط دون الحصن أو دون أسوار المدينة، انظر ابن منظور: لسان العرب مادة فصيل.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤١؛ ابن الفرات جـ٤ قسم ٢ ص ٢٤٩.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٧٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٥٧.

(٥) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٧٦.

(٦) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٢ ص ٧٧؛ المقريزي: السلوك جـ١ ص ١٨٠.

(٧) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٧٣.

قلعة الصلت وقد اختار لها موقعاً هاماً على جبل يعرف برأس الأمير وحصنها تحصيناً كبيراً وأدخل الماء إليها من عين مجاورة(١).

أما حصن الشوبك القريب من الكرك فحين تسلمه من والده قام بتحصينه وتجميله وزراعته «ونقل إليه الأشجار من سائر الأقطار حتى صار يضاهي دمشق في روائها، وتدفق مياهها وطيب هوائها»(٢).

ووجه المعظم اهتمامه لتوفير سبل الراحة والطمأنينة للحجاج الوافدين من شمال الشام ودمشق وآسيا الصغرى صوب الأراضي المقدسة فقام ببناء حمامين قرب مدينة معان شرقي فلسطين، أحدهما للرجال والآخر للنساء وأقام الدور والخانات لراحة الحجاج والمسافرين عبر هذه المناطق كما عبد الطريق ومهد الأجزاء الوعرة منه، وغرس الأشجار على جانبي الطريق من بلاد الشام إلى أطراف الحجاز لتوفير الظل للمسافرين كما أنشأ صهاريج المياه في طريق الحجاج، وقد قرر أن يبني في كل منزلة إلى الأراضي المقدسة بالحجاز داراً بها جميع وسائل الراحة للحجاج والمعتمرين والمسافرين، وبنى المساجد في طرق المسافرين، كما بنى القلاع والحصون على طول الطريق لحمايتهم، وأوقف على كل ذلك الأوقاف الجليلة لضمان قيام تلك المرافق بخدماتها(٣).

أما الملك الأشرف فحين أصبح ملكاً على دمشق سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م قام بعذد من الإصلاحات فبنى دار الحديث النبوي بعاصمة الشام وأوقف عليها أوقافاً كثيرة وجعلها خاصة بتدريس حديث النبي ﷺ (٤).

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٨٣ ـ ٨٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٠٦.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم لبنان والأردن وفلسطين ص ٨٠.

(٣) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ ب؛ الصفدي: تحفة ذوي الألباب ورقة ١٥٢ ب؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٤٩ ـ ٦٥٠؛ أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٢؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٨٤؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ ١ ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

(٤) تاريخ ابن الفرات، جـ ٦ لوحة ٣٩٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٤٢ ـ ١٤٣؛ ابن

وكان بأحد أحياء دمشق خان تباع فيه الخمور وتنتشر به المفاسد فأمر بهدمه وأنشأ مكانه جامعاً تصلى فيه الصلوات الخمس والجمع وسماه جامع التوبة وجعله في غاية الحسن والجمال وأوقف عليه أوقافاً حسنة[1]. كما بنى الأشرف ثلاثة مساجد أخرى بدمشق[2] وبنى القصور الجميلة ومنها قصره بالنيرب - إحدى ضواحي دمشق - الذي أضحى من أجمل القصور في بلاد الشام[3].

طولون: القلائد الجوهرية جـ ١ ص ٩٥، ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٢٢؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ص ٢٩٥.

(١) العليمي: تاريخ من ملك مصر وعكا وحلب والشام والسواحل ورقة ١١٤ أ ب؛ الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٣ ب - ٢٠٤ أ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٩٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٣١٣.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٢٢.

(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٦ لوحة ٣٩٤ - ٣٩٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٤٣ - ١٤٤.

الخاتمة

بحمد الله وتوفيقه انتهى موضوع البحث الذي قام بدراسة شاملة لأوضاع بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، وقد أوضحت الدراسة الكثير من الحقائق أهمها: أن الدولة الأيوبية ورثت نظم الحكم وفلسفته عن الدولة السلجوقية الأم ـ شأنها في ذلك شأن الدولة الزنكية ـ وأسوأ ما ورثته من تلك النظم، أنه كان ينظر إلى الدولة على أنها إرث يقسم بين أبناء السلطان بعد موته، وقد أدت تلك النظرة إلى تمزق الدولة وضعفها. وكان ذلك من أهم الأسباب التي أودت بحياتها في نهاية المطاف.

وقد أظهرت الدراسة افتقار أبناء صلاح الدين إلى الكثير من صفات القيادة العسكرية الفذة، والحنكة السياسية النافذة التي اشتهر بها والدهم، فلم يستطع أحد منهم بسط نفوذه على الدولة الأيوبية، الأمر الذي هيأ الفرصة لعمهم العادل لكي يهيمن على أجزاء الدولة الأيوبية ويوحدها من جديد تحت قيادته مستغلاً ما دار من نزاع بين أبناء أخيه.

كما برهنت الدراسة على ما نجم عن الإقطاع الحربي الأيوبي من آثار سيئة على الأوضاع السياسية في بلاد الشام، إذ تطلع الأمراء المقطعون إلى محاولة نيل استقلالهم عن ملوك بني أيوب، وتأكيد سيطرتهم على إقطاعياتهم في بلاد الشام. كما أن ولاء أولئك الأمراء ارتبط بمقدار ما يمنحه لهم ملوك بني أيوب من إقطاعات، وكانوا ـ أي الأمراء المقطعون ـ على استعداد دائم لتغيير ولائهم لمن

يمنحهم إقطاعات أكبر وأكثر إيراداً، الأمر الذي زاد من تدهور بلاد الشام، وأوصلها إلى درجات خطيرة من التفكك والاضطراب.

واتضح من الدراسة أن قيام الممالك الأيوبية الصغيرة في بلاد الشام مثل حلب وحمص وحماه وبعلبك كان من عوامل القلق السياسي، الأمر الذي تمخض عنه زيادة حدة الخلافات وتعميق الانقسامات ووصول بلاد الشام إلى مرحلة من التمزق أصبحت معها محاولات الإصلاح غير مجدية. ومما زاد الأمور سوءاً واضطراباً أن مقاليد الحكم داخل الممالك الصغيرة أصبح مثار خصام بين الأخوة، فتعقدت المشكلات وتفاقمت المنازعات مما عاد بأوخم العواقب على أوضاع بلاد الشام.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن القبائل العربية لم تلعب دوراً مؤثراً في تاريخ بلاد الشام وجهاد الصليبيين قبيل الغزو المغولي، بعكس ما اشتهر عن أثر القبائل العربية في تاريخ بلاد الشام خلال القرون الأولى (من القرن الأول إلى الخامس الهجري) ويعود سبب ذلك الانكماش لدور القبائل العربية إلى أنها فقدت نفوذها السياسي منذ زمن بعيد لحساب العناصر التركية والكردية، ولم يبق لها من المكاسب ما تدافع عنه.

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة أن السلطان العادل لم يستفد من الدرس الماثل أمامه، حين اقتسم أبناء أخيه صلاح الدين المملكة وترتب على ذلك نشوب النزاع بينهم، فعمد السلطان العادل إلى تقسيم المملكة مرة أخرى بين أولاده الأمر الذي أدى إلى وقوع المنافسات بينهم ـ مثلما حدث بين أبناء صلاح الدين ـ وتطورت تلك المنازعات إلى الاستعانة بقوى خارجية ـ إسلامية وغير إسلامية ـ مما عاد بأفدح الضرر على الجبهة الإسلامية إزاء الصليبيين وأدى إلى تدهور الدولة الأيوبية وتبديد مواردها. ذلك أن النزاع بين أبناء السلطان العادل وصل إلى نقطة بالغة الخطورة على بلاد الشام، فالمعظم بتحالفه مع جلال الدين الخوارزمي أثار طمع الخوارزمية في بلاد الشام والجزيرة، ووقع الملك الكامل في

عزلة سياسية كاملة بعد أن أضحى عاجزاً عن مساعدة أخيه الأشرف ضد الخوارزمي بسبب منع المعظم للمساعدات القادمة من مصر إلى الأشرف مما حفز الكامل للاستعانة بالامبراطور فردريك الثاني الذي جاء على رأس حملة صليبية صغيرة، وتسلم من الكامل بيت المقدس دون قتال. وهكذا أصبحت أطماع أبناء العادل في أملاك بعضهم البعض مدعاة للقلق والاضطراب السياسي في وقت كان يتحتم فيه عليهم توحيد القوى البشرية الإسلامية وحشد الطاقات المادية لمواجهة عدوان الصليبيين المستمر على بلاد الشام ومصر، إضافة إلى وجوب الاستعداد وبناء جبهة إسلامية متحدة، ولا سيما أن خطر المغول بدأ يظهر للعيان.

كما نجم عن المنازعات بين خلفاء السلطان العادل نتائج وخيمة على الحالة الاقتصادية في بلاد الشام حينما كانت أطراف النزاع تتبادل الغارات ضد بلاد بعضها البعض الأمر الذي تمخض عنه أضرار بالغة على صغار المزارعين وعامة السكان الذين ليس لهم مصلحة في تلك المنازعات ولكنهم دفعوا ثمناً باهظاً دون مبرر.

وبينت الدراسة أن اندلاع الحرب الأهلية بين الأيوبيين في بلاد الشام قضى على الكثير من القيم والمفاهيم فأصبح بعض ملوك بني أيوب لا يتحرجون حتى عن التحالف مع الصليبيين ضد بعضهم البعض بل وتسليم بلاد المسلمين للصليبيين ثمناً لذلك التحالف، والسير بعساكرهم تحت أعلام الفرنج وصلبانهم الأمر الذي قضى على هيبة الدولة الأيوبية، تلك الدولة التي قامت أساساً برفع راية الجهاد ضد الصليبيين لتحرير الأراضي التي اغتصبوها من بلاد الشام. وبوقوع الدولة الأيوبية في أتون تلك المنازعات الداخلية المستمرة فقدت مبرر وجودها الشرعي، فعلى سبيل المثال تعرضت دمشق عاصمة بلاد الشام منذ وفاة صلاح الدين وحتى عشية الغزو المغولي للحصار والاستيلاء من قبل الأيوبيين أكثر من عشر مرات في الوقت الذي لم تتعرض فيه المدن الرئيسة الخاضعة للصليبيين مثل عكا وصور وإنطاكية لحصار واحد من قبل الأيوبيين.

وتجدر الإشارة إلى أن الحروب التي اندلعت بين الأيوبيين في بلاد الشام وبينهم وبين الخوارزمية ثم دخول طائفة المماليك البحرية أخيراً في منازعات بلاد الشام، كل تلك الحروب أهدرت الكثير من الطاقات البشرية والمادية للمسلمين، والتي كان يمكن ادخارها لجهاد الصليبيين ودرء خطر المغول.

واتضح من البحث أن الدولة الأيوبية أفادت من شراء المماليك وتجنيدهم في تحقيق بعض المكاسب الآنية، غير أن المماليك هم الذين قضوا على الدولة الأيوبية في نهاية المطاف.

والحق أن الدولة الأيوبية في بلاد الشام ومصر أخذت منذ سنة ٦٣٥ هـ/ تعاني آلام الموت التدريجي البطيء. وإذا كانت الدولة الأيوبية بدت بعد انتصار الصالح أيوب على منافسيه وتوحيد مصر والشام (٦٤٢ ـ ٦٤٧ هـ) وكأنها استعادت قوتها وعنفوانها، فإن ذلك كان مجرد صحوة مؤقتة وأخيرة بل هي أشبه بصحوة الموت التي تسبق القدر المحتوم.

وبرهنت الدراسة على فتور تيار الجهاد ضد الصليبيين بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، فتوقفت حركة الاسترداد المنظم للبلاد المغتصبة، واقتصر موقف المسلمين على الدفاع وشن الغارات المضادة رداً على الحملات والغارات الصليبية المتتالية. كما لم يدرك خلفاء صلاح الدين أبعاد الاستراتيجية العظيمة التي وضعها صلاح الدين وهي إقامة جبهة إسلامية متخذة من النيل إلى الفرات لوضع الصليبيين بين شقي الرحى، وفرطوا ـ دون وعي منهم ـ في تلك الوحدة مما كان له أسوأ الأثر على الموقف الإسلامي برمته إزاء الوجود الصليبي.

وقد أوضح البحث أنَّ السلطان العادل لم يوغل كثيراً في الضغط على الصليبيين في بلاد الشام حتى لا يستثير أوروبا والبابوية لتجريد حملات جديدة بعد أن أدرك أن كل كارثة تحل بالصليبيين في بلاد الشام يعقبها رد فعل عنيف لدى البابوية والغرب الأوربي فيقومون بتجريد حملة جديدة للانتقام من المسلمين.

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة أن الصليبيين أدركوا منذ بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أن مصر تمثل مركز المقاومة الإسلامية الرئيس لما تمتعت به من موارد ضخمة فضلاً عن موقعها الفريد، ولذلك توجهت نحوها الحملات الصليبية بغية الاستيلاء عليها حتى يمكن بعد ذلك ضمان السيطرة الدائمة على الأراضي المقدسة في بلاد الشام.

واتضح من الدراسة الأهمية البالغة للوحدة والتضامن بين الحكام المسلمين، فحين اتفق الأخوة الثلاثة أبناء السلطان العادل ـ الكامل والمعظم والأشرف ـ تمكنوا من دحر الحملة الصليبية الخامسة رغم أنها تكونت من عشرات الألوف من الصليبيين على اختلاف أجناسهم، وفشلت الحملة فشلاً ذريعاً في تحقيق أيّ هدف من أهدافها. وعندما دب النزاع بين الأخوة الثلاثة بعد هزيمة الصليبيين، أدى ذلك إلى مجيء حملة صليبية صغيرة ـ الحملة السادسة ـ بقيادة فردريك الثاني وكان عدد أفرادها لا يتجاوز بضع مئات من المحاربين، واستطاعت ـ بسبب الصراع بين أبناء العادل ـ الحصول على بيت المقدس من السلطان الكامل دون قتال. وهذا يوضح حقيقة كبرى وهامة في تاريخ الحروب الصليبية ـ بل وفي كل صراع بين المسلمين وأعدائهم ـ وهي أنه كلما اتحدت القاهرة ودمشق تحقق النصر الحاسم على أعداء المسلمين وحينما تنقسم العاصمتان وتختلفان ينعكس ذلك على الجبهة الإسلامية فيخسر المسلمون جولات الصراع مع الأعداء.

فعندما اتحدت دمشق مع القاهرة زمن الحملة الصليبية الخامسة أدى ذلك إلى فشل الحملة رغم قوتها وضخامتها ولمّا اختلفت العاصمتان نجحت الحملة السادسة رغم ضعفها وقلة مواردها ـ وبدون قتال ـ في انتزاع بيت المقدس من المسلمين. كما ترتب على الحرب الأهلية بين دمشق والقاهرة إعطاء الصليبيين بيت المقدس وأجزاء أخرى من مدن فلسطين وسواحل الشام؛ وحينما عادت الوحدة بين دمشق والقاهرة زمن الصالح أيوب أدى ذلك إلى فشل حملة لويس التاسع على مصر.

وبرهنت الدراسة على خطأ سياسة هدم أسوار وتحصينات المدن الإسلامية خوفاً من وقوعها بأيدي الفرنج، مثل قيام الملك المعظم عيسى بن العادل بهدم أسوار وتحصينات بيت المقدس متوقعاً سقوطه بيد الصليبيين زمن الحملة الصليبية الخامسة، وبعد أن فشلت الحملة ظهر ذلك الخطأ واضحاً جلياً. فمن المؤكد أن بقاء بيت المقدس مدينة مفتوحة ـ بعد هدم أسوارها وتحصيناتها ـ هو الذي ساعد على قبول السلطان الكامل للتخلي عن بيت المقدس وتسليمها للامبراطور فردريك الثاني. إذ لو بقيت أسوارها وتحصيناتها على حالها، لتمكن الكامل من إبقاء حامية بها للدفاع عنها وانصرف هو لتحقيق أهدافه في السيطرة على دمشق.

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة أن الهزيمة الساحقة التي حلت بالصليبيين في معركة غزة وقعت خلال الحرب الأهلية بين ملوك الشام وبين الصالح أيوب، ولم تكن المعركة موجهة أساساً لجهاد الصليبيين مثل معركة حطين، وإنما كان هدف الصالح أيوب محاربة أعدائه من ملوك الشام الذين تحالفوا مع الصليبيين بغية القضاء عليه، واستطاعت قواته بمساعدة الخوارزمية من إنزال الهزيمة بملوك الشام وحلفائهم الصليبيين. ولكن هذه المعركة الحاسمة هي التي قررت مصير الصليبيين في بلاد الشام لأنها قضت على البنية الأساسية لقواتهم، ولم يعد لهم بعدها من الطاقة والقدرة ما يستطيعون به مواجهة المسلمين في ميدان مكشوف. وإذا كانت بقايا الصليبيين في بلاد الشام استمرت بعد معركة غزة أكثر من ربع قرن من الزمان فإن سبب ذلك هو انشغال المسلمين في بلاد الشام بالمنازعات فيما بينهم عشية الغزو المغولي، ثم انصراف دولة المماليك الفتية لتوطيد نفوذها في مصر ثم التصدى للمغول وطردهم من بلاد الشام وإبعاد خطرهم إلى ما وراء الفرات.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن حملة ملك فرنسا لويس التاسع على مصر والشام أوقعت اليأس والإحباط في نفوس الصليبيين في الغرب الأوربي واقتنعوا بعدم جدوى إرسال الحملات الصليبية إلى الشرق. كما أن

تلك الحملة لم تحقق أية مكاسب قيمة للصليبيين في بلاد الشام ولم تطل في عمر الوجود الصليبي داخل بلاد المسلمين، وأصبح ذلك الوجود الغريب والدخيل مرتبطاً بالنتائج التي ستتمخض عن قيام دولة المماليك والغزو المغولي لبلاد الشام.

وأوضحت الدراسة حرص ملوك بني أيوب على الارتباط بالخلافة العباسية في بغداد لإكساب حكمهم الصبغة الشرعية نظراً لأن الخلافة العباسية كانت تمثل ـ وقتذاك ـ رمز وحدة المسلمين، كما أنها حاولت ـ قدر استطاعتها ـ إيجاد حلول للمنازعات التي نشبت بين ملوك الأيوبيين في بلاد الشام ومصر ثم بينهم وبين دولة المماليك بعد قيامها بغية توحيد صفوف المسلمين ولا سيما وأن الخلافة العباسية كانت أكثر إحساساً بخطر المغول الذي بدأ يلوح في الأفق منذ أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجري.

وتبين من البحث أنّ سلاجقة الروم لم يكونوا على وعي تام بطبيعة الحركة الصليبية، ولذلك لم يتعاونوا مع الأيوبيين على درء الخطر الصليبي، بل سببوا خطراً شديداً للأيوبيين زمن الحملة الصليبية الخامسة حينما هاجموا شمال الشام في وقت كان يجب فيه عليهم ـ باعتبارهم مسلمين ـ تقديم العون والمساعدة للأيوبيين لمواجهة الحملة الصليبية الخامسة التي هددت بلاد الشام ومصر. كما صرف الأيوبيون وسلاجقة الروم جهودهم وإمكاناتهم في معارك جانبية لا طائل من ورائها مثل الحملة الضخمة التي قادها السلطان الكامل ضد سلاجقة الروم، والتي كان لها آثار سيئة على الدولة الأيوبية وعلى وحدة البيت الأيوبي نفسه، فضلاً عن فشلها في تحقيق أية مكاسب على حساب سلاجقة الروم. ولو وجه السلطان الكامل تلك الحملة ضد الصليبيين في بلاد الشام لأحرز الكثير من الانتصارات ضدهم ولتمكن من تدعيم وحدة بني أيوب ورفع مكانتهم آنذاك في نظر عامة المسلمين.

وأثبتت الدراسة أن جلال الدين الخوارزمي استنفد قواه في صراع مرير مع

الأيوبيين وسلاجقة الروم ولم يحاول التضامن معهم لدرء خطر المغول وهو الأمر الذي ساعد على سقوطه سريعاً أمام جحافل المغول وانفرادهم ببقية القوى الإسلامية الواحدة تلو الأخرى.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث، أنه بعد كل ما أصاب بلاد الشام من تمزق سياسي وحروب أهلية طويلة جاء الخوارزمية بغاراتهم المدمرة وأضافوا المزيد من أسباب التدهور والانهيار، إذ إن الخوارزمية دأبوا على محاكاة المغول في نهب وتدمير كل المناطق التي يمرون بها، ولم يؤثر إسلامهم في سلوكهم إذ كانوا يرون أن لهم الحق في نهب كل مكان تصل إليه أيديهم. ولقد عانت بلاد الشام كثيراً على أيدي الخوارزمية قبيل الغزو المغولي. غير أنه من ناحية أخرى كان لدخول الخوارزمية إلى بلاد الشام أثر بعيد في تعديل ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين فبعد أن تحول الموقف لصالح الصليبيين منذ حملة فردريك الثاني جاء الخوارزمية وتحالفوا مع الصالح أيوب وسحقوا الصليبيين في معركة غزة الحاسمة والتي كانت إيذاناً بانهيار بقايا الوجود الصليبي لأنها مهدت السبيل فيما بعد لسلاطين المماليك لاقتلاع جذور الوجود الصليبي نهائياً من بلاد الشام.

وقد اتضح من البحث مدى الروح الصليبية المتعصبة لدى مملكة أرمينية الصغرى إزاء المسلمين، فتحالف الأرمن مع الصليبيين ومارسوا سياسة صليبية حاقدة ضد الإسلام والمسلمين، حتى أنهم تطلعوا في نهاية المطاف إلى التحالف مع المغول بهدف القضاء على المسلمين في بلاد الشام.

ومن النتائج التي أثبتتها الدراسة، عدم وعي القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصغرى بمدى وأبعاد الخطر المغولي ولا سيما حين أخذ المغول منذ وقت مبكر في الإغارة على العراق والجزيرة لمراقبة القوى الإسلامية في هذه المناطق ومعرفة إمكانياتها وقدراتها على الدوام تمهيداً للغزوة الكبرى التي قادها هولاكو. كما لم يدرك حكام المسلمين في بلاد الشرق الأدنى مغزى سياسة المغول التي قامت على أساس الانفراد بكل دولة إسلامية على حدة حتى يسهل

القضاء عليها جميعاً، فأخضع المغول دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة ٦٤١ هـ/ وطوقوا بذلك العراق والجزيرة وبلاد الشام من الشمال والشرق، الأمر الذي سهل من مهمة هولاكو فيما بعد. واستمر عدم وعي الأيوبيين بخطر المغول إلى أن بدأ زحف هولاكو على العراق والجزيرة وبلاد الشام، وليس أدل على ذلك من المواقف المتناقضة للناصر يوسف صاحب الشام إزاء المغول.

وأخيراً وبعد قيام الباحث بهذه الدراسة والتأمل في تاريخ الدول الإسلامية التي عاصرت الحروب الصليبية، فقد خَلُصَ إلى نظرية في تفسير قيام تلك الدول الإسلامية وسقوطها وهي: أن الدول الإسلامية اكتسبت شرعية وجودها ـ منذ عهد الدولة السلجوقية حين بدأ الغرب النصراني في هجومه الصليبي الحاقد ضد الإسلام والمسلمين ـ من إقامتها لفريضة الجهاد كما أمر بها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. وما أن تتخلى تلك الدول أو تتقاعس عن إقامة تلك الفريضة حتى تفقد مبرر وجودها الشرعي وتسقط لتحل محلها دولة أخرى تقيم فريضة الجهاد، فالدولة السلجوقية اكتسبت شرعية وجودها من قيامها بجهاد البيزنطيين وحينما عجز سلاجقة الشام عن القيام بصد الحملة الصليبية الأولى سقطوا وحلت محلهم الدولة الزنكية التي قامت بأداء الجهاد خير قيام زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وحين عجزت الدولة الزنكية عن إقامة فريضة الجهاد بعد موت نور الدين حلت محلها الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الذي أقام فريضة الجهاد في أبهى وأجل صورها، واستمر أداء تلك الفريضة بصورة أقل في عهد أخيه العادل. وحينما أخفق خلفاؤه من بعده في جهاد الصليبيين فقدت الدولة مبرر وجودها وشرعيته وسقطت بأيدي مماليكها (دولة المماليك) الذين اكتسبوا الشرعية لدولتهم من جهادهم وهزيمتهم للمغول واقتلاع الوجود الصليبي من جذوره في بلاد الشام ودرء الأخطار عن بلاد المسلمين.

الملاحق

الملاحق

الملحق الأول:

بداية الحرب الأهلية واستيلاء السلطان الكامل على دمشق سنة ٦٣٥هـ

الملحق الثاني:

الناصر داود واستعادة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٣٧هـ

الملحق الثالث:

حملة كيكاوس على حلب وشمال الشام سنة ٦١٥هـ.

الملحق الرابع:

سياسة ملك الأرمن إزاء إمارة إنطاكية وموقف ملك حلب.

الملحق الخامس:

نص رسالتين بعث بهما الامبراطور فردريك الثاني إلى صديقه فخر الدين بن شيخ الشيوخ وزير السلطان الكامل سنة ٦٢٧هـ.

الملك السادس:

ثبت بأسماء الحكام في بلاد الشام وبعض البلدان الأخرى خلال فترة البحث.

الملحق الأول

بداية الحرب الأهلية واستيلاء السلطان الكامل على دمشق سنة ٦٣٥[1] ـ حوادث سنة ٦٣٥هـ

ونشرع في ذكر الحوادث الكاينة بعد وفاة السلطان الملك الأشرف معتمدين في ذلك على رسالة ألفها الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي فإني لم أكن حاضراً بدمشق يومئذ: ولما توفي السلطان الملك الأشرف تقرر في الملك بدمشق أخوه الملك الصالح اسماعيل وتواترت الأخبار بعزم الملك الكامل. . . على التوجه من الديار المصرية إلى الشام، فأخذ الملك الصالح في تحصين دمشق، وتهيئة أسباب الحصار، وتوجه الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص إلى بلاده، والتزم بإنفاذ الأموال والأولاد والرجال، ونزل بدمشق ولده الملك المنصور ابراهيم وتوجه نجم الدين خليل قاضي العسكر رسولاً من الملك الصالح إلى الروم لطلب النجدة والمساعدة، وتوجه عز الدين أيبك المعظمي إلى صرخد ليدبر أمورها ويعود.

وتزايدت الأخبار بوصول السلطان الملك الكامل. . . إلى أن تحقق نزوله بغزة فجد الملك الصالح في تحصين البلد، وقطع الأجسار وعمل الستاير، وكان قد وصل من حلب ستة من أمرائها نجدة للملك الصالح منهم الناصح الفارسي.

وأما الملك المظفر صاحب حماه فإنه راسل السلطان الكامل ورجع إلى طاعته ووردت إليه كتب السلطان بتطييب قلبه ووعده فيها كل وعد جميل.

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع ورقة ٢٠٤ أ ب ـ ٢٠٧ أ.

ولما كان مستهل ربيع الأول تقدم الملك الصالح بأن لا يبقى أحد من الأجناد بظاهر دمشق، وتقدم بأخذ دور كل من هو من أصحاب الملك الكامل، ودور جماعة ايتام وغيرهم، ونودي بأن لا يبقى أحد في العقيبة[1] وقصر حجاج[1]، وتهددوهم، فلقي الناس من ذلك شدة، ثم أمر الملك الصالح بأن يعمل في كل مكان سد وأمامه خندق، واستخدم رجالة كثيرة، وفرق السلاح ورتّب الأجناد والأمراء على الأسوار ثم وصل السلطان. . . . إلى دمشق ونازلها لعشر بقين من ربيع الأول وعمل اليزك[2] عند مسجد القدم، وشرعت اللاوية[3] في النهب والخراب. ووصل عز الدين أيبك المعظمي من صرخد ودخل البلد في تلك الأيام، وكان دخوله في يوم شديد على الناس، قال عفيف الدين المقدم ذكره: رأيته يوم دخوله من باب الفراديس وهو قايم حاير لا يستطيع العبور من الزحمة وشدة الغلبة وأقمشة الناس بعضها على بعض والخيل تدوسها ولا يستطيع أصحابها منعهم من ذلك، ودخل عز الدين وحده بعد الشدة، ولم يقدر الجمدار[4] الذي له من الدخول معه لفرط الزحمة وضاقت لذلك صدور الناس، وأيقنوا بالحصار الشديد، ولزوا في دخول المدينة، وشرعوا في خراب الخانات بظاهر البلد، وبقي الحال على ذلك أياماً، ثم ضرب البوق وخرج العسكر والتقوا عند ميدان الحصا، وأخذ من كل واحد من الفريقين جماعة، وخرج من رجاله خلق. ثم بعث الملك الصالح يستدعي الملك المجاهد صاحب حمص، فاعتذر أنه خايف على بلاده من صاحب حماه، ولم يأت، وسير مائتيّ راجل نجدة، فأخذ بعضهم في البساتين فسيروا إلى الملك الكامل فشنق منهم في يوم واحد نحواً من خمسين رجلاً ووصل بعضهم وهم مجروحون.

---

(١) العقيبة وقصر حجاج من أحياء دمشق الواقعة خارج الأسوار، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٢) اليزك: لفظ فارسي معناه طلائع الجيش. انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤٨ حاشية رقم (١).

(٣) لم نعثر على تفسير لها في المصادر والمراجع المتداولة ويبدو أنها إحدى طوائف الجيش.

(٤) الجمدار: هو المسئول عن العناية بلباس السلطان وثيابه والكلمة مكونة من لفظين فارسيين «جام» ومعناه الثوب و «دار» ومعناه ممسك، انظر المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٣٣ حاشية رقم (١).

واستمر القتال والخراب بظاهر دمشق من الدور والخانات والجواسق والقنى، وقطع الأشجار، وصار كل من له غرض مع واحد وهو غايب خرج إلى داره فأخربها وربما أحرقها، ثم ضرب البوق وخرج المغادرة [1] فالتقوا عند الميدان ثم من بعد الظهر إلى بعد صلاة الغروب، وأخذوا مملوكاً من مماليك السلطان، وشيخ يقال له الشخوصي وأصبح الناس يخربون وينهبون، ثم ضرب البوق بعد أيام وخرج جميع العسكر إلى قصر حجاج والتقوا فكانت الغلبة للدمشقيين، وأخذوا من العسكر المصري خمسة عشر فارساً. . . . .

ولما كان السادس والعشرون من ربيع الآخر ضرب البوق وقت صلاة المغرب إلى ارتفاع النهار وفي ذلك اليوم، قتل سيف الدين بن شجاع الدين حلدك من أمراء ديار مصر، وجاؤا به إلى القلعة وبه رمق يسير فكلمه الملك الصالح فلم يقدر على رد الجواب ومات في تلك الليلة. . . وأحرقت في ذلك اليوم مدرسة عز الدين أيبك، والوراقة وتلك الأماكن كلها.

فلما كان مستهل جمادي الأولى ضرب البوق وزحف الملك الناصر صاحب الكرك من العقيبة إلى أن قارب باب الفراديس، وزحف الأمير ركن الدين الهيجاوي من جهة باب توما، ووصلوا إلى جسر الباب بحيث كان النشاب يقع في المدينة، وربما قتل بعض العامة في المدينة، ولم يشك أحد أن المدينة تهجم. واستمر القتال إلى الليل، وفي وسط الليل بعث السلطان فرحّل الملك الناصر من العقيبة. ولما أصبح الصباح، خرج الملك الصالح بالحجارين والزراقين[2]. . . . ، فحرقوا ونهبوا وخربوا، وردموا العقيبة وقصر حجاج والشاغور وباب توما وباب السلامة، واضطرب الناس في المدينة إضطراباً شديداً

(1) المغادرة نوع من عساكر الجيش الأيوبي وأغلب الظن أنهم كانوا أحراراً ولم يكونوا من المماليك، وربما سموا بهذا الاسم لتبعيتهم المباشرة لديوان المفرد الذي تخرج منه نفقة المماليك من جامكيات وعليق وكسوة ونحوه.

انظر ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٣ حاشية رقم (٥).

(2) الزراقون جمع زراق وهو رامي النفط من الزراقة، انظر: Dozy: Supplement Aux Dicion-naires, pp. 587 - 588.

خوفاً من أخذها بالسيف، وكان أشد ما على الناس بدمشق الطحين، فإن الإنسان كان يشتري غرارة قمح بخمسة وعشرين درهماً ويطحنها بثلاثين درهماً ، فمنّ الله سبحانه بالرحمة ودخل محي الدين بن الجوزي وكلم الملك الصالح في الصلح فأجاب إلى ذلك وعوضه عن ذلك السلطان رحمه الله بعلبك وأعمالها مضافاً إلى ما كان بيده من بصرى وأعمالها . . . وتم الصلح يوم الثلاثاء لسبع مضين من جمادي الأولى ودخل السلطان . . . إلى القلعة في الساعة السادسة من يوم الاثنين منتصف جمادي الأولى .

الملحق الثاني

الناصر داود واستعادة بيت المقدس من الصليبيين
سنة ٦٣٧هـ[١]

ولما صرف الناصر داود صاحب الكرك نفسه من الشواغل العارضة من جهة الممالك وتضييع الزمان في الإشتغال بما هنالك، اقتضى رأيه السعيد المبادرة إلى استنقاذ بيت المقدس من أيدي النصارى، الطائفة الفاجرة، رجاء ثواب الدنيا والآخرة. إنه جمع جمعاً عظيماً وأعد للهجمة على الفرنج في عود الذار على حين غفلة منهم، وقسم جمعه الذي جمعه، وجعله فرقاً، وعقد لكل فرقة راية، وأعد لكل طايفة جانباً من جوانب البلد يتداعون منه عند الهجمة برفع الأصوات بالتكبير. وانتظر الناصر بالكفرة والمشركين أعداء الدين يوم عيدهم الأكبر الذي يجتمعون فيه على الكفر وشرب الخمر ورفع الصليب على عادتهم في أيام أعيادهم ووصل الناصر. بمن معه ليلة العيد، ورتّب كل فرقة في مكانها الذي أعده لها، هذا والنصارى في غيهم ولهوهم وكفرهم وشركهم، وسكرهم، ثم أن المسلمين أشعلوا النيران ورفعوا الأعلام والرايات وكبروا وهجموا قبيل الصبح على النصارى في مواطن كفرهم وشركهم، فدهشوا وحاروا حين سمعوا التكبير من كل جانب من جوانب البلد، ووضع المسلمون فيهم السيف، واستمروا يقتلون ويأسرون وينهبون. وجاء ملك الفرنج وماشاه وجعل يخاطبه في معنى ما وقع من الناصر، فجرد سيفه وضرب عنق ملك الفرنج، وضج المسلمون بالتكبير والتهليل، وكانت وقعة هائلة. وما طلع النهار إلّا وقد قويت

---

(١) كمال الدين السيوطي: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ورقة ١٣٤ ب ـ ١٣٥ أ.

شوكة المسلمين وانصرفت هممهم إلى تتبع آثار النصارى من كل فج عميق، يا لها والله من هجمة، أتم الله بها النعمة على الأمة، وناداهم منها لسان الإحسان لا يكن أمركم عليكم غمة.

واعتنى الناصر بإقامة الشعائر. . . وأمر بكتابة البشائر إلى سائر الممالك بهذا الفتح المبين والنصر العزيز، فكتب وعادت الأجوبة عنها وفي جملتها قصيدة لإبن نباته المصري يمدح فيها الناصر وهي طويلة مشتملة على أبيات كثيرة منها:

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً
إذا غدا بالكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً
فناصر طهره أولاً وناصر طهره آخراً

ثم رجع الناصر بعد إتمام هذا الفتح المبين إلى الكرك، وقد سطرت هذه النوبة في صحائف حسناته وتواردت الألسن بالدعاء له وشكر ساعته.

الملحق الثالث

حملة كيكاوس على حلب وشمال الشام[1]
سنة ٦١٥هـ

وفي سنة ٦١٣هـ تزوج السلطان عز الدين كيكاوس. . . واستمر على أطيب العيش زماناً حتى كانت سنة ٦١٤هـ فبلغه أن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين قد مات وبقيت حلب في يد ابنه وكان صغيراً بتكفل والدته جميع أمور الملك، ولما بلغه ذلك طمع في ملك الشام فجمع الأمراء واستشارهم في ذلك فمنعوه وقالوا له: هذه سمعة قبيحة لا يليق بجناب السلطان أن يطمع في ملك يتيم كان أبوه وجده على المناصحة في المصادقة مع آباء السلطان، بل اللايق أن يمنع السلطان القاصدين والطامعين في ملكه، ومع قطع النظر عن ذلك أن الملك الأشرف صاحب الموصل والجزيرة خال ذلك الصبي فينجده. . . فيحصل بينه وبين السلطان وحشة بعد المودة التي كانت، فلم يسمع السلطان منهم ذلك وأصرّ على غزوه، فسار في جمع عظيم وجيش كثيف وكتب إلى الأمير نصرة صاحب مرعش[2] بالتجهز واللحوق به، فوصل السلطان إلى البستان[3] فلحق به فيها نصرة الدين بجمع عظيم من الجيش فساروا جميعاً على قلاع مرزبان[4] ورعبان وتل باشر فأخذها بالأمان بعد محاصرة يسيرة، فرتّب فيها المستحفظين.

---

(١) المولوي: صحائب الأخبار ورقة ٥٧٦ أ ب ـ ٥٧٧ أ.

(٢) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، انظر ياقوت: معجم البلدان.

(٣) البستان، وتعرف أيضاً باسم أبلستين وهي مدينة مشهورة ببلاد الروم (آسيا الصغرى) تقع غرب قيصرية على بعد ثمانين ميلاً، انظر كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٤) مرزبان: لم يرد لها ذكر في المراجع الجغرافية، ويبدو أنها من الثغور الشامية.

ولما بلغ الخبر إلى الصبي وأمه استنجدت أخاها الملك الأشرف فجاء إليها في جمع عظيم من العرب والأكراد والأتراك، فعكسر في مرج حلب، وانتظر إلى قدوم السلطان وعسكره، ولما اجتمع بإخته وابنها، تشاوروا في قتال السلطان، فقالت الملكة أم الصبي: إن العين قد أخبر بكثرة جمع السلطان، وكمال عدتهم وشوكتهم، فالرأي أن نلقي بين السلطان وبين أمرائه وحشة ويسيء ظن السلطان فيهم، فقال لها أخوها الأشرف: فما الطريق فيه. قالت: إنني دبرته، فأمر بشخص رومي فأحضروه، وكان ذلك الشخص مختلطاً بخواص السلطان ويعلم جميع أمرائه وأسمائهم وبعض سرائر أحوالهم وأقوالهم التي جرت بينهم وبين السلطان. فأحسنت إليه الملكة ووعدته بأضعافه إذا حصل المقصود من رجوع السلطان خائباً إلى دياره، وقالت له: تسير إلى عسكر السلطان وتنزل بخيمة أحد الخواص، وتقول كنت: في عسكر الشام فأطلعت على أمر غريب، فما تركتني الحمية حتى جئت مجداً بالسير لأطلع أحد الخواص على القضية ليعرضها على السلطان حتى لا يغفل، وهي أن جماعة من الأمراء قد اتفقوا مع الملك الأشرف على الغدر بالسلطان عند المصاف، فأرسل إليهم الملك الأشرف وأخته أموالاً وهدايا جليلة ومعها المكاتيب إليهم وتلك الأشياء في الموضع الفلاني يترصد حاملها الفرصة ليسلمها إليهم... إن أردتم أن تعلموا صدقي فأرسلوا معي جماعة حتى يقبضوا على الأشياء وحاملها. فعرض ذلك على السلطان فأرسل جماعة مع الشخص المذكور، فساروا وقبضوا على الأشياء وحاملها، وكانت الملكة قد أعدتها وأرسلتها في الموعد، فحملوها إلى السلطان، فوجد المكاتيب إلى جماعة من أمرائه فيها بعض الأسرار التي جرت بينه وبين هؤلاء الأمراء، فتوهم السلطان منهم، وأحسن إلى الشخص وحفظ المكاتيب، فجزم بصدق القول وصحة الأمر، وغفل عن مكر الأعداء لشبابه وعدم تجربته. ولما استوحش منهم لم يسر بنفسه إلى الزحف والقتال فأرسل أمير المجلس في أربعة آلاف طلايع، ثم أرسل ملك الأمراء في عقبه بأربعة ألوف أخرى، فقاتل الملك الأشرف الطلايع فانهزم منهم، ثم علم أن السلطان بعيد عن الطلايع فانعطف

عليهم، فهزمهم وأسر أمير المجلس مع عدة من الأمراء. ولما بلغ خبر انهزام الطلايع إلى السلطان زادت وحشته، فعاد من مكانه إلى البستان، فجاء الملك الأشرف وأخذ قلاع مرزبان ورعبان وتل باشر بالأمان. ولما بلغه عود السلطان أطلق أمير المجلس وساير الأمراء وأكرمهم وأحسن إليهم وسيرهم إلى السلطان.

وأما السلطان فلما بلغ إلى البستان أمر أولاً بالأمراء الذين سلموا إلى الملك الأشرف فصلبوهم، وكان أحدهم ولد نصرة الدين الحاجب بمرعش، ثم جمع الأمراء المتهمين وأظهر عليهم المكاتيب، فحلفوا بالله وبجميع الإيمان الغلاظ على أنهم براء من تلك التهمة، فلم يصدقهم السلطان وسول له الشيطان قتلهم بالعذاب، فأمر بهم وحبسوا في دار وجمع على أطراف الدار حطب كثير، وألقي فيه النار فاحترقوا جميعاً بالبكاء والصيحة والأنين، ولم يرحمهم ولا رق عليهم...

الملحق الرابع

العلاقات مع مملكة أرمينية الصغرى[1]
(سياسة ملك الأرمن إزاء إمارة إنطاكية الصليبية وموقف ملك حلب)

وفي سنة ستمائة هجم ابن لاون[2] انطاكية، فلم يشعر صاحبها إلاّ وهو على بابها، فارتاع لذلك، وقاتله في البلد ثم التجأ إلى القلعة وصاح بشعار الظاهر[3]، فكتب والي حارم على جناح طاير إلى الملك، فخرج بعساكره لنجدة البرنس[4]، فلما وصل إلى حارم بلغ ابن لاون مسيره فخرج عن إنطاكية، وترك فيها رجالاً فقتلوا، وكتب الظاهر لصاحبها بما يطيب به قلبه. حكاه ابن أبي طي، وقال ابن العديم: سنة إحدى، وزاد ابن لاون من ولد بردس الفقاس الذي كان في زمن سيف الدولة، ثم ذكر وقعات كانت بين ابن لاون وبين عسكر الظاهر، وترددت الرسل بينهما على الموادعة، وشرط عليه أن لا يعرض لإنطاكية، وقرر الصلح إلى ثمان سنين وذلك سنة اثنتين وستماية.

ولما كانت سنة اثنتيّ عشرة وستماية هجم ابن لاون إنطاكية فملكها وسلمها لإبن أخته، وكان السبب في ذلك أن البرنس[5] بيمند الكبير والد الذي ملكها يومئذ قد رزق ولدين أحدهما بيمند الذي هو ملكها والآخر اسمه ريمند وكان والده يميل إليه فخطب له أخت ابن لاون وزوجه بها ونص عليه بالملك

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة جـ ١ قسم ٢ نسخة آيا صوفيا لوحة ٣٣٦ ـ ٣٣٩.
(٢) هوليو الثاني ملك أرمينية الصغرى.
(٣) هو الظاهر غازي بن صلاح الدين ملك حلب.
(٤) هو بوهيمند الرابع حاكم طرابلس وانطاكية.
(٥) هو بوهيمند الثالث والد بوهيمند الرابع وريموند.

وأشهد عليه أهل ملته، واتفق أن ريمند أصابه الصرع فهلك في حياة أبيه وترك ولداً من أخت ابن لاون اسمه روبين، فأنفذ ابن لاون إلى إنطاكية وأخذ أخته وابنها وكان أخوه بيمند ملك طرابلس، فلما هلك أبوه وتغلب بطريق نصير على إنطاكية ثم مات وملكها بيمند ابن ريمند كما قدمنا. وجرت الوقعات التي قدمناها بينه وبين ابن لاون، وفي خلالها شب ابن اخته روبين فلما انقضت الهدنة التي قررها الملك الظاهر بينه وبين بيمند، كتب إليه أنك ظالم خارج عن شرع النصرانية لأن أباك أخرج الملك عن نفسه إلى أخيك، وأن أخاك مات وخلّف ولداً، والملك له من بعده، وكان ابن لاون قد أخذ خط بطريق إنطاكية بأن الملك لابن أخته وسير إليه الخط. فلما وقف بيمند عليه قال هذا ملكي وفي يدي، ثم أصعد البطريق إلى القلعة فخنقه.

وسار ابن لاون بعد ذلك إلى إنطاكية وحاصرها دفعات والملك الظاهر صاحب حلب يدفعه عنها ويمنعه بعسكره منها فلما كان أول السنة التي قدمنا ذكرها بعث أهل قسطنطينية إلى إنطاكية بطريقاً مكان الذي قتل، فلما حصل في إنطاكية أنكر على أهلها موافقتهم لبيمند على ملك إنطاكية وقال: كلما يتقلبون فيه حرام فاهتاجت الإسبتارية لمقاتلته، وكاتبوا ابن لاون في إرسال ابن أخته ليملكوه إنطاكية، فجعل يسير الرجال شيئاً فشيئاً إلى إنطاكية حتى حصل من أصحابه بها جماعة كثيرة، ثم واعدهم إلى ليلة الاثنين ثالث عشرين شوال، وجاء في الليل فدخلها هجماً من باب بولص على مواعدة كانت بينه وبين من كان بها من رجال، وملكها، وامتنعت عليه القلعة، ولم يكن البرنس بيمند بطرابلس فلما بلغه سار إلى تحت المرقب منجداً لمن في القلعة ثم أن ابن لاون ملك القلعة وعاد بيمند إلى طرابلس وكتب ابن لاون إلى الملك الظاهر يعلمه أنه كان في خدمته وأنه لا ينقلب إلاّ عن أمره وأنه فتح إنطاكية بإسمه وأطلق أسرى من المسلمين كانوا فيها وسيّرهم إلى حلب فأُحسن جوابه، ثم خرج منها وسلمها لإبن أخته ، ولم تزل في يده إلى أن قصدها الظاهر بيبرس. . .

الملحق الخامس

العلاقات مع الامبراطورية الرومانية المقدسة
(نص رسالتين بعث بهما الامبراطور فردريك الثاني إلى صديقه فخر الدين)
(ابن شيخ الشيوخ وزير السلطان الكامل[1] سنة ٦٢٧هـ)

«بسم الله الرحمن الرحيم. عنوانه ترجمته. قيصر المعظم امبراطور رومية فردريك بن / الامبراطور هنريك بن الامبراطور فردريك المنصور بالله المقتدر بقدرته، المستعلي بعزته، مالك ألمانية ولمبردية [٢] وتسقانية [٣] وإيطالية وانكبيرده [٤] وقلورية [٥] وصقلية، ومملكة الشام القدسية، معز إمام رومية، الناصر للملة المسيحية... بسم الله الرحمن الرحيم. شعر:

(من الطويل)

رحلنا وخلفنا القلوب مقيمة تخلت عن الأجسام والجنس والنوع
وآلت على أن لا تخل بودكم مدى الدهر وانسلت تنكب عن طوعي

لو وجدنا إلى وصف ما نجده من عظيم الشوق، ونكابده من أليم / الاستيحاش والتوق إلى المجلس السامي الفخري أدام الله أيامه، وسرمد

---

(١) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص ١٩٠ - ١٩٤ ونقل النص عنه أيضاً ابن الفرات في تاريخه جـ ٦ لوحة ١٠٤ - ١٠٧.

(٢) لمبردية: مقاطعة إيطالية عاصمتها ميلانو.

(٣) تسقانية: مقاطعة بإيطاليا عاصمتها فلورنس.

(٤) يقول ياقوت (ج ١ ص ٣٩٢) عن الأنكبردة أنها بلاد واسعة من بلاد الفرنج بين القسطنطينية والأندلس.

(٥) قلورية: هي كلابريا، مقاطعة بجنوب إيطاليا.

أعوامه، وثبت في الرياسة أقدامه، وحرس مودته وإكرامه، وأجرى على سبيل النجاح مرامه، وسدد عهده وكلامه، وأجزل من النعم أقسامه، وجدد مع الجديدين سلامه للزمنا في الخطاب شططاً، وحدنا عن الصواب غلطاً، إذ منينا بروعة إستيحاش، بعد سكون وايناس، ولوعة فراق، في أثر غبطة واشتياق، فرأينا السلو ممتنعاً، وحبل التجلد منقطعاً، ومأمول التماسك قد عاد جزعاً، وشمل الاصطبار منصدعاً:

(من الطويل)

وقد كنت لو خيرت بين فراقكم وبين حمامي قلت يدركني نحبي

وتخاله، أكرمه الله، ملّنا، واعتاض بغيرنا، واختار فراقنا، وتناسى ودادنا، فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب[1]:

(من البسيط)

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا، نشعره حسبما شرحناه له بصيدا أن البابا ـ باء بالغدر والخديعة ـ أخذ إحدى قلاعنا المنيعة تسمى منت مسين[2]، أسلمها له أباطها اللعين، وعند ذلك رام المزيد، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لرجوعنا السعيد، فاضطر إلى أن زعم أننا متنا، وحلف القردنالية[3] على ذلك وعلى أن رجوعنا مستحيل، وراموا خداع العامة بمثل هذه الأباطيل، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن حراسة / بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا، فلإيمان هؤلاء الذين هم أئمة الدين وخلفاء

(١) انظر بيت المتنبي في ديوانه (ط. صادر ١٩٥٨م) ص ٣٣٣.
(٢) في الأصل «قسمين».
(٣) في الأصل «القردمالية».

الحواريين، انخدعت جماعة من الطغام والمفسدين، فعند وصولنا إلى ميناء برنديس المصونة، ألفينا الملك جوان واللمبرديين في الدخول في ملكنا معاندين، وقع خبر ورودنا متشككين، لما قرره القردنالية عندهم باليمين، وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين. داخل أعداءنا الجزع، وحلّ بهم الروع والفزع ونكصوا إلى ورائهم خاصرين مسافة يومين، وارتد أهل طاعتنا إلينا طائعين، وكذلك اللمبرديين الذين كانوا معظم عسكرهم لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أدبارهم أجمعين، وأما الملك المذكور وأصحابه / فأحاط بهم الحياء والخوف، واجتمعوا إلى موضع ضيق يخافون الانصراف عنه، والخروج منه، بل لا يقدرون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قد عادت لنا وإلى طاعتنا. ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكراً مديداً من الألمانية الذين كانوا معنا في الشام، والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح إلى بلادنا وغيرهم من أمنائنا ورؤساء دولتنا، واستعددنا نجد السير إلى بلاد أعدائنا.

وبعد فمما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته، وأن يقري سلامنا على جميع أكابر العسكر وغلمانه ومملوكيه ودخلته، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. وكتب ببرلت المصونة بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسو[١] للأندقتنس الثاني».

وهذه[٢] نسخة الكتاب الثاني. الترجمة كالأول: «فيه من الإخبار بما نشعره به. إنا قد جمعنا عسكراً كثيراً، وإنّا نجد السير إلى قتال من هم بانتظارنا، ولم يهرب أمام وجهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا، وذلك أنهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنا ونصبوا عليها المنجنيقات وما شابهها من الدبابات[٣] والآلات[٤]، فلما أحسوا بإقبالنا مع بعد المسافة بينهم

(١) ترجم أماري كلمة أسو إلى (أون)، ويبدو أن جملة الأندقتنس الثاني تعني نوعاً من التاريخ كان يؤرخ به في ذلك الوقت. انظر أماري، مجلة الأرشيف ص ١٢٢.
(٢) في الأصل: «وهذا».
(٣) الدبابة: آلة حربية، انظر المقريزي ج ١ قسم ١ ص ٩٦، هامش ٨.
(٤) في الأصل: «وآلات».

وبيننا، لم يتمهلوا إليّ، بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم، وانهزموا هاربين أمامنا، ونحن نجد السير في طلبهم وتفريق شملهم، وتبديد جمعهم، وطلب البابا حيثما وجدناه، ورده خاسئاً على قفاه، نادماً على ما نواه، وما نجده من الأخبار فنحن نكاتب المجلس إن شاء الله».

الملحق السادس

(ثبت بأسماء الحكام في بلاد الشام وبعض البلدان الأخرى خلال فترة البحث)

١ ـ ملوك بني أيوب في بلاد الشام ومصر:

أ ـ الأيوبيون في دمشق:

الأفضل نور الدين علي	٥٨٩ ـ ٥٩٢ هـ/١١٩٣ ـ ١١٩٦ م
العادل الأول أبو بكر	٥٩٢ ـ ٦١٥ هـ/١١٩٦ ـ ١٢١٨ م
المعظم عيسى	٦١٥ ـ ٦٢٤ هـ/١٢١٨ /١٢٢٧ م
الناصر داود	٦٢٤ ـ ٦٢٦ هـ/١٢٢٧ ـ ١٢٢٩ م
الأشرف موسى	٦٢٦ ـ ٦٣٥ هـ/١٢٢٩ ـ ١١٣٧ م
الصالح اسماعيل (المرة الأولى)	٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م
الكامل محمد	٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م
العادل الثاني بن الكامل	٦٣٥ ـ ٦٣٦ هـ/١٢٣٨ ـ ١٢٣٩ م
الصالح نجم الدين أيوب (المرة الأولى)	٦٣٦ ـ ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م
الصالح اسماعيل (المرة الثانية)	٢٣٧ ـ ٦٤٣ هـ/ ١٢٣٩ ـ ١٢٤٥م
الصالح نجم الدين أيوب (المرة الثانية)	٦٤٣ ـ ٦٤٧ هـ/١٢٤٥ ـ ١٢٤٩ م
المعظم تورانشاه	٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ/١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م
الناصر يوسف	٦٤٨ ـ ٦٥٨ هـ/١٢٥٠ ـ ١٢٦٠ م

ب ـ الأيوبيون في حلب:

الظاهر غازي	٥٨٢ ـ ٦١٣ هـ/١١٨٦ ـ ١٢١٦ م
العزيز محمد	٦١٣ ـ ٦٣٤ هـ/١٢١٦ ـ ١٢٣٦ م
الناصر يوسف	٦٣٤ ـ ٦٥٨ هـ/ ١٢٣٦ ـ ١٢٦٠ م

جـ ـ الأيوبيون في حماه:

المنصور الأول محمد	٥٨٧ ـ ٦١٧ هـ/١١٩١ ـ ١٢٢٠ م
الناصر قلج أرسلان	٦١٧ ـ ٦٢٦ هـ/١٢٢٠ ـ ١٢٢٩ م
المظفر محمود	٦٢٦ ـ ٦٤٢ هـ/١٢٢٩ ـ ١٢٤٤ م
المنصور الثاني	٦٤٢ ـ ٦٨٣ هـ/١٢٤٤ ـ ١٢٨٤ م

د ـ الأيوبيون في حمص:

المجاهد شيركوه الثاني	٦٨٢ ـ ٦٣٨ هـ/١١٨٦ ـ ١٢٤٠ م
المنصور إبراهيم	٦٣٨ ـ ٦٤٤ هـ/١٢٤٠ ـ ١٢٤٦ م
الأشرف موسى الثاني	٦٤٤ ـ ٦٤٦ هـ/١٢٤٦ ـ ١٢٤٨ م

هـ ـ الأيوبيون في بعلبك:

الأمجد بهرام شاه	٥٧٨ ـ ٦٢٧ هـ/١١٨٢ ـ ١٢٣٠ م
الأشرف موسى بن العادل	٦٢٧ ـ ٦٣٥ هـ/١٢٣٠ ـ ١٢٣٧ م
الصالح اسماعيل	٦٣٥ ـ ٦٤٣ هـ/١٢٣٧ ـ ١٢٤٥ م
الصالح نجم الدين أيوب	٦٤٣ ـ ٦٤٧ هـ/١٢٤٥ ـ ١٢٤٩ م
المعظم تورانشاه	٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ/١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م
الناصر يوسف	٦٤٨ ـ ٦٥٨ هـ/١٢٥٠ ـ ١٢٦٠ م

و ـ الأيوبيون في الكرك:

العادل الأول	٥٨٤ ـ ٦١٥ هـ/١١٨٨ ـ ١٢١٨ م
المعظم عيسى	٦١٥ ـ ٦٢٤ هـ/١٢١٨ ـ ١٢٢٧ م

الناصر داود	٦٢٤ ـ ٦٤٧ هـ/١٢٢٧ ـ ١٢٤٩ م
الصالح نجم الدين أيوب	٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م
المعظم تورانشاه	٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ/١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م
المغيث عمر	٦٤٨ ـ ٦٥٨ هـ/١٢٥٠ ـ ١٢٦٠ م

ز ـ الأيوبيون في مصر:

العزيز عثمان	٥٨٩ ـ ٥٩٤ هـ/١١٩٣ ـ ١١٩٨ م
المنصور محمد	٥٩٤ ـ ٥٩٥ هـ/١١٩٨ ـ ١١٩٩ م
العادل الأول	٥٩٥ ـ ٦١٥ هـ/١١٩٩ ـ ١٢١٨ م
الكامل محمد	٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ/١٢١٨ ـ ١٢٣٨ م
العادل الثاني بن الكامل	٦٣٥ ـ ٦٣٧ هـ/١٢٣٨ ـ ١٢٤٠ م
الصالح أيوب	٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ/١٢٣٨ ـ ١٢٤٩ م
المعظم تورانشاه	٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ/١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م

٢ ـ سلاطين المماليك في مصر:

شجر الدر	٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م
المعز عز الدين أيبك	٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ/١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م
المنصور نور الدين علي بن أيبك	٦٥٥ ـ ٦٥٧ هـ/١٢٥٧ ـ ١٢٥٩ م
سيف الدين قطز	٦٥٧ ـ ٦٥٨ هـ/١٢٥٩ م

٣ ـ حكام الصليبيين في بلاد الشام:

أ ـ مملكة بيت المقدس الصليبية [1]:

هنري دي شامبني	١١٩٢ ـ ١١٩٧ م
عموري لوزجنان ملك قبرص	١١٩٧ ـ ١٢٠٥ م

(١) ظل اسم مملكة بيت المقدس قائماً بعد استعادة صلاح الدين لبيت المقدس إذ بقي الاسم يطلق على عكا وما يتبعها من بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية.

ماري ابنة كونراد (تحت الوصاية)	١٢٠٥ ـ ١٢١٠ م
حنا دي بريين	١٢١٠ ـ ١٢٢٥ م
الامبراطور فردريك الثاني	١٢٢٥ ـ ١٢٥٠ م
كونراد الرابع ملك ألمانيا (ملك اسمي)	١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ م
كونرادين (ملك اسمي)	١٢٥٤ ـ ١٢٦٨ م

ب ـ إمارة إنطاكية الصليبية:

بوهيمند الثالث	١١٦٣ ـ ١٢٠١ م
بوهيمند الرابع	١٢٠١ ـ ١٢١٦ م
ريموند روبان	١٢١٦ ـ ١٢١٩ م
بوهيمند الرابع (مرة ثانية)	١٢١٩ ـ ١٢٣٣ م
بوهيمند الخامس	١٢٣٣ ـ ١٢٥١ م
بوهيمند السادس	١٢٥١ ـ ١٢٦٧ م

جـ ـ أمراء طرابلس:

بوهيمند الرابع	١١٨٧ ـ ١٢٣٣ م
بوهيمند الخامس	١٢٣٣ ـ ١٢٥١ م
بوهيمند السادس	١٢٥١ ـ ١٢٨٧ م

٤ ـ الخلفاء العباسيون في بغداد:

الناصر لدين الله	٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م
الظاهر بأمر الله	٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ/١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ م
المستنصر بالله	٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ/١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م
المستعصم بالله	٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ/١٢٤٢ ـ ١٢٥٨ م

٥ ـ سلاجقة الروم:

كيخسرو الأول	٥٨٨ ـ ٥٩٦ هـ/١١٩٢ ـ ١٢٠٠ م

سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان	٥٩٦ ـ ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٠ ـ ١٢٠٣ م
قلج أرسلان الثالث	٦٠٠ ـ ٦٠١ هـ/١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ م
كيخسرو الأول (مرة ثانية)	٦٠١ ـ ٦٠٧ هـ/١٢٠٤ ـ ١٢١٠ م
كيكاوس الأول بن كيخسرو	٦٠٧ ـ ٦١٦ هـ/١٢١٠ ـ ١٢١٩ م
كيقباذ الأول بن كيخسرو	٦١٦ ـ ٦٣٤ هـ/١٢١٩ ـ ١٢٣٦ م
كيخسرو الثاني بن كيقباذ	٦٣٤ ـ ٦٤٣هـ/١٢٣٦ ـ ١٢٤٥ م
كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني	٦٤٣ ـ ٦٥٥ هـ/١٢٤٥ ـ ١٢٥٧ م
قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني	٦٥٥ ـ ٦٦٥ هـ/١٢٥٧ ـ ١٢٦٧ م

٦ ـ ملوك الدولة الخوارزمية:

محمد خوارزمشاه	٥٩٦ ـ ٦١٧ هـ/١١٩٩ ـ ١٢١٩ م
جلال الدين منكبرتي	٦١٧ ـ ٦٢٨ هـ/١٢١٩ ـ ١٢٣١ م

٧ ـ حكام مملكة أرمينية الصغرى:

ليو الثاني	١١٨٧ ـ ١٢١٩ م
إيزابيل	١٢٢٢ ـ ١٢٢٥ م
هيثوم الأول	١٢٢٦ ـ ١٢٦٩ م

٨ ـ بابوات روما:

سلستين الثالث	١١٩١ ـ ١١٩٨ م
أنوسنت الثالث	١١٩٨ ـ ١٢١٦ م
هونوريوس الثالث	١٢١٦ ـ ١٢٢٧ م
جريجوري التاسع	١٢٢٧ ـ ١٢٤١ م
سلستين الرابع	١٢٤١ م
أنوسنت الرابع	١٢٤٢ ـ ١٢٥٤ م

الاسكندر الرابع	١٢٥٤ ـ ١٢٦١ م

٩ ـ خانات المغول:

جنكيز خان	٦٠٢ ـ ٦٢٤ هـ/١٢٠٦ ـ ١٢٢٧ م
أوكتاي قاآن	٦٢٦ ـ ٦٣٩ هـ/١٢٢٩ ـ ١٢٤١ م
كيوك خان	٦٤٤ ـ ٦٤٧ هـ/١٢٤٦ ـ ١٢٤٩ م
منكو قاآن	٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م
قوبيلاي قاآن	٦٥٨ ـ ٦٩٣ هـ/١٢٦٠ ـ ١٢٩٤ م

المصادر والمراجع

أولاً ـ المخطوطات:

- ابن أبي الدم (أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله الحموي، ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) التاريخ المظفري. صورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى برقم ١١٣١ عن نسخة مكتبة خدابخش بالهند رقم ٣٨٦٩.
- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) درر التيجان وغرر تواريخ الزمان. مكتبة البلدية بالإسكندرية رقم ٣٨٢٨ج.
- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ٨١٣ ـ ٨٧٤هـ / ١٤١٠ ـ ١٤٦٩م).

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. دار الكتب المصرية رقم ١٣١٠. ونسخة مكتبة عارف حكمت جـ ١ رقم ٣٢ / ٦٣٠/٦٤٢ وجـ ٢ رقم ٦٣٠ / ٩٠٠.

ابن الجزري (محمد بن محمد بن محمد بن الجزري) فرغ من كتابه سنة ٧٩٨هـ، تاريخ الجزري صورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى رقم ١٣٠٢ عن نسخة المكتبة القومية بطهران رقم ٤٦٩.

ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) درة الأسلاك في دولة الأتراك. مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ٣٠١١.

ـ ابن خطيب الناصرية (علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي بن خطيب الناصرية ت ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م).
الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب. المكتبة الأحمدية بحلب رقم ١٢١٤.

ـ ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن دقماق ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين. مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٠٣.

ـ ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) عيون التواريخ جـ ١٥ دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧.

ـ ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. مكتبة آيا صوفيا باستامبول رقم ٣٠٨٤، ومكتبة الفاتيكان برقم ٧٣٠.

ـ ابن الشحنة (أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) تاريخ ابن الشحنة. صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٢٣٤ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٦٣٩٣.

ـ ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) بغية الطالب في تاريخ حلب. مكتبة آيا صوفيا ٤٠٤٦، ومكتبة فيض الله ١٤٠٤ ومكتبة أحمد الثالث رقم ٢٩٢٥ تركيا.

ـ ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) تاريخ ابن الفرات. صورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى برقم ٦١٢ عن نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم ٥٤١ ق.

ـ ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن أبي بكر، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، المجلد الرابع، القسم الأول، صورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي برقم ١٥٠١ عن مكتبة المجمع العلمي العراقي، بدون رقم.

ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م).

١ ـ التاريخ الصالحي. مكتبة فاتح باستامبول رقم ٤٢٢٤.
٢ ـ تاريخ الواصلين. دار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩.
ـ أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) التبر المسبوك في تواريخ الملوك. دار الكتب المصرية رقم ٨٦ تاريخ.
ـ الأصفهاني (القاضي عماد الدين محمد بن محمد ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان. وذيل عليه علم الدين سنجر المسروري من سنة ٥٩٣ إلى سنة ٦٣٥ على المخطوطة نفسها. مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٩.
ـ الأهدل (الحسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)، غربال الزمان. صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ٥٢٩ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٧٢٧.
ـ بدر الدين الحلبي (أبو محمد الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي، ت ٧٧٩هـ / ١٣٣٧م)، جهينة الاخبار في تاريخ الأنبياء والخلفاء وملوك الأمصار. مكتبة بلدية الأسكندرية رقم ٥١٥٧.
ـ بيبرس الدوادار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار مملوك السلطان قلاوون الألفي، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) التحفة الملوكية في الدولة التركية. صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٠٥ عن نسخة مكتبة فينا رقم ٢٤٠٢٩.
ـ الجنابي (أبو محمد الشريف مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد بن السيد حسن الحسيني الهاشمي، ت ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م) البحر الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر. مكتبة الحرم المكي رقم ٢.
ـ الخطيب العمري (ياسين بن خير الله بن محمد بن موسى الخطيب العمري، ت ١٢٣٢هـ / ١٨١٧).
الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون. صورة بمركز البحث العلمي

بجامعة أم القرى برقم ١٠٤٥ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٩٤٩.

- الديبسياوي (محمد بن محمد الديبسياوي ت ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م) الزهر الزاهر في الدلالة على قدرة العزيز القاهر. نسخة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٥٣٨٦ عن نسخة مكتبة شستربتي، ايرلنده، دبلن رقم ٥٣٦٨.

- الديري (هبة الله محمد الديري الحنفي المقدسي، كان حياً سنة ٨٩٥هـ) الجدول الصفي من البحر الوفي. صورة بمركز البحث العامي بجامعة أم القرى برقم ١٣٨٢ عن نسخة مكتبة الأحقاف باليمن مجموعة آل يحيى رقم ٣٨ تاريخ.

الذهبي - (شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والاعلام جـ ٥ المكتبة الأحمدية بحلب رقم ٦٤٧.
جـ ٢٢ صورة بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى رقم ١٥٣.

الزبيدي (محمد مرتضى الزبيدي، ت ١٢٠٥هـ / ١٧٨٩م) ترويح القلوب بذكر الملوك بني أيوب. صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٥٦٩ عن نسخة مكتبة جامعة برنستون (مجموعة يهودا) رقم ٤٣٩ تراجم.

سبط ابن العجمي (موفق الدين أبو ذر أحمد بن ابراهيم الحلبي، ت ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م) كنوز الذهب في تاريخ حلب. المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٨٣٧ تاريخ.

. السيوطي (كمال الدين محمد بن محمد بن أبي شريف السيوطي، ت ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م) إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى. دار الكتب المصرية رقم ١٨٢٩ تاريخ طلعت.

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م).

١ - تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٥٢ تاريخ.

٢ ـ أعيان العصر وأعوان النصر. مكتبة جامعة استامبول رقم ٤٣٨٢.
ـ العليمي (قاضي القضاة مجير الدين بن عبد الرحمن بن محمد العليمي الحنبلي المقدسي، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م).
١ ـ كتاب في تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل. صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ١٢٠٦ عن نسخة المتحف البريطاني رقم ١٥٤٤.
٢ ـ التاريخ المعتبر في أنباء من غبر. صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١ / ٣٩٠ مجاميع عن نسخة جامعة برنستون (مجموعة يهودا) رقم ٢٢٦٣.
ـ العيني (بدر الدين محمود أبو محمد بن أحمد بن موسى العيني، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. جـ١٣ مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٣٩٠.
ـ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) المقفى، أو ـ التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها. المكتبة السليمانية باستامبول رقم ٤٩٦.
ـ المولوي (أحمد بن لطف الله المولوي، كان حياً سنة ١١١٦م) صحائف الأخبار في وقائع الأعصار. مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ١٢٥٤ / ١.
ـ الناشري (علي بن أبي بكر بن علي الناشري، ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) روضة الناظر للسلطان الملك الناصر. صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٩٠ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٥٨٢٢٣.
ـ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م). نهاية الأرب في فنون الأدب. جـ٢٧ دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة.
ـ اليافعي (حسن بن ابراهيم بن محمد اليافعي، كان حياً سنة ٦٧٩هـ) جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين الإسلامية. صورة بمركز

البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١١٤٢ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٥٤٣.

ثانياً ـ المصادر العربية المطبوعة:

ـ القرآن الكريم.

ـ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٦٥.

ـ ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الملقب بعز الدين، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).

١ ـ الكامل في التاريخ. ط. ليدن ١٨٥١ ـ ١٨٧٦م.

٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.

ابن أياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن أياس الحنفي، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) بدائع الزهور في وقائع الدهور. الجزء الأول تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) كنز الدرر وجامع الغرر. الجزء السابع وعنوانه، الدر المطلوب في اخبار ملوك بني أيوب. تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م.

الجزء الثامن وعنوانه، الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية. تحقيق ألرخ هارمان، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت ٨١٢هـ / ٨٧٤هـ).

١ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ط. دار الكتب المصرية.

٢ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. الجزء الأول تحقيق أحمد يوسف نجاتي. القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م.

- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م). رحلة ابن جبير، المسماة تذكرة بالإخبار عن إتفاقات الأسفار، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. تحقيق خليل سعادة ومراجعة سهيل زكار، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م). الانتصار لواسطة عقد الأمصار. جـ ٤ ـ ٥، نشر ٥ فولرزج القاهرة ١٨٩٣م.
- ابن الساعي (أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م).
الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير. الجزء التاسع تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.
- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) فوات الوفيات والذيل عليها. تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م.
- ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م).
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م.
- ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله بن علي بن ابراهيم الحلبي، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م).

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ٣ أجزاء ، الجزء الأول تحقيق دومينيك سورديل، دمشق ١٩٥٣م. الجزء الثاني تحقيق سامي الدهان، قسم مدينة دمشق ط. دمشق ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م وقسم لبنان والأردن وفلسطين ط. دمشق ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

الجزء الثالث تحقيق يحيى عبارة ط. دمشق ١٩٧٨م.

ابن طولون (محمد بن طولون، ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م).

١ ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية. تحقيق محمد أحمد دهمان جـ ١ دمشق ١٩٤٩م.

٢ ـ قضاة دمشق، أو الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام. تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٦م.

ابن عبد الظاهر (محي الدين عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري، ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م). الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تحقيق عبد العزيز الخويطر الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

ابن سعيد (عبد الله بن سعيد ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) وعلي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م ووالده موسى بن محمد ت ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م. كتب كل واحد من الثلاثة قطعة من كتاب «النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب. تحقيق د. حسين نصار، القاهرة ١٩٧٠م.

ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م). تاريخ مختصر الدول. ط. بيروت ١٩٥٨م، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م).

زبدة الحلب من تاريخ حلب. جـ ٣، تحقيق سامي الدهان بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.

- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد بن العماد ت ١٠٨٩هـ / ١٧٧٥ م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت، بدون تاريخ.
- ابن العميد (المكين جرجيس بن العميد ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م) أخبار الأيوبيين. دمشق ١٩٥٨م.
- ابن عنين (محمد بن نصر الله ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م). ديوان ابن عنين. تحقيق خليل مردم، دمشق ١٩٤٦م.
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي، ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م). تاريخ ابن الفرات. جـ ٤ قسم ٢، جـ ٥ قسم ١، تحقيق حسن محمد الشماع، البصرة ١٣٨٩ ـ ١٣٩٠هـ / ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م.
- ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد المالكي، ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م). الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، جزءان، تحقيق محمد الاحمدي أبو النور، القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. الجزء الأول تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م.
- ابن الفوطي (كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد الشيباني، ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م).

١ ـ تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب. الجزء الرابع، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

٢ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة. تصحيح وتعليق مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١هـ.

- ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن أبي بكر، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) الكواكب الدرية في السيرة النورية. تحقيق محمود زايد، بيروت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن القلانسي، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) ذيل تاريخ دمشق. بيروت ١٩٠٨م.
- ابن قنفذ القسنطيني (أحمد بن حسن بن علي بن حسن بن علي بن الخطيب، ت ٨٠٩هـ / ١٥٠٢م). الوفيات. تحقيق عادل نويهض، بيروت ١٩٧١م.
- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م). البداية والنهاية. جـ١٣ بيروت ١٩٦٦م.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منصور، ت ٧١١هـ / ١٣١١م). لسان العرب، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م.
- ابن نصر الله الحنبلي (أبو البركات عز الدين أحمد بن ابراهيم بن نصر الله الكناني العسقلاني ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م). شفاء القلوب في مناقب بني أيوب. تحقيق ناظم رشيد، بغداد ١٩٧٨م.
- ابن نظيف الحموي (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف، عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري).
التاريخ المنصوري «تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان» تحقيق أبو العيد دوذو، دمشق ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. جـ٣ تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٠م جـ ٤ ـ ٥ تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٢م، ١٩٧٧م.
- ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر بن أبي الفوارس، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) تحقيق أحمد رفعت البدراوي، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م.
- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م).

١ ـ الروضتين في أخبار الدولتين جـ٢ مصر ١٢٨٨هـ.
٢ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين.

نشر ومراجعة السيد عزت العطار الحسيني، بيروت ١٩٧٤م.
ـ أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م).
١ ـ المختصر في أخبار البشر جـ٣ ـ ٤، بيروت بدون تاريخ.
٢ ـ تقويم البلدان. باريس ١٨٤٠م.
ـ الأدفوي (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي الشافعي ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد. تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة ١٩٦٦م.
ـ أسامة بن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، ت ٥٨٤هـ / ١١٩٢م) الاعتبار. تحقيق فيليب حتي، ط. برنستون ١٩٣٠م.
ـ الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ت ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م).
١ ـ « الفتح القسي في الفتح القدسي. تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة ١٩٦٥م.
٢ ـ تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، بيروت ١٩٧٨م.
ـ الأمجد (أبو المظفر بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب الملقب بالملك الأمجد، ت ٦٢٨هـ / ١٢٣١م). ديوان الملك الأمجد. تحقيق ناظم رشيد، بغداد ١٩٨٣م.
ـ البنداري (قوام الدين الفتح بن علي بن محمد، ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) سنا البرق الشامي. القسم الأول، تحقيق رمضان ششن، بيروت ١٩٧٠.
ـ بيبرس الدوادار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار مملوك السلطان قلاوون الألفي، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م). زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. الجزء التاسع، تحقيق ودراسة زبيدة محمد عطا، رسالة دكتوراه تحت

إشراف سعيد عاشور من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.
- حاجي خليفة (المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلبي، ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. دار الفكر، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م. بيروت.
- الحريري (أحمد بن علي، كان حياً سنة ٩٢٦هـ سنة انتهائه من تأليف الكتاب) الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين. تحقيق ودراسة سهيل زكار. دمشق ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسين، ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٩م) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس. بيروت بدون تاريخ.
- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م).
١ - دولة الإسلام. تحقيق محمد فهيم شلتوت، ومحمد مصطفى ابراهيم القاهرة ١٩٧٤م.
٢ - العبر في خبر من عبر. تحقيق صلاح الدين المنجد، جـ ٤ - ٥ الكويت ١٩٦٣ م، ١٩٦٦ م.
- رشيد الدين الهمداني (رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير حفيد موفق الدين الهمذاني ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م) جامع التواريخ، أو تاريخ المغول، المجلد الثاني - الجزء الأول تاريخ هولاكو. ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون القاهرة ١٩٦٠م.
- سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي الشهير بسبط بن الجوزي ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م).
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. جـ ٨ حيدر آباد ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م.
- السبكي (تاج الدين أبو نضر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م). طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح حلو، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.
- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) الضوء

اللامع لأهل القرن التاسع. الجزء الثاني القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦م.
ـ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م).
١ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
٢ ـ تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
ـ الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م). الملل والنحل. تقديم وإعداد عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة ١٩٧٧م.
ـ صالح بن يحيى (صالح بن يحيى بن الحسين ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٩م) تاريخ بيروت. تحقيق فرنسيس هورمس وآخرون، بيروت ١٩٦٧م.
ـ الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م).
١ ـ الوافي بالوفيات. نشر وتحقيق جمعية المستشرقين الألمانية فسبادن ١٩٦٢ ـ ١٩٨٢م.
٢ ـ أمراء دمشق في الإسلام. تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٥م.
ـ طاش كبرى زاده (أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ت ٩٦٢هـ / ١٥٥٥م) مفتاح السعادة ومصباح السيادة جـ ١، حيدر آباد ١٣٢٩هـ.
ـ الطرسوسي (مرضي بن علي بن مرضي، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام العلم في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء. حققه ونشره كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية بدمشق جـ ١٢ (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م).
ـ العصامي المكي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، ت ١١١١هـ / ١٦٦٩م) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. جـ ٤ القاهرة ١٣٨٠هـ.
ـ العليمي (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي

الحنبلي ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. بيروت ١٩٧٣م.
- العيني (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين الشهير بالبدر العيني، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م). السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المجمودي. تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧م.
- الفيروزبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ت ٨١٧هـ / ١٤١٥م) القاموس المحيط. دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م).
- القرشي (عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي، ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م). الجواهر المضية في طبقات الحنفية. حيدر آباد، الهند ١٣٣٢هـ.
- القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ت ١١٠٩هـ / ١٦١٠م) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ. بغداد ١٩٨٢م.
- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود، ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت ١٩٦٠م.
- القفطي (الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م).
« ١ - أنباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م.
٢ - تاريخ الحكماء أو أخبار العلماء بأخبار الحكماء ط. ليبزج ١٩٠٣م.
- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م).
١ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة ١٩١٩ - ١٩٢٢م.
٢ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان. تحقيق ابراهيم الأبياري القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
٣ - مآثر الأنافة في معالم الخلافة. تحقيق عبد الستار أحمد فراج بيروت ١٩٨٠م.
- المقري التلمساني (أحمد بن محمد بن أحمد المكنى بأبي العباس، ت ١٠٤١هـ /

١٦٣١م) نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب. جـ ٢ تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م).

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة جـ ١ القاهرة ١٩٥٦م.

٢ - خطط المقريزي المعروفة باسم «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ط. القاهرة ١٢٧٠هـ.

٣ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. جـ ٣ تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

المنذري أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله ابن سلامة المنذري ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م). التكملة لوفيات النقلة ٤ أجزاء، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- النسوي (نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي، وكان حياً قبل سنة ٦٣٩هـ). سيرة جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ حمدي القاهرة ١٩٥٣م.

- النعيمي (محي الدين عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م) الدارس في تاريخ المدارس. تحقيق جعفر الحسيني، دمشق ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م) نهاية الأرب في فنون الأدب. ط. دار الكتب المصرية.

- اليافعي (أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م).

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

- ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م).
١ - معجم البلدان. بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
٢ - معجم الأدباء. بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- اليونيني (قطب الدين أبو الفتح موسى بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي، ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م). ذيل مرآة الزمان. جـ١ ط. حيدر آباد، الهند ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

ثالثاً: المراجع العربية والمترجمة:

- **أحمد أحمد بدوي.**
١ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة ١٩٧٢ م.
٢ - الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة، بدون تاريخ.
- **أحمد رمضان أحمد.**
المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية. القاهرة ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م.
- **أحمد مختار العبادي.**
قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام. بيروت ١٩٦٩.
- **أسمت غنيم.**
الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية. جدة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.
- **برنارد لويس.**
الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) بيروت ١٩٧١ م.
- **جرجي زيدان.**
تاريخ التمدن الإسلامي. القاهرة ١٩٣٥.

- جوانفيل.
القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام. ترجمة وتعليق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨ م.
- جوزيف نسيم.
١ - العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، الاسكندرية ١٩٨٤ م.
٢ - العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، الاسكندرية ١٩٨٤ م.
- حافظ حمدي.
١ - الدولة الخوارزمية والمغول القاهرة ١٩٤٩ م.
٢ - الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي. القاهرة ١٩٥٠ م.
- حامد زيان غانم زيان.
العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية ٤٩٠ - ٦٥٩ هـ.
رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة بإشراف الدكتور سعيد عاشور، ١٩٧٣ م
حسن الباشا.
الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار. القاهرة ١٩٧٨ م.
- حسن حبشي.
الشرق الإسلامي بين شقي الرحى «حملة لويس التاسع على مصر والشام» القاهرة ١٩٤٩ م.
- حسنين محمد ربيع.
النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين. القاهرة ١٩٦٤ م.
- خاشع المعاضيدي وآخرون.
الوطن العربي والغزو الصليبي. جامعة الموصل ١٩٨١ م.
- خير الدين الزركلي.
الأعلام. بيروت ١٩٨٠ م.

ـ دائرة المعارف الإسلامية. الترجمة العربية ١٤ جزء.
ـ زامباور.
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي. القاهرة ١٩٥١ م.
ـ زيغريد هونكه.
شمس العرب تسطع على الغرب «أثر الحضارة العربية في أوربة» ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي بيروت ١٩٧٩ م.
ـ سعاد ماهر.
البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية. القاهرة ١٩٦٧ م.
ـ ستيفن رنسيمان.
تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٨٢ م.
ـ سعيد عبد الفتاح عاشور.
١ ـ الحركة الصليبية. القاهرة ١٩٧٨ م.
٢ ـ العصر المماليكي في مصر والشام. القاهرة ١٩٧٦ م.
٣ ـ قبرس والحروب الصليبية. القاهرة ١٩٥٧ م.
٤ ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك. بيروت ١٩٧٢ م.
٥ ـ أوروبا في العصور الوسطى جـ ١ القاهرة ١٩٧٥ م.
٦ ـ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى بيروت ١٩٧٧ م.
ـ السيد الباز العريني.
١ ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية. القاهرة ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م.
٢ ـ مؤرخو الحروب الصليبية. القاهرة ١٩٦٢ م.
٣ ـ المغول. بيروت ١٩٨١ م.
٤ ـ الشرق الأدنى في العصور الوسطى (١) الأيوبيون. بيروت ١٩٦٧ م.
ـ شاكر مصطفى.
التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام. جزءان، بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ م.

- عبد الجليل حسن عبد المهدي.
المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، دورها في الحركة الفكرية. عمان ١٩٨١ م.

- عبد الرحمن زكي.
السلاح في الإسلام. القاهرة ١٩٥١ م.

- عبد المنعم ماجد، علي البنا
الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى القاهرة ١٩٦٧ م.

- عبد الله سعيد الغامدي.
استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين.
رسالة ماجستير من جامعة أم القرى سنة ١٤٠٢ هـ.

- علي إبراهيم حسن.
تاريخ المماليك البحرية. القاهرة ١٩٦٧ م.

- علي محمد علي عودة الغامدي.
بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي. مكة المكرمة ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م.

- عليه الجنزوري.
إمارة الرها الصليبية. القاهرة ١٩٧٥ م.

- عماد الدين خليل.
الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام. بيروت ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.

- فايد حماد محمد عاشور.
الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي.

- فؤاد عبد المعطي الصياد.
المغول في التاريخ. بيروت ١٩٧٠ م.

- **فيليب حتي.**

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ٢ ترجمة كمال اليازجي بيروت ١٩٥٩ م.

- **كارل بروكلمان.**

١ - تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين، بيروت ١٩٧٧ م.

٢ - تاريخ الأدب العربي. جـ٦ ترجمة عبد الحليم النجار. القاهرة ١٩٧٧ م.

- **كامل حسين محمد مصطفى الغزي.**

نهر الذهب في تاريخ حلب. جـ٣ ، حلب ١٣٤٥ هـ/١٩٢٦ م.

- **كلود كاهن.**

تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية. ترجمة بدر الدين القاسم. بيروت، ١٩٧٧ م.

- **كي لسترنج.**

بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة كوركيس عواد ، وبشير فرنسيس بيروت ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م.

- **محمد أبو زهرة.**

تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

- **محمد أديب الحصيني.**

منتخبات التواريخ لدمشق. بيروت ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م.

- **محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي.**

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. جـ٢ حلب ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م.

- **محمد كرد علي.**

خطط الشام، بيروت ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م.

- **محمد مصطفى زيادة وآخرون.**

دراسات عن المقريزي. القاهرة ١٩٧١ م.

ـ محمد مصطفى زيادة.
حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة.
القاهرة ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م.
ـ محمود سعيد عمران.
الحملة الصليبية الخامسة «حملة جان دي بريين على مصر» الاسكندرية ١٩٧٨ م.
ـ مريزن سعيد عسيري.
الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي. رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى سنة ١٤٠٤ هـ/١٤٠٥ هـ ولم تطبع.
ـ مسفر سالم الغامدي.
الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر. جدة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.
ـ نظير حسان سعداوي.
١ ـ الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، القاهرة ١٩٦١ م.
٢ ـ التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين.
القاهرة ١٩٥٧ م.
ـ هـ. أ. ل. فشر.
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ترجمة محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٦٩ م.
ـ يوسف إلياس الدبس.
تاريخ سورية. بيروت ١٩٠٠ م.

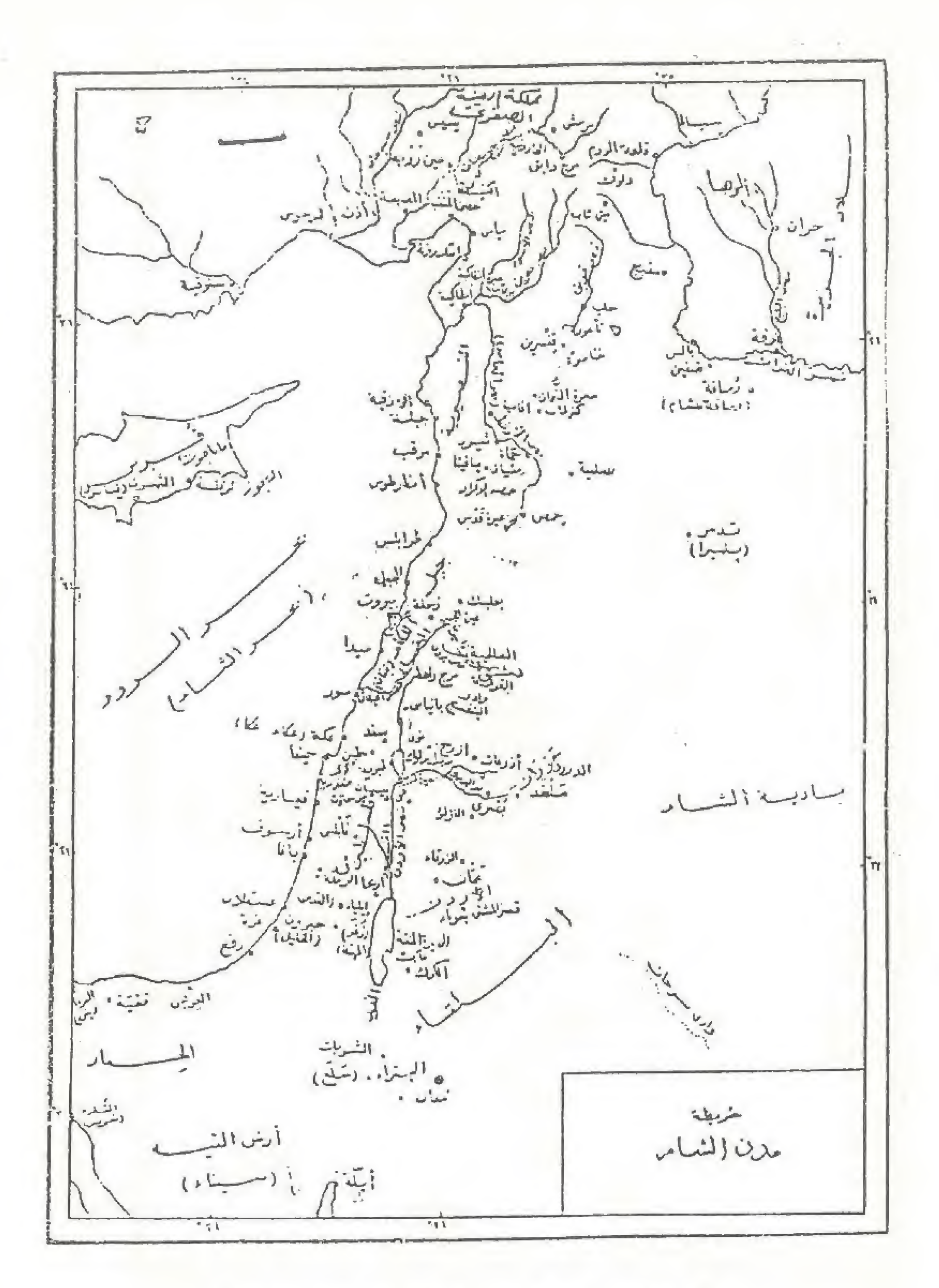
رابعاً: المراجع الأوروبية:

— Ayyubids, Mamlukes and Crusaders. Selctions From the Tarikh al - Duwal - Muluk, of Ibn al - Furat in two volumes. Text and translation by U. and M.C.Lyons. Cambridge 1971.
— Cahen, Claud,,

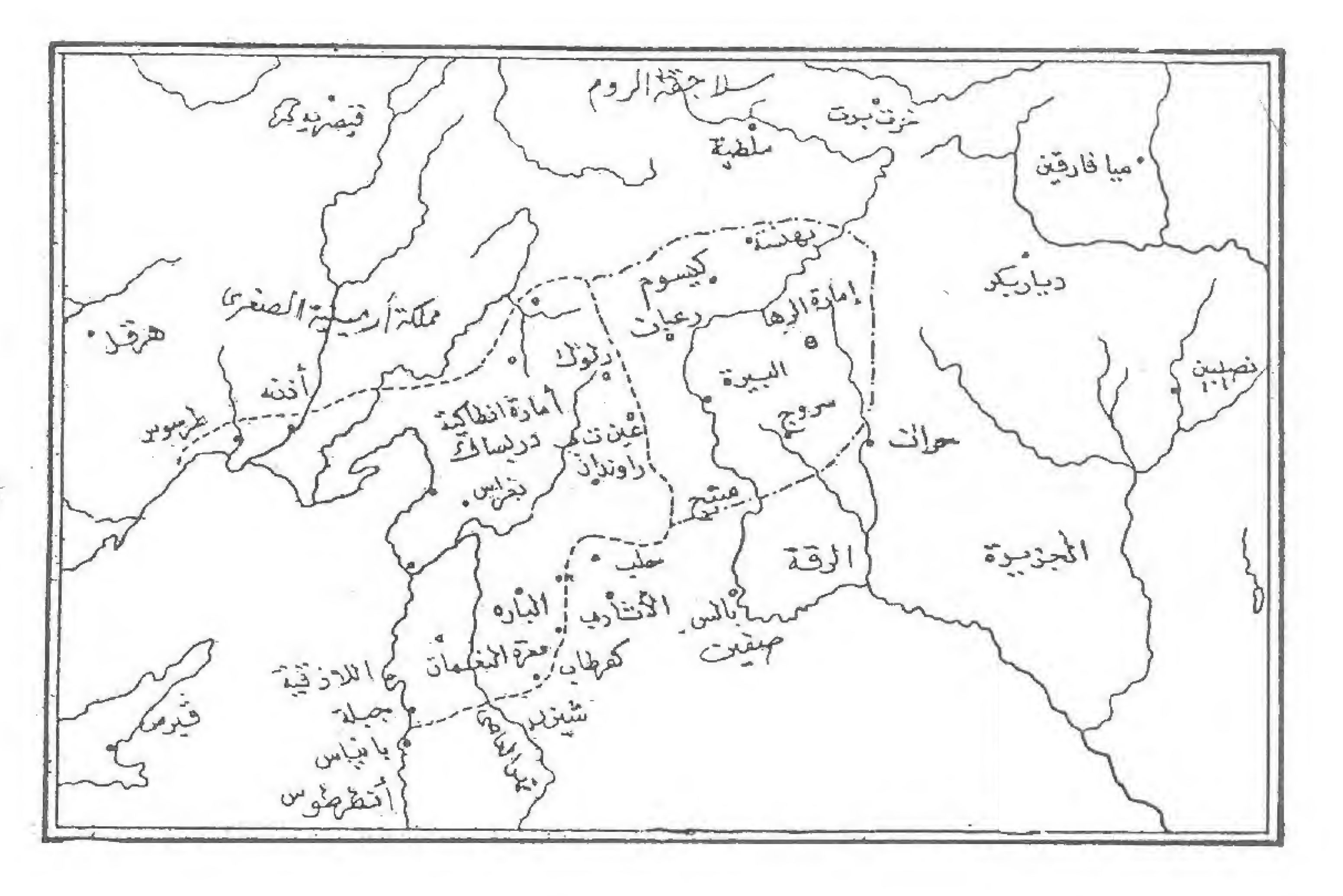
1 - La Syrie du Nord al. Epoquedes Croisades, Paris, 1940.
2 — Article, Ayyubids in Encuclopaedia of Islam, (New Edition) London, 1960.
– The Cambridge History of Islam, Vol. 1 A London 1970.
– The Cambridge Medieval History, Vol. IV «The Byzantine Empire, Part I, Byzaintum and its Neighbours » London, 1964.
— Campbell «G».
The Crusades. London, 1935.
— Cander, «C.R»
The Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 - 1291 London, 1897.
— Dozy, «R»
Supplement Aux Dictionnaires Arabes Toms 2, Paris 1967 .
— The Encyclopaedia of Islam, (New Edition), London 1960.
— Gibb, «H.A.R».
The Damascus Chronicle of the Crusades, London, 1967.
— Lamb, Harold,
The Crusades The Flame of Islam London 1931.
— Lane — Poole, Stanly
A history of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.
— Lestrange, Gey,
Palestine under the Moslems, Beirut, 1965.
— Painter, Sidney,
History of the Middle Ages, London, 1975 - 1976.
— Rabie, Hassanein ,
The Financial System of Egypt, London, 1972.
— Stevenson, W.B.,
The Crusaders in The East. Cambridge 1907.
— William of Tyre,
A History of deeds done beyond the sea, 2 Vols, translated and annotated by Emily Babcock and A.C. Krey, New York 1943.
— Zakkar, Suhayl,
The Emirate of Alleppo (1004 - 1094), Beirut, 1971.

الخرائط

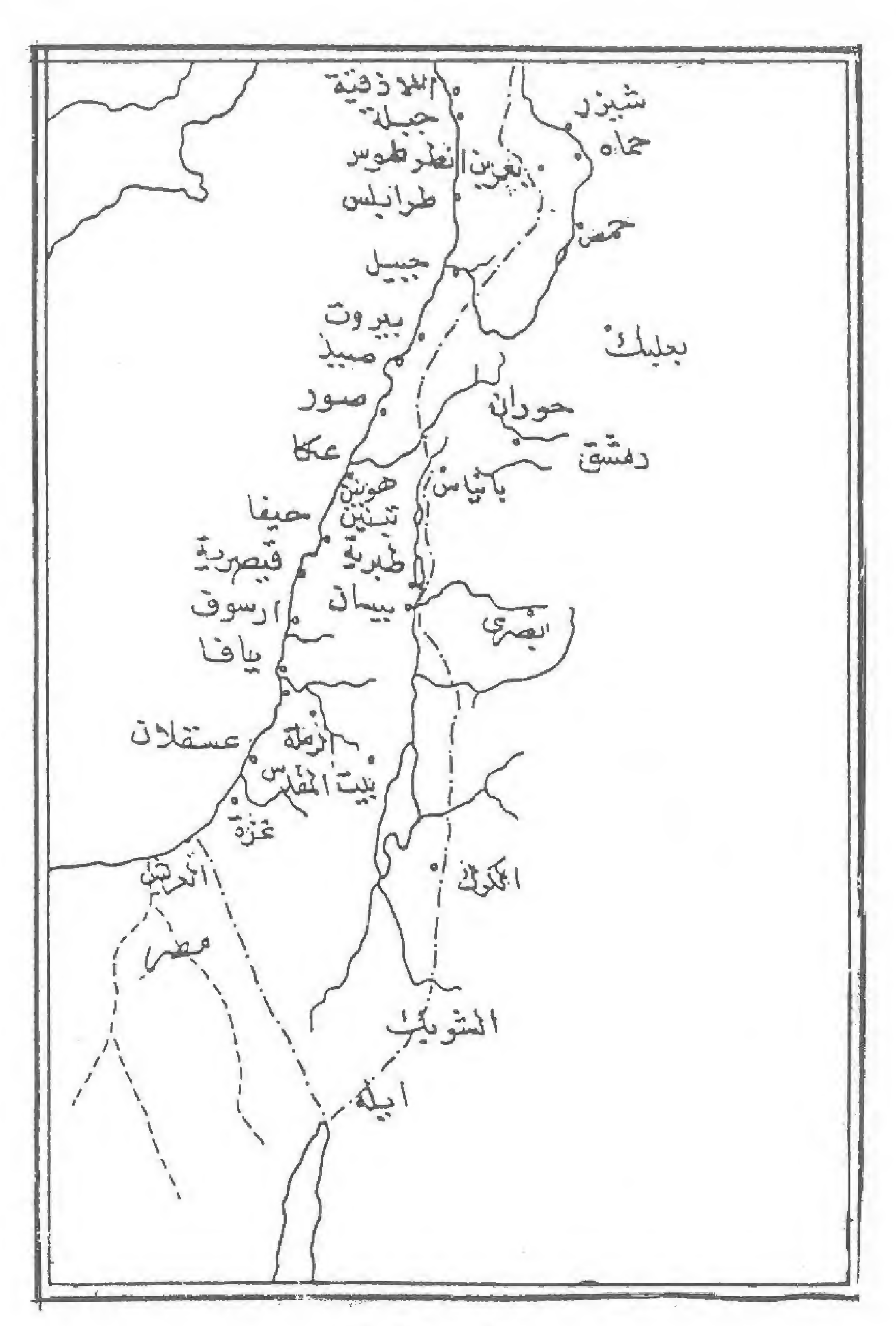




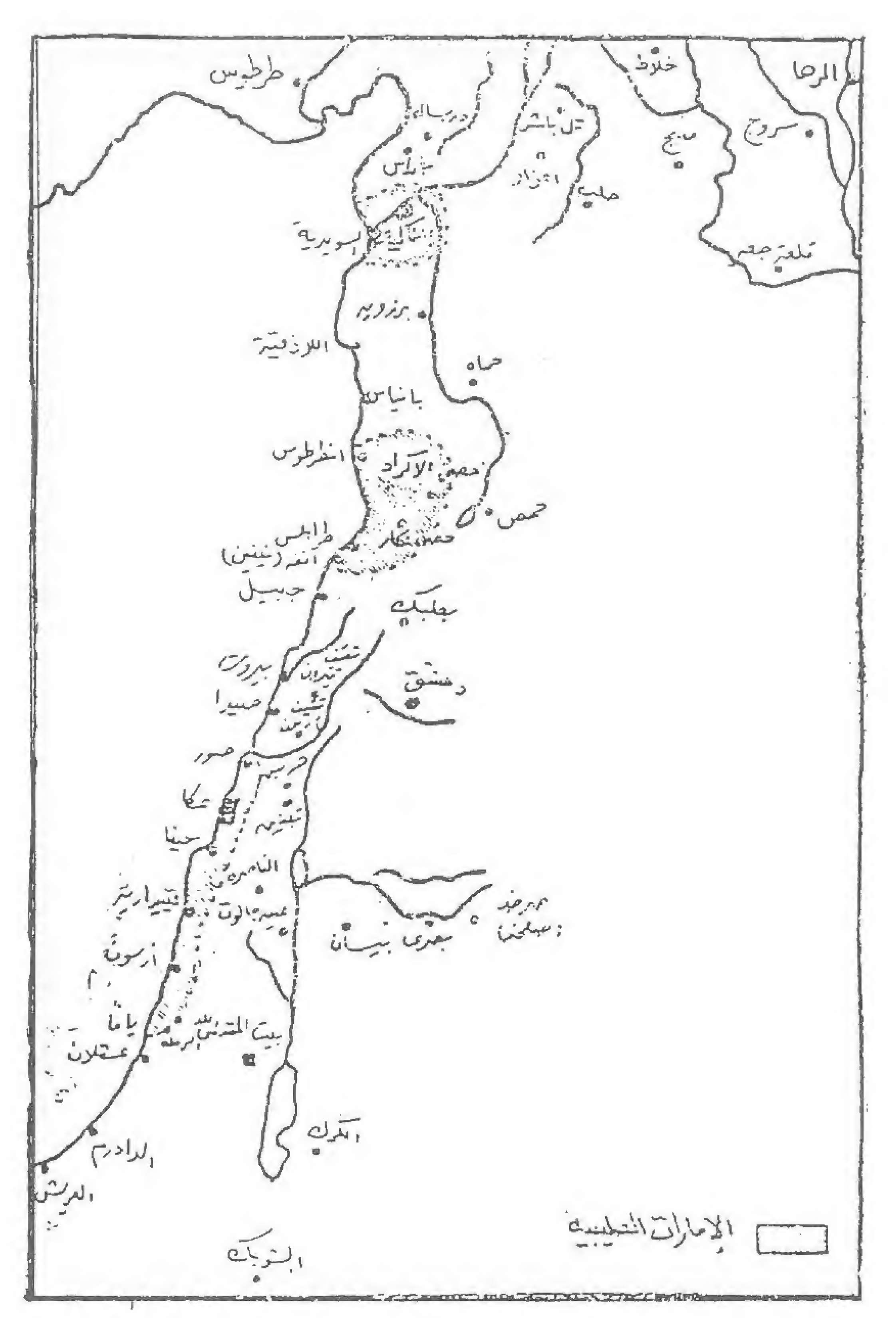
نقلاً عن الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى



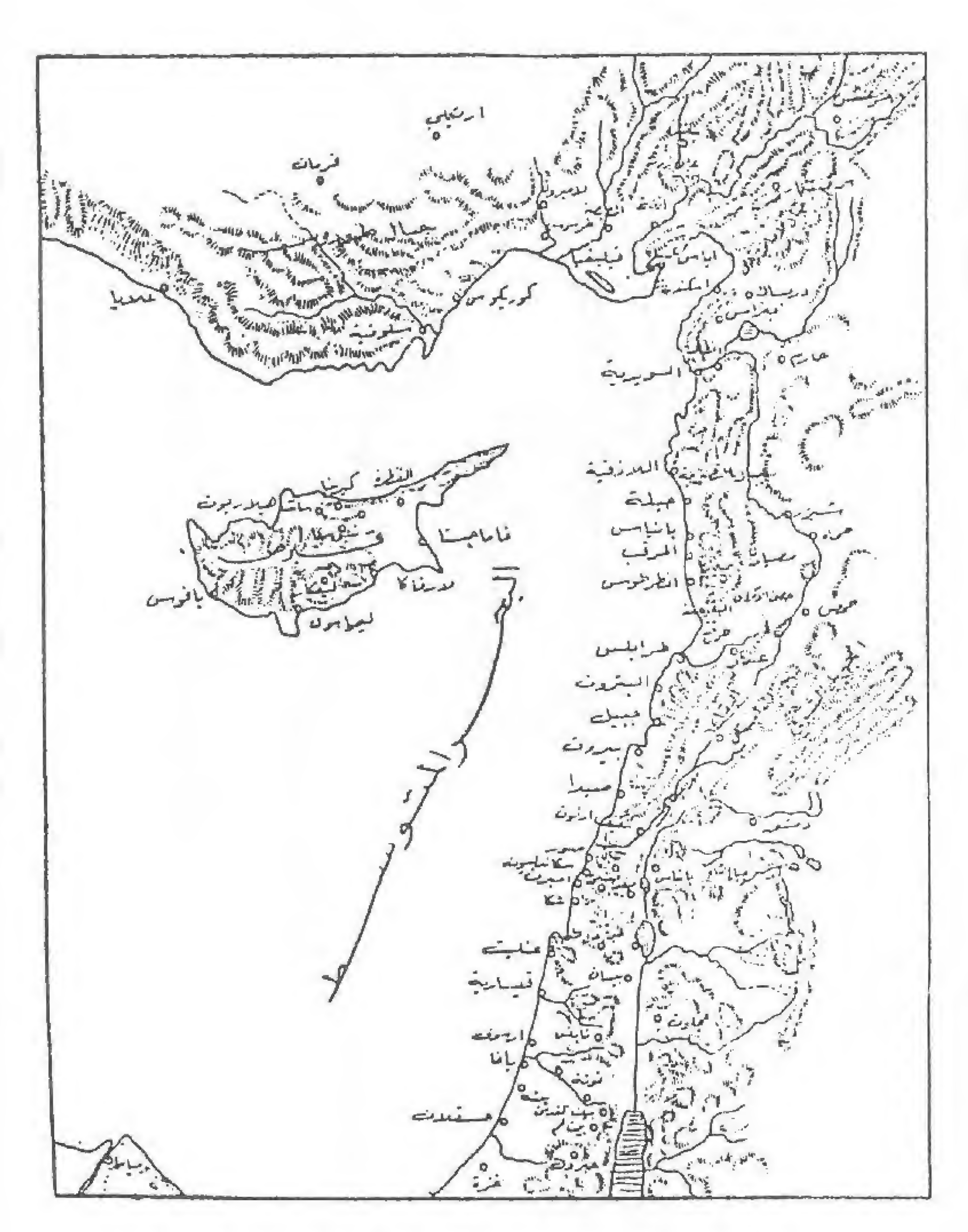
خريطة شمال بلاد الشام



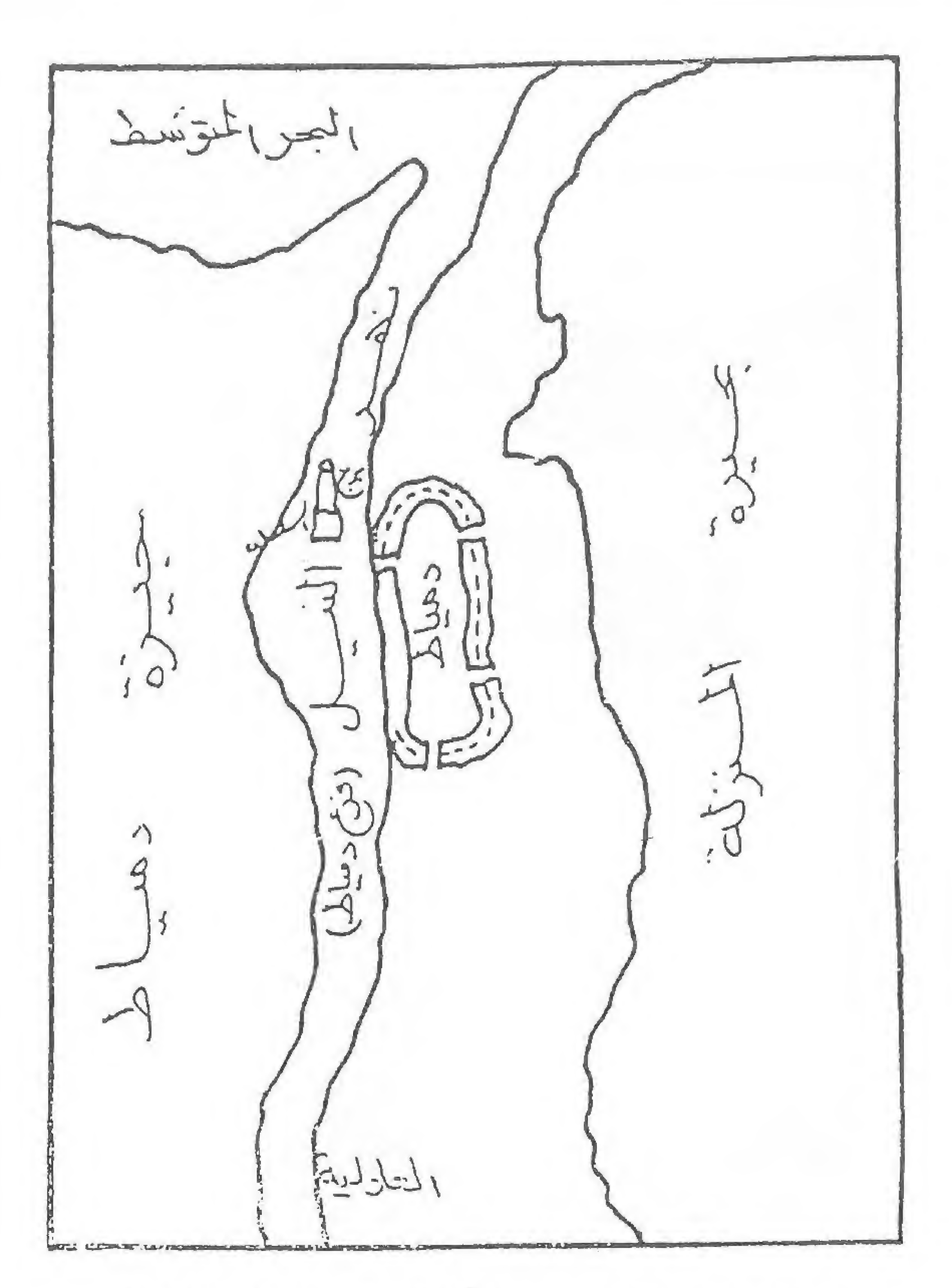
خريطة جنوب بلاد الشام



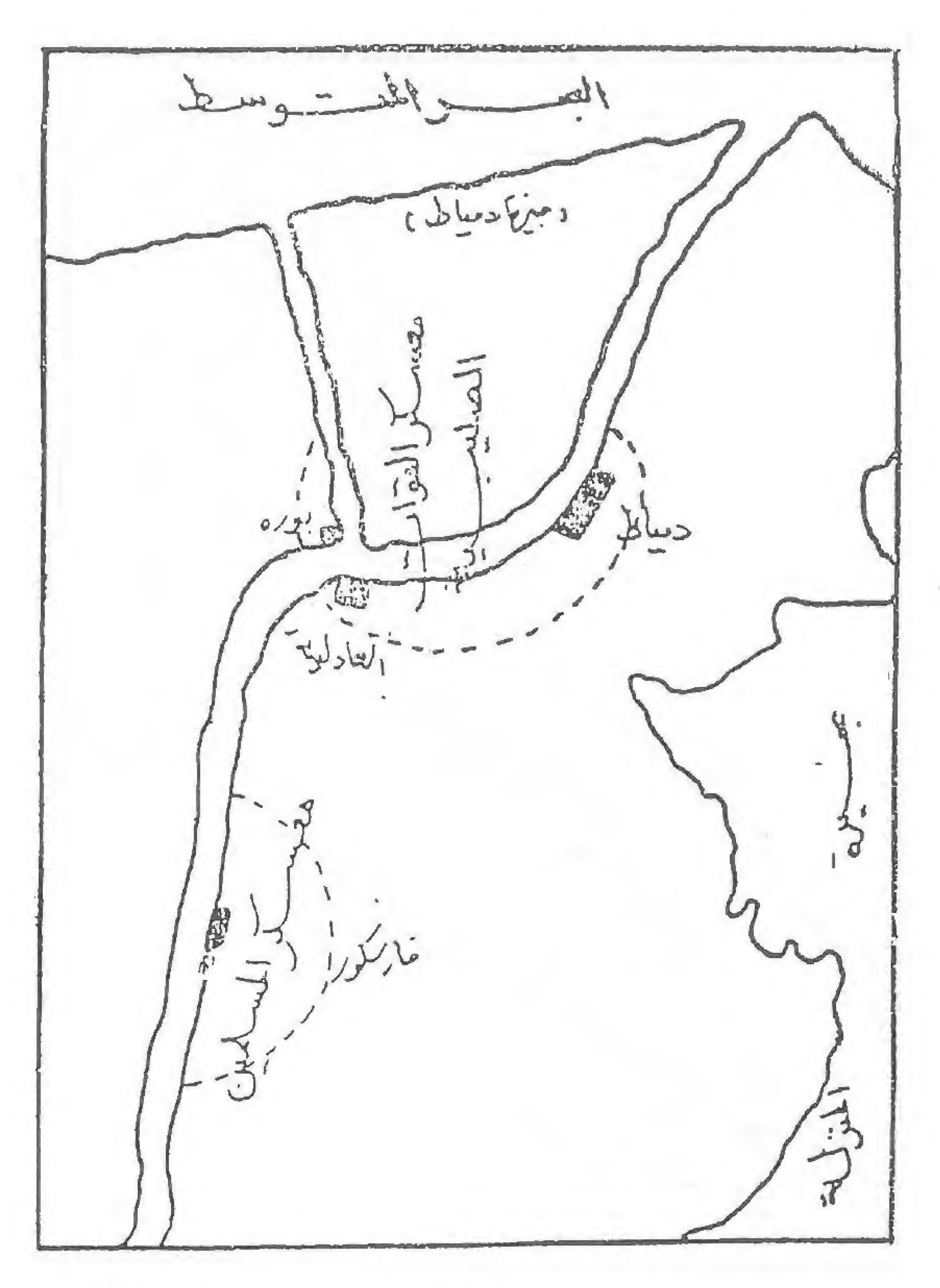
بلاد الشام عقب صلح الرملة ١١٩٢م / ٥٨٨هـ - نقلاً عن محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة



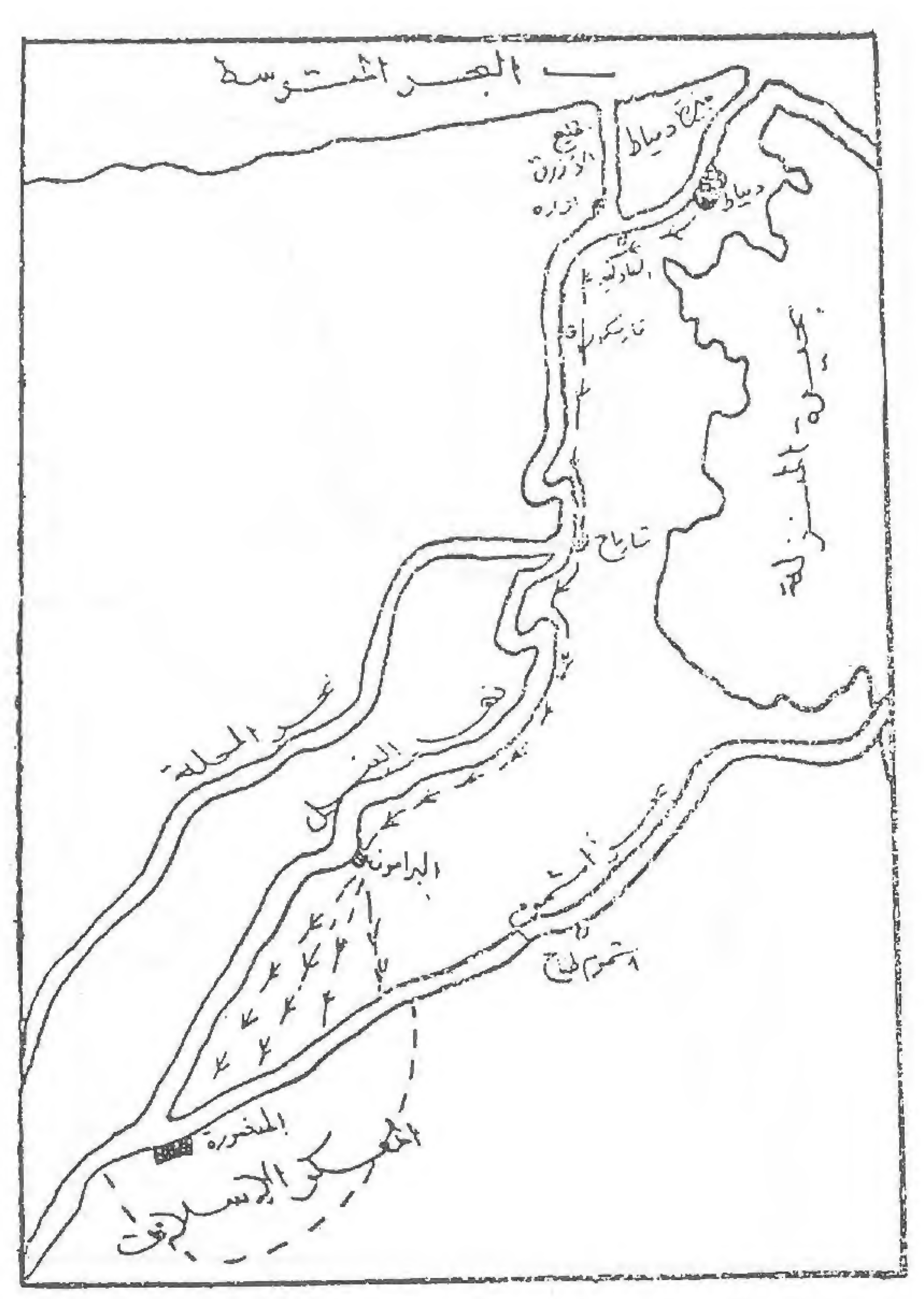
الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر الميلادي ـ نقلاً عن رنسيمان: الحروب الصليبية



دمياط القديمة زمن الحملة الصليبية الخامسة نقلاً عن محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة

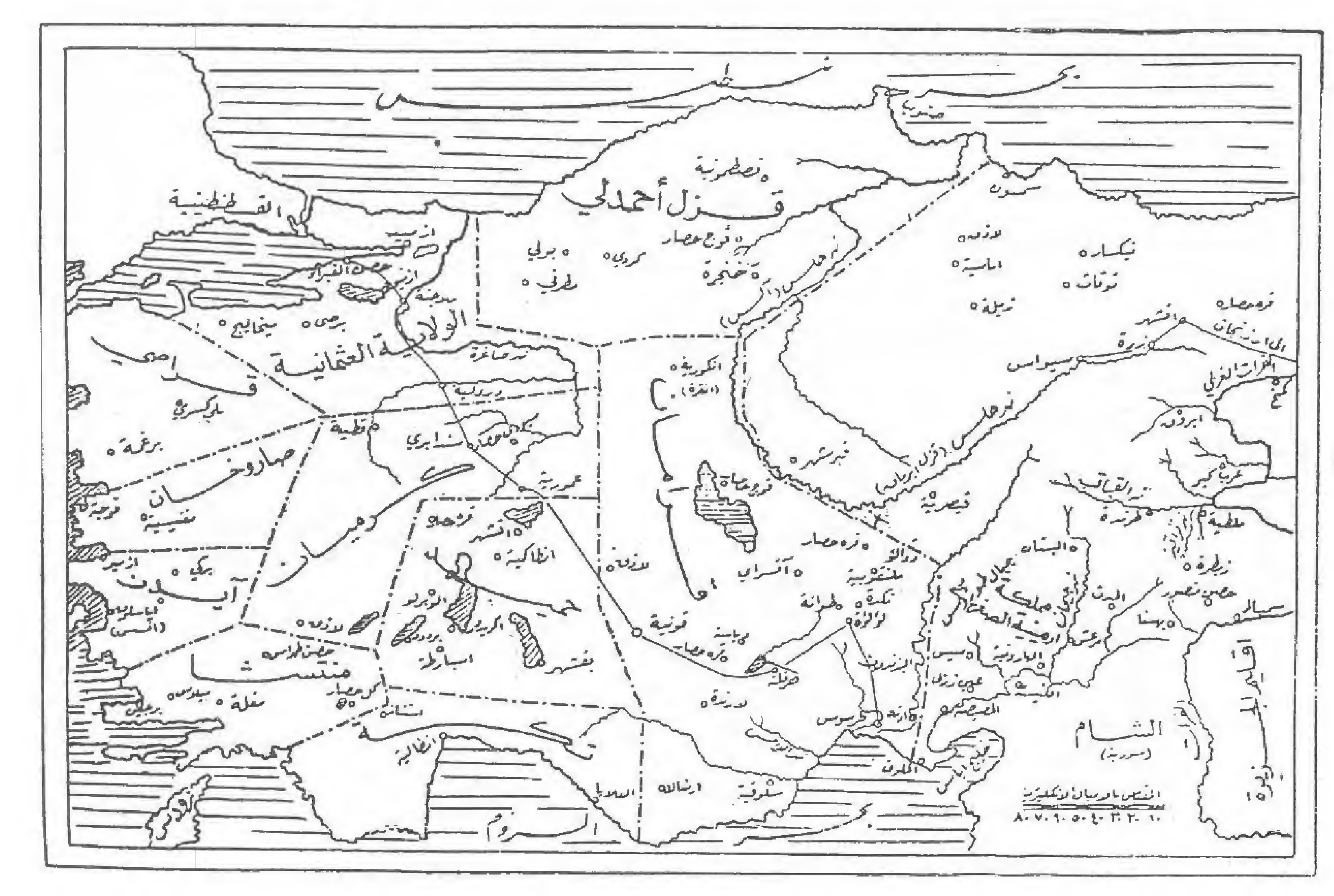


مواقع القوات الإسلامية والصليبية بعد ٥ فبراير ١٢١٩م/ ١٨ ذو القعدة ٦١٥هـ، نقلاً عن محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة.



خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة (إبتداء من ١٧ يوليو ١٢٢١م / ٢٥ جمادي الثاني ٦١٨هـ) نقلاً عن محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة

إقليما الجزيرة وأذربيجان، مع أقاليم الحدود الشمالية الغربية نقلاً عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية


بحر نيطس
القسطنطينية
قزل أحمدلي
الولاية العثمانية
قراصي
صاروخان
كرميان
آيدين
منتشا
قونية
سيواس
قيصرية
نهر هلس
الشام
(سورية)
اقاليم الجزيرة
بحر الروم
انطالية
نكسار
توقات
اماسية
برصى
كوتاهية
نيكده
ملطية
طرسوس
سمسون
كمخ
الفرات الغربي

كشاف

أولاً: كشاف الأعلام والأمم والشعوب والطوائف

(ض)

(ط)

(ظ)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

ثـانيـاً: كشـاف البلدان والمـدن والأماكن والبقاع

(ت)

(ث)

(ج)

ثالثاً: كشاف المصطلحات